العصور

مجلة علمية نصف سنوية ، محكمة ، تعنى بنشر البحوث التاريخية و الآثارية و الحضارية

المجلد الثاني عشر

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م

دار المريخ للنشر

تصدر عن : دار المريخ للنشر - لندن

العصور

مجلة علمية نصف سنوية، مُحَكّمة، تعنى بنشر البحوث التاريخيّة والآثاريّة والحضاريّة

المجلد الثاني عشر

الجـــزء الأول

ينـــاير ٢٠٠٢م

شـــوال ١٤٢٢هـ

تصدر عن : دار المريخ للنشر - لندن

١ - « العصور » مجلة نصف سنوية تتولى نشرها دار المريخ للنشر بالرياض وتصدر عن مكتبها بلندن .

٢ - تقدم البحوث والمقالات والترجمات مطبوعات على الآلة الكاتبة على مسافتين من أصل وصورتين على ورق مقاس ٢١ × ٢٩.٧ سم (A4) وعلى وجه واحد فقط ، ترقم جميع الصفحات شاملة الجداول والصور التوضيحية .

٣ - يراعى ألا يتجاوز عدد صفحات أي بحث أو مقال ٣٠ صفحة (أي في حدود ٧٠٠٠ كلمة) ، أما بالنسبة للكتب المحققة فيراعى ألا يتجاوز عدد صفحاتها ٥٠ صحة (أي في حدود ١٢.٠٠ كلمة) .

٤ - يرفق الباحث ملخصاً لبحثه في حدود ٢٠٠ كلمة (مائتي كلمة) تتصدر البحث باللغتين العربية ولأجنبية .

٥ - ترسم الخرائط والأشكال والرسوم البيانية بالحبر الصيني على ورق « كلك » حتى تكون صالحة للطباعة ، أما الصور الفوتوغرافية فيراعى أن تكون مطبوعة على ورق لماع ، وإذا كانت ملونة فلابد من تقديم الشريحة الأصلية .

٦ - يراعى وضع خطوط متعرجة تحت العناوين الجانبية ، وكذلك الألفاظ والعبارات التي يراد طبعها ببنط ثقيل ، كما توضع خطوط عادية أسفل عناوين الكتب والدوريات .

٧ - يراعى كتابة علامات الترقيم بعناية (النقطة ، علامة الاستفهام ، علامة التعجب ... الخ) في كتابة البحث وبصفة عامة يتبع أسلوب ال« MLA » في الكتابة .

٨ - الحواشي

تطبع الحواشي على الآلة الكاتبة وعلى مسافتين في صفحات مستقلة في نهاية البحث ولا تقبل قائمة للمراجع كل حاشية تمثل جملة مستقلة ولا تشمل على نقط بداخلها .

ويأخذ الترتيب العام للحاشية الشكل الآتي :

اسم (أسماء) المؤلف (ين) ، عنوان الفصل أو الجزء من الكتاب ، عنوان الكتاب ، أسم (أسماء) المحرر (ين) ، المترجم (ين) ، المعد (ين) ؟ رقم الطبعة المستخدمة ، رقم السلسلة عدد المجلدات ، مدينة النشر ، الناشر ، سنة النشر ، رقم المجلد ، وأرقام الصفحات ، ويتبع في الحواشي النظام الآتي :

البحوث

عبد المحسن مدعج ، علي بن الفضل ودعوته في اليمن (٢٦٨ - ٣٠٣ هـ) . « العصور » مجلد ٣ جزء ١ ، ١٩٨٨ م . ص ص ٨٣ - ١٠٦ .

الكتب

المقريزي . تقي الدين أحمد بن علي النقود القديمة والإسلامية ، تحقيق رأفت محمد النبراوي ، العصور ، المجلد الثالث ، الجزء الأول ١٩٨٨ م . ص ص ١٤٩ - ١٥٣ .

محمود محمد الروسان ، القبائل الثمودية والصفوية : دراسة مقارنة (الرياض : جامعة الملك السعود ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م) . ص ص ٢٥ - ٢٧ .

عاطف وصفي الثقافة والشخصية (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٧ م) . ص ٧ .

بعد الذكر الأول للحاشية مشتملة على جميع البيانات المرجعية يشار إليها بعد ذلك في الشكل المختصر وهو يشتمل على اسم العائلة للمؤلف يتبعه أرقام الصفحات المطلوب الاشارة إليها .

(١٧) نوصير ، ص ص ٢٧ - ٥٣ .

وفي حالة وجود عمل أو أكثر للمؤلف نفسه في المقال نفسه فإن الشكل المختصر للحاشية يشتمل بالضرورة على مختصر العنوان بعد اسم العائلة للمؤلف مباشرة .

(٢٨) نوصير . مدرسة جركسية ص ص ٢٧ - ٥٣ .

تأخذ الحواشي أرقاماً مسلسلة حتى نهاية البحث دون استخدام نجوم أو أية رموز أخرى وتطبع في المتن في موضع أعلى قليلاً من السطر بعد علامات الترقيم .

في حالة الكتب التي تفتقر إلى بيانات النشر ، يشار إلى أحدها أو أكثر من الاختصارات الآتية :

د . م . = بدون تاريخ النشر ، د . ص = بدون اسم ناشر . د . ت = بدون تاريخ النشر ، د . ص = بدون أرقام صفحات .

٩ - أصول البحوث والمقالات وترتيبها داخل العدد لاعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الكاتب .

١١ - لما كانت المجلة تصدر نصف سنوية بصفة دورية ، وتوزع في موعد محدد فإن ذلك يتطلب ضرورة جمع موضوعاتها وتنسيقها وإخراجها وطباعتها في وقت يسبق موعد التوزيع بفترة كافية .

١٢ - لا تقبل المجلة نشر البحوث أو المقالات أو الترجمات التي سبق نشرها . كما لا يجوز إعادة النشر في مجلات علمية أخرى بعد إقرار نشرها في هذه المجلة إلا بعد الحصول على إذن كتابي من رئاسة تحرير المجلة .

١٣ - تقبل البحوث المكتوبة باللغتين العربية والانجليزية .

١٤ - تأمل رئاسة التحرير من السادة الأساتذة الباحثين والكتاب الذين يرغبون في نشر بحوثهم ومقالاتهم في الاعداد القادمة من المجلة أن يلتزموا بالقواعد هذه . لأن هذا يساعد رئاسة تحرير المجلة على أداء عملها كما يساهم في خدمة أهداف المجلة وستعتذر عن قبول أي مقالة أو بحث لا يلتزم مؤلفها بتلك التعليمات .

١٥ - يقوم المؤلفون بمراجعة تجارب الطبع الأخيرة بمطابقتها على الأصول ، مع مراعاة عدم إجراء أي تغييرات فيها تختلف عما ورد في الأصول ، سواء بالإضافة أو الحذف ، على أن تعاد تجربة الطبع خلال ٤٨ ساعة فيما او رأت رئاسة التحرير غير ذلك .

١٦ - تمنح إدارة المجلة لمؤلف كل بحث أو مقالة نسخة مجانية من المجلد الذي نشر به البحث أو المقال .

١٧ - توجه جميع المراسلات الخاصة بالمجلة إلى : دار المريخ للنشر - ص ب ١٠٧٢٠ ، الرياض ١١٤٤٣ المملكة العربية السعودية .

العصور

مجلة علمية ، مُحكّمة نصف سنوية ، تعنى بنشر البحوث التاريخيّة والآثاريّة والحضاريّة

المجلد الثاني عشر

الجزء الأول

يناير ٢٠٠٢م

شوال ١٤٢٢هـ

دار المريخ

تصدر عن : دار المريخ للنشر - لندن

بسم الله الرحمن الرحيم

* ما ينشر في هذه المجلة من مواد تعبر عن آراء أصحابها

المستشارون

تكون جميع المراسلات والاشتراكات لجميع دول العالم على العنوان التالي :

- دار المريخ للنشر – ص . ب ١٠٧٢٠ الرياض : ١١٤٤٣ – المملكة العربية السعودية
- دار المريخ للنشر – ٤ ش الفرات – مدينة المهندسين – جمهورية مصر العربية
- هاتف ٣٣٧٦٥٧٩ فاكس ٧٦٠٩٤٥٧
- الدار العربية للنشر والتوزيع – ٤٩ جولد هوك رود، لندن – W128QP المملكة المتحدة

الاشتراكات السنوية :

- المملكة العربية السعودية (١٠٠) ريال سعودي
- الدول العربية (٣٥) دولارا أمريكيا أو ما يعادلها.
- الدول الأوروبية (٤٠) دولارا أمريكيا .
- أمريكا وكندا (٤٥) دولارا أمريكيا .
- استراليا وجنوب شرق آسيا (٥٠) دولارا أمريكيا .

العصور، المجلد الثاني عشر ، الجزء الأول ، ١- ١٣٥ القسم العربي ، ١ - ٢١ القسم الإنجليزي (٢٠٠٢م)

المحتويات

القسم العربي

English Section

العصور، المجلد الثاني عشر، الجزء الأول، ٧– ٣٣ (٢٠٠٢م)

العصور الحجرية في وادي النيل

د. يوسف مختار الأمين

ملخص البحث:

يشتمل هذا البحث على استعراض لأهم الخصائص الحضارية لفترة ما قبل التاريخ في وادي النيل (مصر والسودان) من خلال تقييم المادة المنشورة من مختلف مصادرها المتنوعة.

ويبدأ البحث بعرض للتاريخ الجيولوجي لنهر النيل وأثر فيضاناته المتكررة على المناخ، وبالتالي على أنماط الاستيطان وموارد الاقتصاد المعيشي لمجتمعات ما قبل التاريخ في المنطقة. وبعد وصف المخلفات الأثرية من أدوار ما قبل التاريخ المتعاقبة، تُجرى مقارنة بين مناطق وادي النيل المختلفة بحثاً عن أوجه الشبه والاختلاف بين تلك الحضارات وأسبابها، وكذلك المؤثرات الحضارية الناتجة عن الهجرات والاتصال بين الصحراء والنيل. ويناقش البحث التطورات الحضارية التي حدثت في نهاية الفترة، وكيف أدت بدورها إلى ظهور المدنيات المركزية في المنطقة.

مقدمة:

تعارف علماء الآثار والتاريخ والجغرافيا على إطلاق مسمى وادي النيل على تلك ذاالأرض الواقعة على جانبي نهر النيل من الدلتا في الشمال حتى منطقة الخرطوم بأواسط السودان في الجنوب. ليس معروفاً تماماً الأسباب التي أدت إلى حصر وادي النيل في هذه المنطقة إلا أن الدراسات الآثارية والجغرافية المبكرة لها دور في ذلك، إضافة إلى أن فرعيّ نهر النيل الرئيسيين، النيل الأبيض والنيل الأزرق يلتقيان في الخرطوم ليكوّنا مجرى مائياً واحداً. تقسم مصر عادة إلى إقليمين هما: مصر العليا (الوجه القبلي)، ومصر السفلى (الوجه البحري). الأولى تمتد من الشلال الأول حتى الأطراف الجنوبية للدلتا حيث يجري نهر النيل شاقاً أرضاً صحراوية، مكوناً شريطاً ضيقاً من الأرض الزراعية، أما مصر السفلى فتشمل منطقة الدلتا حيث يتفرع النيل إلى عدة أفرع تصب في البحر المتوسط، وتكثر فيها البحيرات والمستنقعات. لقد كان لفيضانات النيل وطبيعة هذه المنطقة أثر واضح في إخفاء مواقع ما قبل التاريخ أو إتلافها، مما سبب مشكلة في معرفة تفاصيل تلك الفترة في هذه المنطقة. ومن جهة أخرى يقسم المؤرخون شمال السودان إلى قسمين، النوبة السفلى وتمتد من الشلال الأول إلى

الشلال الثاني والنوبة العليا وتمتد من الشلال الثاني حتى الخرطوم جنوباً[١]. ويطلق بعضهم على منطقة الخرطوم وأجزاء من شمال السودان مصطلح وادي النيل الأوسط[٢]. ومهما يكن من الأمر، فلا يوجد سبب مقنع يجعلنا نستثني المنطقة الممتدة من الخرطوم حتى جوبا في جنوب السودان، من وادي النيل.

لا يكتمل التعريف الجغرافي لوادي النيل دون الإشارة إلى أهمية ظاهرة الصحراء وتأثيرها، إذ أوضحت الدراسات الجيولوجية والمسوحات الآثارية أنها كانت مأهولة بالناس خلال معظم حقب ما قبل التاريخ، وأن المؤثرات الحضارية انتقلت إليها من شمال إفريقيا عبر الصحراء الغربية في فترات متقطعة. كما أن الأودية الرئيسة القريبة من الضفة الغربية للنيل ومناطق الأبيار والواحات أدت دوراً مهماً في التطور الثقافي في وادي النيل في فترة ما قبل التاريخ في المنطقة، وأن تأثيرها المباشر على تسلسل الأدوار الثقافية المتعاقبة فيه بصفة خاصة ثابت ومؤكد[٣]، أما الضفة الشرقية من النهر فتميزها الأودية الكثيرة المنحدرة من المرتفعات الشرقية. وقد ساعدت الأحوال المناخية والبيئية القديمة على تنقل الناس، ومن ثم المؤثرات الثقافية من مناطق البحر الأحمر وشرق المتوسط وهكذا. فالدراسات الآثارية الحديثة أوضحت أن وادي النيل لم يكن منعزلاً أو منغلقاً على نفسه في فترة ما قبل التاريخ، بل إنه شارك تأثراً وتأثيراً في تشكيل الثقافة الإنسانية القديمة في هذا الجزء من العالم. ونسبة لاتصال وادي النيل بالمناطق المجاورة يصبح من الضروري الإشارة من وقت لآخر إلى المكتشفات الآثارية المهمة في الصحراء بغرض المقارنة وإكمال الصورة.

نستمد معرفتنا بعصور ما قبل التاريخ في وادي النيل من تلك الأعمال الميدانية، التي بدأت بوتيرة بطيئة منذ السنوات الأولى للقرن الميلادي الحالي حيث أوضحت أعمال أمثال بوفير – لابيني بالقرب من القاهرة، وساندفورد وآركل في النوبة المصرية والنوبة السودانية وكاتون – طومسون في الفيوم وفينارد في كوم أمبو خلال الثلاثينيات، وجود آثار دالة على الاستيطان البشري في وادي النيل منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ، ثم تلتها حفريات أنطوني آركل في منطقة الخرطوم ومسوحاته الآثارية في كثير من أقاليم السودان[٤]. وعلى الرغم من أن هذه الأعمال أكدت وجود إنسان العصر

---

(١) Adams, W.Y., **Nubia Corridor to Africa.** (Allen Lane, 1977). pp. 20 - 24 .

(٢) Haland, R. **Problems** in the Mesolithic and Neoithic in the Central Nile Valley, Sudan. In, **Nubia Culture, Past and Present,** 1987, (ed) Tomas Hagg. Stockholm.pp. 48 - 74.

(٣) Wendorf, F. and Schild, R. 1980. **Prehistory of Eastern Sahara.** Academic Press. pp. 1 - 15

(٤) Arkell, A.J. 1975. **The Prehiotory of the Nile Valley**, Leiden.

الحجـري القديم في المنطقة إلا أن فترة ما قبل التاريخ عموماً لم تنل اهتمام العلماء في ذلـك الوقـت، إذ اكتسب وادي النيل أهميته التاريخية باكتشاف حضارة مصر الفرعونية، إحـدى أقدم وأثرى حضارات العالم القديم. وقـد قلّ من أهمية المنطقة في دراسات ما قـبل التاريخ ندرة المواقع المكتشفة في ذلك الوقت، حيث يعتقد أنها إما طمرتها فيضانات الـنيل، وإما أنها لم تكن موجودة أصلا مما جعـل بعضـهم يقـول إن وادي النيل كان متأخراً وراكداً، بل إنه ظل منطقة معزولة لم تسـاهم بشيء يذكر في تطور ثقافات ما قبل التاريخ في المنطقة(٥).

إن أهـم نقطـة تحـول في تاريخ العمل الآثـاري وزوال مثل هذه الأفكار هي حملة إنقاذ آثار النوبة (١٩٥٩ - ١٩٦٥م) عندما تقـرر بـناء السد العالي، فعملت في منطقة النوبة أكثر من أربعين بعثة أجنبية بعد النداء الـذي وجهته الأمم المتحدة وحكومتا مصر والسودان. ويرجع الفضل الأعظم في دراسة آثار ما قبل التاريخ للبعثة الأمريكية المتحدة بقيـادة فـريد وندورف وأعضاء آخرين من الأمـريكيين والبولـنديين والمصريين. وقد كشـفت المسوحات والتنقيبات التي قامت بها هـذه البعـثة مـع غيـرها من بعثات عن معـلومات مثيرة وجديدة عن الأدوار الثقافية في ما قبل التاريخ في المنطقة، إذ اتضح من الوهـلة الأولى خصوصـية المنطقة وثراء الحضـارات وتـنوّعها فيهـا، حيث يرتبط بعضـها بمـا هو معروف في شمال إفريقيا ويعرف بعضها الآخر لأول مرة. وقد لفتت الانتباه لمساهمة بلاد النوبة في التنوع الثقافي الذي عرفته منطقة شمال إفريقيا خلال الجزء الأخير من عصر البلايستوسين الجيولوجي، خلافاً لما كان يظن أنها تعاني ركوداً وعزلة ثقافيـة. وثقت البعثة الأمريكية المتحدة أكثر مـن عشـرين تقـليداً في صناعة الأدوات الحجرية المتميزة وُضعت في تسلسل زمني يمتد من الدور الأشولي وحتى نهاية العصر الحجـري الحديـث. لقد اتخذت أعمال هذه البعـثة طـابع الشـمولية بإجرائها الأبحاث الجيولوجيـة والبيـئية جنـباً إلى جنب مع التنقيب الأثري، إضافة إلى جمع المعلومات عن أنماط الاستيطان البشري القديم، والكثافة السـكانية وأنمـاط الاقتصاد المعيشي. وقد كـانت الوحـدة الأساسـية في تحليل المادة الأثـرية هـي أن كل مجموعة من الأدوات والمعثورات تربطها خصائص تقنية ونوعية عـبر فـترة زمنية محدودة، تمثل في رأي الباحثين مخلفات مادية لثقافة مجموعة بشرية معينة، ونتيجة ذلك أطلق العديد من الأسماء عـلى الصـناعات الحجرية التي تمثل هذه الـثقافات وهـي أحياناً من منطقة جغرافية محدودة جداً مما جعل احتمالات التجزئة غير الضرورية أمراً ممكناً(٦).

إن أهمية أعمال حملة إنقاذ آثار النوبة لا

---

(٥) Caton - Thompson, G. 1952. **Kharga Oasis in Prehistory.** Althone Press. pp. 57 - 58.

(٦) Wendorf, F. 1968. The Prehistory of Nubia. 2 vol. Introd. Wendorf. F. and Schild, R. 1976. **Prehistory of the Nile Valley**.p. 237.

تقتصر على النتائج العملية التي حققتها في المنطقة، بل إنها لفتت انتباه العلماء إلى أهمية المنطقة كلها في دراسات ما قبل التاريخ وبالفعل وفد إلى مصر والسودان العديد من البعثات الأجنبية لتجري أبحاثاً أكثر عملية ودقة في مناطق جديدة مختارة لمعالجة قضايا علمية معينة[٧]. أما البعثة الأمريكية فقد نقلت أعمالها إلى الصحراء المصرية ومنطقة الأبيار وعلى امتداد وادي النيل في جنوب مصر، وفي الفيوم، كذلك عمل فرع منها لفترة محدودة في دنقلا بشمال السودان وخشم القربة على نهر عطبرة (شكل١). واستمر عملها لأكثر من خمس وعشرين سنة تبحث في ثقافات العصور الحجرية وبخاصة المتأخرة منها التي تشكل أساساً موضوعياً لظهور الحضارة المصرية القديمة، وكانت حصيلة المنشورات من أعمالها نحو ستة عشر كتاباً وعشرات المقالات إضافة إلى عدد كبير من أبحاث رسائل الدكتوراه والماجستير. ومن جهة أخرى تجمع عدد من البعثات الأجنبية التي كثّفت أعمالها في منطقة الخرطوم وشرق السودان وشماله مما جعل وادي النيل اليوم يعد من أكثر أودية الأنهار في العالم حظاً في بحوث فترة ما قبل التاريخ، ما عدا ما قامت به بعثة واحدة نظّمها المعهد البريطاني في شرق إفريقيا ونشرت نتائجها في عام ١٩٨٢م[٨]. وهكذا فإن معلوماتنا عن هذه الفترة تظهر محدودة للغاية عن الجزء الجنوبي من السودان.

التاريخ الجيولوجي لنهر النيل والبيئة القديمة:

يمثل نهر النيل، أطول أنهار العالم، شريان الحياة وعصبها في مصر والسودان، ليس في الوقت الحاضر فقط، وإنما على امتداد تاريخ استيطان البشر على ضفتيه. فالنيل هو مصدر المياه الدائم للإنسان والحيوان. وفي انحداره من الهضبة الأثيوبية يجلب معه الطمي لتخصيب الأرض على ضفتيه مما جعلها صالحة للزراعة مصدر الاقتصاد المعيشي الأساسي للسكان منذ آلاف السنين وقد ربط بين الشمال والجنوب لأنه كان الوسيلة الوحيدة المتوفرة للنقل، وحوله تشكلت حياة الإنسان وقامت الفنون والأساطير ولا يستطيع المرء استيعاب التاريخ الحضاري للمنطقة دون النظر في مزايا نهر النيل وعطاياه. والإنسان عاش في وادي النيل منذ عشرات الآلاف من السنين قبل ظهور الحضارة المصرية القديمة.. فما هو تأثير نهر النيل على إنسان ما قبل التاريخ؟ ومتى شق النيل مجراه الحالي؟.

طرح علماء الآثار والجيولوجيا مثل هذه

(٧) محمد علي، عباس سيد أحمد، والأمين، يوسف مختار ١٩٩٢م، مشروع البطانة الأثري – شرق السودان في: **دراسات في الآثار**، (تحرير)، عبد الرحمن الطيب الأنصاري، الرياض، ص ص ٦٥-٩٩.

(٨) Mack, J. and Robertshaw, p. 1982. **Culture History in the Southern Sudan**. BIEA, Nairobi.

الأسئلة منذ وقت طويل، فقد شاهدوا المصاطب ذات المستويات المختلفة على ضفتي الوادي ووجدوا في طبقات بعضها الأدوات الحجرية من عصور مختلفة، كما شاهدوا ترسبات الأدوية التي تصب في النيل. لم تكن الملاحظات المبكرة هذه ذات شمولية أو طبيعة علمية محددة. ولكن ما حدث خلال حملة إنقاذ آثار النوبة وما بعدها أوضح الكثير من التاريخ الجيولوجي للنهر، فقد تمّ حفر العديد من المواقع وربطها بالتكوينات الجيولوجية كما درست مقاطع مختارة من الرسوبيات الطمّية ورسوبات الأودية وتمت مقارنتها لتحديد أعمارها ومدلولاتها المناخية. وعلى الرغم من صعوبة هذه المقارنات واحتمالات الخطأ فيها فقد نشرت أبحاث وافية حول تاريخ النهر والمناخ القديم، إذ كان أحد أهداف العمل الآثاري ربط الاستيطان البشري بأحوال البيئة وما تتيحه من موارد طبيعية صالحة للإنسان والحيوان. ويكفي هنا الإشارة إلى أهم هذه الدراسات مثل ما نشره داينزلن ١٩٦٨م، بتزر وهانسن ١٩٦٨م، رشدي سعيد ١٩٧٥م، بهي العيسوي ١٩٧٦م، وندورف وشيلد ١٩٧٦م، وفيرمش ١٩٨٧م(٩). إن أول نتيجة إيجابية لهذه الدراسات كانت توفر الإطار البيئي والطبيعي الذي يمكن للمرء أن ينظر من خلاله إلى تعاقب الأدوار الثقافية في فترة ما قبل التاريخ، ذلك أن تركيب البيئة والمناخ القديميين ساعد في تفسير بعض أوجه الشبه والاختلاف بين مجاميع الأدوات الحجرية من العصر الحجري القديم الأوسط على سبيل المثال(١٠).

تختلف هذه الدراسات حول قضية قدم النهر كمجرى مائي تتجمع مياهه من منابعه المعروفة اليوم في وسط وشرق إفريقيا، وكذلك حول تحديد التكوينات الطبيعية الدالّة على تطور النهر وتاريخ هذه التكوينات. فهناك رأي يقول إن النهر بدأ في حفر مجراه الحالي تقريباً منذ نحو ربع مليون سنة، كما تشير الرسوبيات الطمّية من أصل أثيوبي في تكوين دندرة، وإن النيل تقطع بعد ذلك ولم يأخذ مجراه مرة أخرى إلا بعد حلول العصر الحجري القديم الأوسط نحو ٦٠٠٠٠ ق.م. والرأي الآخر يقول إن النهر اتخذ أشكالاً متعددة، تأتيه المياه أحياناً من الأمطار المحلية إضافة إلى المنابع الأثيوبية بعد التاريخ المذكور مباشرة. وتتضارب الآراء كثيراً عندما يحاول العلماء الربط بين الفيضانات الكبيرة والأحوال المناخية المحلية، وعندما يبحثون في المصاطب، أو التكوينات الرسوبية العالية، التي تمتد أحياناً

(٩) لتفاصيل هذه الأعمال، انظر:
Paulissen, e. and Vermeerch, p. 1987. Earth, Man and Climate in the Egyption Nile Valley during the Pleistocene in: **Prehistory of Arid North Africa**, (ed) Close, A , pp. 29 - 67.

(١٠) Elamin, Yousif. M. 1981 Later **Pleistocne Cultual Adaptations in Sudanese Nubia**, BAR 114. pp. 37 - 53.

لمسافات على طول الوادي، فبعضهم يرى أنها تقابل فترات امتداد الجليد في المناطق الشمالية، أما عندما ينخفض مستوى مياه النهر لسنوات قد تطول أو تقصر فذلك يقابل الفترات الدافئة التي تقع ما بين كل عصر جليدي وآخر. ويرى بعضهم أن النيل كوّن هذه المصاطب عندما كان ضعيفاً بحيث لم يتمكن من إكمال جريانه حتى الدلتا وأن أولها تكون منذ أكثر من ٣٠٠٠٠ ق.م. ثم نحو ٢٠٠٠٠ ق.م. تمكن النهر من حفر مجراه مرة أخرى واستمر في جريانه حتى الدلتا. وبحلول العصر الحجري القديم المتأخر تكوّن ما يسمى بمصاطب الصحابة – دراو ومسمس واستمر ذلك حتى حوالي ١٠٠٠٠ ق.م. حيث زاد اندفاع النهر مرة أخرى بعد ذلك، وهي الفترة التي ظهرت فيها أقدم مستوطنات العصر الحجري الحديث في المنطقة. وفي دراسات جيولوجية / آثارية في منطقة وادي الكيانية جنوب مصر، أجريت لاحقاً اقترح الباحثون أن نموذج الفيضان الكبير الذي يعقبه انحسار واضح في مستوى النهر وانتشار الرمال ثم فيضان آخر كبير غير صحيح. بل يعتقدون بحدوث ارتفاع هائل لمستوى النهر تخللته انخفاضات بسيطة(١١).

ومهما يكن من أمر تفسير هذه الظواهر الطبيعية فلابد من الإشارة إلى ما هو متفق عليه حول المناخ القديم لأنه يمس طبيعة الاستيطان البشري على ضفتي النهر مباشرة، فخلال الفترة المبكرة من العصر الحجري القديم الأسفل والتي تمثلها الحضارة الأشولية شهدت المنطقة ثلاث فترات مطيرة وجدت أدلتها الجيومورفولوجية في منطقة الأبيار نحو ٣٠٠ كم غرب أبو سمبل وتتخللها فترتان جافتان يصعب تحديد مدتهما كما يصعب مقارنتهما بما وجد بالقرب من وادي النيل. وعلى الرغم من قلة الشواهد الدالّة على مناخ هذه الفترة فإن انتشار مواقع العصر الأشولي على ضفاف الأودية وأطراف الجبال بعيداً عن النهر وفي أجزاء من الصحراء الغربية مؤشر مقبول لجودة الأحوال المناخية مما مكّن الإنسان من العيش في تلك المناطق. وبحلول المرحلة الثقافية التالية في العصر الحجري القديم الأوسط تأسس نهر النيل جالباً مياهه من شرق ووسط أفريقيا، وأصبحت تتجمع التكوينات الطمّية عقب الفيضانات الرئيسة للنهر. وقد تمّ اكتشاف مواقع أثرية من هذه الفترة داخل طبقات الرسوبيات في منطقة وادي حلفا وفي أوساط مصر. ومن جهة أخرى تنتشر مواقع العصر الحديث أيضاً في أطراف الصحراء والأودية القريبة من النهر، ويبدو أن الناس كانوا يستغلون ظروف المناخ الرطب – الممطر وبيئة سهل السافنا. وهكذا فالناس

---

(١١) Wendorf, F. and Schild, R. 1989. **The Prehistory of Wadi Kubbaniya**, Vol. 2. SUM Press. pp. 89 - 100.

يستغلون منطقة النيل عندما تكون الظروف الطبيعية مواتية عند انخفاض منسوب النهر وتكون المياه متوفرة بالبرك والأودية القريبة منه، حيث يمكن صيد الأسماك ضمن موارد مائية أخرى ويلجأون إلى أطراف الصحراء في حالة هطول الأمطار وتحسن ظروف المناخ المحلي(١٢).

عندما ظهرت ثقافات العصر الحجري القديم الأعلى نحو ٣٠٠٠٠ ق.م بدأت مرحلة جفاف، شدتها تزداد بمرور الوقت، فالتكوينات الرسوبية تخلو من مترسبات الأودية الدالة على الأمطار المحلية إضافة إلىشواهد جيولوجية أخرى، ولم تتحسن الأحوال إلا في فترات قصيرة والأمر نفسه ينطبق على الصحراء المصرية، حيث بدأ الجفاف يعم بنهاية العصر الحجري القديم الأوسط، ولم تتحسن الأحوال المناخية فيها إلا في مرحلة الانتقال إلى مرحلة العصر الحجري الحديث. كما هي الحال في منطقة نبطة وبئر قصيبة في مصر(١٣). إن موجات الجفاف في نهاية العصر الحجري القديم الأعلى أدت بطبيعة الحال إلى هجرات بشرية نحو النيل، المورد المائي الدائم، مما كان له الأثر الواضح في التمازج الثقافي، بحلول مجموعات سكانية ذوات تقاليد ثقافية متنوعة في منطقة واحدة، لم تخل الفترة من التنافس المؤدي إلى الاقتتال على الموارد المحلية كما يدل على ذلك ما اكتشف في جبانات جبل الصحابة في النوبة السودانية إذ إن كثيراً من الأفراد ماتوا متأثرين بإصابات رؤوس أسهم حجرية(١٤).

في عصر الهولسين الجيولوجي عندما ازدهرت في المنطقة ثقافات العصر الحجري الحديث يجد المرء نمطاً جديداً لدورات المناخ في المنطقة. فبعد آخر فيضان كبير للنيل أدى إلى ترسيب تكوين عنيبة وانتهى نحو ٦٠٠٠ ق.م.، أصبحت الفيضانات النهرية سائدة على النمط السنوي المعروف اليوم تقريباً، ويلاحظ من توزيع مواقع العصر الحجري الحديث أنها تتركز على ضفاف النهر أو بالقرب من الأودية التي تصب فيه. وفي السودان يتسع مثل هذا التوزيع ليشمل سهل البطانية، الممتد نحو الشرق، وفي أواسط وغرب البلاد. وكما هو متوقع تتنوع وتتباين الأحوال البيئية من منطقة لأخرى وأصبح المناخ المحلي يؤدي دوراً مهماً في عمليات الاستيطان. وشهد عصر الهولسين فترتين مطيرتين رئيستين تتخللهما فترات جفاف يزيد أو يقل أثرهما من مكان لآخر. وكما تشير الأدلة الآثارية فإن الإنسان اتجه منذ أواخر العصر الحجري القديم نحو التركيز على استغلال بيئات تسمح

(١٢) Wendorf, F. and Schild, R. 1989. **Wadi Kubbaniya**, Vol. 2. p. 96.

(١٣) Wendorf, F. and Schild, R. 1976. **Prehistory of Nile Valley**. pp. 236 - 245.

(١٤) Wendorf, F. 1968. **The Prehistory ....** Vol. 2. pp. 954 - 982.

بالاستقرار في أمكنة معينة لفترات أطول وتدل المخلفات على الوفرة الطبيعية النسبية، واستمر الناس في هذا الاتجاه حتى تحقق لهم إنتاج القوت متمثلاً في الزراعة وتربية الحيوان وغيرها من نشاط في ما يطلق عليه العصر الحجري الحديث.

تعاقب الأدوار الثقافية في فترة ما قبل التاريخ:

استناداً إلى الإطار البيئي، السابق الذكر يمكننا الآن النظر في تسلسل أدوار فترة ما قبل التاريخ في المنطقة(١٥). وكعادة العاملين في هذا المجال فقد كانت الأدوات الحجرية وما يوجد معها من مواد أخرى، وهو الشيء القليل، تشكل المحور الأساسي للتصنيف الثقافي الذي يقومون به، وفي حالة وادي النيل يزداد الأمر صعوبة بالنسبة إلى الباحثين لأن مواقع ما قبل التاريخ، وبخاصة المبكرة منها، وجدت على السطح حيث تأثرت الأدوات بعوامل التعرية كما تلفت البقايا العضوية. ونتيجة ذلك أصبح تصنيف الأدوات، نوعاً وشكلاً، هو الأساس الذي بُنيت عليه التقسيمات الثقافية في المنطقة. وقد استخدم الباحثون وسائل التصنيف المجرّبة في أوروبا أو الشرق الأدنى، وقد تظهر بعض المشكلات عندما تكون المادة الأثرية متفردة ولا تتناسب مع التقسيم الثقافي أو الأنماط المعهودة في تلك المناطق. ومهما حدث من اختلاف في وجهات النظر فإنه من الممكن تقديم موجز لأهم المميزات الثقافية لهذه الفترة انطلاقاً من وصف التقاليد المتبعة في صناعة الأدوات الحجرية، فما يوجد في مكان واحد من أدوات وغيرها من معثورات، ويحمل صفات تقنية ونوعية مشتركة، ويكثر وجوده في مواقع أخرى في المنطقة نفسها، يطلق عليه عادة مصطلح "صناعة" وهي، كما أشرنا، تمثل البقايا المادية لثقافة مجموعة من الناس عاشت في فترة ما من فترات ما قبل التاريخ في رأي من قاموا بالعمل الميداني في بلاد النوبة على وجه التحديد.

العصر الحجري القديم:

يقسم هذا الدور الثقافي عادة إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي الأسفل، والأوسط والأعلى. وبالرغم من أن السجل الأثري في وادي النيل قد لا يطابق هذا التقسيم كما هو معروف في أوروبا أو غيرها إلا أن العاملين في آثار وادي النيل فضلوا استخدام هذه المصطلحات مع إبداء ملاحظاتهم عن التميز والتنوع في هذه المنطقة(١٦).

أ- العصر الحجري القديم الأسفل:

يعود تاريخ أقدم أدوات حجرية من صنع الإنسان وغيرها من شواهد على بواكير

(١٥) يعتمد استعراض تسلسل ثقافات ما قبل التاريخ في وادي النيل في هذا المقال على نتائج الأبحاث الميدانية الرئيسة والمهمة. وهناك بطبيعة الحال = أعمال أخرى كثيرة لم يشر إليها مباشرة نسبة لضيق الحيّز وطبيعة المقال نفسه.

(١٦) Wendorf, F. 1968. **The Prehistory of Nubia.** Vol. 1. pp. 3 - 18.

الـــثقافة إلى نحو مليونين وربع من السنين. وقــد وجــدت هــذه الشواهد محصورة في الأجــزاء الشــرقية والجــنوبية مــن القارة الإفريقية. وتقسم الصناعات الحجرية في هذا الــدور إلى جزءين، الأول يسمى الألدواني، ويشــتهر بــالأدوات الحصــوية الثقيلة التي شــذبت بطــريقة بدائية بسيطة، إضافة إلى شــظايا وكُسر الحجارة التي تبدو عليها آثار الاســتعمال دون تشــذيب يذكر. أما الثاني، وهــو الأحــدث عمــراً، فيُســمى الصناعة الأشولية، التي تميزها الفؤوس اليدوية جيدة التشذيب من على وجهي الأداة، وذات الرأس المدبــب، وهــي تصنع في أحجام وأشكال مختــلفة. فهــذه مع غيرها من أدوات تمثل تطــوراً ملحوظاً في تقنية أدوات تلك الفترة، كمــا تمكــن الإنســان في الوقت نفسه من اكتشــاف الــنار واســتغلال بيئته بصورة مناســبة. والأشــولية ظهرت لأول مرة في شرق إفريقيا نحومليون ونصف سنة مضت. وبالــنظر إلى موقــع مصــر والسودان في الجــزء الشــمالي مــن القــارة وفي ضوء المكتشفات آنفة الذكر وما وجد من شبيه لها فــي شرق المتوسط في حدود المليون سنة، فإنــه لمن المتوقع أن يكون الإنسان قد ارتاد منطقة وادي النيل في حوالي التاريخ نفسه، لأن هــذه المنطقة تمثل أحد المعابر الطبيعية للإنســان مــن إفريقيا إلى آسيا. ومما يجدر تقريــره ملاحظتان، الأولى هي أنه لم يعثر عــلى دليل قاطع لوجود أدواته من المرحلة المبكرة المسماة الألدوانية، وإنما وُجد العديد مــن المواقع الأشولية على طول وادي النيل وفي الصحراء المصرية، وكذلك في أجزاء من غرب السودان، وفي منطقة خشم القربة على نهر عطبرة بشرق السودان (شكل ١). والملاحظــة الثانية تتعلق بعدم تمكن العلماء مــن الحصول على تاريخ علمي مؤكد لأي مــن المواقــع الأشولية في وادي النيل، لذا فــإنهم قــدروا عمــرها بالمقارنات الشكلية لــلأدوات ومقارنــة الطبقات الرسوبية التي وجدت فيها. وصعوبة الحصول على تاريخ مؤكــد هــي الأمــر الغالب لأن معظم هذه المواقع كانت على السطح أو منقولة بواسطة العوامل الطبيعية من أمكنتها الأصلية.

وإذا كــانت المواقــع الأشولية في مصر موجــودة بكــثرة فــي الصحراء والواحات والأبيــار فإن القليل منها قد اكتشف بالقرب من نهر النيل، ومن ذلك مثلاً ما اكتشف في أوائــل هــذا القرن في العباسية وما وصفه ســاندفورد وآركــل من جنوب مصر وبلاد الــنوبة حيث حاولا رصد تسلسل الصناعات الأشــولية وربطهــا بالمصاطب القريبة من الــنيل. أمــا المسوحات الأثرية الحديثة فقد كشفت العديد من المواقع الأشولية في أواسط مصــر حيــث أمكــن ربطهــا بتاريخ نهر الــنيل[١٧]. وتنتشر الأشولية أيضاً في شمال السودان وبصفة خاصة في منطقة وادي حلفا حيــث أجريت المسوحات المكثفة. ومن هذه

(١٧) Wendorf, F. and Schild, R. 1976. **Prehistory of Nile Valley**. p. 235.

المواقع يجدر ذكر موقع أرقين ٨، وهو من المواقع ذات الدلالات المهمة حول الاستيطان المبكر، إذ كشفت فيه عن ثمانية أكوام تتوزع فوقهـا الأدوات، وعلى مساحة قدرها ٥٠٠ متر مربع تقريباً. وقد وجدت فيه كمية من الأحجـار المرصوفة في شكل دائري ربما تكـون بقايـا كوخ مما يُعد شاهداً على أن الموقع كان معسكراً لإقامة الصيادين في ذلك الوقت. ومن الأدوات الرئيسة وجدت الشظايا الكـبيرة والقواطـع والأقـراص والفؤوس اليدويـة ذوات الأشكال المتنوعة إضافة إلى أدوات أخـرى صغيرة الحجم مصنوعة من الشظايا. وفي النوبة السودانية، والمرتفعات بعيـداً عن ضفة النهر، وأمكن تصنيفها إلى عـدة أنـواع تشير إلى تطور تقني ونوعي اسـتغرق وقتاً طويلاً مما يوحي بأن المنطقة أصبحت مأهولة بالصيادين لفترة طويلة[١٨]. وقـد لاحـظ أنطونـي أركل من قبل، هذا الاسـتمرار فـي الاستيطان عندما نقب في موقـع خـور أبـو عنجة جنوب أم درمان بالقـرب من نهر النيل، حيث وصف تسلسلاً لطـبقات جيولوجيـة إحداهـا مكونـة من مترسبات فرع لنهر قديم يسبق النيل الحالي، وفيها تمّ الكشف عن كمية كبيرة من الأدوات الأشـولية تميـزها الفؤوس اليدوية المتعددة الأشـكال والأحجـام. وقد وجد أركل بعض السـمات التقنية المعروفة في أواسط القارة الإفريقية. وبما أن هذه الأمثلة تدل بوضوح عـلى وجـود الأشولي بوادي النيل إلا أن معلوماتنا عن هذه الفترة تبقى شحيحة للغاية مقارنة بالمناطق المجاورة.

العصر الحجري القديم الأوسط:

كشـفت التنقيـبات والمسوحات الآثارية، إبـان حمـلة إنقاذ آثار النوبة وما بعدها من أعمـال ميدانيـة عن الكثير من مواقع هذا الـدور الثقافي في كل من مصر والسودان، مما أتاح قدراً كبيراً من المعلومات أدي إلى مراجعة الآراء التي طرحها أمثال ساندفورد وآركـل عن تطور صناعات هذه الفترة في وادي الـنيل، وآراء كاتون – طومسون عما اكتشـفته فـي واحة الخارجة، حيث وجدت التقـنية الـلفالوازية المعـروفة في أوروبا وغرب آسيا، كما أن الأدوات أصبحت تصنع أكـثر فأكثر على الرقائق والشظايا وبدرجة عاليـة مـن التشذيب ونمطية واضحة، مما يوحـي بقـدرات ذهنية أكبر عند إنسان تلك الفـترة مكنـته مـن تشكيل أسلحته بصورة أفضـل، ومن ثم السيطرة على بيئته. ولكن هـناك الكـثير من المواقع في سفوح الجبال تحـوي الأدوات. وعـلى الرغم من وجود بعض الاختلافات بين ما وُجد في وادي النيل وفـي أوروبا أو آسيا من أدوات تنتمي إلى هذه الفترة فإن العلماء وجدوا ما يكفي لجعل وادي الـنيل ضـمن الدائرة الحضارية التي تشـمل حـوض المتوسـط وغـرب آسيا

(١٨) Wendorf, F. (ed.) 1968. a.. **The Prehistory of Nubia** Vol. 1. pp. 110 - 193.

وأوروبا[١٩]. ومن النتائج المهمة للدراسات الحديثة أيضاً أن هذه الصناعات، بالرغم من تنوّعها تمثل امتداداً طبيعياً للأشولية التي سبقتها. وبحلول هذه الفترة تمكن الإنسان من التكيّف مع البيئة النيلية التي أصبحت جزءاً من دورة الحياة والاقتصاد المعيشي، إذ إن بعض الصناعات مثل صناعة خور موسى بالقرب من وادي حلفا، وجدت في مواقع قريبة من النهر، وكشف فيها عن مخلفات عظمية تشير إلى أن الناس استفادوا من سهل السافنا حيث تتوفر الحيوانات الكبيرة مثلما استفادوا من الأسماك وغيرها من الموارد المائية في الوقت نفسه[٢٠]. وهناك من الصناعات من الفترة نفسها ما يقتصر وجوده على أطراف الصحراء والهضاب القريبة من النيل. ومن جهة أخرى، أوضحت هذه الدراسات أن ثقافة العصر الحجري القديم الأوسط بتقنياتها المختلفة استمرت في وادي النيل لفترة طويلة بعد أن اختفت من أمكنة كثيرة في الشرق الأدنى. وكما سيأتي ذكره فإننا نجدها أحياناً جنباً إلى جنب مع تقنيات العصر الحجري القديم الأعلى وأنها تستمر في شكل معدّل حتى نهاية هذا الدور الثقافي من فترة ما قبل التاريخ.

توجد أكثر مواقع هذه الفترة في أواسط مصر وجنوبها والنوبة السودانية، إضافة إلى الصحراء المصرية، ويعرف القليل عنها في بقية شمال السودان حيث تم الكشف عن عدد محدود منها في منطقة دنقلا[٢١]. وقد لوحظ انتشار مثل أدوات هذه الفترة على السطح في كثير من بقاع السودان، إذا وجدت بعض الأدوات اللفالوازية في جنوب النيل الأزرق. ولكن السمة العامة هي قلة المعلومات عن هذه الصناعات في أواسط السودان لأنه لم تجر الأبحاث الميدانية الكافية بعد، ولا توجد تواريخ عملية مؤكدة لمعظم مواقع العصر الحجري القديم الأوسط، بل تؤرخ على أساس مقارنة الأدوات ومقارنة الظواهر الجيومورفلوجية المرتبطة بها. وقد أمكن الحصول على تواريخ كربون ١٤ لمواقع صناعة خور موسى التي تعد الآن ضمن صناعات هذه الفترة، فاتضح أنها تعود إلى فترة أقدم من ٣٥٠٠٠ ق.م. ومن الأمثلة الجديرة بالذكر من هذه الصناعات ما اكتشف مؤخراً في أواسط مصر في منطقتي أبيدوس وسوهاج، حيث تم الكشف عن بعض المواقع التي كانت متصلة بنظام نهر النيل، ووجدت الأدوات والمخلفات الأخرى في أمكنتها الأصلية، ولا تختلف هذه المجاميع الحجرية عن مثيلاتها في المنطقة، إذ تظهر فيها بوضوح التقنية اللفالوازية. وتنتشر مواقع هذه الفترة أيضاً في النوبة حتى الشلال

(١٩) Marks, A.E. 1968. **The Mousterian Industries of Nubia**. In Wendorf, F. (ed) **The *Prehistory*** ... pp. 149 - 314.

(٢٠) Marks, A.E. The Khormusan Industry. In the Prehistory .... pp. 315 - 391.

(٢١) ElAmin, Yousif. M. 1981, **Pleistocene Cultural Adaptations**... pp. 101 - 118.

الـــثاني كما وجدت مجموعة منها في وادي الكبانية إلى الغرب من أبي سمبل[٢٢].

وفي النوبة السودانية كُشف عن عدد من الصـــناعات الحجرية ذات السمات الخاصة بهـــذه المنطقة، أطلق عليها صناعة العصر الحجري القديم الأوسط النوبية، ولوحظ، فيها تقـــنية ذات صـــبغة محلية تتمثل في تشكيل بعـــض أنواع النوى غير المعروفة من قبل كما وجدت فيها أنواع من الأدوات المعروفة مـــن الفترة نفسها في شرق إفريقيا ووسطها، مما يشير إلى احتمالات الاتصال الثقافي مع داخـــل القـــارة. إن أهم ما هو معروف في الـــنوبة الســـودانية هو ما يسمى بالصناعات الموســـتيرية النوبية، التي أخذت اسمها من الموســـتيرية الأوروبية. وتشير نتائج حملة إنقاذ آثار النوبة إلى نوعين أساسيين من هذه الصناعة، أولهما الموستيري النوبي، وثانيهما الموســـتيري ذو الأدوات المسننة، وهذا اسم مســـتعار أيضاً من المصطلحات الأوروبية. لقد بُنيت هذه التقسيمات على أساس التصنيف الـــنوعي والتقني على نحو ما تم في دراسة الصـــناعات الموستيرية في أوروبا والشرق الأوسط.

والمـــادة الأثرية النوبية وجدت كلها فوق الســـطح فـــي الجبال القريبة من النهر، ولا يـــتعدى عدد المواقع التي تمت دراستها أحد عشـــر موقعاً. وقسم الموستيري النوبي إلى نوعيـــن (أ، ب) على أساس وجود أو غياب الفـــؤوس اليدويـــة فـــي كل منهما، وتشمل المجموعـــة (أ) ســـتة مواقـــع بينما تشتمل المجموعة (ب) على ثلاثة مواقع فقط. تتميز الأدوات فـــي المجموعـــة (أ) بكثرة الأنواع الموســـتيرية المعـــروفة مـــثل المكاشـــط والمســـننات والسكاكين، ولكنها تختلف عن مـــثيلاتها فـــي أوروبـــا بغيـــاب الـــرؤوس الـــلفالوازية المعـــروفة. أما الموستيري ذو الأدوات المســـننة فإنـــه يســـتخدم التقـــنية الـــلفالوازية كالموستيري النوبي إلا أن نسبة الأدوات المسننة فيه عالية جداً. لقد كان من المعـــتقد أن هـــذه الصناعات تمثل مخلفات لمجموعات بشرية ذوات تقاليد ثقافية مختلفة وهو التفسير نفسه الذي قدم من قبل في حالة الصـــناعات الموســـتيرية في جنوب غرب فرنســـا[٢٣]. وفـــي دراســـة مفصلة لاحقة، تخطت التصنيف الشكلي للأدوات إلى اعتماد عناصـــر أخرى دقيقة، أمكن الحصول على تقســـيم مغايـــر لهذه المادة، واقتراح نموذج تحليلي يرجع ظاهرتي الشبه والاختلاف، إلى تنوّع في مستويات التكيّف البيئي، واختلاف في وظائف المواقع نفسها وما وجد فيها من معثورات[٢٤].

(٢٢) Wendorf, F. and Schild, R.1989. **Prehistory ...** p., 251.

(٢٣) Marks, A.E. 1968 The Mousterian Industries of Nubia in Wendrof, F. **The Prehistory**....Vol. 1. pp. 194 - 314.

(٢٤) Elamin, Yousif. M. 1981. **Pleistocene Cultural Adaptations** .... pp. 184 - 185.

ينسب اليوم إلى هذا الدور الثقافي نفسه ما يعرف بصناعة خور موسى التي عرّفها أول مـرة أنطونـي ماركس عندما درس المادة الأثـرية من سبعة مواقع بالقرب من وادي حـلفا. وقد وصفها في البداية بأنها صناعة متميزة تـأتي بعد العصر الحجري القديم الأوسـط، وذلك اعتماداً على تفسير خاطئ لأمكـنة بعـض المواقع في التسلسل الطبقي لترسـبات النيل، ولأخطاء علمية في تحديد تواريـخ كـربون ١٤ التي أمكن الحصول عـليها فـي ذلـك الوقت. إن صناعة خور موسـى تعـتمد عـلى تشكيل الأدوات على الشـظايا أساسـاً، وتميزها ثلاثة أنواع فإن صـناعة خـور موسى تشبه، إلى حد كبير، صـناعات العصر الحجري القديم الأوسط. ولقـد وجـدت مواقعها على أطراف السهل الفيضـي، مما مكّن أصحابها من التمتع بما توفـره البيـئة النيـلية والصحراوية في آن واحد[٢٥].

لقـد تمـت مراجعة تاريخ صناعة خور موسـى، وأصبحت الآن تؤرخ إلى أكثر من ٤٠٠٠٠ ق.م. كمـا أعيدت دراسة الأدوات الحجرية على أسس جديدة فاتضح أنها تمثل وجهـا آخـر مـن وجوه صناعات العصر الحجري القديم الأوسط. وهي عموماً صناعة محصـورة فـي منطقة وادي حلفا وأقصى نقطـة شـمالية لهـا هي وادي الكبانية في جنوب مصر[٢٦].

وأوضحت دراسة أخرى أن صناعة خور موسـى معاصـرة للموستيري النوبي وأن الاثنين معاً يعودان للمجموعة البشرية نفسها التي عاشت في منطقة وادي حلفا في الفترة ما بين ٦٠٠٠٠ و ٣٠٠٠٠ ق.م. تقريباً. إن الاخـتلاف فـي أمكـنة وجود المواقع وفي محـتوياتها يرجع أساساً إلى تنوع في البيئة من تغير في المناخ وتغير في منسوب النهر مثلما يرجع الاختلاف في أشكال الأدوات إلى الاخـتلاف فـي استراتيجيات التكيّف البيئي والوظائف، المتمثل في التنقل الموسمي بين السـهل الفيضي (مواقع خور موسى) وبين سـهل السـافنا (مواقع الموستيري النوبي). وهكذا فإن وادي النيل شهد في فترة العصر الحجري القديم الأوسط عدداً من الصناعات الحجـرية ذوات تقاليد تقنية متنوعة بعضها متزامن وبعضها الآخر متعاقب زمنياً. وكلها تمـثل مؤشـراً على التطور الثقافي في هذه الفترة على الرغم من صعوبة تحديد تفاصيله الدقيقة[٢٧].

ج- العصر الحجري القديم الأعلى:

شـهدت هـذه الفـترة في الشرق الأدني وأوروبـا، ضـمن مناطق أخرى من العالم

(٢٥) Marks, A. C. 1968. The Khormusan Industry. In Wendorf, F. **The Prehistory ...** vol. 1. pp. 315 - 391.

(٢٦) Wendorf, F. and Schild, 1976. **Prehistory of the Nile Valley**. P. 236 - 239.

(٢٧) ElAmin, Yousif, M. 1981. **Op. Cit.** pp. 195 - 202.

القديم، تحولات ثقافية مهمة مسّت كل أوجه حياة الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، مما جعل الباحثين يعتبرونها، والجزء المتأخر منها بصفة خاصة، فترة تهيئة حقيقية للنقلة الحضارية الكبرى التي حدثت في حياة الإنسان عندما تمكن من إنشاء القرى الزراعية الدائمة، ثم تأسيس المدنيات القديمة ذوات النظم السياسية والاجتماعية المعقدة بعد ذلك. فالمكتشفات الآثارية في مواقع العصر الحجري القديم الأعلى تدل على ثراء في المخلفات المادية كالأدوات الحجرية والعظمية والفنون المختلفة كالرسوم الجدارية الملّونة والنقش والنحت وتشكيل أدوات الزينة، كذلك تمكن الإنسان من ارتياد مناطق جديدة واستغلال ما فيها من موارد بطريقة سمحت له بتوفير كميات من الغذاء الطبيعي يكفي الأعداد المتزايدة نسبياً من البشر، التي تشير إليها أعداد المواقع الأثرية وأحجامها. وهناك ما يدل أيضاً على انطلاقة كبرى في الجوانب الفكرية والروحية لدى الإنسان. وقد كانت منطقة الشرق الأدنى أحد المراكز المبكرة التي ظهرت فيها هذه الخصائص الثقافية؛ بل إنها أول ما ظهرت كانت بمنطقة فلسطين في نحو ٤٢٠٠٠ ق.م. إن أول سمات التغيّر نجدها في الطريقة التي تشكل بها الأدوات الحجرية، إذ تمكن الإنسان من التخلي تدريجياً عن النواة اللفالوازية التي شكل منها الشظايا وحولها إلى نواة شبة هرمية ذات قاعدة طريق واحدة يكسر منها النصال الطويلة والرفيعة ذات الأبعاد المتسقة بدلاً من الشظايا السابقة. إضافة إلى ذلك استفاد الإنسان من مادتي العظم والعاج وصنع منهما الأدوات الرفيعة للصيد أو القطع الفنية. وتعددت أنواع الأدوات والأسلحة وأشكالها بدرجة لم يسبق لها مثيل، وقد تزامن ذلك مع انتشار النوع البشري المعروف بالإنسان العاقل الحديث (Homo sapien sapien). ومن المناطق المبكرة التي حدث فيها هذا التحوّل شرق أوروبا، فشمال إفريقيا، ثم غرب أوروبا في حدود ٣٥٠٠٠ ق.م.

لم يكن وادي النيل بطبيعة الحال بعيداً عن مجريات هذه التطورات، فقد ساهم بقدر كبير في إثراء التجربة الإنسانية في ذلك الوقت، ومن المعروف اليوم أن تقنية العصر الحجري القديم الأعلى ظهرت في أوساط مصر نحو ٣٠٠٠٠ ق.م. مما يجعلها في مصاف مناطق أوروبا الغربية والشمال الإفريقي؛ ليس هذا فحسب فالأدوات من مواقع منطقة سوهاج ذوات أشكال رفيعة ومتطورة ولم يجد الباحثون حتى الآن دليلاً واضحاً على أنها تطورت محلياً بل يبدو أن ظهور تقنية صناعة النصال كان مفاجئاً مما يشير إلى احتمال وصول بعض المؤثرات الخارجية من شرق المتوسط، بل إن هناك من المواقع ما وجد فيها مزيج من التقنية اللفالوازية القديمة وتقنية النوى الهرمية

لإنتاج النصال والشفرات الدقيقة. ومن السمات الواضحة لهذه الفترة، هي أن الاستيطان أصبح محصوراً تقريباً في السهل الفيضي في مصر وخصوصاً في السهول الكبيرة مثل كوم أمبو ودشنا، أو عند مداخل الأودية إلى النهر. أما في شمال السودان فتتركز المواقع على السهل الفيضي من شمال السودان ما زالت تنتظر المسح الأثري المكيف، إلا أن قلة عدد المواقع من هذه الفترة أمر لافت للنظر، ولم تكتشف حتى الآن في أواسط السودان صناعة صنلية سوى ما كان في خشم القربة على نهر عطبرة وهذه مؤرخة بنحو ١٠٠٠٠ ق.م أي نهاية العصر الحجري القديم الأعلى[٢٨].

ينسب لهذه الفترة عدد كبير من الصناعات الحجرية ذوات التقاليد التقنية المتنوّعة، فقد وصف العاملون في هذه المنطقة، الممتدة من سوهاج وحتى الشلال الثاني أكثر من عشرين تقليداً في صناعة الأدوات، أعطوها أسماء محلية ليشيروا بها إلى خصوصية كل مجموعة من المعثورات التي تم جمعها من عدد من المواقع المجاورة والمتحدة في الخصائص الجيومورفولوجية والثقافية. وتستمر هذه الصناعات حتى نهاية العصر الحجري القديم الأعلى في حوالي الألف السابع قبل الميلاد. إن أول ما يلاحظ في هذه الصناعات هو الثنائية المتمثلة في استخدام تقنيتين مختلفتين لإنتاج الأدوات، فالأولى لعمل النصال والشفرات الرفيعة وأدوات العصر الحجري القديم الأعلى المعروفة مثل الأزاميل والمكاشط الطرفية والمثاقب ... إلخ. وهذه الصناعات تتركز في المنطقة الممتدة من أواسط مصر حتى وادي حلفا. والثانية تلك الصناعات التي احتفظت بالتقنية اللفالوازية أو عدلت من شكلها بمرور الوقت وإنما التركيز يبقى على إنتاج الأدوات وتشكيلها على الشظايا دون النصال.

وفي النوبة السودانية بمنطقة الشلال الثاني عرفت صناعة الحلفا كنموذج وحيد للصناعات النصلية، ولكنها في الوقت نفسه احتفظت بالتقنية اللفالوازية ولو بطريقة معتدلة، مما يشير بوضوح إلى تقنية صناعة النصال وصلت إلى النوبة السودانية متأخرة نسبياً وذلك نحو ١٥٠٠٠ ق.م. كما أنها وفدت من جهة الشمال حيث لم يوجد لها مثيل جنوب وادي حلفا[٢٩].

أما الصناعات الأخرى في منطقة النوبة فقد اتجهت إلى تشكيل الأدوات القزمية ذوات الأشكال الهندسية، مثل المثلثات والأهلة، إضافة إلى أدوات أخرى كالمكاشط والشظايا المشحوذة. ويلاحظ أنه بنهاية هذه الفترة

---

(٢٨) ElAmin, Yousif. M. 1987. the Later Palaeolithic in Sudan. In: **Nubian Culture: Past and Present.** Pp. 40 - 41.

(٢٩) Wendorf, F. and Schild, 1976. **Prehistory ...** p. 236.

انحسر عدد المواقع الأثرية في النوبة السودانية خصوصاً في الفترة بعد ١٠٠٠٠ ق.م وحتى ظهور المواقع التي تحتوي على عنصر الفخار ضمن مواد أخرى. لقد أوضح الدليل الجيولوجي في هذه الفترة فيضانات النهر المتكررة والقوية التي ربما أثرت سلباً في البيئة النيلية المعتادة مما جعل المنطقة أقل قابلية للاستيطان المستمر، ونتيجة ذلك هاجرت مجموعات من السكان إلى مناطق أخرى. وعندما ظهرت في المنطقة ثقافات العصر الحجري الحديث حدث تحول سريع، يتمثل في إنتاج الغذاء وصناعة الفخار، وتغيير كمي ونوعي في الأدوات الحجرية، من حيث التركيز على تشكيل الأدوات القزمية ولقت الاهتمام بالتشذيب تدريجياً. وليس واضحاً تماماً ما إذا كان هذا التحول انتقالاً محلياً أم أنه نتيجة لمؤثرات خارجية ربما توجد بعض المؤشرات الدالة عليها.

وفي مصر العليا نجد أن مجتمعات العصر الحجري القديم الأعلى ومنذ حوالي ١٨٠٠٠ ق.م. تمكنت من التكيف على استخدام الموارد المحلية بصورة جيدة فاستغلت الحبوب البرية وجذوع النباتات، كما تشير إليه أدوات الطحن الحجرية ونتائج الفحص المجهري الذي أجري على الشفرات والنصال، ففي بعض مواقع وادي الكبانية والمؤرخة للفترة نفسها تم العثور على بقايا الحبوب البرية المحروقة. وقد أمكن تجديد نحو عشرين نوعاً من النباتات التي استفيد منها في الغذاء. وأكثرها من الأنواع الدرنية المتوافرة في المنطقة كان قد تم استغلالها بطريقة مكثفة مما شجع نموها السريع، إضافة إلى صيد الحيوانات البرية والأسماك. وقد تمكن السكان من إدارة هذه الموارد لتكفيهم جزءاً كبيراً من السنة. وعلى الرغم من قدرتهم على مثل هذا التحكم في الموارد الطبيعية إلا أنهم لم يتمكنوا من الانتقال إلى مرحلة ممارسة الزراعة مباشرة.

وبنهاية العصر الحجري القديم تركز الاستيطان البشري بصورة واضحة على ضفاف النهر بسبب الجفاف الذي عمّ الصحراء المجاورة آنذاك[٣٠].

العصر الحجري الحديث:

تسمى هذه الفترة من التاريخ البشري "مرحلة إنتاج القوت" إشارة إلى تمكن الإنسان من الانتقال من اقتصاد معيشي يعتمد على الصيد والجمع والالتقاط وحياة التنقل المستمر إلى اقتصاد معيشي عماده الزراعة وتربية الحيوان. ويعتقد بأن توفير الغذاء وضمانه على مدار السنة ساعد الإنسان بمرور الوقت على الاستقرار النهائي فشيّد القرى والمستوطنات، التي سرعان ما تحولت إلى بلدات كبيرة نتيجة النمو السكاني

(٣٠) Wendorf, F. and Schild, R. 1989. **Wadi Kubbaniya ...** p. 95.

السريع الذي ساعد فيه إنتاج الغذاء. وقد توفرت للإنسان أيضاً في هذه الفترة أسباب حياة جديدة فيها أنماط متقدمة من أشكال الفنون ونظم الحياة الاجتماعية والفكرية، حيث بدأت تظهر الفروق الاجتماعية بين الأفراد، كما تأثرت المجتمعات بعضها ببعض نتيجة لتبادل المواد والسلع بطريقة لم تعرف من قبل، بالإضافة إلى نمط الاقتصاد المعيشي الجديد هناك مظاهر حضارية جديدة منها صقل الأدوات الحجرية وتشكيل الأنواع المطلوبة لصيد الأسماك وجني النباتات البرية أو المدجنة. كذلك تمكن الإنسان من صناعة الفخار فشكّل الأواني المتنوعة ولا تخفى أهمية الأواني في حياة الإنسان من حيث تجهيز الطعام وحفظه، كما أنها تستخدم في حفظ الألبان والأسماك. لم تظهر هذه السمات الحضارية كلها في وقت واحد، أو في مكان آخر، إلا أن هناك مناطق في العالم القديم لها قصب السبق. فقد حققت بعض مراكز الشرق الأدنى بعض هذه الإنجازات الحضارية أو كلها بنحو الألف الثامن قبل الميلاد وفي الوقت نفسه تقريباً تمت صناعة الفخار قبل تحقيق الزراعة أو تربية الحيوان في كل من أواسط السودان والصحراء الإفريقية. أما في وادي النيل في مصر وشمال السودان فلم تظهر ثقافات العصر الحجري الحديث إلا في الفترة ما بين الألف السابع والألف الخامس ق.م.

نسبة لظهور الفخار مبكراً في أواسط السودان وبالذات في موقع الخرطوم القديمة سنبدأ به وصف ثقافات تلك الفترة. يعد هذا الموقع أحد أهم المواقع التي نقب فيها أنطوني آركل في الأربعينيات، وأصبحت النتائج التي تحصل عليها مرجعاً لدراسات العصر الحجري الحديث في المنطقة لوقت طويل. وصف آركل الموقع بأنه عبارة عن مستوطنة شبه دائمة، كبيرة الحجم، أقيمت على ضفاف النهر القديم حيث اعتمد السكان على صيد الحيوانات البرية وصيد الأسماك وغيرها من برمائيات إضافة إلى جمع الحبوب البرية. وقد شكّلوا أدواتهم القزمية المتنوعة التي تغلب فيها الأهلة والمكاشط وغيرها من الأدوات ذات الأشكال الهندسية. ومن أدواتهم أيضاً أحجار الجرش وطحن الحبوب والصنانير (الخطاطيف) العظمية ذات الأسنان من جانب واحد وثقب في أحد طرفيها. ويتصل بأدوات صيد الأسماك الأحجار المستخدمة في رمي شباك الصيد في المياه العميقة مما يوحي بتقنية متطورة في ممارسة هذا النشاط. لقد تمكن سكان الخرطوم القديمة من صنع نوع من الفخار الصلب غير المصقول، تزينه خطوط متصلة مموجة وأخرى منقطعة مموّجة أو متعرجة (شكل ٢). ودفن سكان الخرطوم موتاهم داخل المستوطنة واضعين الميت في شكل قرفصائي داخل الحفرة. ولم يتمكن الناس في ذلك الوقت من استئناس الحيوان أو ممارسة

الـزراعة[٣١]. وإن لـم يكن ممكناً الحصول علـى تاريخ علمي مؤكد لحضارة الخرطوم القديمـة عـندما حفر الموقع، إلا أن مواقع أخـرى شـبيهة بهـا حفرت فيما بعد أمكن تأريخهـا للألـف الثامن قبل الميلاد. ومن اللافـت للنظر أن فخار الخرطوم بزخارفه المعروفة وُجد في أمكنة بعيدة في الصحراء الإفريقية حتى النيجر، وفي الصحراء الليبية وفي شرق إفريقيا. ويتفق معظم الباحثين في آثار هذه الفترة على أن الفخار اكتشف لأول مـرة في منقطة الخرطوم القديمة ثم انتشر بعـد ذلـك بوسائل مختلفة في تلك المناطق الواسعة[٣٢].

يكتمل تطور ثقافة الخرطوم القديمة حسب رأي آركل في الموقع المهم الثاني الذي نقب فيه وهو موقع الشهينات الذي يوجد نحو ٥٠ كـم للشـمال مـن الخـرطوم وهو الموقع الـنموذجي لثقافات العصر الحجري الحديث لمـنطقة الخـرطوم. يعتبر الموقع مستوطنة كـبيرة نسبياً على ضفة نهر النيل الغربية. اعـتمد السـكان فـي غذائهـم على صيد الحيوانـات البرية والأسماك، وقد تمكنوا من الاسـتفادة مـن الأغـنام والماعز والأبقار المستأنسـة، لكنه لم يوجد دليل مباشر على ممارسـة الـزراعة لديهـم سوى الأدوات الحجرية مثل المجارش. وقد صنعوا أدواتهم مـن حجـر الكوارتـز والرايولايت وكانت معظمها من النوع القزمي كالأهلة واشتهرت بالمظفـار (الفأس) الحجري. أما الفخار فقد أصبح مصقولاً وجيّداً ويتكون من عدة أشكال ذوات زخـارف من نوع الخطوط المحززة المتوازية، أو المتعرجة المتصلة أو المتقطعة أو الشـبكية. ومـن مصـنوعاتهم الصنانير العظميـة المسـننة مـن جانبين (شكل ٢). انتشرت هذه الخصائص الثقافية في كثير من أنحـاء السودان وقد نسب تاريخها إلى بداية الألـف الرابع قبل الميلاد. ويعتقد آركل بأن الشـهيناب كـانت تطـوراً طبيعياً من ثقافة الخـرطوم القديمـة واستشهد بما وجده في موقـع القـوز جـنوب الخرطوم من تعاقب طبقي لمخلفات كلتا الثقافتين[٣٣]. أصبح هذا الـرأي سـائداً لوقت طويل على الرغم من بعـض الشـكوك الـتي أثيرت حول كيفية الانـتقال إلى ثقافـة الشهيناب بخصائصها المكتمـلة وحـول مـا حدث لها بعد الألف الأخير قبل التاريخ[٣٤].

ومهمـا يكن من أمر هذا التطور الثقافي فـإن ربع القرن الأخير شهد تطوراً ملموساً فـي دراسـات العصر الحجري الحديث في وادي الـنيل الأوسـط، حيث تم التنقيب في العديـد مـن المواقـع المهمة، إما من نوع الخرطوم القديمة وإما الشهيناب، أو تلك التي

(٣١) Arkell, A. J. 1949. **Early Khartoum.**

(٣٢) Haland, R. 1992, Fish, Post and Grain. In: **The African Arch. Review**, 10. pp. 43 - 64.

(٣٣) Arkell, A.J. 1975. **The Prehistory .... p. 23.**

(٣٤) Mohamed - Ali, Abbas, 1987. The Neolithic of Central Sudan: **Prehistory of Arid North Afric.** *pp. 123 - 136.*

تعكس تسلسلاً حضارياً طويلاً، مما وفر لنا معلومات مهمة حول تطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية للإنسان. فمن المواقع المهمة في ثقافة الخرطوم القديمة في منطقة الخرطوم نفسها، تذكر السقاي والسروراب وأم مرحّي وثلاثة أخرى وجدت على ضفة النيل بالقرب من عطبرة. وقد أوضحت الأبحاث المكثفة في هذه المواقع أنها كانت قرى كبيرة الحجم نسبياً عاش فيها الناس بصفة دائمة أو شبه دائمة على الرغم من أنهم لم يشيّدوا بيوتاً ذوات خصائص معمارية، وإنما شيّدوا الأكواخ المصنوعة من أعواد الخشب والجلود، واعتمدوا في غذائهم على الصيد المكثف للأسماك والحيوانات الأخرى. ويبدو أنهم برعوا في صيد الأسماك كما تدل عليه عظام الأنواع التي تعيش في المياه العميقة والأدوات الحجرية المفيدة في مثل هذا النشاط وأضافوا لذلك لحوم الحيوانات البرية الكبيرة وحبوب النباتات والثمار الطبيعي. كما عرفت هذه المجتمعات صناعة الفخار الذي يعتبر مكملاً لأدوات الإنتاج في مثل هذا الاقتصاد المعيشي. فباكتشاف الصنارة العظمية أصبح تكثيف صيد الأسماك أمراً ممكناً. وبتوفر الحبوب البرية وتقنية معالجتها أصبح للإنسان مصدر مأمون للغذاء مما أدى بدوره إلى زيادة ملحوظة في أعداد الناس في منطقة الخرطوم، الشيء الذي تدل عليه كمية المواقع الكبيرة كما ساعد في زيادة السكان درجة الاستقرار النسبي. ويعتقد بعضهم أن هذه الممارسات كانت شرطاً أو مدخلاً لظهور الزراعة الشيء الذي حدث فعلاً في حضارة الشهيناب(٣٥).

ولقد وجدت مواقع ثقافة الشهيناب بأعداد كبرى في وادي النيل الأوسط، فبالقرب من الخرطوم وجدت مواقع الجيلي والزكياب والكدرو، وغيرها. وتم الكشف فيها عن الخصائص المعروفة نفسها في الموقع النموذجي، وقد اعتمد سكانها على الصيد البري والمائي وحققوا نمط الاقتصاد المعيشي المعروف في الشرق الأدنى في هذه الفترة، الذي يتمثل في تربية الحيوان وزراعة أنواع محلية من الحبوب (كالذرة) وتشمل أدواتهم الصنانير العظمية والأدوات الحجرية المصقولة، إضافة إلى الأنواع المعهودة، ومن الحيوانات الأغنام والأبقار والماعز، وقد تحقق ذلك في الفترة ما بين ٤٠٠٠ و ٣٠٠٠ قبل الميلاد، ويعتقد بعض الباحثين أن فكرة استئناس الحيوان لم تكن إنجازاً محلياً، بل يرى أنها وفدت إلى وادي النيل من الصحراء عندما ازدادت موجات الجفاف في حوالي أربعة آلاف قبل الميلاد ويُعتقد أيضاً أن دخول الحيوان في دورة الاقتصاد المعيشي في وادي النيل أدى بمرور الوقت إلى تغيير في أنماط الاستيطان، إذ أصبحت تقام المعسكرات الصغيرة لتتماشى مع حياة التنقل مع قطعان

(٣٥) Haland, R. 1992. **Op. Cit**, pp. 47 - 50.

المواشـــي، هـــذا مع استمرار بعض المواقع الكـــبيرة شـــبه الدائمـــة. لقد تم الكشف عن كميـــات كـــبيرة من عظام الأبقار والأغنام والماعز في طبقات المواقع الصغيرة دون أن يوجـــد دليل على استغلال موارد المياه مثل الأســـماك، وبمرور الوقت تحولت قطاعات مـــن سكان المنطقة إلى الرعي المتخصص والاعتماد على منتجات الحيوانات أكثر فأكثر مـــثل الألـــبان والدم. وكان الرعي قد عُرف كطريقة للحياة في الصحراء منذ نحو ٤٠٠٠ ق.م. حيـــث اكتســـب أهمية اقتصادية كبيرة وربما انتقلت هذه الممارسة إلى وادي النيل، حيث يلاحظ ارتفاع ملحوظ في أعداد مواقع الرعي المؤقتة على حساب مواقع الاستيطان الدائم أو شبه الدائم(٣٦).

لـــم تكـــن مواقـــع الخـــرطوم القديمة أو الشـــهيناب محصورة في منطقة وادي النيل الأوســـط، وإنمـــا اكتشـــفت أيضاً في النيل الأبيض وفي سهل البطانة وشرق السودان، ولعـــل أجـــدر المواقع بالذكر في هذا المقام موقـــع كهف شق الدود، الذي يقع على بعد حوالـــي ٥٠ كـــم للشرق من الخرطوم، فقد كشـــفت الأبحـــاث مؤخراً عن أطول تسلسل ثقافي لفترة العصر الحجري الحديث في كل وادي الـــنيل وجد في مكان واحد. يبلغ عمق طبقات الرديم أما الكهف فحوالي ٣,٥ متر، تحـــتوي أقدم طبقة فيها على مواد أثرية من نوع منتصف الألف السادس ومنتصف الألف الخـــامس ق. م. وكان اقتصاد الناس حينئذ يقـــوم على الصيد والجمع. أما الطبقة العليا فتحتوي على مواد شبيهة بمواد الشهيناب مع وجود فخار محلي غير معروف على ضفاف النيل. وتشير الأدلة الأثرية إلى أن الناس لم يتمكـــنوا مـــن اســـتئناس الحيوان كما فعل معاصروهم في منطقة الخرطوم. أما طبقات الـــرديم داخل الكهف فقد كشف فيها تسلسل لأنواع الفخار مثل الأسود الرقيق المصقول والمزخـــرف بخطـــوط متصلة. إلى جانب أنواع أخرى غير مصقولة، ولم تظهر صلة واضحة بين محتويات هذه الطبقات مع تلك الواقعـــة خارج الكهف. وفي الطبقات العليا مـــن الكهف تم العثور على أنواع من الفخار الذي يحمل زخارف تظهر في المنطقة لأول مـــرة، كمـــا وجدت عظام بعض الحيوانات المستأنسة مثل الأبقار والكلاب، لكنه لم يعثر عـــلى ما يدل على معرفة بتربية الأغنام أو الماعز(٣٧).

أما في شمال السودان فقد تم العثور على العديـــد من مواقع العصر الحجري الحديث، فـــي أمكنة متفرقة، أكثرها غير مؤرخ، ولم توجـــد مواد عضوية يمكن أن تدل على نوع الحياة فيها. إن أهم مجموعة من هذه المواقع

(٣٦) Haland, R. 1992, **Ibid.** p. 55.

(٣٧) محمـــد عـــلي، عـــباس ســـيد أحمـــد، والأميـــن، يوسف مختار، ١٩٩٢م، مشروع البطانة الأثري، ص ٧٦ – ٨٠.

وجدت في منطقة الشلال الثاني. حيث عرفت مواقع كثيرة تعود لفترات مختلفة من العصر الحجري الحديث، ذوات خصائص متنوّعة. وقد تم تصنيف المادة الأثرية فيها في عدة مجموعات، تسمى الواحدة منها صناعة وأقدمها الشَمَرْكي الذي وجدت مواقعه بالقرب من وادي حلفا ويؤرخ إلى ٤٥٠٠ – ٤٠٠٠ ق.م. تقريبا. وتحوي المواقع المذكورة قليلاً من الفخار. وبالرغم من نسبته للعصر الحجري الحديث إلا أنه لم تكتشف فيه دليلاً يشير إلى أن أصحاب الشمركي مارسوا الزراعة أو تربية الحيوان. ومن المجموعات التي مارست إنتاج القوت المجموعة التي تمثلها صناعة عبكة في المنطقة نفسها، وقد صنع أصحابها الفخار واستطاعوا تلوين بعضه إما باللوان الأحمر وإما البني، كما وجدت بعض كسر الفخار شبيهة بفخار الشهيناب. وقد تم الكشف أيضاً في المنطقة نفسها على صناعة أخرى أطلق عليها اسم "الشهيناب المحلية" وذلك لوجود فخار الشهيناب النموذجي فيها. وتشير الأدلة الأثرية عموماً إلى أن هذه المواقع لا تشكل في الواقع تجمعات سكنية كبيرة كما لا يعرف تحديداً كيف أفضت إلى ما يعرف بحضارة المجموعة (أ) في النوبة السفلى وهي حضارة تقابل ما يعرف في مصر بما قبل الأسرات[٣٨].

عند الحديث عن تطور ثقافات العصر الحجري الحديث في مصر، يجدر بالمرء إبداء بعض الملاحظات العامة، لأن المعلومات عنها لم تتجمع كاملة حتى الآن ولأن معظم الأعمال الميدانية تم إجراؤها مؤخراً، كما أن مواقع هذه الفترة المكتشفة في منطقة الدلتا وأجزاء من أواسط مصر قليلة جداً، وما يتوفر من معلومات عنها حتى الآن يفيد بأن مجتمعات العصر الحجري القديم الأعلى المتأخر في مصر العليا وأطراف الصحراء ازدهرت نتيجة للأحوال البيئية الجيّدة وأن بعضها تمكن من استغلال الحبوب البرية بطريقة مكثفة كما ذكر أعلاه، ولكن هذه المجتمعات لم تتمكن رغم هذه المحاولات المبكرة من تحقيق إنتاج القوت متمثلاً في الزراعة إلا في تاريخ متأخر نسبياً مقارنة بشرق المتوسط، وذلك نحو ٦٠٠٠ ق.م. ولم تعرف المعادن إلا في حدود ٤٠٠٠ ق.م. ومن الملاحظ في هذه الفترة تحقيق الاتصال بين مصر ومناطق شرق البحر المتوسط، إذ يبدو أن مصر تلقت الكثير من المؤثرات الحضارية في بداية العصر الحجري الحديث، مثل دخول بعض الحيوانات المستأنسة أو الحبوب المدجّنة كالقمح والشعير، ومن ثم فإن بعض سمات هذه الفترة الثقافية وفدت إلى مصر من الخارج كما الحال في حضارة الفيوم[٣٩].

---

(٣٨) Trigger, B. G. 1982. The Rise of Civilization in Egypt. In. **The Cambridge History of Africa**, vol. 1. pp. 490 - 496.

(٣٩) Trigger, B. C. 1982. The Rise of Civilization in Egypt. In. **The Cambridge History of Africa**, vol. 1. pp. 494 - 499.

ويلاحظ أنه وبعد أن تحققت مرحلة إنتاج القوت فقد ظل الاقتصاد المعيشي يعتمد جزئياً على استغلال الموارد البرية من نبات وحيوان. وبالرغم من هذه الملاحظة فقد توفرت أدلة أثرية جديدة اليوم تشير إلى أن عملية إنتاج القوت حدثت في وقت مبكر، وفي أقصى الجنوب المصري خاصة. فعلى بعد حوالي مائة كم للغرب من أبي سمبل تمّ الحصول على تواريخ كربون ١٤ من عدد من مواقع العصر الحجري الحديث المبكر تراوح ما بين ٦٨٥٠ و ٦٥٥٠ ق.م. وقد اكتشفت فيها حبوب متفحمة تمثل أكثر من أربعين نوعاً من النبات، منها الذرة والدخن والبقوليات والجوز وغيرها من الأنواع الدرنية. ويعتقد أن هذا دليل كاف على أن الغذاء النباتي طوّر محلياً في هذه المنطقة بمعزل عن تجارب تدجين القمح والشعير في بلاد الشام. وفي أحد هذه المواقع كشف عن أرشئات أكواخ وحفر لتخزين الحبوب ومواقد النار. وفي موقع آخر وجدت بقايا بيوت بيضاوية الشكل أو دائرية وبداخلها الحفر وبقايا مواقد النار، وتشير قرائن الأدلة إلى وجود مجتمعات شبه مستقرة تمكنت من إنتاج غذائي متنوع بما فيه الحبوب التي تم تدجينها محلياً[٤٠].

أما في بقية مصر فقد وصف الباحثون عدداً من الثقافات، بعضها معروف في منطقة الدلتا وبعضها الآخر معروف في وسط مصر وجنوبها ، لكنهم يجدون صعوبة في تحديد تسلسلها الزمني، وذلك لقلة تواريخ كربون ١٤ ولعدم توفر المواقع الكبيرة ذات الطبقات السكنية العميقة. وهكذا نجدهم يعتمدون على المقارنة بين مخلفات هذه الثقافات وبخاصة الفخار.

يأتي في مقدمة هذه الثقافات ما يسمى بحضارة الفيوم في وسط مصر، وتؤرخ أقدم مراحلها، وهي الفيوم (أ)، إلى الفترة ما بين ٥٢٠٠ و ٤٠٠٠ ق.م. وجدت مواقع هذه الثقافة على شواطئ بحيرة قديمة في منخفض الفيوم حيث شيّد السكان بيوتاً عبارة عن أكواخ من القصب، كما بنوا المخازن تحت الأرض في المناطق المرتفعة، التي وجدت فيها بقايا القمح والشعير والحنطة التي تمت زراعتها في المنطقة. وقد مارس السكان أيضاً تربية الحيوان مثل الأغنام والماعز، وأكملوا احتياجاتهم بصيد الحيوانات البرية، مثل الأفيال والتماسيح وفرس البحر، إضافة إلى صيد الأسماك. وقد صنعوا أسلحة متطورة كالرؤوس والسهام العظمية والخطاطيف. أما الأدوات الحجرية فتشمل المناجل والأدوات ورقية الشكل والفؤوس والرؤوس المدببة وغيرها من الأدوات المصقولة. كذلك صنعوا السلال ليغطوا بها حفر التخزين. أما فخار الفيوم (أ) فيختلف عن فخار الخرطوم القديمة الذي يسبقه زمناً.

(٤٠) Wendorf. F. et. al, 1992. Saharan exploitations of plants 8000 BP. Nature, Vol. 359. pp. 721 - 724.

فهو مصنوع من الصلصال الخشن، ويشتمل على أنواع من الأواني المصقولة مختلفة الأشكال ذات القواعد المسطحة أو الدائرية، ويعكس هذا الفخار تقنية متطورة يعتقد أنها جاءت لمصر من الخارج، ربما من فلسطين ويدعم هذا الرأي كما يقول آركل وجود معثورات أخرى مثل الرؤوس الحجرية المجوفة والفؤوس المصقولة (شكل ٣). ويرى آخرون أن الفروق النوعية والتقنية بين المخلفات التي تعود إلى نهاية العصر الحجري القديم الأعلى في منطقة الفيوم وبين مخلفات الفيوم (أ) كبيرة جداً، مما يجعل احتمال التطور المحلي أمراً غير ممكن، هذا بالإضافة إلى أن إنتاج القوت، متمثلاً في الزراعة واستئناس الأغنام والماعز، لم يكن هو الآخر اكتشافاً محلياً[٤١].

إن عدم وجود مبان معمارية في الفيوم (أ) يعطي انطباعاً بعدم اكتمال خاصية الاستيطان الدائم، هذا بالرغم من وجود المطامير لحفظ الحبوب مع غيرها من شواهد أخرى. أما أول دليل على حياة الاستيطان القروية الكاملة في وادي النيل فإنه يأتي من موقع مرمدة بني سلامة في غرب الدلتا. وهو موقع كبير يغطي مساحة قدرها حوالي ١٨,٠٠٠ متر مربع. وفيه رديم طبقات سكنية يبلغ سمكها نحو المترين. يؤرخ الموقع للفترة ما بين ٥٢٠٠ و٣٥٠٠ ق.م. وأن فخار مرمدة وأدواتها الحجرية تشبهان إلى حد ما ما وجد في الفيوم (أ) ولكن نماذج الفخار تحمل زخارف أكثر إتقاناً وجودة في الصناعة. بدأ الاستيطان في الطبقات الحضارية الدنيا في القرية بتشييد الأكواخ المتفرقة، ثم ازدادت الكثافة السكانية في الطبقات العليا، حيث أصبحت الأكواخ مبنية الجدران لارتفاع مناسب فوق سطح الأرض. وتبدو هذه الوحدات المعمارية صغيرة الحجم ربما تكفي الواحدة منها شخصاً واحداً، وتُرى موضوعة في شكل مجموعات، يتصل بهذه المساكن مخازن الحبوب، وهي إما جراراً وإما سلالاً مدفونة تحت الأرض. وقد دفن سكان مرمدة موتاهم داخل المستوطنة التي قدر عدد سكانها بالآلاف[٤٢].

ومن المستوطنات المهمة في هذه الفترة أيضاً، مستوطنات العمري وهي عبارة عن مجموعات مواقع ومقابر وجدت بين القاهرة وحلوان، وقد عمرت المستوطنة لفترة طويلة تدل عليها المباني والمعثورات الكثيرة قدر تاريخها لحوالي ٤٢٠٠ – ٤٠٠٠ ق.م.

أما إلى الجنوب من الدلتا وأواسط مصر فقد وصف الباحثون عدداً من حضارات هذه الفترة تمثلها أعداد من المواقع التي تم التنقيب فيها في أوقات مختلفة، ويطلق عليها مصطلح حضارات ما قبل الأسرات. ومن هذه الحضارات البداري، ونقادة الأولى ونقادة الثانية. لقد تمكن أصحاب هذه

(٤١) Trigger, B. G. 1982. The Rise of Civilization p. 494.

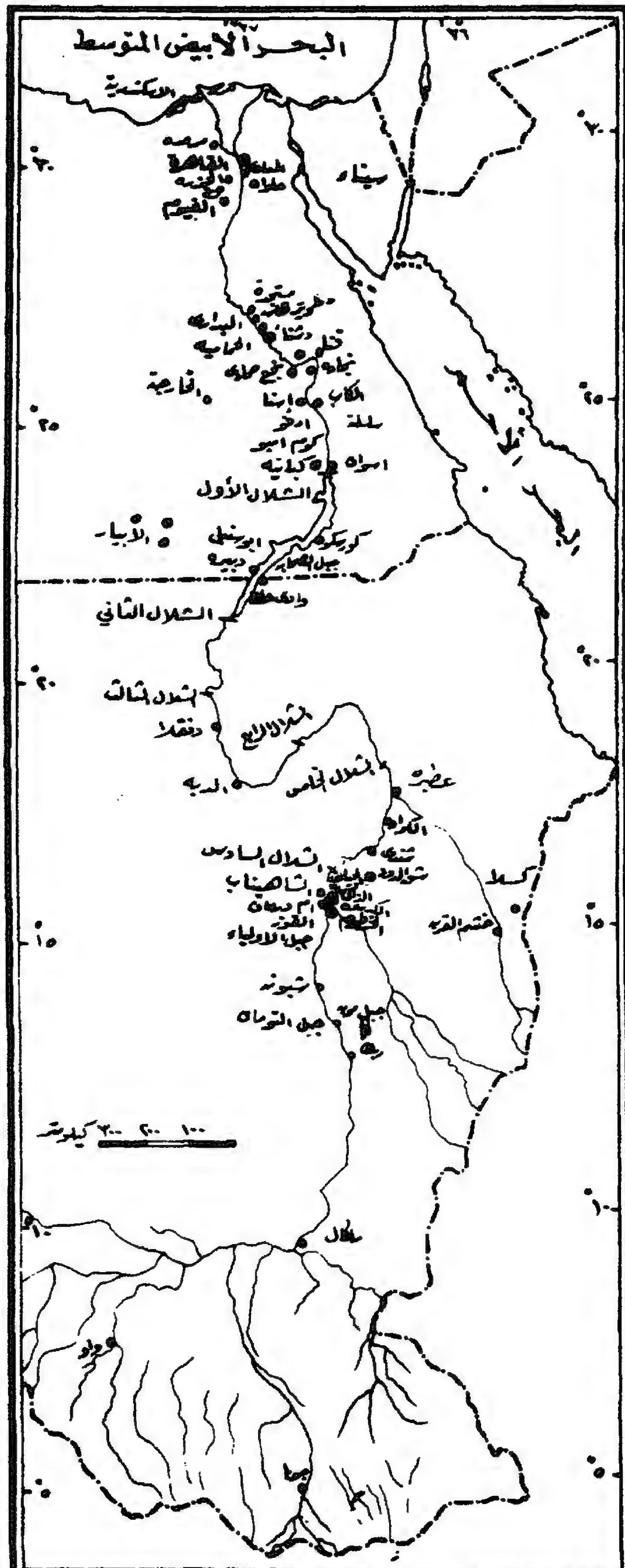
(٤٢) Trigger, B. G. 1982, **Ibid**. p. 501.

الحضـــارات من معرفة المعادن واستخدامها لأول مـــرة، ومـــن ثـــم أصـــبحت تصنف حضاراتهم في الدور الثقافي المسمى بالعصر الحجـــري الحديـــث المعدني، كما تطورت مجتمعاتها إلى مستويات اقتصادية واجتماعية وفنية لم تكن معروفة من قبل. وبما أنها تعد مقدمة منطقية لظهور الدولة المصرية القديمة فســـنكتفي هـــنا بذكر نبذة عن أقدمها، وهي ثقافـــة البداري. استقر أصحاب البداري في قـــرى زراعيـــة صغيرة شيدت من الأكواخ البســـيطة المبـــنية مـــن الأخشاب والحصير بالقرب من نهر النيل في صعيد مصر، وقد اعـــتمدوا عـــلى زراعة القمح والشعير كما جمعـــوا المـــوارد الطـــبيعية الأخرى. ومن الحيوانـــات التي استفادوا من تربيتها الأبقار والأغنام والماعز.

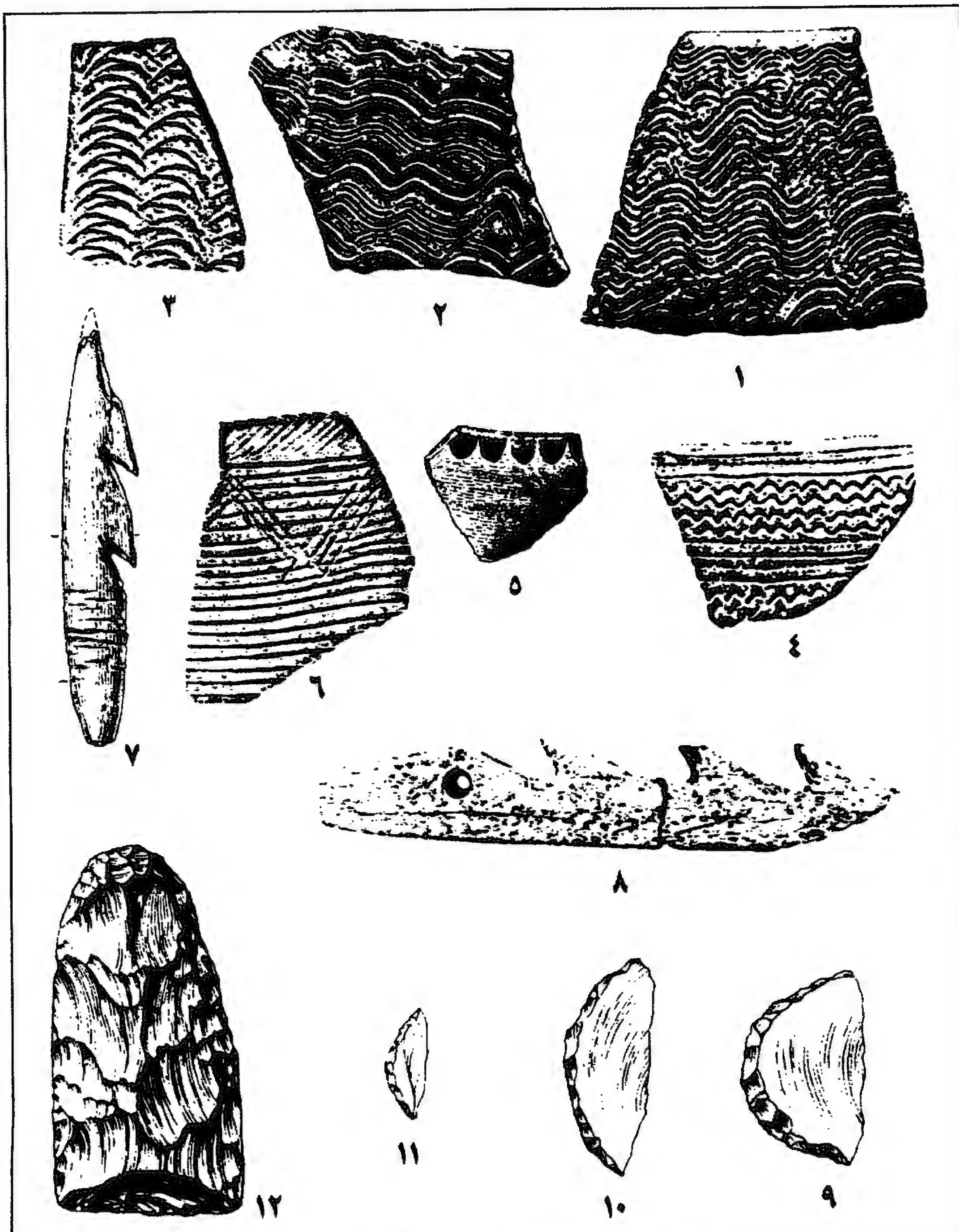
صـــنع أهـــل البداري فخاراً من أجمل ما عـــرف فـــي مصـــر، هو النوع المصقول والـــرفيع المزخـــرف بأشكال نباتية رائعة، شـــكلوا منه الأواني المختلفة مثل الصحون والأكواب الرفيعة وغيرها. دفن أهل البداري موتـــاهم فـــي قبور في مساحات مخصصة خـــارج المســـتوطنات، ووضعوا مع الميت بعض ممتلكاته كقرابين، وهناك بعض القبور التي خصصت لدفن الحيوانات، التي عاملوها مـــثل الإنســـان. ومن مصنوعاتهم الحرفية الأوانـــي، والأدوات الحجـــرية، والســـلال والحصائر، والملابس الجلدية والأغطية بعد أن أصبحت حرفة النسيج أمراً معروفاً لديهم.

ومـــن الظواهـــر اللافتة للنظر قدرتهم الفنية الكـــبيرة الـــتي تعكسها تلك التماثيل الآدمية الصـــغيرة، والقطـــع الفـــنية الجميـــلة، مثل الأمشـــاط والملاعـــق المزخـــرفة بأشـــكال الحيوانـــات المـــنحوتة، إضـــافة إلى الخرز والأساور النحاسية وقطع العاج المختلفة.

إن ثراء العناصر المادية في ثقافة البداري وغيـــرها من ثقافات ما قبل الأسرات بحلول الألـــف الـــرابع قبل الميلاد بلغ درجة عالية غير مسبوقة مما أدى إلى تحولات عميقة في علاقـــات الأفـــراد والمجاميع السكانية على طـــول وادي الـــنيل، وفـــي نظـــم الحيـــاة الاقتصـــادية والاجتماعية والدينية والفكرية، وقـــد توســـعت بعـــض هذه المجتمعات في أحجامهـــا وفي ثرواتها الاقتصادية ومختلف مؤسســـاتها مما أفضى في النهاية إلى ظهور أنظمة إدارية جديدة تتحكم في شؤون الأفراد والمجتمع، كما مهد الطريق بصورة طبيعية لنشـــوء الدولـــة المركزية. أما في السودان فالأدلـــة الأثرية تشير حتى الآن إلى أن فترة العصـــر الحجـــري الحديث في منطقة النيل الأوسط انتهت نحو ٣٠٠٠ ق.م. ولم يكتشف مـــن المواقع الأثرية ما يملأ الفراغ الزمني بين نهاية حضارة كرمة في شمال السودان، الـــتي تعـــود بدايتها لنحو الألف الثالث قبل الميلاد قد تصلح لسد مثل هذا الفراغ إلا أن أصـــل الدولة المركزية في السودان سيظل موضوعاً شيقاً وجديراً بالدراسة المتأنية.



شكل (١) أماكن المواقع الأثرية



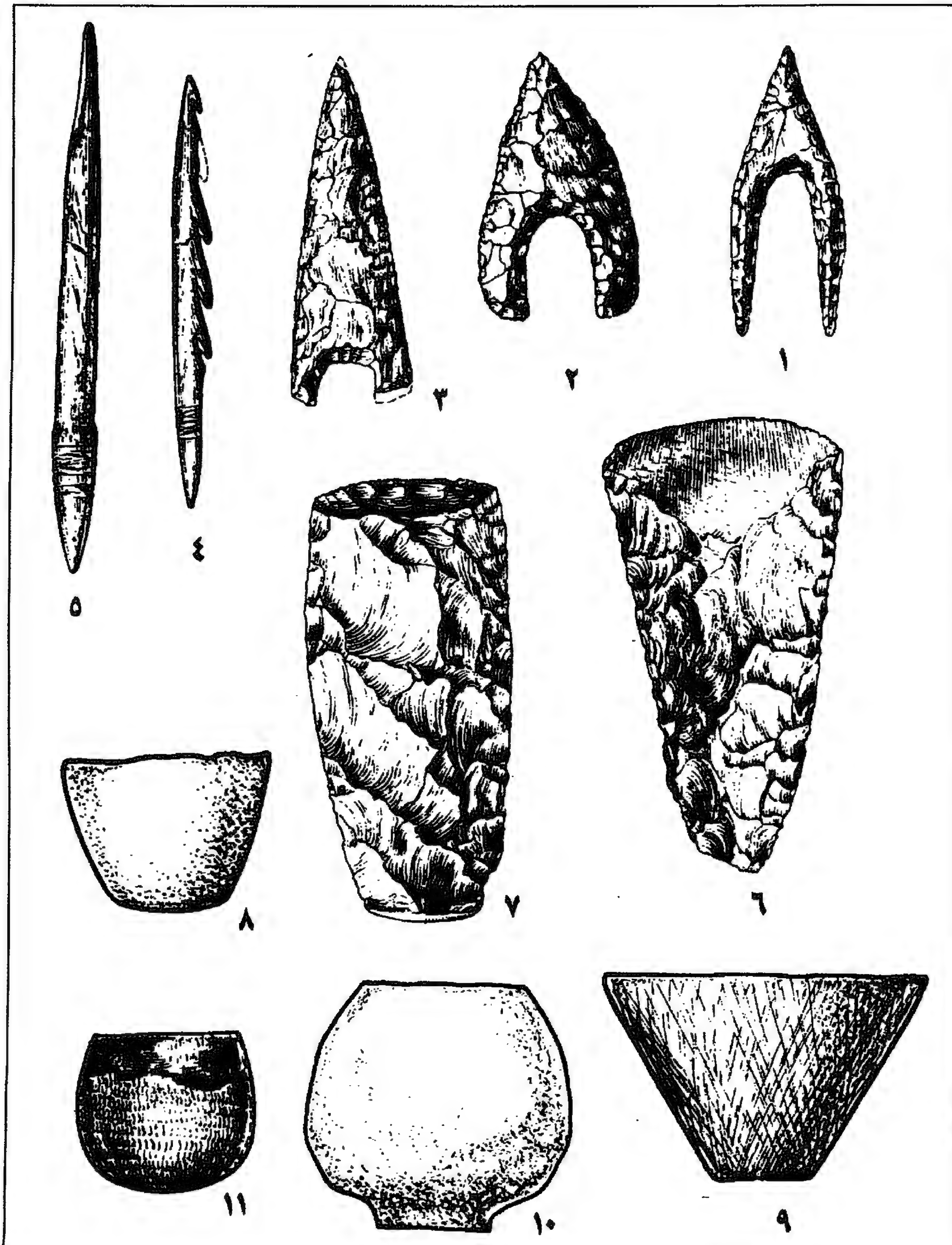
شكل (٢) فخار وأدوات من السودان

١، ٢ فخار الخرطوم المموج ٣، ٤، ٥ فخار الشهيناب ٦ فخار شق الدود

٧ خطاف (الخرطوم) ٨ خطاف (شهيناب) ٩، ١٠، ١١ أهلة من الخرطوم

١٢ مظفار (شهيناب)

(Arkell. A. J. 1975, The Prehistory ... عن)



شكل (٣) فخار وأدوات من مصر

١، ٢، ٣ رؤوس (الفيوم) ٤ خطّاف (الفيوم) ٥ رأس حربة (الفيوم)

٦ ، ٧ فأس ومظفار (الفيوم) ٨، ٩، ١٠ فخار (الفيوم) ١١ فخار (البداري)

(عن Arkell. A. J. 1975, The Prehistory ...)

العصور، المجلد الثاني عشر، الجزء الأول، ٣٥ – ٧٧ (٢٠٠٢م)

شعيب المصانع: قرية تعدينية في منطقة المدينة المنورة (دراسة آثارية)

د. علي بن إبراهيم غبّان

ملخص البحث:

شعيب المصانع موقع أثري يقع بالقرب من الربذة في منطقة المدينة المنورة، والموقع عبارة عن قرية صغيرة للتعدين (مستوطنة تعدينية) يعود تاريخها إلى الفترة الإسلامية المبكرة (القرن ١ – ٢هـ). وتنبع أهمية هذا الموقع من طبيعة الملتقطات الأثرية المنتشرة على سطحه، وآثار النشاطات التعدينية القريبة منه، وبقايا الأساسات الحجرية التي تشكل في مجموعها مخططاً متكاملاً للقرية، فضلاً عن وجود أساسات لمسجد واضحة المعالم.

وفي هذا البحث يقدم الباحث إجابة على عدد من التساؤلات المرتبطة بالموقع من خلال الدراسة المسحية للآثار الظاهرة على سطحه، والمجسات الاختبارية التي نفذت في بعض وحداته المعمارية. ونتائج دراسة المواد الأثرية التي جمعت منه والمعلومات المتوفرة عنه في المصادر، كما يتناول البحث بالدراسة مخطط القرية والنشاطات التعدينية التي كانت تمارس فيها ويقدم مثالاً لأحد أنماط البناء والسكن حول مواقع المناجم في الجزيرة العربية خلال الفترة الإسلامية المبكرة.

تقديم :

علم الباحث خلال الموسم الرابع عشر للتنقيب الأثري بموقع الربذة (١٤١٢هـ/ ١٩٩١م)، بوجود موقع أثري قريب من الربذة تنتشر على سطحه بقايا جدران مبنية بالحجر، يطلق عليها السكان المحليون اسم المصانع، ويعنون بذلك الأحواض. ولم يستبعد الباحث وجود علاقة ما بين هذا الموقع وموقع الربذة، أو درب زبيدة – طريق الحج العراقي القديم من الكوفة إلى مكة المكرمة – ولذلك قام برفقة عدد من الطلاب بزيارة ميدانية للمكان.

وبعد الوقوف على الموقع، وعمل مسح أثري لسطحه، وفحص المواد الأثرية المنتشرة عليه، ومشاهدة ما حوله من ظواهر طبوغرافية اتضح أن هذا الموقع عبارة عن قرية صغيرة للتعدين(مستوطنة تعدينية) يعود تاريخها إلى الفترة الإسلامية المبكرة (القرن ١-٢هـ). وقد بدت أهمية الموقع واضحة من طبيعة الملتقطات المنتشرة على سطحه، وآثار النشاطات

التعديـنية القريـبة مـنه، وبقايا الأساسات الحجـرية التي تشكل في مجموعها مخططاً متكاملاً للقرية، فضلاً عن وجود أساسات لمسـجد واضحة المعالم. ولذا رأى الباحث مناسـبة العودة مرة أخرى إلى الموقع لعمل مـزيد من التحريات الميدانية. وبعد أسبوع عـاد برفقـته الدكـتور سعد بن عبدالعزيز الراشـد والدكـتور عـربي محمد حسنين، والأسـتاذ صـدقة براشـي مـندوب الآثار المـرافق لبعـثة الـربذة، والأستاذ يوسف الحُمَيد، وعدد من العمال. وقد تم خلال هذه الـزيارة عمـل رفع معماري لمباني القرية ومخططها العام، وعمل مجسات اختبارية في بعض هذه المباني.

وفـي هذا البحث سيحاول الباحث الإجابة عـن عـدد من التساؤلات من خلال نتائج الدراسـة المسـحية والمجسات الاختبارية، ونتائج دراسة المواد الأثرية التي تم جمعها، والمعـلومات المـتوفرة فـي المصادر عن التعدين والمنطقة التي تقع فيها القرية، وهذه التساؤلات هي:

- مـا النشـاط الذي كان يمارس في هذه القرية؟ وكيف كان يتم ؟
- من هم سكان القرية ؟
- في أي عصر سُكِنَت ؟
- هـل سكنت هذه القرية لفترة طويلة، أم قصيرة ثم هُجرت؟
- هل كان يقيم بها أفراد من أسرهم، أم أنها مجرد منطقة سكن عمال؟

الموقع العام (اللوحتان ١، ٢):

تقع هذه القرية على بعد أربعين كيلاً إلى الشمال الشرقي من موقع الربذة[١]. وعلى بعد عشرة أكيال إلى الشمال من مركز الحسو[٢]، وعـلى بعـد كيـلين إلى الجنوب من قرية هدبـان[٣]. وهذا الموقع يجعلها مجانبة شرقاً لمسار درب زبيدة، حيث إن أقرب محطات الطـريق إليها وهي الربذة تبعد عنها مرحلة واحـدة. ويطلق على موقع القرية في الوقت الحاضـر اسم شعيب المصانع، وهي واقعة فـي أراضـي قبيلة مُطَيْر على حافة جبال الحجـاز الغربية وداخل نطاق منطقة الدرع العـربي الغربي بين خطي الطول ٤١-٤٢ درجـة شـرقاً، ودائرتي العرض ٢٤-٢٥

(١) تقع الربذة إلى الجنوب الشرقي من المدينة المنورة عـلى بعـد ٢٠٠ كيلومـتر، وهـي إحـدى المـدن الإسلامية المبكرة الواقعة على طريق الحج العراقي القديم الـذي يـربط الكوفـة بمكـة المكرمة والشهير بدرب زبيدة، ويأتي موقعها على خط العرض ٢٤ – ٤٠َ وخط الطول ٤١َ – ١٨. ويوجد بالربذة موقع أثري مهم يقوم قسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سـعود بالتـنقيب فيـه منذ عـام ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، الراشد، سعد بن عبدالعزيز، **الربذة صور للحضارة** = **الإسـلامية المـبكرة فـي المملـكة العربية السـعودية**، جامعـة الملـك سـعود، الـرياض:١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، ص ص ٢٤، ٢٦.

(٢) تقع قرية الحسو على بعد ٣٠ كيلا إلى الشرق من موقـع الـربذة، وهـي المركز الإداري الرئيس لمنطقة الـربذة ومـا حولها في الوقت الحاضـر وتتبع إمـارة المدينة المنورة، الراشد، سعد، الربذة، ص ٢٩.

(٣) هدبـان: قرية صـغيرة بها مركز ومدرسة، وهي من قرى قبيلة مطير سكان المنطقة في الوقت الحاضر.

درجة شمالاً (لوحة١)[٤]. وشعيب المصانع مسمى حديث كما هو واضح، وأقرب المواضع القديمة المذكورة في المصادر إلى هذا المكان موضع الحسو الذي يرى سعد الراشد وآخرون أنه ذو حِسَاء[٥]. ولم يجد الباحث في المصادر التي اطلع عليها ذكراً لمعدن قريب من ذي حساء. وذو حساء وما حوله كان يقع في ديار قبيلة محارب، ويتبع والي المدينة المنورة الذي امتدت صلاحياته إلى حمى ضرية[٦].

ويوجد بموقع القرية في الجهتين الجنوبية والشرقية نتوء صخري يأخذ شكل نصف دائرة، ويحتضن جزءاً كبيراً من مبانيها. ويلاحظ عدم وجود فرق كبير في ارتفاع موقع القرية عن الأرض المحيطة به بحيث لا تبدو على سطحه تلال أثرية عالية. ويوجد بالقرب من الضلع الغربي للموقع مجرى سيل (شعيب) يتفرع من واد كبير يقع إلى الشمال من القرية، به ثمائل قديمة وآبار قليلة العمق يبدو أنها كانت مصدر الماء الرئيس لسكان القرية خلال فترة سكناها[٧]. ويعرف هذا الوادي باسم وادي أم الشطون نسبة إلى بئر كبيرة كانت تقع فيه، قطرها خمسة أمتار - حسب تقدير سكان المنطقة - وقد أعطت هذه البئر التي كان الماء يرفع منها بشطون- أي حبال - اسمها إلى الوادي، وتقع على بعد كيلين إلى الشمال من موقع القرية. والجدير بالذكر أن الشطون اسم لأحد مياه قبيلة محارب، قال الهجري: "ولهم هناك ماءان: الشطون وحفيرة خالد بين الأقعس

(٤) الدرع العربي الغربي، منطقة واسعة من الصخور التي تعود معظمها إلى عصر ما قبل الكمبري، وهي صخور نارية متحولة تغطيها اللابات البركانية الحديثة في مناطق عديدة، وتنقسم الجزيرة العربية من وجهة النظر الجيولوجية إلى وحدتين كبيرتين: كتلة متبلورة قديمة تسمى الدرع العربي، وطبقات رسوبية تسمى بالرف العربي. وينقسم الدرع العربي إلى ثلاثة أقسام الأول منها: الدرع العربي الغربي الذي يكون وسط نجد والحجاز وعسير، والقسم الثاني: هضبة اليمن وعدن، والقسم الثالث: الدرع العربي الجنوبي ويغمره خليج عدن ويمتد على سواحل حضرموت والمهرة وظفار، الوليعي، عبدالله بن ناصر، **جيولوجية وجيومورفولوجية المملكة العربية السعودية**، ط١، الرياض ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ص ٣٠، ٣٥، ٣٧، ٣٨.

(٥) الراشد، سعد، الربذة، ص ٢٩، الحازمي، محمد بن موسى، (٥٤٨/٥٨٤هـ) **الأماكن أو (ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة)** أعده للنشر حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض ١٤١٥هـ، الجزء الأول ص ٣٤٧.

(٦) الحازمي، **الأماكن**، ج١، ص ٣٤٧، ومحارب من القبائل العدنانية وهم بنو محارب بن خصفة بن قيس عيلان، الكلبي، هشام بن محمد بن السائب (ت٢٠٤هـ) **جمهرة النسب**، تحقيق الدكتور ناجي حسن، ط١، عالم الكتب ومكتبة النهضة، بيروت: ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص ٣١١. وعن حدود عمل والي المدينة المنورة التي تشمل المنطقة التي تقع فيها القرية وتمتد إلى ضرية، انظر: السمهودي، نور الدين علي بن أحمد، **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ج ٣، ص ١٠٩٢.

(٧) تسمى الآبار الصغار التي تحفر في بطون الأودية، بالشِبَاك، وقد وصف الأصفهاني ماء ذي حساء (الحسو) وهو واد قريب من الموقع بأنه شِبَاكٌ كلّه وعَرَّف الشِبَاك بالبئار الصغار في بطون الأودية، الأصفهاني، الحسن بن عبدالله (ت نهاية القرن الثالث) **بلاد العرب**، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، دار اليمامة، الرياض، بدون تاريخ، ص ١٨٧.

والقطيبات "؛[٨] وقال في موضع آخر: "عمود المحدث في أرض محارب للخضر منهم وبين المحدث وبين الربذة اثنا عشر ميلاً. ثم الجبال التي تلي المحدث عن يسار المصعد عمود الأقعس من أرض محارب أيضاً، وبه ميـاه تدعى الأقعسية في أصل الأقعس وهي لمحارب. وبين الأقعس والربذة بريدان"[٩] ويذكر الهجري بيتاً للحكم الخضري وهو من خضر محارب يشير فيه إلى الشطون ويقول:

سقى الله الشطون شطون شِعْر
وما بين الكواكب والغدير

وشِعْر جبل ضخم مشرف على معدن الماوان قبل الربذة بأميال للصاعد إلى مكة، والماوان في ديار محارب[١٠].

معدن القرية – المنجم (لوحة٣):

تجاور هذه القرية من جهتي الجنوب والشرق، المنطقة التي كانت تستخرج منها الخامات المعدنية، وتبعد عنها بضعة عشرات من الأمتار. وهي منطقة مفتوحة تمتد على مساحة واسعة بها حفر متناثرة وغير عميقة. وهذا المكان هو معدن القرية كما كان يسمى في ذلك الزمان، وهو من نوع المناجم المفتوحة ذات الحفر، ويختلف عن المعادن الأخرى مثل معدن النقرة غير البعيد عنه، والذي توجد به أنفاق لها مداخل بارزة على السطح[١١].

والمناجم القديمة في جزيرة العرب، بالنظر إلى طريقة الحفر فيها على نوعين هما: الغيران أي الأنفاق وأعماق الأرض[١٢]. وينتشر استخدام المناجم ذات الغيران أي الأنفاق في معادن الجبال، أما الأرض المنبسطة فتستخدم فيها حُفَر الأعماق. ومعدن هذه القرية قد يكون من مناجم الذهب، وهي الصفة الغالبة على المناجم القديمة الأخرى القريبة منه، ومن أشهرها: معدن بني سليم (مهد الذهب)، ومعدن النقرة، ومعدن

(٨) الجاسر حمد، أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع، دار اليمامة، الرياض: بدون تاريخ، ص ٢٦٥.

(٩) المصدر السابق، ص ص ٢٤٤، ٢٤٥.

(١٠) المصدر السابق نفسه ص ٢٦٦، الحربي، الإمام أبو إسحاق (ت بعد ٢٨٥هـ)، **كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة**، تحقيق حمد الجاسر، ط٢، دار اليمامة، الرياض ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ٣٢٥، الأصفهاني، بلاد العرب، ص ص ١٧٣، ١٧٦، وهناك جبل آخر يسمى شعر في بلاد الضباب وهو المعروف الآن بهذا الاسم ويقع إلى الجنوب الشرقي من ضرية بعيداً عنها وانظر للمزيد، الجاسر، حمد، "المعادن القديمة في بلاد = العرب – ٣" العرب، السنة الثانية الجزء الحادي عشر، جمادى الأولى ١٣٨٨هـ، ص ٩٨٢.

(١١) الحلوة، صلاح، ماكنزي، نيل، "التقرير المبدئي عن المرحلة الرابعة لمسح درب زبيدة – ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، **أطلال** – حولية الآثار العربية السعودية، العدد الرابع، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص ٣٦، كسناوي، أحمد وآخرون" "تقرير مبدئي عن مسح مناطق التعدين القديمة شمال غرب الحجاز ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م" **أطلال**، العدد السابع، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ٦١.

(١٢) الهمداني، الحسن بن أحمد (٢٨٠ – ٣٤٥هـ) كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء، أعده للنشر حمد الجاسر، ط١، دار اليمامة، الرياض ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ١٤٨.

ضرية[١٣]. أما الفضة فلها مناجم خاصة بها وهي قليلة في المنطقة ومن أشهرها معدن أبرق خثرب القريب من ضرية، وهو معدن فضة رغيب "واسع النَيْل" على حسب تعبير أبي علي الهجري[١٤]. وكانت الفضة تستخلص بكميات قليلة من مناجم الذهب أيضاً فيما عرف بفضة الذهب (الزرْسيم)، وهي أقل جلاءً من الفضة المعدنية المستخرجة من منجم الفضة[١٥].

ويشرح الهمداني (٢٨٠-٣٤٥هـ) في كتابه الجوهرتين طريقة العمل في مناجم الذهب المنبسطة ويبين طريقة استخلاص الذهب من المواد الخام التي تخرج منها[١٦]، ويمكن إيجاز ذلك في خمس خطوات على النحو التالي:

١- تحفر آبار ضيقة كالكظائم في معادن الذهب، توسع كلما تعمق الحفر، وربما تقاربت بئران فانفتح ما بين أسافلها فأفضت واحدة إلى الثانية.

٢- ما خرج من تلك البئر تُميَّز منه الحجارة، ثم يُنسف بمفتل (منسف) فيخرج من أحد جوانب المفتل التراب، ويتحصل من مؤخرته الذرو، وهو حبيبات خام الذهب الصغيرة، والسحالة وهي تراب الذهب الناعم. فإذا ذهب جوش المفتل - أي غبرته تَصفَّحَه المُعَدِّن وقلبه بيده، فما لاح له من حبة ذرو تنالها الأنملة تعلقها بريقه ووضعها في قصبة يراع صغيرة، عليها صمام يحفظها في شعره أو في محزم وسطه، ثم يواصل نسف المفتل واللقط حتى ينفرز التراب بما فيه من السحالة فيعزله في مكتل صغير (زنبيل).

يضع ما تحصل عليه من تراب مختلط بالسحالة في جفنة بها ماء، ويَستخلص بهذه الطريقة قدر ما يستطيع من تبر السحالة.

٤- ما تبقى من سحالة ميتة كسحيق الكحل يضعها في جفنة، ويصب عليها من الزئبق أضعافها مع غمر الجميع بالماء، ثم يعرك الجميع بشقف من فخار مجانس لبدن الجفنة، حتى يتأكد أن الزئبق التقط كل ما في السحالة من تبر، ثم يضع الزئبق المتحد مع السحالة في خرقة قوية ويعصرها في راحته حتى يخرج منها معظم الزئبق ويبقى الذهب على شكل جوزة، ثم يكرر العملية حتى يجمع عدداً من الجوزات.

---

(١٣) الجاسر، حمد، "المعادن القديمة في بلاد العرب"، العرب، السنة الثانية الجزء التاسع، ربيع الأول ١٣٨٨هـ، ص ٨٣٥، الجزء العاشر، ربيع الثاني ١٣٨٨هـ، ص ص ٩١٧، الجزء الحادي عشر جمادى الأولى ١٣٨٨هـ، ص ص ٩٨٥، ٩٨٦، وغير بعيد عن شعيب المصانع يوجد منجم = صخيبرات، وهو منجم حديث يجري استغلاله في الوقت الحاضر.

(١٤) الجاسر، حمد، **أبو علي الهجري**، ص ٢٥٦.

(١٥) الهمداني، الجوهرتين، ص ١٤٤.

(١٦) المصدر السابق، ص ص ٩٣، ٩٤.

٥- وبعد ذلك يقوم بِشَيّ ما جمعه من جوزات لكي يتخلص الذهب من بقايا الزئبق بشكل كامل - وستُشرح طريقة الشَّي عند دراسة الكسر الفخارية التي التقطت من سطح الموقع. وهناك طريقة أخرى يستخلص فيها الذهب من السحالة الميتة ويستخدم فيها مطحن الذهب والزئبق وتعطي نتائج أفضل من طريقة الجفنة لتوفر عامل الضغط الشديد فيها. وسَيُفصّل الحديث عنها لاحقاً عند دراسة كسر المطاحن التي تم العثور عليها بالموقع.

وقد يحدث أن يحصل صاحب البئر على عرق ذهب، فيحفر عليه حينئذ حتى يخرج، فإذا كان العرق في موضعٍ تربته أكثر من حجارته كان ذهبه نفيساً أملس، وإذا كانت الحجارة عليه أغلب كان ذهبه مضرساً وخشناً، وربما وجد في جوف عرق الذهب بطحاء أو حصى(١٧).

وتوجد في منطقة معدن القرية (موضوع هذا البحث) حفائر اختبارية نفذتها وزارة البترول والثروة المعدنية تظهر في مقاطعها طبقات جيولوجية ذات ألوان معدنية متعددة من مشتقات اللون البني على وجه الخصوص، بالإضافة إلى طبقات جيرية وطينية كلكية متعددة الألوان (لوحة٣). وقد سمي الموقع باسم: "منجم الحسو" في تقرير وزارة البترول نظراً إلى قربه من مركز الحسو، واعتبر من مناجم الذهب القديمة في المملكة(١٨).

وتحيط بآثار القرية ومعدنها مجموعة من الجبال أبرزها جبل الرِّبُوط في جهة الشمال، وجبل الحُمَيْمَة، وهو جبل بركاني في جهة الجنوب، وجبل أم رُقَيْبَة في جهة الجنوب الغربي وجبل الأُشَيْهِب في الجهة الشرقية، وهو أقرب الجبال إلى الموقع وأقلها ارتفاعاً، ويقع في طرف المعدن، ويشرف على كامل المنطقة التي يوجد بها المنجم والقرية، وقد عثر الباحث في قمة جبل الأشيهب على وسوم منقوشة وبقايا جدران متهدمة قد تكون برج مراقبة. ويستطيع الواقف على قمة هذا الجبل رؤية مجموعة جبال البُهْرَة في الأفق البعيد إلى الجنوب الشرقي من موقع القرية.

المنطقة السكنية (لوحة ٤):

تتكون هذه القرية من أربع وثلاثين وحدة سكنية ومسجد يتوسطها تقريباً، وتنتشر هذه الوحدات في منطقة محصورة بين النتوء الصخري شرقاً، والشعيب غرباً على مساحة أبعادها ٣٥٢ متراً طولاً من الشمال إلى الجنوب، و٢٦٠ متراً عرضاً من الشرق إلى

---

(١٧) المصدر السابق، ص ٩٤.

(١٨) الجاسر، حمد، "المناجم القديمة في بلاد العرب-١" العرب، السنة الثانية، الجزء التاسع، ربيع الأول ١٣٨٨هـ، ص ص ٨١٢، ٨١٦.

الغرب. ويمكن تقسيم الوحدات السكنية بهذه القرية إلى ثلاث مجموعات:

- **المجموعة الوسطى:** ويتوسطها المسجد وتتكون من ست عشرة وحدة سكنية: الوحدات أرقام ١،٢،٣،٥- ١٧ بالإضافة إلى المسجد الذي يأخذ الرقم ٤.

- **المجموعة الشمالية:** وتقع إلى الشمال من المجموعة الوسطى وتتكون من عشر وحدات سكنية: الوحدات أرقام ١٨-٢٧.

- **المجموعة الجنوبية:** وتقع إلى الجنوب من المسجد وتتكون من ثماني وحدات سكنية: الوحدات أرقام ٢٨- ٣٥، وبجوار هذه الوحدات توجد مجموعة من المساحن الثابتة التي كانت تستخدم في عمليات استخلاص الذهب من التراب الخام.

ويبدو أن نواة السكنى في هذه القرية كانت في المنطقة المتوسطة حيث يوجد المسجد، وحيث يوفر النتوء الصخري ساتراً طبيعياً للوحدات السكنية، والمعروف أن المسجد كان أول ما يختط من تكوينات معمارية في المدن والمستوطنات الحضرية الإسلامية، ونتيجة للتوسع في نشاطات التعدين بمعدن القرية بنيت مجموعة ثانية من الوحدات السكنية إلى الجنوب من المسجد على بعد خمسين متراً منه وعلى محور محرابه، ثم أضيفت مجموعة ثالثة في الجهة الشمالية على بعد مائة وخمسين متراً من المسجد، وعلى محور كتلته البنائية، وبذلك حافظت القرية على توسط المسجد بين جميع وحداتها السكنية على الرغم من تكامل بناء هذه الوحدات في ثلاث مراحل بنائية. ويلاحظ أن جدران وحدات المجموعتين الوسطى والجنوبية تميل عن خط الشمال الجغرافي في حين أن جدران وحدات المجموعة الشمالية تتوافق معه. وأما مقبرة القرية فلم يجد الباحث لها أثراً واضحاً في الموقع وما حوله، وهذا لا يعني عدم وجودها.

والتخطيط العام لهذه القرية يمكن أن يطلق عليه مسمى الحجرات المتباعدة، وهو يخرج عن أنماط التخطيط الشائعة في المدن والبلدات الإسلامية الأولى، والتي من أبرزها التخطيط المتضام والتخطيط الشبكي، ففي النمط الأول تبنى الوحدات السكنية متلاصقة تماماً وتفتح واجهاتها الرئيسية على ساحات أو طرقات داخلية، وتشكل جدرانها الخلفية مجتمعة كتلة البلدة، وتحولها إلى شبه حصن له بوابة واحدة في غالب الأحيان، ومن الأمثلة الباقية لهذا النمط في المملكة بلدة العلا. أما التخطيط الشبكي فيعتمد على وجود شارع رئيس واحد أو أكثر تتفرع منه طرقات وأزقة فرعية تفتح عليها الوحدات السكنية في حين يحيط بالبلدة سور خارجي مدعم بأبراج. وقد يجمع بين النمطين في مكان واحد ومن

أمثلة ذلك بلدة سدوس بوسط نجد[١٩].

وكلا النمطين عرفا في المنطقة التي تقع فيهـا القرية خلال الفترة الإسلامية المبكرة، وذلـك في مدينة الربذة، حيث يوجد النمط الأول في الحي الذي يقع إلى الشمال الغربي من المسجد الجامع ويعود تاريخ السكن فيه إلى القـرنين الأول والـثاني للهجرة، بينما يوجد النمط الثاني في الحي المحصن الذي أطـلق عـليه مسمى ٤٠١ ويقع في شرق الموقع[٢٠].

وتخطيـط هـذه القـرية أشبه ما يكون تخطيط المعسكر أو بمنازل البادية مع فارق مهـم هو أن المساكن ليست خياماً أو بيوتاً مـن الشعر وإنما حجرات مبنية من اللبن. ويلاحـظ وجود فراغات كبيرة تفصل بين الوحدات السكنية كانت تستخدم على ما يبدو من قبل سكان كل وحدة للنوم ليلاً في معظم فصـول السنة كما يفعل في الوقت الحاضر بادية المنطقة، وربما احتوت مرافق خدمات مبـنية من فروع الأشجار أو جريد النخل، كما يلاحظ عدم وجود سور يحيط بالقرية أو أي نظـام مـن نظم التحصينات الدفاعية، وربما أن القرية لم تكن في حاجة إلى ذلك، لأنها سكنت إبان شيوع الأمن بالمنطقة.

وقـد عثر في المملكة العربية السعودية عـلى قرى بجانب المناجم في مسح مناطق الـتعدين القديمـة بشـمال غـرب المملكة وجـنوبها الغربي يعود تاريخها إلى الفترة الإسلامية المبكرة. ومن أمثلة ذلك مناجم: أم عـامل، وأم حويطـات شرق مدينة الوجه، والعبـلة في منطقة تباله، وعشم في منطقة القنفذة، غير أن قرى هذه المناجم لم تدرس مخططاتها بشكل مفصل. ويلاحظ أن قرى مـناجم أم عامل وأم حويطات والعبلة بنيت على نمط الوحدات المتباعدة، وهو الأسلوب نفسه المتبع في قرية شعيب المصانع، غير أن بعـض الوحدات السكنية في هذه القرى كـبيرة جداً وتتكون من مجموعة حجرات، كمـا يلاحـظ أن موقع عشم به بقايا قصر كـبير ومسجد واضح المعالم، وكانت عشم بـلدة رئيسـية في منطقتها وهي في الوقت نفسه منجم ولذلك يختلف تخطيطها عن قرية شعيب المصانع[٢١].

---

(١٩) البيـني، مـاركو، **العمـارة التقـليدية فـي المملـكة العـربية السـعودية ـ المنطقة الوسـطى**، تـرجمة الدكتور أسامة محمد نور الجوهري، الإدارة العامة للآثار بوزارة المعارف، الرياض ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص ٥٩، ٦٠ اللوحات، الفصل ٤، مسقط سدوس وشارعها الرئيسي، نصيف، عبدالله، **العلا دراسة في التراث الحضاري والاجتماعي**، ط١، الرياض ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص ٤٦، عثمان، محمد عبدالستار، المدينة الإسلامية، ط١، دار الآفاق العربية، القاهرة: ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص ٦٧، ٦٨، ١٤٠.

(٢٠) الراشد، سعد، **الربذة**، ص ص ٥٨،٥٩.

(٢١) كسـناوي، أحمـد وآخـرون، "تقريـر مـبدئي عـن مسح مناطق التعدين القديمة شمال غرب الحجاز ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م،" أطـلال ٧، ص ص ٥٩، ٦٠،٦١، لوحة ٥٧، ٦٨، هستر جيمس وآخرون، "تقرير مبدئي عن مسح مناطق التعدين القديمة بجـنوب غـرب المملـكة"، **أطـلال**، العـدد ٨، ١٤٠٤هـ، ص ١٠٧، لوحة ١٠٤أ، ١٠٧أ.

الوحدات السكنية:

يمكن تمييز ثلاثة نماذج في تخطيط الوحدات السكنية بهذه القرية وذلك على النحو التالي:

- الوحدة ذات الحُجرة الواحدة.
- الوحدة ذات الحُجرة والفناء.
- الوحدة ذات الحُجرتين والفناء.

النموذج الأول: الوحدة ذات الحُجرة الواحدة: وهو الأكثر استخداماً، حيث بلغ عدد أمثلته خمساً وعشرين من بين الأربع والثلاثين وحدة التي تتكون منها القرية: الوحدات أرقام ١ -٣، ٥، ٧ - ١٣، ١٨، ٢١-٢٦، ٢٩-٣٥.

والنمط الأول له أربعة تصاميم:

١- حُجرة مربعة لها باب يفتح مباشرة في إحدى زواياها (لوحة٥أ) وتبلغ أطوال هذه الحجر ٤×٤م أو ٥×٥م.

٢- حُجرة مربعة لها باب تنحرف فتحته قليلاً عن وسط الضلع ومحصور بين جدارين يتقدمان كتلة الحجرة (لوحة٥ب).

٣- حُجرة مستطيلة لها باب في زاويتها ومحصور بين جدارين يتقدمان كتلة الحجرة (لوحة٥ج).

٤- حُجرة مستطيلة لها بروز مستدير في إحدى زواياها تجاوره فتحة المدخل، وقد يكون هذا البروز مكاناً لموقد النار (لوحة ٥ د).

النموذج الثاني: الوحدات ذات الحُجرة والفناء: وتوجد له سبعة أمثلة بنيت على تصميمين:

١- فناء مربع أو مستطيل تلتصق به حجرة مماثلة لحجمه، لها باب يفتح من داخل الفناء الذي له بدوره مدخل في منتصف أحد أضلاعه، الوحدات أرقام: ١٤، ١٥،١٦،١٩،٢٠،٢٨ (لوحة ٦أ).

٢-فناء مربع تلتصق به حجرة مستطيلة أكبر مساحة منه ولها باب يفتح من داخل الفناء، الوحدة رقم ١٧ (لوحة٦ب).

ويمكن اعتبار هذا النموذج مكوناً من حجرتين متلاصقتين إذا اُفترض أن الفناء مسقوف بالكامل، حيث إن أبعاد الكتلة المربعة وكذا المستطيلة (٤×٤م، ٢×٦م) في كلا التصميمين ليست كبيرة وقابلة للتسقيف بالخامات المتوفرة حول القرية.

النموذج الثالث: الوحدة ذات الحجرتين والفناء: ويوجد منها في القرية مثالان، شُيِّد أحدهما (وحدة ٦) على شكل فناء مربع كبير في أحد زواياه من الداخل حجرة مستطيلة، وفي الزاوية الأخرى المجاورة حجرة مربعة تبرز عن كتلة الفناء. ويقع مدخل الفناء والوحدة بين الحجرتين اللتين زودتا بباب لكل منهما يفتح على الفناء (لوحة٧).

أما المثال الثاني (وحدة رقم ٢٧) فعبارة عن حجرتين مربعتين ومتلاصقتين يلتصق بإحداهما فناء مستطيل.

المسجد (لوحة٨):

يـــتكون المسجد من بيت صلاة مستطيل الشكل طوله من الشرق إلى الغرب ١١,٢٠م وعرضـــه من الشمال إلى الجنوب ٨,٥٠م. وللمســـجد محراب على شكل حنية مقوسة يتوسط جدار القبلة. ويبلغ عرض المحراب من الداخل١,٢٠م وعمقه ١,٥٠م. وهو يشبه محراب المسجد الجامع الذي تم الكشف عنه بموقع الربذة(٢٢). أما مدخل المسجد فيقع في الضلع الشمالي لبيت الصلاة مقابلاً للمحراب تماماً، وهو بعرض ١,٢٠م أيضاً. وبالنظر إلى عرض بيت الصلاة البالغ ٨,٢٠م يمكن استنتاج أن سقف المسجد كان محمولاً على صــف مــن الأعمــدة الخشبية المتخذة من جــذوع الأشــجار، يراوح عددها بين ثلاثة أعمــدة أو أربعــة، تقسم بيت الصلاة إلى رواقيــن يتســع كــل منهما إلى صفّين من المصــلين. ويســتوعب هــذا المســجد ما مجموعــه خمســة وســتون مصــلياً على افتراض أربعة صفوف من المصلين بطول ثمانيــة أمــتار يقف في كل منها ستة عشر مصلياً:

١٦×٤=٦٤+١ (الإمـــام) = ٦٥. وعليه فـــإن هذا المسجد يمكن أن تؤدى فيه صلاة الجمعة لصحة شرط إقامتها في ضوء حجم القرية وسعة مسجدها.

وحيـــث إن ســـكان هـــذه القـــرية مـــن المســـتقرين فـــي موقعهم فلا بد أنهم كانوا يؤدون صلاة الجمعة في مسجدهم هذا. فهل يمكن أن تعتبر هذه القرية " قرية بها منبر" وهـــو مصطلح أطلقه الجغرافيون المسلمون على القرى التي بها جامع تقام فيه الجمعة، ويـــتوفر فيهـــا ممثل للسلطة الرسمية؟(٢٣)، والواقـــع أن هـــذا الافتراض ممكن ويسانده ثلاثـــة أمـــور: **الأول منها:** طبيعة النشاط الممارس في القرية وهو التعدين واستخراج الذهـــب والفضـــة، ومعادن أخرى، للدولة نصـــيب فيها يتولى جبايته عامل قد يقيم في المعدن(٢٤).

والأمر الثاني: وجود وحدة سكنية مميزة قريبة من المسجد: مكونة من فناء وحجرتين (لوحـــة٧) وهـــي أكـــبر الوحدات السكنية مســـاحة بالقرية، ولربما كانت سكناً لعريف القرية. **والأمر الثالث:** وجود ثلاث حجرات ملاصقة لجدار المسجد الغربي: اثنتان منهما يدخل إليهما عبر مدخل واحد يفتح في بطن

(٢٢) الراشد، سعد، الربذة، ص ٤٦، ومحراب الربذة مقتبس بدوره من محراب المسجد النبوي، وأول من اتخذ المحراب المجوف بالمسجد النبوي عمر بن عبدالعزيز في عمارة الوليد بن عبدالملك بن مروان ولم يكن للمسجد النبوي محراب مجوف في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا في عهد الخلفاء الراشدين، ماهر، سعاد، العمارة الإسلامية على مر العصور، دار البيان العربي، جدة: ١٤٠٤هـ، ج١، ص ١٨٩.

(٢٣) العـلي، صـالح، "إدارة الحجـاز فـي العهـود الإسـلامية"، مجلة الأبحـاث، ج٣، ٢،٤ ديسـمبر ١٩٦٨م، ص ١١.

(٢٤) تشير المصـادر إلى أن بعض المعـادن الـتي فـي المنطقة كان لها عامل مفرد يخرج من المدينة، الجاسـر، حمـد، **أبو علـي الهجـري**، ص ٢٧٣، السمهودي، **وفاء الوفاء**، ج٣، ص ١١٠٥.

المسجد. وهاتان الحجرتان قد تكون لهما وظيفة إدارية أو أنهما أو إحداهما كانت المكان الذي يُحفظ فيه نصيب الدولة أو ودائع سكان القرية من المعادن المستخرجة، وتبلغ أبعاد كل حجرة ٥×٤م. والجدير بالذكر أن بيت المال وضع بداخل المسجد في بعض مساجد المدن الإسلامية الأولى[٢٥].

أما الحجرة الثالثة فتبرز عن ضلع المسجد الشمالي ولها مدخل خاص بها يفتح على الفضاء المقابل للمسجد، كما تتصل بها من الداخل كتلة درج مقتطعة من مساحة الحجرة الوسطى. وهذا الدرج يؤدي إلى سطح الحجرات وسطح المسجد، والذي كان يستخدم على ما يبدو للنداء للصلاة[٢٦]. كما أن هذه الحجرة الثالثة ربما كانت تستخدم مَضَافَة لزائري القرية أو لابن السبيل. ووجود كتلة الدرج بداخلها لا يمنع من استخدامها لهذا الغرض، وتصميم هذه الكتلة مماثل لما عثر عليه في حفرية الربذة في بعض المباني.

مواد البناء وطريقته:

قياساً على أسلوب البناء المتبع في منطقة القرية خلال الفترة الإسلامية المبكرة، والذي تتوفر عنه معلومات من خلال حفرية الربذة التي تبعد أربعين كيلاً عن الموقع موضوع البحث، يمكن القول أن جميع جدران الوحدات السكنية، وكذا المسجد شيدت من اللبن، واستخدمت الأحجار البازلتية غير المشذبة في أساساتها، وهذا هو الاحتمال الأرجح، إذ لو كانت هذه الجدران مبنية بالحجر من أسفلها إلى أعلاها لكان الركام الأثري لسطح الموقع مختلفاً عما هو عليه الآن، ولبقيت أحجار الجدران في مواقعها وشكلت تلالاً أثرية عالية في موقع كل وحدة، حيث يلاحظ اختفاء ركام الجدران الطينية من على سطح الموقع بفعل تتابع جرف الأمطار والسيول والعوامل الطبيعية الأخرى. وما تبقى بالموقع من جدران حجرية يمثل أساسات المباني فقط. وقد استخدمت المونة الطينية كمادة رابطة بين أحجار الأساسات، ويلاحظ على هذه

---

(٢٥) مثل الخزنة: بيت المال الذي بصحن الجامع الأموي بدمشق، وبيت المال الذي يعلو الفوارة بجامع عمرو ابن العاص بالفسطاط وقد بني في خلافة سليمان بن عبدالملك سنة ٩٧، ويرى بعضهم أن المباني التي توجد في صحن مساجد مصر والشام وعُرفت ببيت المال إنما أعدت لإيداع أموال اليتامى، ماهر، سعاد، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج١، ص ٢٧٢.

(٢٦) لم تتخذ المآذن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد خلفائه الراشدين وإنما كان يؤذن على ظهر المسجد، روى ابن سعد بسند إلى أم زيد = ابن ثابت قال: كان بيتي أطول بيت حول المسجد فكان بلال يؤذن فوقه من أول ما أذن إلى أن بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده، فكان يؤذن بعد ذلك على ظهر المسجد، وقد رفع له شيء على ظهره، وأول من بنى المآذن في الإسلام مسلمة بن مخلد الأنصاري أمير مصر من قبل معاوية بأمر معاوية، ولما تولى عمر بن عبدالعزيز المدينة المنورة في خلافة الوليد بن عبدالملك جعل لمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم أربع مآذن في كل زاوية مئذنة، ماهر، سعاد، **العمارة الإسلامية على مر العصور**، ج١، ص ١٨٢.

المونـــة قـلة نسبة الطين فيها وزيادة نسبة الـرمل. وربمــا صُنِع اللبن الذي بنيت به بيوت القرية من هذه الخامة الضعيفة نفسها، مما يفسر عدم بقاء أثر له، وعدم تكون تلال أثـرية بالموقع أعلى من مستوى الأساسات الحجـرية. وربما كانت هذه الجدران أيضاً مُلَيَّسَــة من الداخل والخارج بالمادة الطينية نفســها، وكذا أرضيات الحجرات، حيث لم تظهر في المجسات التي أجراها الباحث في المســجد وفــي إحــدى الحجرات أية بقايا جبســية في الجدران، أو الأرضيات، أو في محتوى الطبقات الأثرية.

ويبــلغ عرض جدران الأساسات ٤٠سم فــي المتوسط، ويكاد يكون عرض الجدران موحداً في جميع الوحدات المبنية، ويُستَنْتَج من ذلك أن قياس اللبن الذي استخدم في بناء الجــدران ربمــا كان ٢٠×٣٥سم وهو أحد المقاســات المســتخدمة في بناء التقسيمات الداخلية للقصور والدور في موقع الربذة[٢٧].

وفتحات الأبواب في الوحدات السكنية لا تلــتزم بقــاعدة واحدة فهي تارة تفتح شمالاً وتارة جنوباً وتارة شرقاً وتارة غرباً. ويبدو أن كل وحدة سكنية يراعى في وضع اتجاه بابها حالة الوحدة السكنية الموجودة بالقرب مــنها، فتفتح بابها على جهة أخرى لضمان عدم الكشف، ومراعاةً لخصوصية الجار.

أما الأسقف والأعتاب والأبواب والنوافذ فيحــتمل أن تكــون قــد صنعت من خشب الأكاســيا: الســمر والطلح والسرح، وهو متوفر بكثرة لافتة للنظر في الوقت الحاضر على بعد خطوات من موقع القرية.

المجسات الأثرية:

تــم تــنفيذ مجســين أثريين أحدهما في محراب المسجد والآخر في الوحدة رقم ١.

المجس الأول: مجس المحراب (لوحة٩):

وكــان الهدف من تنفيذ هذا المجس تتبع الجدران الحجرية للمحراب وجزء من جدار القبلة، ومعرفة عمق نزولها، ونوعية اللياسة الــتي تغطيها، والأرضية التي تقف عليها، ونوعيــة الطبقات الأثرية التي يتكون منها الركام الذي يملأ موقع المسجد، وكذا البحث عــن أية ظواهر معمارية قد تكون متصلة بالمحــراب. وبلغ طول المجس ثلاثة أمتار بعرض ٦٠سم (١٢٠سم أمام فتحة المحراب و٨٠ سم على جانبه الأيمن و ١٠٠سم على جانــبه الأيســر) بالإضــافة إلى تجويــف المحراب الذي تم حفره بالكامل.

ويتكون التراصف الطبقي لهذا المجس من أعلى إلى أسفل مما يلي:(لوحة١٠ أ، ب)

الطــبقة الأولى: طبقة سطحية من الرمل الناعم من النوع الموجود على سطح الموقع تتشــكل في المجس بعمق يراوح من ٥ إلى ٧سم، وهي خالية من أية مواد أثرية.

(٢٧) الراشد، سعد، **الربذة**، ص ٥٨.

الطبقة الثانية: تلي الأولى في التراصف الطبقي، وهي طبقة ركام بناء مكونة من تربة طينية هشة بها نسبة عالية من الرمل وتختلط بها أحجار بازلتية من نوع الأحجار المستخدمة في أساسات المسجد. ويبلغ سمك هذه الطبقة ٤٠ سم وتستقر على أرضية طينية مبلطة. ولم يعثر في هذه الطبقة على لقى أثرية.

الطبقة الثالثة: أرضية طينية مبلطة سمكها ٥ سم في المتوسط تشكل أرضية المسجد، حيث ظهرت في كامل مساحة المجس.

الطبقة الرابعة: تربة طينية طبيعية التكوين ظهرت تحت مستوى أرضية المحراب المبلطة بعد كسر جزء منها. وتمثل هذه الطبقة التربة العذراء للموقع، وعليها وضعت أساسات محراب المسجد والجزء المكشوف من جدرانه.

نتائج المجس:

- الكشف عن سمك التراصف الطبقي في المجس وقد بلغ ٥٠ سم في المتوسط: من سطح المجس إلى أسفل الأرضية المبلطة.
- الكشف عن نوعية الطبقات الأثرية في هذا المجس، على النحو الذي عُرض أعلاه، ولم يعثر في هذه الطبقات على أية كسر فخارية أو مواد أثرية أخرى، وهو أمر غير مستغرب بالنسبة إلى مجس في محراب مسجد.
- ظهر في المجس ما تبقى من الأساس الحجري لجدران المسجد، وهو مكون من أربعة مداميك من الحجر البازلتي غير المنظم، تربط بينها مونة طينية من نوع طينة التربة العذراء التي ظهرت في المجس نفسه.
- العثور على أرضية طينية مبلطة في كامل مساحة المجس، مما يدل على أن المسجد كانت له أرضية مبلطة بالطين.
- أساسات المحراب وما تم الكشف عنه من جدار القبلة وضعت على التربة العذراء مباشرة، وقد يكون هذا الوضع سائداً في بقية جدران المسجد، وجميع الوحدات السكنية بالقرية، حيث إن هذه الظاهرة وجدت أيضاً في المجس الثاني الذي نفذ في زاوية إحدى الوحدات السكنية كما سيُوَضّح أدناه.
- التأكد من عدم وجود أساس أو بقايا لمنبر مبني على يمين المحراب وربما بسبب ضيق مساحة المسجد. وقد وجد هذا المنبر في مسجد الربذة الجامع[٢٨].
- التأكد من عدم وجود أي نوع من اللياسة على الجدران التي تم الكشف عنها في المجس.
- الكشف عن كامل حنية المحراب، حيث كما ذُكر سابقاً بلغ عرضها ١٢٠سم وعمقها ١٥٠سم من داخل المسجد.

---

(٢٨) المرجع السابق، ص ٤٦، صورة رقم ٣٧.

المجس الثاني: مجس الوحدة رقم ١ (لوحة١١):

نفذ هذا المجس في الزاوية الشمالية الغربية للوحدة السكنية رقم (١) على يمين المدخل. وكان الهدف من تنفيذه الكشف عن إحدى زوايا هذه الوحدة التي تتكون من حجرة واحدة، ومعرفة نوعية الطبقات الأثرية التي تملؤها، وسمك هذه الطبقات والكشف عن أية ظواهر معمارية قد توجد في هذه الزاوية، وتوفير مجال للمقارنة بين نتائج المجسين. وقد تم اختيار هذه الوحدة بالذات لتنفيذ المجس لقربها من المسجد، ولتوقع أنها من بين أقدم الوحدات السكنية بناءً في القرية. بلغت أبعاد المجس ٨٠×٨٠ سم. وباكتمال أعمال الحفر فيه اتضح أنه يماثل المجس الذي في المسجد من عدة وجوه:

التراصف الطبقي للمجس (لوحة ١٠ ج، د)

الطبقة الأولى:

طبقة سطحية بسمك ٥ سم في المتوسط، مكونة من تربة رملية ناعمة من النوع الذي يغطي كافة أرجاء الموقع.

الطبقة الثانية:

طبقة هدم بناء، عبارة عن تربة طينية من نوع المونة المستخدمة في بناء الجدران، مختلطة مع أحجار بازلتية متساقطة من جدران الحجرة، ويبلغ سمك هذه الطبقة ٤٥ سم.

الطبقة الثالثة:

طبقة من الحصباء الصغيرة سمكها ٥ سم في المتوسط تفترش كامل مساحة المجس، وقد عثر في هذه الطبقة التي تستقر على أرضية الحجرة على كسرة من نوع الفخار غير المزجج تمثل اللقية الأثرية الوحيدة بهذا المجس.

الطبقة الرابعة:

أرضية الحجرة، وهي أرضية طينية مبلطة سمكها ٥ سم في المتوسط، وتماثل الأرضية الطينية التي ظهرت في المجس الأول من حيث التكوين والسماكة.

الطبقة الخامسة:

التربة العذراء للموقع، وقد ظهرت بعد كسر جزء من الأرضية الطينية المبلطة وتتكون من تربة طينية طبيعية التكوين مماثلة للتربة العذراء التي ظهرت في المجس الأول.

نتائج المجس:

- كشف المجس عن خمس طبقات أثرية بسمك إجمالي بلغ ٦٠سم، وبزيادة ١٠سم عن سمك الطبقات في المجس الأول، ومصدر هذه الزيادة فرق ارتفاع الأساس الحجري، وطبقة الحصباء التي فصلت بين طبقة هدم البناء والأرضية المبلطة للحجرة، وهذه الطبقة قد تَكُون من بقايا الرَّديم الذي كان يعلو سقف

الحجـرة، وقـد تكـون أرضية أخرى فُرِشَـت فـوق الأرضية المبلطة أثناء استخدام الحجرة.

- يمكن اعتبار طبقة الحصباء التي تفصل بين الأرضية المبلطة وركام هدم البناء ممثـلة لطـبقة السكن التي تعلو عادة الأرضيات مباشرة في المواقع الأثرية، وتحـوي معظـم اللقى الأثرية، وقد تم العثور بالفعل في هذه الطبقة على اللقية الأثرية الوحيدة في المجس وهي كسرة من نوع الفخار غير المزجج.
- وجود خمس مداميك مبنية بالحجر في أساس الجدار الشمالي الذي ظهرت في المجـس وثلاثة مداميك فقط في أساس الجدار الغربي. وهذا التفاوت ناتج من اخـتلاف حجم الأحجار المستخدمة في كلا الجدارين، حيث إن ارتفاع ما تبقى مـن كل منهما فوق الأرضية المبلطة متساوٍ تقريباً.

دراسة المواد الأثرية:

تنقسم المواد الأثرية التي جُمِعت من هذا المواقع من حيث طريقة الحصول عليها إلى فئـتين: مواد وجدت في واحد من المجسين الأثـريين، ومواد جُمِعت بالالتقاط من على سطح الموقع.

أولاً: مواد المجس الأثري:

وهـي كما ذُكِر سابقاً تنحصر في كسرة فخارية واحدة من نوع الفخار غير المزجج، وتنبع أهمية هذه الكسرة من كونها مستخرجة من طبقة أثرية، ومن كون هذه الطبقة طبقة سكنية تعلو أرضية الوحدة مباشرة، ولذا فإن احـتمال كونها من فترة استخدام الوحدة، أو من فترة قريبة لتوقف استخدامها قوىّ جداً.

وهذه الكسرة (لوحة١٥ أ، ب) عبارة عن جزء صغير من بدن إناء فخاري كبير الحجم قـد يكـون زيراً أو قِدراً كبيراً، وسمك هذه الكسـرة (٢٣مم)، وهي من فخار لونه يميل إلى الاحمرار وفي مكسرها لب أسود اللون أقـرب إلى السطح الداخلي للإناء، نتج عن عـدم تجـانس الحرق. ويلاحظ على عجينة هذه الكسرة احتواؤها نسبة عالية من حبيبات الـرمل والمكونات الجيرية، وهي خصائص تميـز نوعـاً من الفخار السميك عُثَر على كسـر كـثيرة منه وأجزاء أوانٍ في الجزء الغـربي مـن موقع الربذة، حيث توجد آثار القرنين الأول والثاني للهجرة.

ثانياً: الملتقطات السطحية:

توجـد على سطح هذا الموقع مواد أثرية قليـلة، ولـذا فإن الملتقطات السطحية التي تمكن الباحث من جمعها قليلة أيضاً، وقد تم الـتقاطها مـن سائر أنحاء الموقع، وتنقسم بحسـب خاماتها إلى أربعة أنواع: كسر من أحجـار الرحى المنزلية، ومطاحن الذهب، وكسـر فخارية غير مزججة، وكسر فخارية مزججة، وكسرة زجاجية واحدة.

أ- كسر أحجار الرحى المنزلية ومطاحن الذهب:

تم التقاط ثلاث كسر من أحجار الرحى المنزلية، وثلاث كسر من مطاحن الذهب. وفيما يلي تفصيل عن كل واحدة من هذه الكسر:

الكسرة الأولى:

كسرة رحى منزلية (لوحة ١٢) مصنوعة من الحجر الحري الأسود المخرم. وهي نصف الحجرة العليا لرحى قطرها ٣٠ سم وسمكها ٥ سم، في وسطها بقايا ثقب نافذ قطره ٥ سم يدخل فيه قطب الرحى الذي يكون مثبتاً في مركز الجزء السفلي من الرحى، وتوضع عبره المواد المراد طحنها. ولا يظهر في هذا النصف الثقب الذي تثبت فيه اليد التي تدار بها الرحى، ومن المؤكد أنها في النصف الآخر، بينما تظهر عليه من أسفل آثار الاستخدام بوضوح. والرحى المنزلية المصنوعة من الحجر الحري الأسود كانت الأكثر استخداماً في أراضي المملكة العربية السعودية خلال العصور الإسلامية المختلفة، نظراً إلى انتشار الحرات في عدد من مناطق المملكة وبخاصة في شمالها وشمالها الغربي وجنوبها الغربي ومواقع أخرى قريبة من وسطها. ويتميز الحجر الحري بتضرسه ولذا فهو الأنسب للحصول على الطحين المجروش غير الناعم جداً. وقد تم العثور على أمثلة كاملة في مواقع استخدامها من هذا النوع من الرحى في عدد من المواقع الإسلامية بالمملكة منها الربذة والحوراء[٢٩].

الكسرة الثانية:

جزء من الحجرة العليا لرحى منزلية مصنوعة من الجرانيت الزهري ناعمة وملساء من جهتها السفلى وغير مشذبة من أعلى. ويوجد بها آثار لثقب المركز، وآثار للثقب الجانبي ويبلغ سمكها ٧ سم في أسمك نقطة (لوحة ١٣أ).

الكسرة الثالثة:

جزء من الحجرة العليا لرحى منزلية مصنوعة من الجرانيت الزهري ناعمة من أسفل وعليها آثار الاستخدام، وبها بقايا الثقب الأوسط. ويبلغ نصف قطر هذه الحجرة ٢٠ سم، وسمكها ٥ سم في المتوسط (لوحة ١٣ ب،ج). وأحجار الرحى المنزلية المصنوعة من الجرانيت أو من الحجر الرملي ملساء وناعمة وليس بها تضريس ولذلك فإن المواد التي تطحن بها تخرج ناعمة، ومطحونها أنعم من مطحون رحى الحجر الحري.

الكسرة الرابعة:

جزء من حوض مطحن ذهب، وهو الجزء السفلي من المطحن، مصنوع من

---

(٢٩) المرجع السابق، ص ٨٥، غبان، علي، شمال غرب المملكة العربية السعودية، الكتاب الثاني، الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة – مدخل عام، = ط١، مطبعة سفير، الرياض: ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ص ص ٢٦، ٢٨ شكل ٣أ،ج.

حجر جرانيت زهري متوفر في الجبال المحيطة بالمنطقة (لوحة ١٤ أ).

الكسرة الخامسة:

جزء من حوض مطحن ذهب مصنوع من حجر جرانيت يغلب عليه اللون الأبيض، وهو من الخامات المتوفرة في جبال المنطقة. (لوحة ١٤ ب).

الكسرة السادسة:

جزء من الحجرة العليا لمطحن ذهب، ناعمة وملساء من جهتها السفلى التي تُطَابِق على حوض المطحن، وغير مشذبة من أعلى. وهي مصنوعة من حجر جرانيت يغلب عليه اللون الأبيض. ويبلغ طول ما تبقى من هذه الحجرة ٢٣ سم وعرضها المتبقي ١٢ سم أما سمكها فيبلغ ٨ سم (لوحة ١٤ج).

والحجرة العليا في مطحن الذهب ليست مدورة كما في الرحى المنزلية وإنما مربعة أو مستطيلة: يزيد طولها قليلاً على نصف قطر حوض المطحن ولا يتجاوز عرضها الشبر أي ٢٠ إلى ٢٥ سم. ويستعمل مطحن الذهب إذا خفي خبث الذهب في تراب التبر، ولم يبق فيه شيء يلحقه التحصيل أو يدركه البصر، ويستخدم فيه الزئبق الذي يدخل إلى أجزاء التراب اليابسة بفعل الضغط العظيم الذي يوفره المطحن. وقد أورد الهمداني وصفاً مفصلاً لمطحن الذهب الذي استخدم في الجزيرة العربية خلال الفترة الإسلامية المبكرة، ولطريقة استخدامه،[٣٠] كما عثر على كسر مطاحن ذهب في مواقع تعدين أخرى بالمملكة مثل موقع عشم بمنطقة القنفذة، والقاع بمنطقة تبالة – جنوب غرب المملكة.[٣١]

صفة مطحن الذهب كما ورد عند الهمداني:

مطحن الذهب حوض من الحجر مدور ومستوي السطح من الداخل، في مركزه ثقب على سعة الدرهم يثبت فيه قطب من الحديد أطول قليلاً من الأصبع، ويصب حول رأس القطب من أسفل الرصاص المذاب ليمسكه. ولهذا الحوض ثقب آخر نافذ في أحد جوانبه يعمل كَمِثْعَب موزون على مستوى سطحه الداخلي، يسد بصمام أثناء عملية الطحن. وهذا الحوض هو الجزء السفلي للمطحن، أما الجزء العلوي فيتكون من حجر يزيد طوله قليلاً على نصف قطر المطحن، ولا يتجاوز عرضه شبراً واحداً وارتفاعه شبر، ويسوى سطحه السفلي حتى يتطابق تماماً مع سطح الحوض ويخلو من أي تضريس، ثم يُنْقَر في أحد جوانبه ثقب نافذ يدخل فيه قطب الحوض إذا انطبق الحجران، وتُنقَب في الجانب الآخر من أعلى الحجر ثقوب نافذة من جانب

---

(٣٠) الهمداني، الجوهرتين، ص ص ١٤٠، ١٤٢.

(٣١) هيستر، جيمس وآخرون، تقرير مبدئي عن مسح مناطق التعدين القديمة بجنوب غرب المملكة، **أطلال**، العدد الثامن، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م،=

= ص ١٠٩، لوحة ١١٣ب، ويلاحظ أن التعليق الذي كتب على صور المطحن الواردة في هذه اللوحة، يشير إلى أنه رحى للحبوب، وهذا غير صحيح.

إلى آخـر ليدخل فيها الحبل الذي يَشِدُّ على الحجـر خشـبة طولها ذراعان تسمى خشبة السـائق، وبواسـطتها يـتم تحريك الحجر العلوي للمطحن والذي يدور داخل الحوض. ولهـذا المطحن قاعدة تُبْنَى من الآجر على شكل أسطوانة جوفاء لها باب، ارتفاعها يزيد قليلاً عن الذراع، وقطرها يماثل قطر حوض المطحن من الخارج. ويوضع المطحن على القـاعدة ويحكـم ما بينهما بالجص، ويوزن مـثعب الحوض على وسط باب القاعدة، ثم توضـع جفـنة عبر الباب داخل الأسطوانة ليسـيل إليها ما في حوض المطحن إذا فتح باب المثعب.[٣٢]

طريقة عمل المطحن:

إذا أُريـد طحـن تـراب الذهب سُدَّ المثعب وأُلقي في المطحن من تراب الذهب على قدر سعته وصُب عليه من الماء مقدار الكـف، ومـن الزئبق قدر معين يتناسب مع قـدر كميـة التراب، ثم تُدار خشبة المطحن فيتسـرب الـتراب والزئـبق والماء تحت حجـرتي المطحن ويَنْعرك، ويستمر دوران المطحـن حتى يُصْبِح التراب أدق من كحل العيـن، ويُـرَى الزئبق قد غَلُظَ بما لَقَطَ من الذهـب. ثم يُفْتَح مثعب المطحن وينزل إلى الجفنة كل ما في حوض المطحن، وإذا بقي من الزئبق شيء سِيق إلى المثعب براحة اليد وبالمـاء حتى لا يبقى في الحوض شيء، ثم يُجْمَـع الزئبق من الجفنة ويُصَب في خرقة سـميكة وقويـة، ويُحْذَر أن ينقلب من اليد فيتـبدّد، ثم تُصَر الخرقة صراً جيداً ويُضْغَط عـليها فـي راحة اليد ليخرج منها الزئبق ويـبقى الذهب على شكل جوزة بقدر ما كان في التراب من ذهب، ثُم تُكَرَّر عملية الطحن ليحصل على عدد من جوزات الذهب، ثم يتم شـي الجوزات حتى يحترق ما بقي فيها من زئبق[٣٣].

ب- الكسر الفخارية غير المزججة:

١-كسـرة صـغيرة الحجـم من نوع فخار الطـبخ الأسـود المضـلع (Cooking Pottery) مقاسها ٢٥ مم طولاً × ١٤مم عرضـاً × ٤ مم سماكة، وهي جزء من بدن قدر طبخ من مكان قريب من الرقبة (لوحة١٥ ج، د). وقدور الطبخ هذه لها شكل البرمة بفوهة ضيقة وبدن واسع من أسـفل. وتصنع بالعجلة من عجينة نقية جـداً، وتحرق بطريقة جيدة، على درجة حـرارة عالية، فتصبح بعد حرقها شديدة الصـلابة، وهـي فـي الوقت ذاته غير سميكة مما يجعلها تتحمل اللهب وتكتسب الحـرارة بسـرعة. وتتميز هذه القدور بوجـود التضليع على أبدانها، أما لونها ففـي الأصل بني فاتح غير أنها تكتسب الـلون الأسـود أو الأشهب من الخارج نـتيجة دوام الاستخدام على النار، ولذلك

(٣٢) الهمداني، **الجوهرتين**، ص ص ١٤٠، ١٤١.

(٣٣) المصدر السابق، ص ص ١٤١، ١٤٢.

يطلق عليها بعض الدارسين مسمى فخار الطبخ الأسود المضلع. وهذا النوع من القدور عُرِف في العصرين الروماني والبيزنطي، وأنتج بكثرة في العصر الأموي(٣٤)، كما استمر استخدامها في القرن الثاني الهجري (بداية العصر العباسي) وقد عثر على أوانٍ كاملة منها في الربذة في طبقات من القرن الثاني الهجري، معروضة في متحف الآثار بجامعة الملك سعود. ويمكن نسبة الكسرة الملتقطة من مستوطنة شعيب المصانع إلى فترة القرنين الأول والثاني للهجرة.

٢- ثلاث كسر من فخار متوسط السماكة ذو لون يميل إلى الاصفرار، مصنوع بالعجلة من عجينة متوسطة النقاوة تشاهد فيها حبيبات الرمل وشوائب أخرى. وصلابة هذه الكسر متوسطة نتيجة الحرق على درجة حرارة غير عالية، ولذا فهي أشبه ما تكون بفخار القلل. واثنتان من هذه الكسر شفاه قلل أو أكواز أو دوارق، وهما من نوع الشفة المستقيمة: إحداهما بسمك ٩مم، والأخرى سمكها ٨ مم (لوحة ١٦أ)، أما الكسرة الثالثة فجزء من قاعدة مستوية، وقد تكون قاعدة لدورق أو قلة أو كوز (لوحة ١٦ب).

ووجود كسر القلل أو الأكواز أو الدوارق في موقع قرية تعدينية أمر له ما يبرره، فبالإضافة إلى استخدام هذه الأواني في حفظ المياه وتبريدها كان المُعَدِّنون يستخدمونها في شي كرات الذهب (الجوز) لتخليصها من الزئبق المتبقي بها، فإذا أرادوا شي الجوز جعلوه في كوز فخاري مما يشرب فيه وملئ مع الجوز فحم، وصُيِّر في حلق الكوز خرقة تحبس الجوز والفحم إذا قُلِب الكوز على فمه، ثم يُؤتَى بكوز آخر مثل الأول أو أكبر منه ويُوضع فيه ماء إلى منتصفه، ويُحفر له ويدفن إلى حلقه، ثم يوضع عليه الكوز الأول مقلوباً حتى تتقابل الفوهتان، ثم تُلَيّس نقطة التقاء الكوزين بالطين، ثم يُوضَع على الكوز الأعلى المقلوب الفحم والحطب ويشعل فيه النار من جميع جوانبه إلى أن يَحْتَمِي الكوز وما في جوفه، ثم يُتْرَك حتى يبرد، ثم يُنَحَّى ما حوله من رماد ويُفْصَل عن الكوز الأسفل ويُخْرَج ما في جوفه من جوزات الذهب والتي تكون ضامرة بعض الشيء لخروج الزئبق منها، ثم يُخْرَج الكوز المدفون ويصب ما فيه من ماء فَيُتَحَصَّل على الزئبق الذي كان في الجوزات وقد اجتذبته رطوبة الماء(٣٥). وبالإضافة إلى الكوز تستخدم القلة في شي الجوز حيث يوضع في بطنها،

(٣٤) Sauer James ,**Heshbon Pottery** 1971, Andrews University press. Michigan 1973 p.40. Smith R.H., **Pella of the Decapolis** ,vol.I,the College of Wooster, 1973, p230-231. =

= حسين، محمود إبراهيم، **الخزف الإسلامي في الأردن**، دار الثقافة العربية، القاهرة ١٩٨٨م، ص٦٦.

(٣٥) الهمداني، **الجوهرتين**، ص ١٤٢.

ويُطَيَّن على رأسها، ويوقد عليها حتى تحتمي ويحترق الزئبق فَيَخْرج على هيئة دخان من الطين الذي على رأسها[٣٦].

٣- إحدى وستون كسرة من فخار سميك يميل لونه إلى الاخضرار من نوع فخار الأزيار (الحُب) أو الجرار الكبيرة، ومعظم هذه الكسر من الجزء العلوي للبدن ومن بينها كسرتان من الشفة وكسرة من البدن القريب من القاعدة، وعلى بعضها آثار حريق (لوحة ١٦ج)، وعلى بعضها الآخر آثار نشر أو قص. وهذا الفخار مصنوع من عجينة متوسطة النقاوة، وهو شديد الصلابة نتيجة حرقه على درجة حرارة عالية، وتلاحظ على كِسَرِه آثار تشكيله باليد، وآثار تشطيبية على العجلة، وكما هو معروف فإن بعض الأوانيَ الكبيرة الحجم تشكل باليد وتُسوّى وتُشطّب بالعجلة.

والأزيار كانت بالإضافة إلى استخدامها في حفظ المياه وتبريدها تستخدم من قبل المُعَدِّنين في استخلاص الفضة المختلطة بالذهب في التراب المطحون، حيث يُعْمَد إلى الحُب ويُشق بالمنشار ويُسمى الشطر منه الشقة، فيُطرح في الشقة من التراب على قدر كبرها ويُلقى فيها من أرطال الزئبق قدر الكفاية ثم يلْبَس المُعَدِّن في راحته قطعة أديم ويفرك التراب بالزئبق يابساً، ثم يَصُب الجميع في جفنة كبيرة بها ماء فيتجمع الزئبق في الماء مع ما لقط من ذهب، ويَحْتَفظ بحصالة التراب في الجفنة الثانية ليقوم بعصرها في خرقة قوية ليَحْصُل منها على كرات صغيرة من الفضة على هيئة البندق يقوم بشيها كما فعل مع كرات الذهب [٣٧].

ج- كسر الفخار المزجج:

تم التقاط أربع كسر من الفخار المزجج جميعها من نوع الفخار المزجج ذي الطلاء القلوي (Monochrome Alcaline-glazed Pottery) ثلاث منها من إناء واحد (لوحة١٧أ)، وهي كسر من البدن مطلية من الخارج بطلاء قلوي أزرق تركوازي يميل إلى الاخضرار، ومنْ الداخل بطلاء قلوي داكن. وسمك هذه الكسر ١١ مم في المتوسط مما قد يدل على أنها من إناء متوسط الحجم، من نوع الجرار. أما الكسرة الرابعة فصغيرة الحجم وأقل سماكة إذ لا يتعدى سمكها ٥ مم، ومطلية من الجهتين بطلاء قلوي تركوازي أكثر ميلاً للاخضرار من الكسر السابقة (لوحة ١٧ ب)، ويحتمل أنها كسرة من بدن جرة صغيرة.

وتستخدم الجرار المطلية بالطلاء القلوي في حفظ السوائل والزيوت، كما استخدمَت في حفظ الأشياء الثمينة ولا يستبعد أن يحفظ بها المُعَدِّنُون سكان القرية الزئبق الذي

---

(٣٦) المصدر السابق، ص ١٤٣.

(٣٧) المصدر السابق، ص ص ١٤٣،١٤٤ .

يستخدمونه في عملية التعدين أو ما يحصلون عليه من ذهب، فقد عثر على كنوز من العملات الإسلامية محفوظة داخل جرار من هذا النوع. وبالإضافة إلى الجرار صنع المسلمون من هذا النوع من الفخار المزجج المزهريات، والصحون والطاسات التي استخدمت على المائدة، ومسارج الإنارة، وبعض هذه الأواني وجدت منها قطع كاملة في حفرية الربذة[٣٨].

والطلاء القلوي تستخدم في تركيبته مادة قلوية مثل الخل والتيزاب تضاف إلى تركيبة الطلاء الزجاجي المكونة من السلكا والمواد الصاهرة، كما يضاف إليه أيضاً أكسيد النحاس ليكسبه لوناً تركوازياً بدرجات متعددة[٣٩]. وقد عرف استخدام الطلاء القلوي منذ العصور القديمة، وهو أقدم أنواع الطلاءات المعدنية على الفخار التي اهتدى إليها الإنسان، وترجع أقدم أمثلته المعروفة إلى مصر الفرعونية، حيث عُثر على أوانٍ عرفت بالفايانس المصري مغطاة بطبقة من الطلاء القلوي، كما عثر على نماذج من الآجر المغطى بالطلاء القلوي في بلاد فارس وإيران يرجع تاريخها إلى ١٠٠٠سنة قبل الميلاد[٤٠]، واستمر استخدام هذا النوع من الطلاء عند البارثيين واليونان والرومان والبيزنطيين في بلاد فارس والعراق والشام ومصر. كما استخدمت الأواني المطلية بالطلاء القلوي في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وعُثر على أوانٍ كاملة وكسر كثيرة ترجع إلى تلك الفترة في مواقع بالمملكة أبرزها الفاو[٤١].

وفي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عرفت الأواني المطلية بالطلاء القلوي باسم الحناتم (جمع حنتم)، فقد ورد في الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن الانتباذ في أواني الحنتم، وقيل لأبي هريرة ما الحنتم؟ فقال الجرار الخضر[٤٢] والانتباذ نقع التمر في الماء وتحويله إلى نبيذ أي عصير غير متخمر، والنهي سببه أنَّ طبقة الطلاء القلوي التي تغطي هذه الجرار من الداخل والخارج تجعلها غير مسامية مما يُعَجّل بتفاعل محتواها وتخمره، فيزداد احتمال أن يصبح هذا النبيذ خمراً مسكراً. وقد شمل النهي أيضاً للسبب نفسه أواني الفخار المُقَيَّر أي المطلي من الداخل بالقار[٤٣]. واستمر إنتاج الأواني الفخارية المطلية بالطلاء القلوي في العصر الأموي وخصوصاً في بلاد فارس والعراق، وكثر

(٣٨) الراشد، سعد، **الربذة**، ص ص ١٠٤،١٠٥، صورة رقم ١٧١،١٧٢.

(٣٩) ماهر، سعاد، **الفنون الإسلامية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦م، ص١٦ .

(٤٠) هودجز، هنري، **الخزفيات**، ترجمة محمد يوسف بكر، معهد الإنماء العربي، بيروت: ١٩٨١، ص ص٩،١٠.

(٤١) الأنصاري، عبدالرحمن، **"قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية"** جامعة الرياض، ١٤٠٢هـ، ص ص ٣٠،١٤٤،١٥٤.

(٤٢) النووي، محيي الدين أبو زكريا (ت ٦٧٦هـ)، **شرح صحيح مسلم**، دار القلم، بيروت، بدون تاريخ، ج١٣، كتاب الأشربة، ص١٦٩حديث رقم ١٩٩٣.

(٤٣) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها .

إنتاجه في العصر العباسي وانتشرت صناعته في سائر مراكز صناعة الفخار[٤٤]. وأهم مميزات الفخار المزجج ذي الطلاء القلوي الذي يرجع إلى الفترة الإسلامية المبكرة ما يلي[٤٥]:

- تمثل الجرار الكبيرة الحجم والمتوسطة التي استخدمت في حفظ أنواع معينة من المواد السائلة والصلبة أبرز أنواع الأواني التي صنعت في تلك الفترة.
- شيوع استخدام اللون الأزرق الذي يميل إلى الاخضرار في الأواني التي يرجع تاريخها إلى فترة القرن الأول الهجري وبداية الثاني، وميل اللون إلى الاخضرار ينتج عن قلة نسبة أكسيد النحاس في تركيبة الطلاء.
- شيوع استخدام اللون الأزرق الغامق في الأواني التي يرجع تاريخها إلى القرن الهجري الثالث وما بعده.
- معظم الأواني المطلية بالطلاء القلوي تشكل بالعجلة وتصنع من عجينة نقية غالباً، وأحياناً متوسطة النقاوة يميل لونها إلى الاصفرار.
- طبقة الطلاء القلوي سميكة بحيث تتشقق في بعض الأحيان.
- يلاحظ في الجرار أن طبقة الطلاء القلوي الداخلية أقل سماكة من الخارجية، ويقل فيها تركيز أكسيد النحاس، وأحياناً يضاف إلى الطلاء مسحوق حجر الكحل فيصبح لون الطلاء الداخلي ذا زرقة ميالة للسواد.
- استخدام زخارف تحت طبقة الطلاء منفذة بالحز أو بالطبع أو بالإضافة أو بطريقة الباربوتين، حيث يستخدم قمع في تشكيل حبال طينية أو نقط تنفذ بها عناصر زخرفية متنوعة ومتكررة، وتظهر الزخارف بكثرة في إنتاج العصر العباسي.

ويلاحظ أن كسر الفخار ذات الطلاء القلوي الملتقطة من سطح موقع شعيب المصانع يميل لونها إلى الاخضرار، وتخلو من الزخارف، مما يقوي احتمال أن يعود تاريخها إلى فترة القرنين الأول والثاني للهجرة.

د- الكسرة الزجاجية:

تم التقاط كسرة واحدة من الزجاج، وهي كسرة من قاعدة قارورة خضراء اللون قطر قاعدتها ٨ سم (لوحة ١٧ج). وقد عثر على

---

(٤٤) Lane Arthur. **Early Islamic Pottery, Mesopotamia Egypt and Persia**, P.8. 1947. Faber and Faber. London. Soustil Jean. **La Céramique islamique, Le guide du connaiseur** .Office du Liver. Suisse 1985. PP.30. 33. 42.

(٤٥) Ghabban Ali. "Introduction à l' étude archéologique des deux routes syrienne et éqyptienne de Pelerinage au Nord-Ouest de l Arabie Saudite" pp.423-424.
رسالة دكتوراه غير منشورة نوقشت بجامعة بروفانس إبريل ١٩٨٨م.

أمثلة كاملة من نوعها في حفرية الربذة، وبأحجام مختلفة[٤٦]. ولهذه القوارير بدن كروي وقاعدة مقعرة وعنق مخروطي ينتهي بشفة مثنية إلى الخارج، وتصنع هذه القوارير بطريقة النفخ الحر، وربما كانت تصنع في الربذة، حيث عثر على مصهر للزجاج وقطع تالفة أثناء الصنع، وتعتبر طريقة النفخ الحر أقدم طرائق صناعة الزجاج التي اهتدى إليها الإنسان. وقد تطورت صناعة الزجاج على يد المسلمين وأدخلت عليها أساليب جديدة في التشكيل والزخرفة، وصنع المسلمون قوارير متعددة الوظائف وكؤوساً وصحوناً وطاسات وأواني لحفظ العلاج وتناوله. بالإضافة إلى صنع الموازين والمكاييل وأنواع الحلي، وانتشر استخدام الأواني والأدوات الزجاجية في حياة المسلمين اليومية[٤٧].

التاريخ المحتمل لسكن القرية:

يدل تخطيط القرية وموقع المسجد منها على أن بناء المسجد متزامن مع نشأتها وليس مضافاً عليها. ووجود المسجد بملامحه الواضحة يؤكد أن هذه القرية كانت مأهولة بعد الإسلام وليس قبله، كما أن الخصائص المميزة لمخطط المسجد وعناصره المعمارية وخصوصاً محرابه الذي يشبه محراب مسجد الربذة الجامع يسمح بتحديد فترة سكنى هذه القرية بالفترة الإسلامية المبكرة: صدر الإسلام والعصرين الأموي والعباسي الأول. وإذا أُخِذ بعين الاعتبار عدم وجود أدلة أثرية أو كسر من فخار وخزف القرن الثالث الهجري بالموقع، وفي الوقت نفسه توفر مواد فخارية مميزة يمكن نسبتها إلى القرنين الأول والثاني للهجرة، وخصوصاً كسر فخار الطبخ الأموي، وكسر الفخار المزجج ذي الطلاء القلوي الذي يميل لونه إلى الاخضرار، فإن الباحث يميل إلى حصر تاريخ سكنى هذه القرية، ومن ثم نشاط التعدين في المنجم المتصل بها في فترة القرنين الأول والثاني للهجرة. وهذه النتيجة مبنية على تواريخ المواد الأثرية التي ظهرت في العمل الميداني المحدود الذي نفذه الباحث، وهي ليست نتيجة نهائية وقد تبقى هذه الفترة على ما هي عليه أو تمتد لما بعد القرن الثاني الهجري في ضوء نتائج جديدة لعمل ميداني موسع يكشف كامل القرية أو جزءاً كبيراً منها.

لقد شهدت المنطقة الواقعة بين ضرية والربذة نشاطاً استيطانياً واستثمارياً مكثفاً خلال القرنين الأول والثاني للهجرة، حيث استنبطت فيها مواقع كثيرة للمياه، وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه قد احتفر عيناً خارج حمى ضرية، وابتنى عماله عند العين قصراً يسكنونه، فلما قتل عثمان بن

---

(٤٦) الراشد، سعد، **الربذة**، ص٩٢.

(٤٧) المرجع السابق، ص ص ٩٠،٨٩، صورة ١١٥؛ = عبدالخالق، هناء، **الزجاج الإسلامي**، وزارة الإعلام، بغداد: ١٩٧٦م، ص ص ٤٠-٤٢،٤٥،٤٦.

عفـــان انكشـــف العمال وتركوها[٤٨]. وكان مـــروان بـــن الحكـــم احتفر حفيرة يقال لها الصـــفوة عـــلى عشرين ميلاً من ضرية ثم اســـترجعها بـــنو الأضـــبط فـــي أيـــام بني العـــباس[٤٩]، ولبني الأدرم "بطن من قريش" مـــاء يبعد ثمانية عشر ميلاً عن ضرية على طـــريق المدينة، وكان بنو الأدرم وبنو بجير القرشيون قد نموا بهذا الحفر ونواحيه فكثرت رجالهم به ثم وقعت بينهم شرور فتفرقوا في البلاد[٥٠]، وبناحية حمى الربذة حفائر أخرى كحفيرة بني نصر موالي عبدالله بن عامر[٥١]، هذا بالإضافة إلى مياه القبائل الساكنة في هذه الـــنواحي. وأمـــا المعـــادن فتذكر المصادر معـــادن عـــدة استجدت بهذه النواحي خلال الفـــترة الإسلامية المبكرة مثل معدن النقرة المعـــروف بمعدن القرشي وهو للمسيب بن ســـليمان المخـــزومي، وقد استحدثه في أيام الواثـــق. والمعـــدن حصن حوله خندق وله بابـــان[٥٢]، ومعـــدن المـــاوان: لـــرجل من الأعـــراب يقـــال له مـــربع وهو في أرض محـــارب[٥٣]. قال الأصفهاني: "ومن جبالهم (يقصـــد محـــارب) ماوان وهو جبل أسود ضخم قال الحاربي[٥٤]:

إن يَبْدُ مَاوَانُ فقَدْ طَالَ شَوْقُنا
إلى الركنِ من مَاوَانَ لو كَانَ بَادِيَا

ولو كَلّفتَنْي قَوْدَ مَاوَانَ قُدْتُه
قِيَادَ البَعِـــير أو قَطَعْتُ فُؤادِيَـــا."

وفـــي ديـــار بـــني الأضبط هناك معدني المُؤَخَّـــرَةِ والقَشْرَاء وهما معدني ذهب وكلا المعدنين كانا سوقاً[٥٥].

سكان القرية:

إن وجود القرية بجوار أرض المنجم يؤكد أن سكانها كانوا يعملون بالتعدين. والعاملون فـــي معـــادن الجزيرة العربية خلال الفترة الإسلامية المبكرة على أربعة أصناف:

أبناء القبائل العربية، والموالي، والفرس، واليهـــود، وكان العرب يطلقون على فخوذ القبائل العربية التي تعمل بالتعدين مسمى بني القين. والقين من معانيه الصانع والحداد فكل صـــانع يعـــالج صنعته بنفسه يسمى قيناً إلا الكاتب، والتقيين يعني التزيين، وفي الحديث أنـــا قيّـــنت عائشة أي زينتها. وقد حمل هذا الاســـم أنـــاس صـــريحو النسب من القبائل العربية عملوا في التعدين لوجود المعادن في أرضـــهم مـــثل بني القين من بلي وهم بني فـــران، وبنو القين من سُليم وهو بنو الأختم بن عوف بن عصية، وبنو القين بن فَهْم بن عمرو بن قيس عيلان، والقيون من بني أسد وهم بنو الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمة،

(٤٨) الجاسـر، حمـد، **أبـو علـي الهجـري**، ص ص ٢٤٨، ٢٤٩.
(٤٩) المصدر السابق، ص ٢٥٠.
(٥٠) المصدر السابق، ص ٢٥٤،
(٥١) المصدر السابق، ص ٢٤٤.
(٥٢) الحربي، **المناسك**، ص ص ٢٢٤، ٢٢٣.
(٥٣) المصدر السابق، ص ٣٢٥.
(٥٤) الأصفهاني، **بلاد العرب**، ص ١٧٦.
(٥٥) المصدر السابق، ص ص ١٩٨، ١٩٩.

وبني القين بن جسر بن شيع الله من قضاعة[٥٦]. وقرية شعيب المصانع تقع في أراضي قبيلة محارب كما أوضح الباحث في بداية البحث، وهم بنو محارب بن خصفة بن قيس عيلان، ومن هذه القبيلة كان هناك فخذ يعمل بالتعدين ويحمل أيضاً اسم بني القين، وهم بنو القين بن جسر بن محارب[٥٧]. وديارهم بالقرب من ذي حساء حيث موقع القرية[٥٨]، ولذا فإن الباحث لا يستبعد أن يكون سكان هذه القرية التعدينية من بني القين بن محارب، وأنهم من المقيمين إقامة دائمة في ديارهم.

ويتوقف دوام الإقامة في أي معدن على استمرار الإنتاج في أرضه، فبعض المعادن يطغى عليها الماء فيحول دون مواصلة العمل فيها، وبعضها يستمر العمل فيها دهراً مثل معدن النجادي وهو معدن ذهب قريب من ضرية (كان لنجاد بن موسى بن سعد بن أبي وقاص)، وقد عمل فيه بنوه دهراً، قوم بعد قوم، وضرب به المثل في كثرة النيل (أي استخراج الذهب)، وكانت بقربه قرية عظيمة إلا أن الماء غلب عليه في نهاية المطاف[٥٩].

وقرية شعيب المصانع بنيت بجوار المعدن وفق نظام الحجرات المتباعدة فأتت أشبه ما تكون بمعسكر العمال، إلا أن هذا لا يمنع أن تكون سكناً لأفراد بأسرهم، والعمل في المناجم يتواصل ويستمر جيلاً بعد جيل، وقرية شعيب المصانع شهدت ثلاث مراحل بنائية - كما ذكر أعلاه - مما يدل على استمرار السكن بالقرية فترة طويلة نسبياً.

إن العمل الميداني الذي تم بالموقع، وهو مسح سطحي وحفر اختبارية محدودة، لم يوفر أدلة تساعد على حسم هذه المسألة، إذ لم يعثر على مواد تدل على وجود عنصر نسائي أو أطفال بالموقع كما هي الحال في حفرية الربذة، حيث عثر على حلي وأدوات زينة نسائية، ودمى خاصة بالأطفال[٦٠]، ولكن ذلك لا ينفي احتمال إقامة العاملين بالمعدن مع أسرهم، خصوصاً أن توزيع مداخل الوحدات السكنية روعي فيه خصوصية الجار وعدم الكشف.

النتائج العامة للبحث:

يمكن إيجاز أهم النتائج التي خلص إليها هذا البحث في النقاط التالية:

١- إن وجود هذه القرية بجانب المنجم يؤكد أنها قرية للمُعَدِّنين، ويضاف إلى ذلك أن المواد الأثرية التي عثر عليها بالموقع لها ارتباط بالنشاط التعديني، وبخاصة كسر مطاحن الذهب

(٥٦) الجاسر، حمد، "المعادن القديمة في بلاد العرب-١" **العرب**، السنة الثانية، ج٩، ربيع الأول ١٣٨٨هـ، ص ص٨٠٧، ٨١٠.

(٥٧) الأصفهاني، **بلاد العرب**، ص١٨٧.

(٥٨) الحازمي، **الأماكن**، ج١، ص٣٤٧.

(٥٩) الجاسر، حمد، **أبو علي الهجري**، ص ص ٢٧٣، ٢٧٤.

(٦٠) الراشد، سعد، **الربذة**، ص ٩١.

والمساحن الثابتة القريبة من المجموعة الجنوبية للوحدات السكنية.

٢- أظهـرت المجسات الأثرية أن التراكم الطـبقي فـي المسجد والوحدة السكنية رقم (١) لا يتجاوز نصف المتر، وهو يقتصر على الطبقات الأثرية الموجودة بيـن الأساسات المبنية بالحجر، ويبدو أن سـمك الطبقات لا يختلف في بقية أجزاء الموقع، حيث يلاحظ عدم وجود تـلال أثـرية عاليـة أو اختلاف في الارتفاعات على سطح الموقع. وصِغَر سـمك الطبقات الأثرية لا يعني قصر فترة السكن بالموقع وإنما هو ناتج عن جـرف السيول والأمطار للركام الذي نـتج عن تهدم الوحدات السكنية المبنية باللـبن وبقـاء الطـبقات المتكونة بين الأساسات الحجرية.

٣- أظهرت دراسة المخطط العام للقرية أن بـناء القرية مر بثلاثة مراحل بنائية، وأن المجموعة الوسطى للحجرات التي يتوسـطها المسـجد هـي الأقدم تليها المجموعـات الأخـرى الجـنوبية ثم الشـمالية، وأن السـكن بالموقع استمر لفترة زمنية طويلة نسبياً.

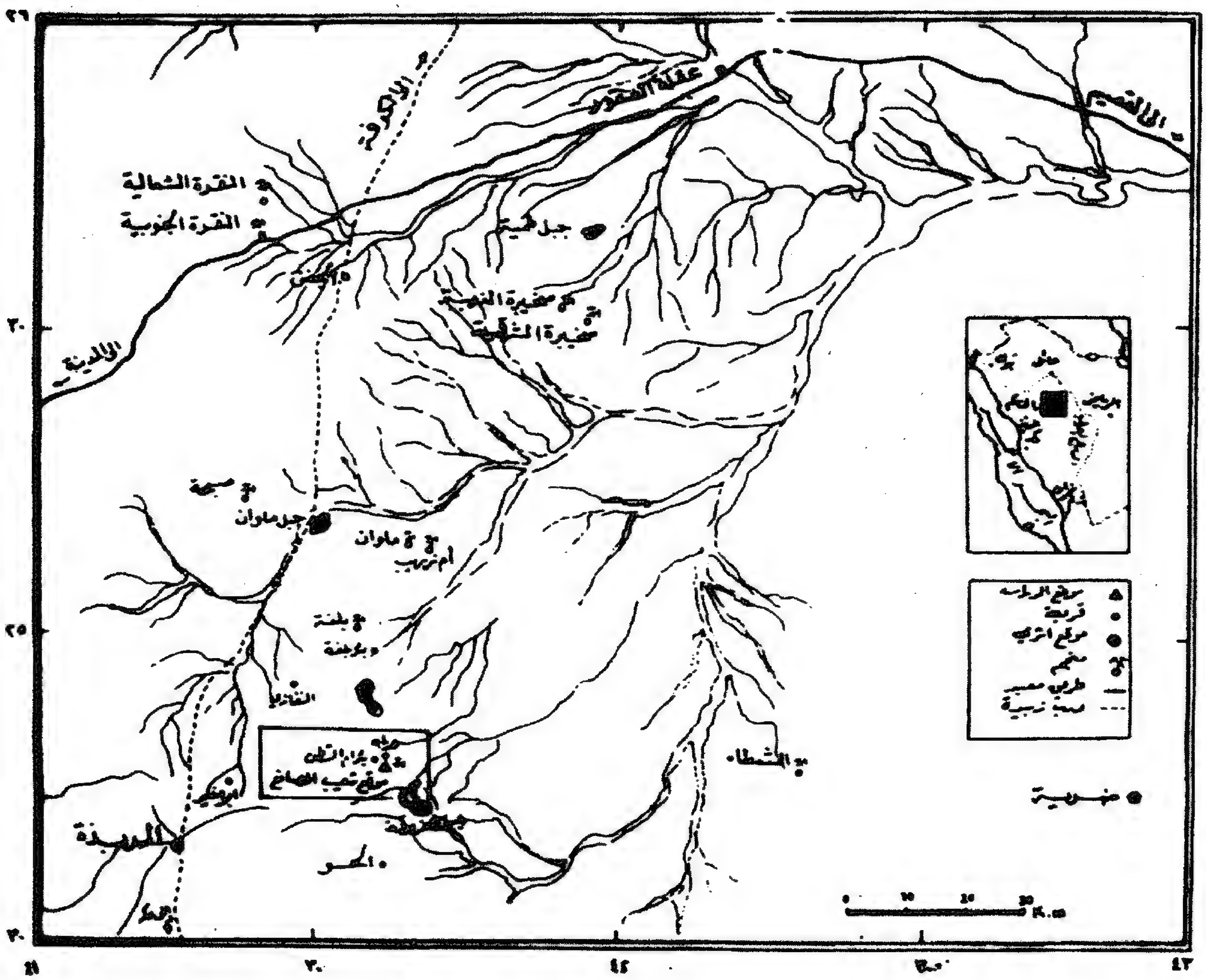
٤- فـي ضوء دراسة المواد الأثرية التي عـثر عـليها بالموقع، ودراسة مخطط المسجد أمكن تحديد الفترة التي سكنت فيهـا القرية بالفترة الإسلامية المبكرة (القـرنين الأول والثاني للهجرة) وأن هذه القرية: قرية تعدينية إسلامية.

٥- في ضوء دراسة النصوص الواردة في المصادر عن التعدين والمعادن وأسماء القبائل والمواضع ذات العلاقة بالمنطقة الـتي تقـع فيها قرية شعيب المصانع، رجـح الـباحث أن تكـون هذه القرية والمعـدن المتصل بها من معادن قبيلة محارب العدنانية، وأن يكون العاملون والساكنون في هذه القرية من أفراد هذه القبيلة التي تشير المصادر إلى اشتغال بعض فخوذها بالتعدين.

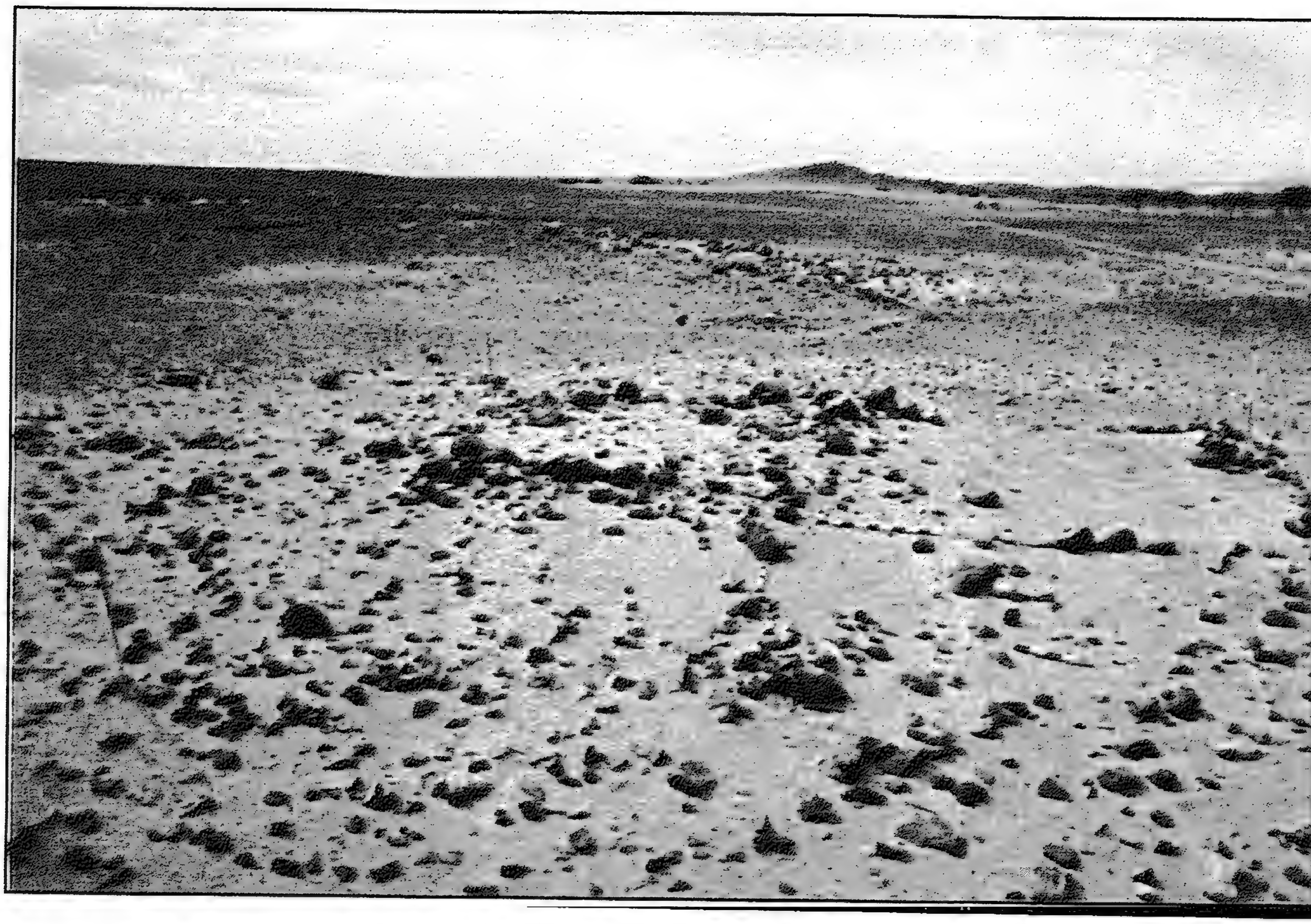
٦- وجود تأثير واضح لعمارة الربذة على الموقـع وخصوصـاً مسـجد القـرية وطريقة بناء الحجرات، وتعتبر الربذة أقـرب المـدن الرئيسة إلى هذه القرية ويرجح أن سكان القرية كانوا يستفيدون من سوق الربذة العامرة طوال العام في قضاء حوائجهم.

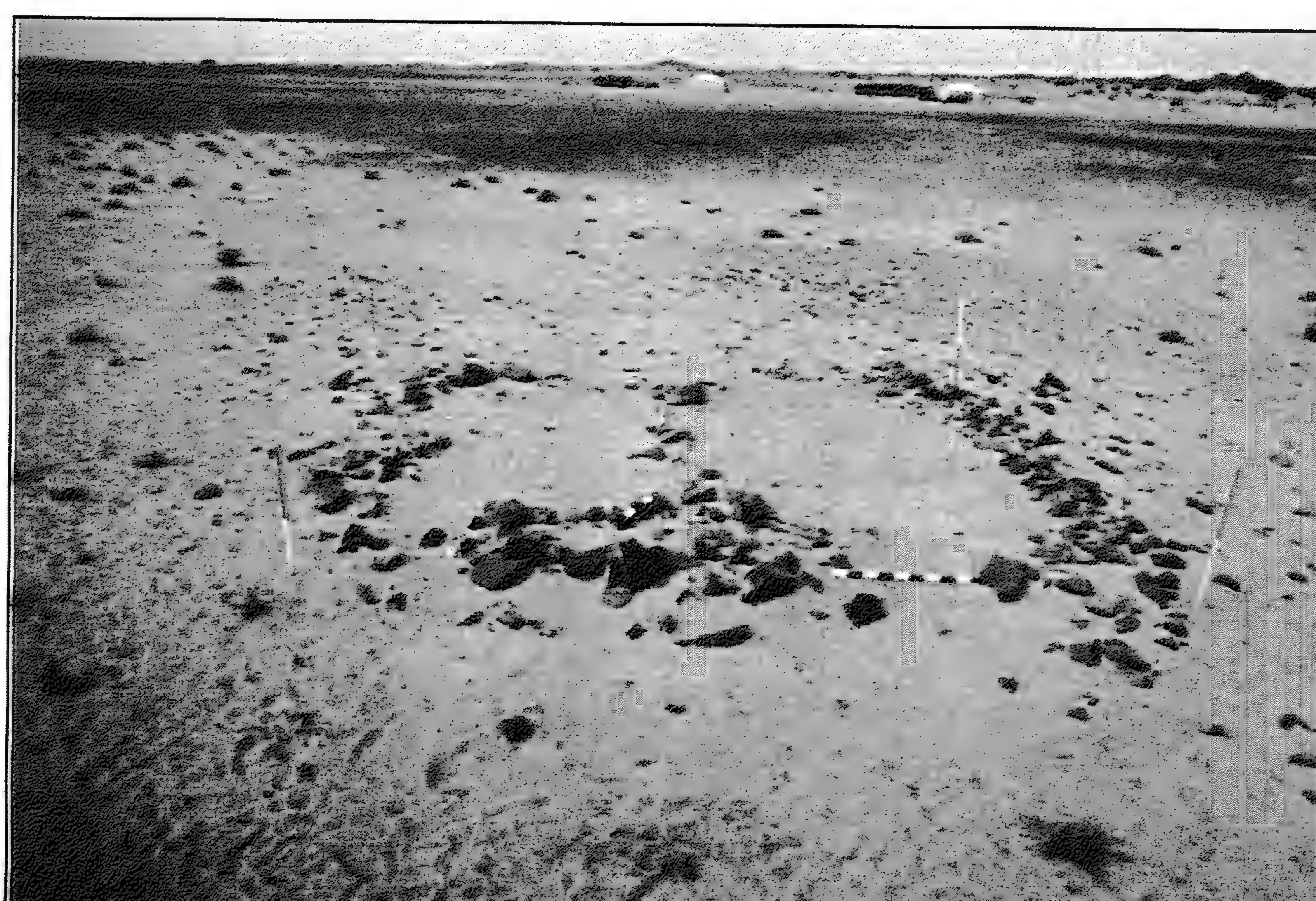
٧- إن مخطط القرية يأخذ شكل الحجرات المتباعدة وهو أشبه بمعسكر العمال إلا أن الـباحث رجـح أن القـرية كانت مسكونة بأفراد مع أسرهم.

وختاماً، يشير الباحث إلى أن دراسة هذه القـرية التعديـنية قدمت مثالاً متكاملاً لأحد أنماط البناء والسكن حول مواقع المناجم في الجزيـرة العـربية خـلال الفترة الإسلامية المـبكرة، وسيتيح هذا المثال مجالاً للمقارنة عـند دراسـة مخططـات القرى التعدينية الأخرى، وهي كثيرة وخصوصاً في المملكة العربية السعودية.



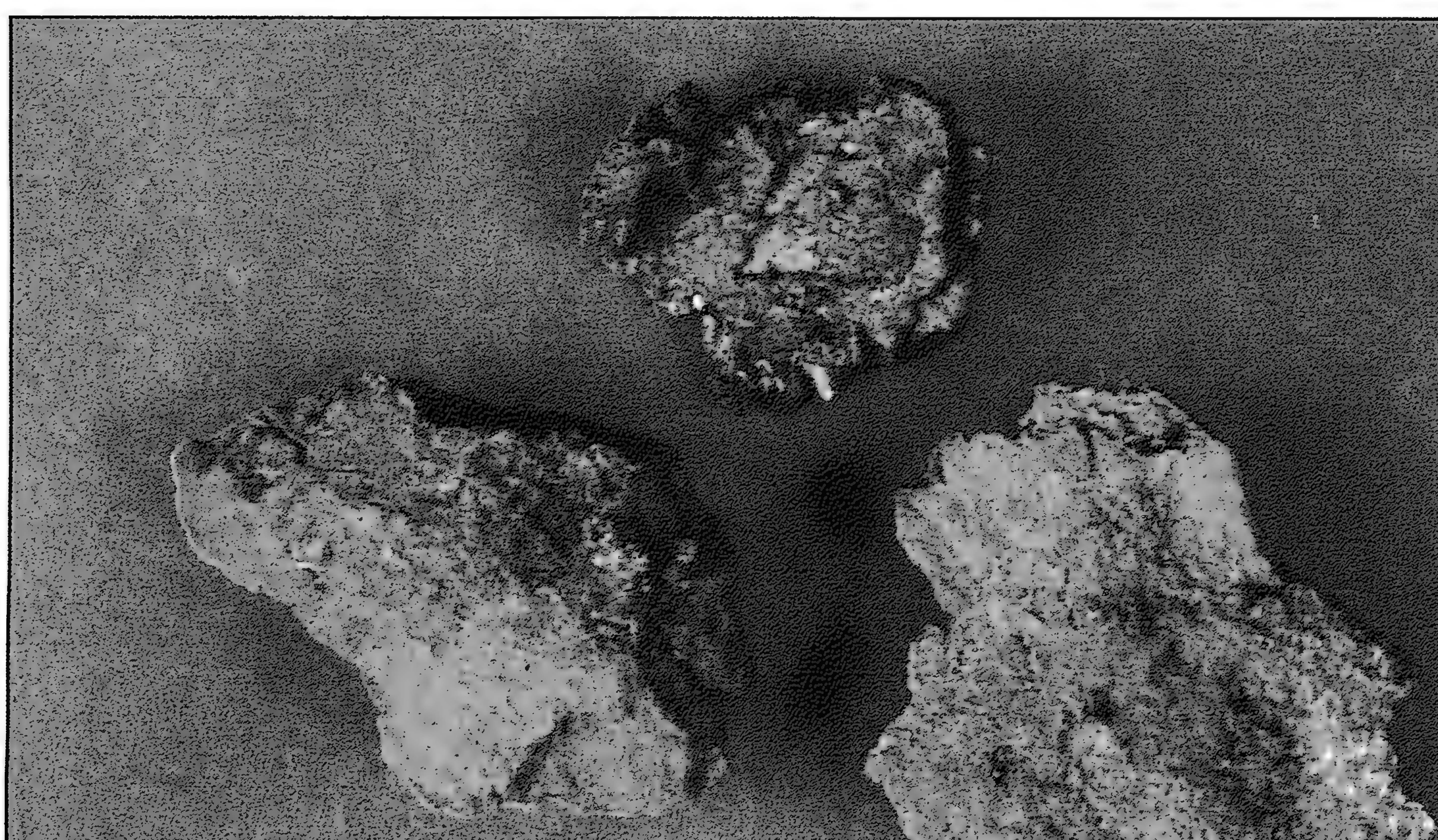
لوحة ١ : خريطة تبين موقع قرية شعيب المصانع



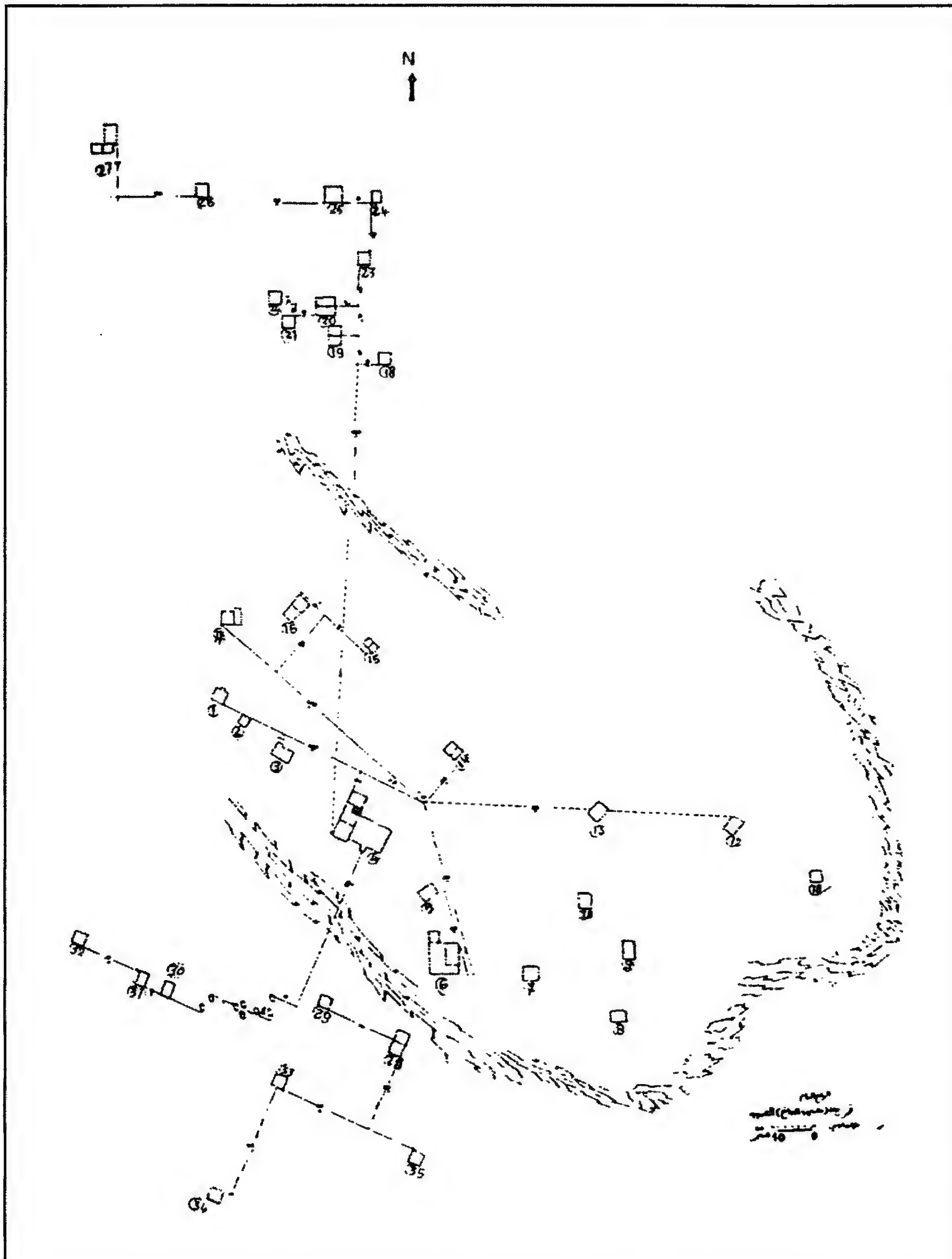


لوحة ٢ : صورتان عامتان لموقع القرية

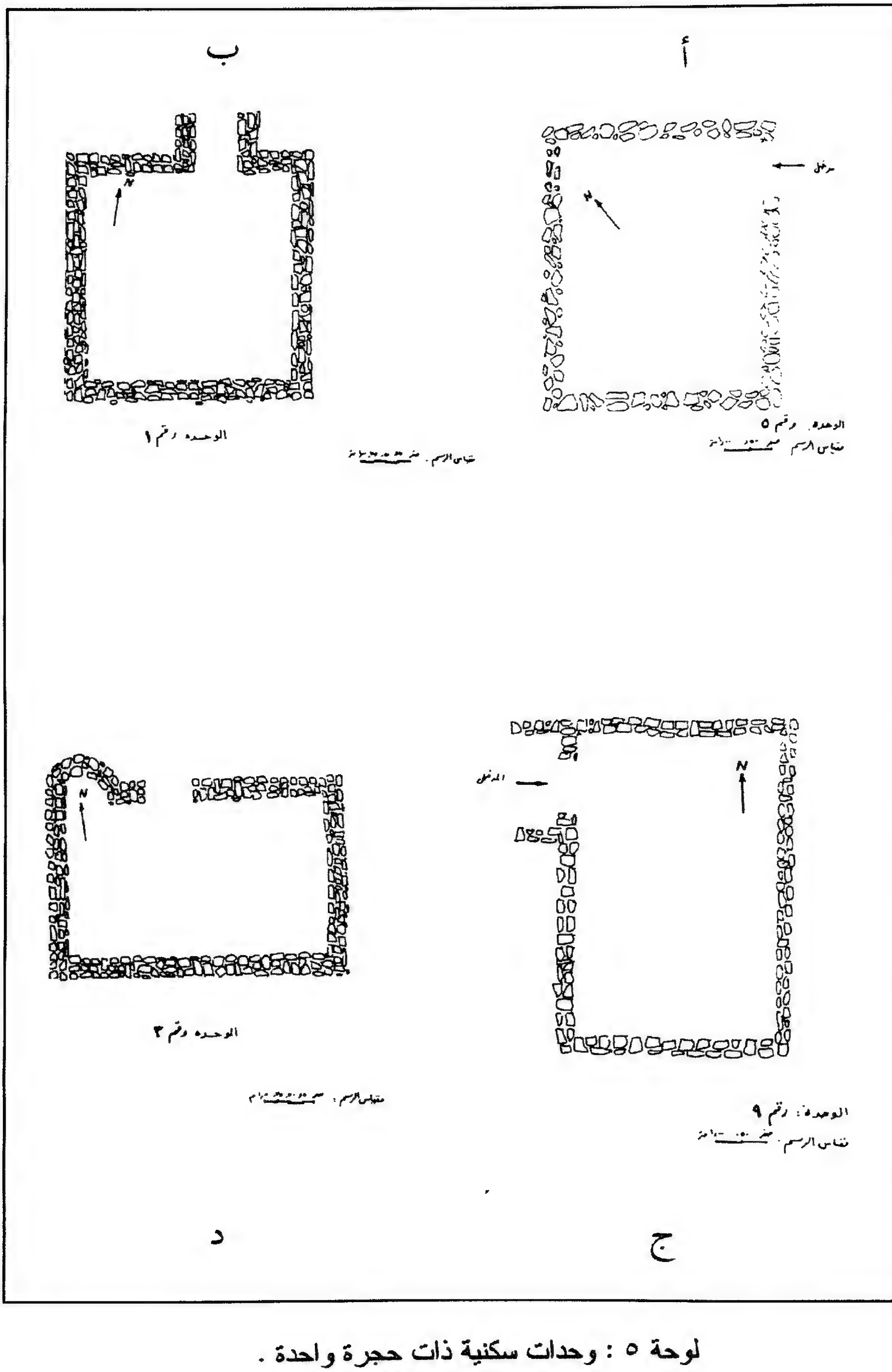




لوحة ٣ : جانب من منطقة التعدين، ونماذج من خامات الموقع المعدنية

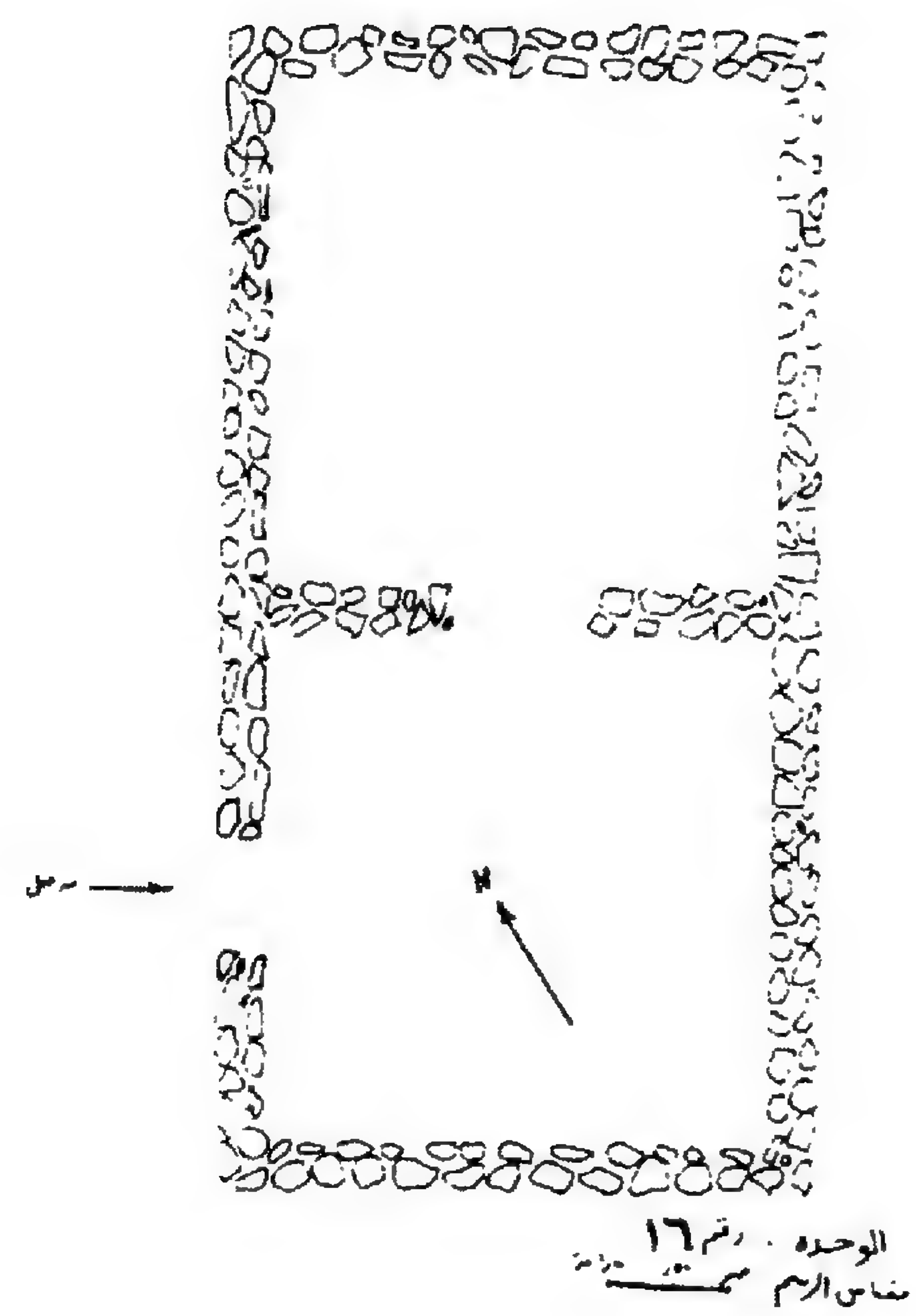


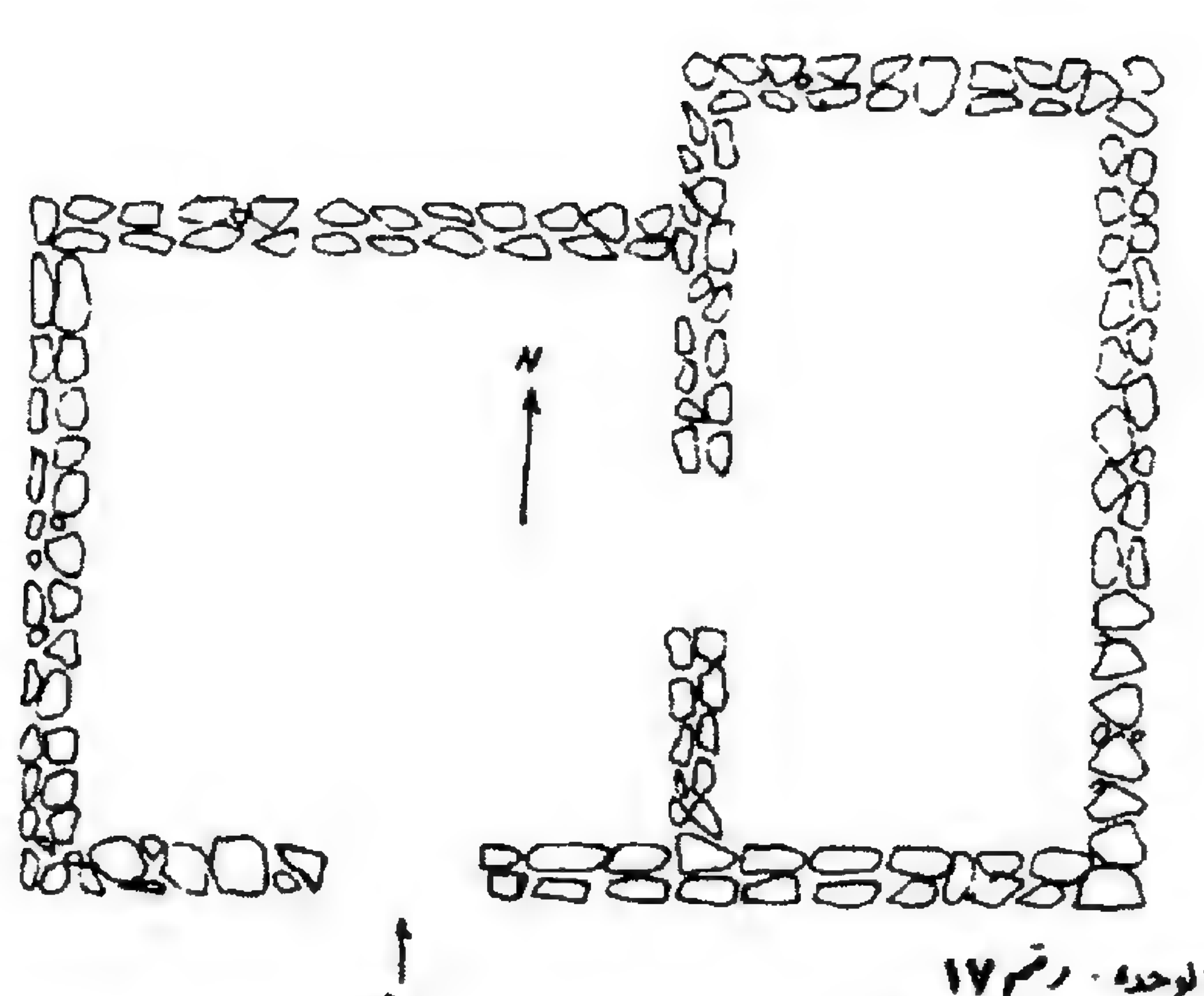
لوحة ٤ : المخطط العام لقرية شعيب المصانع .



لوحة ٥ : وحدات سكنية ذات حجرة واحدة .

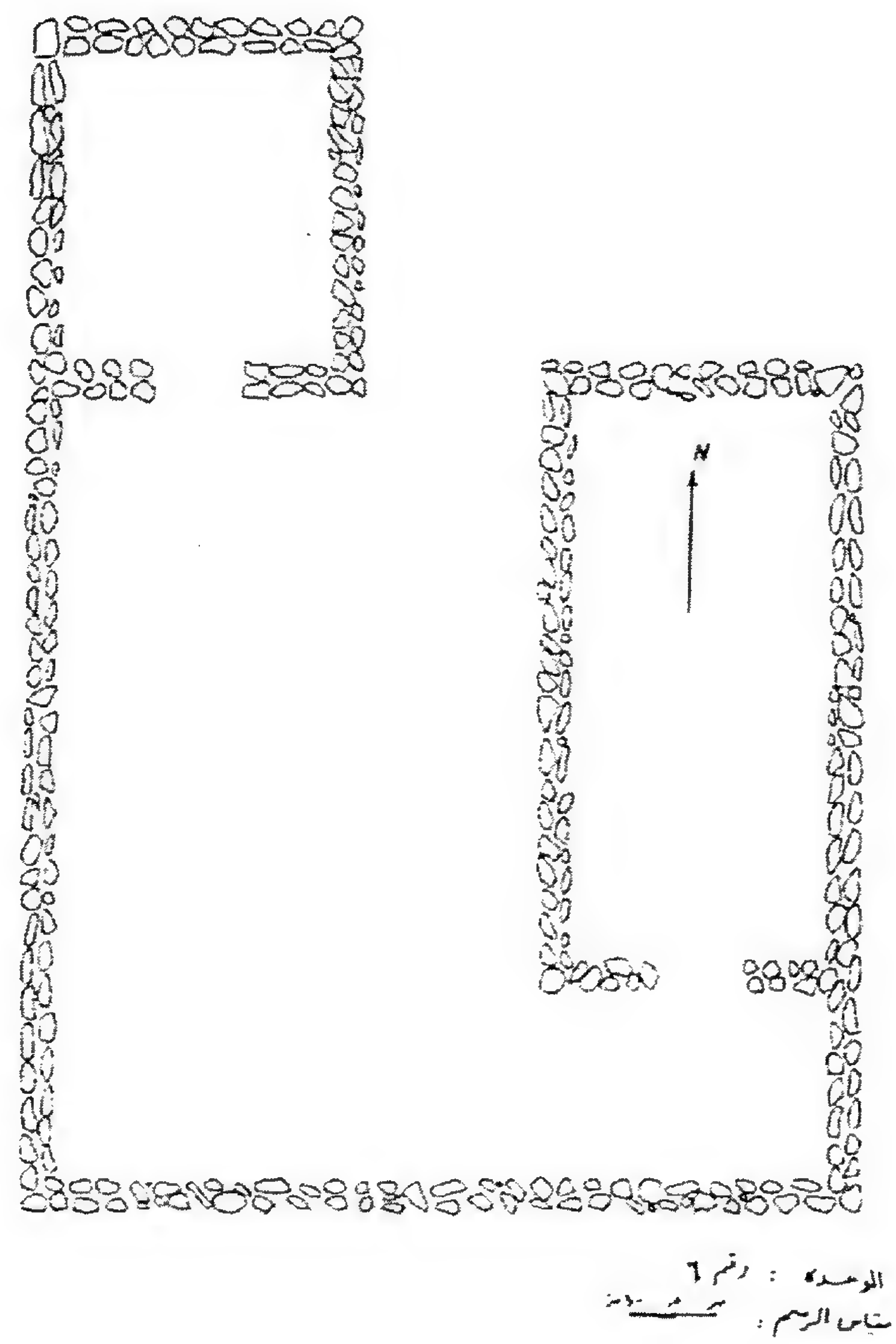
أ





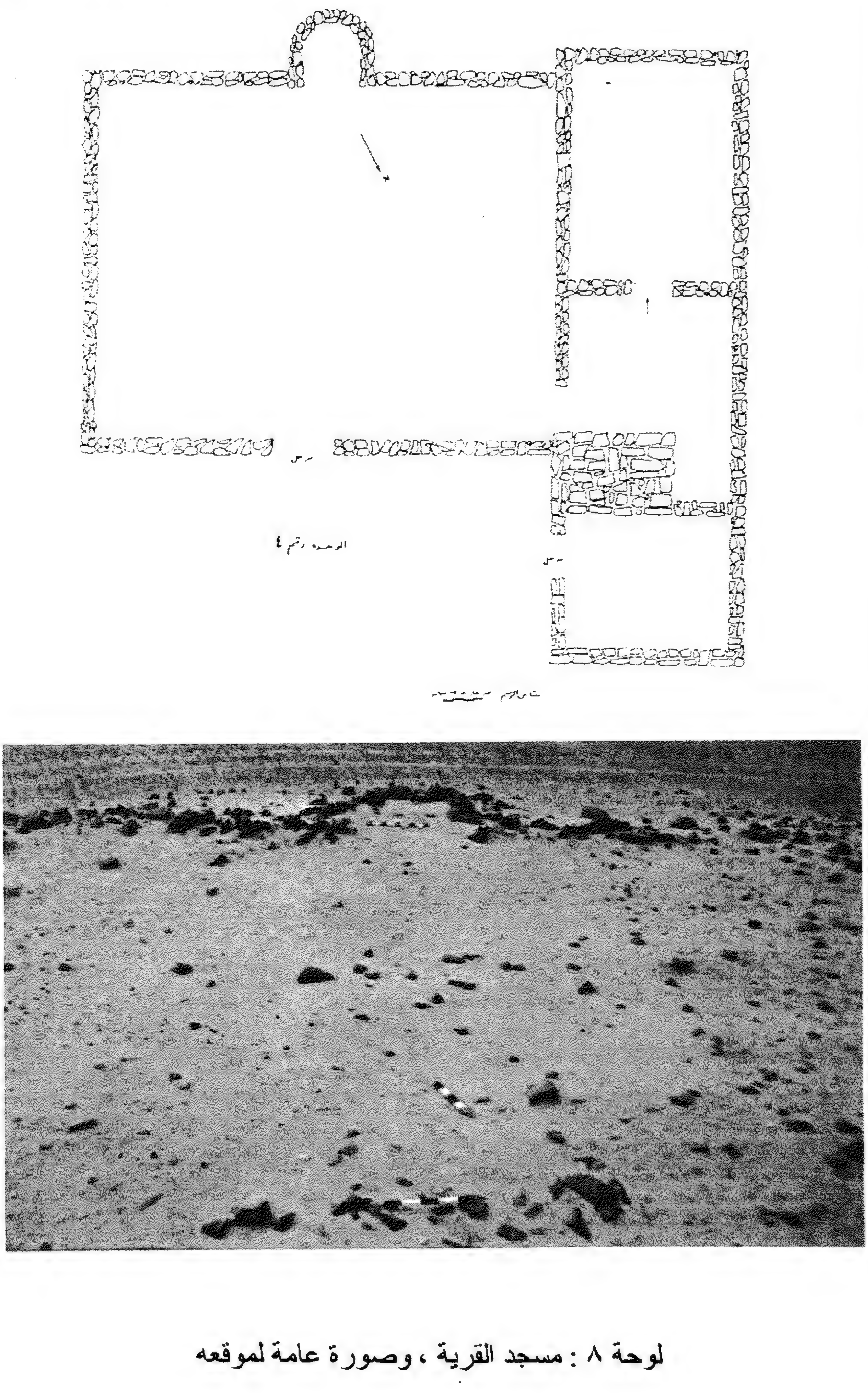
ب

لوحة ٦:وحدتان ذاتا حجرة وفناء ،أو حجرتين متلاصقتين .

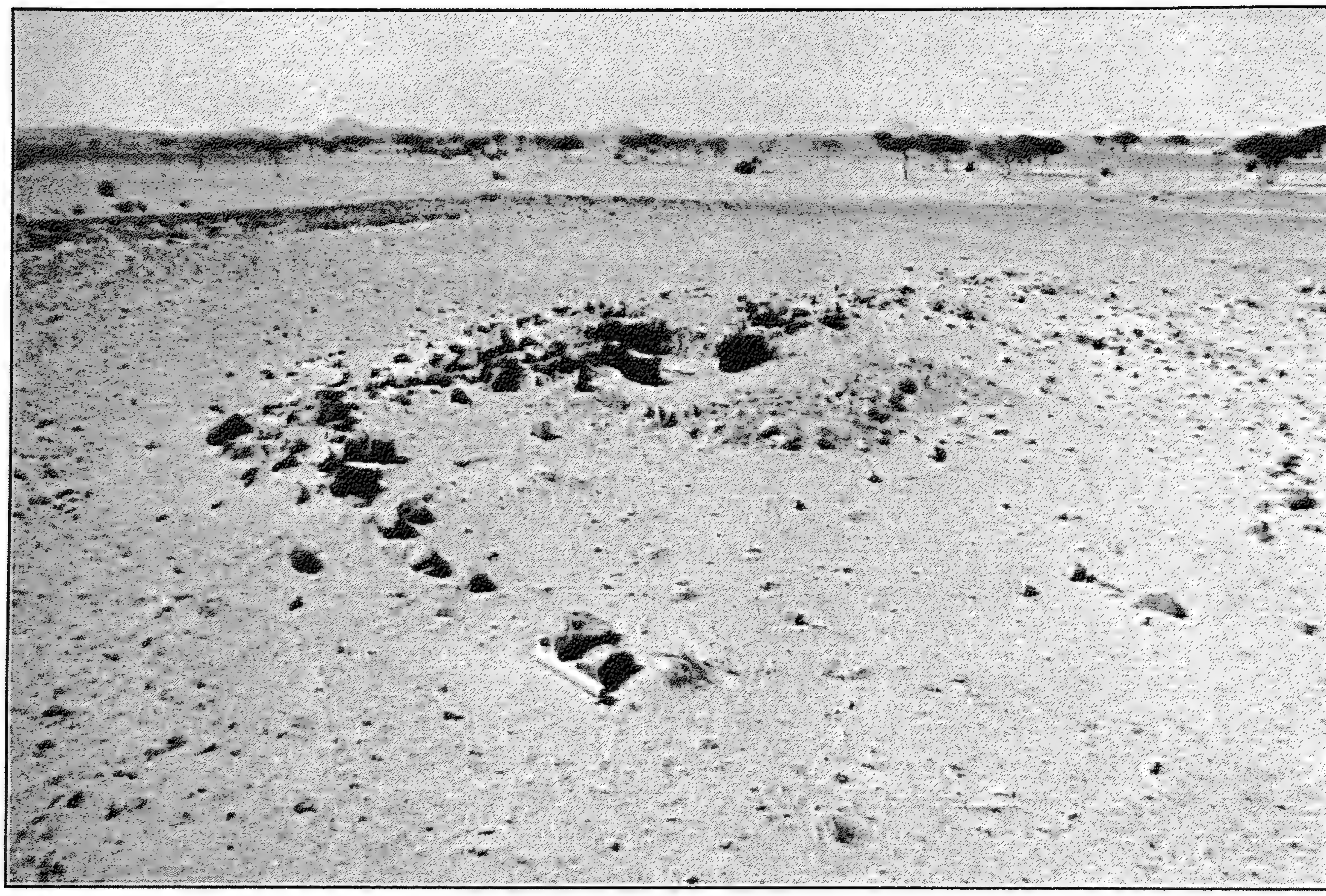




لوحة ٧ : وحدة سكنية مكونة من حجرتين وفناء ، وصورة عامة لموقعها

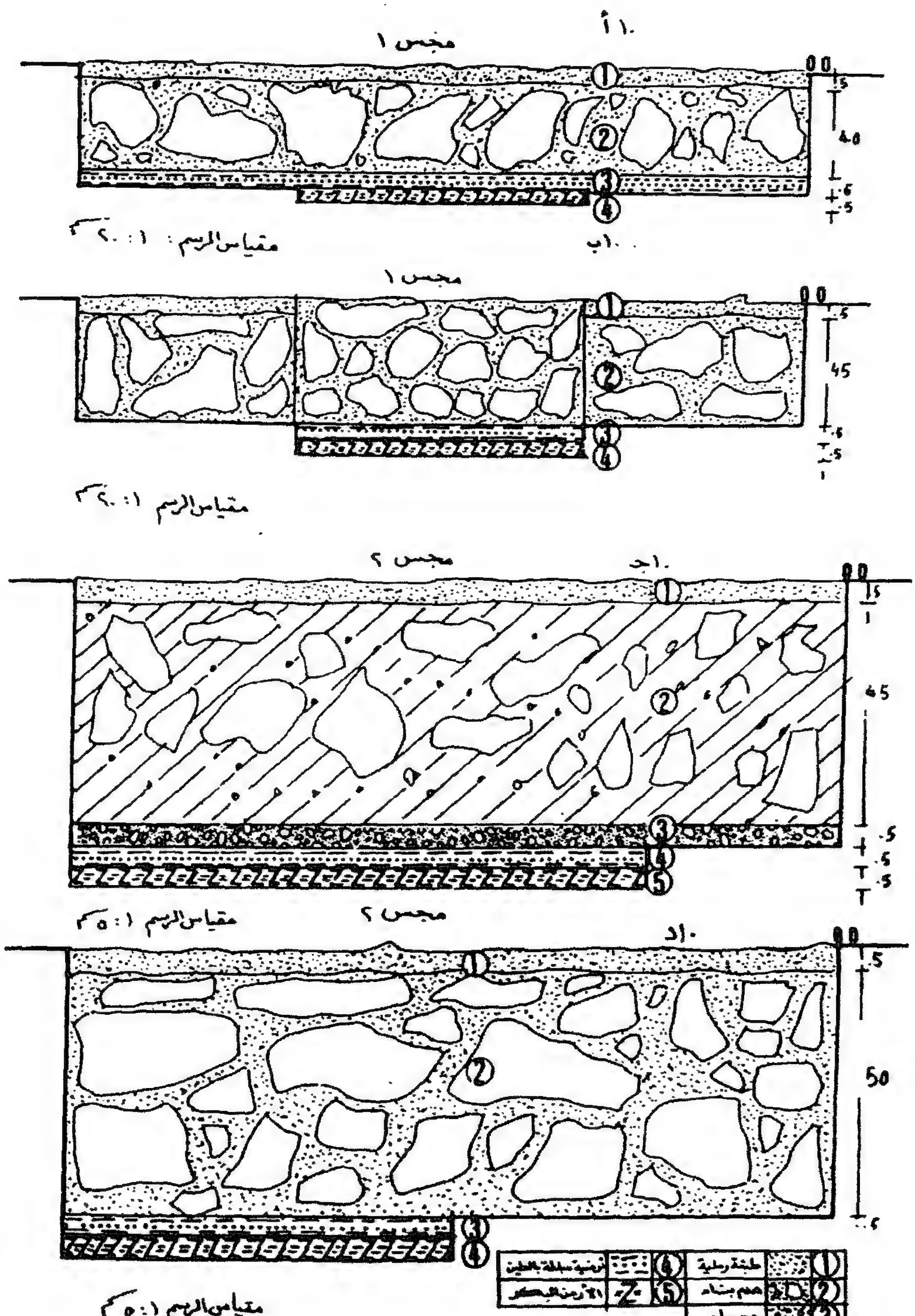


لوحة ٨ : مسجد القرية ، وصورة عامة لموقعه

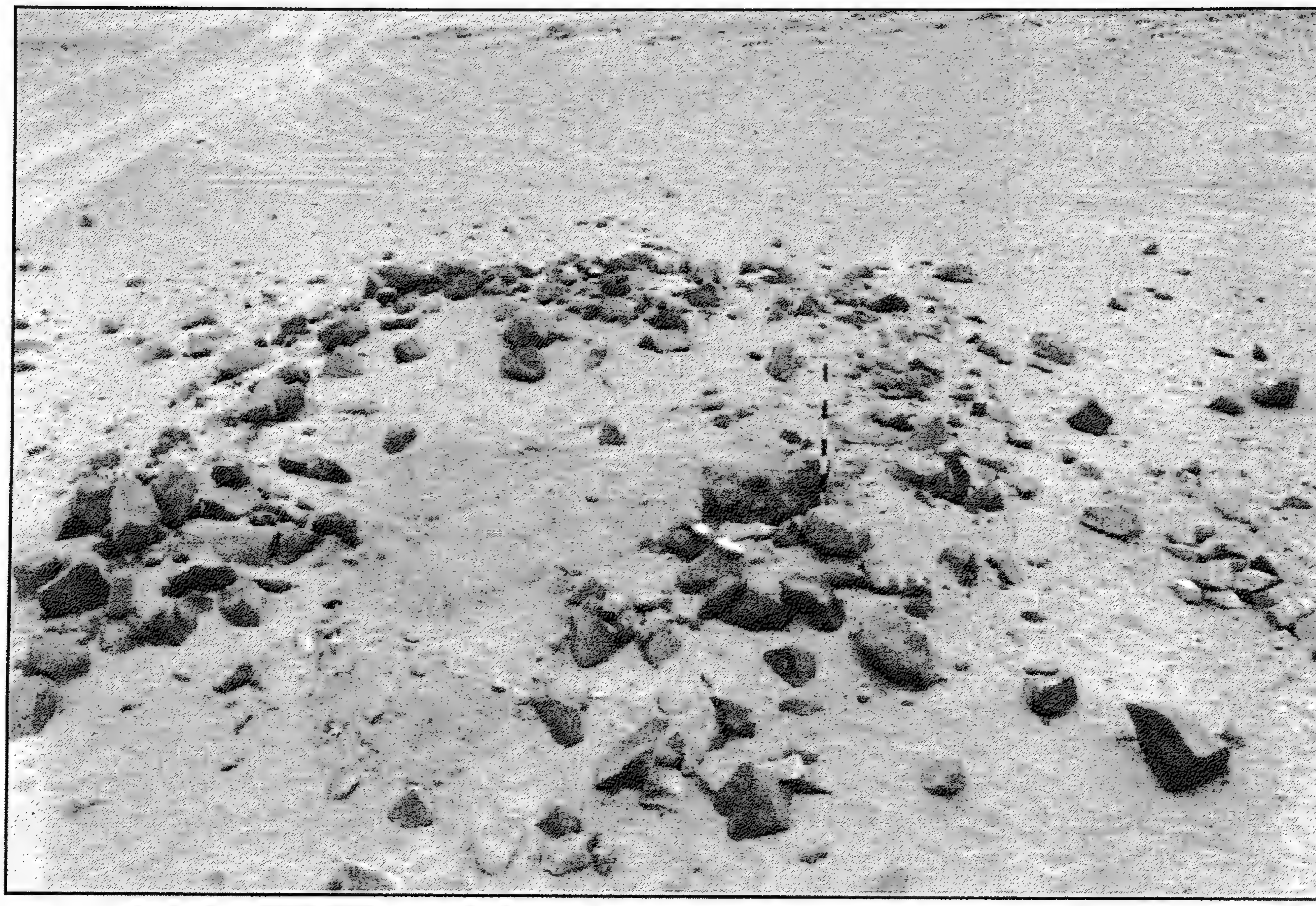




لوحة ٩: حفرية اختبارية في محراب المسجد (المجس الأول).

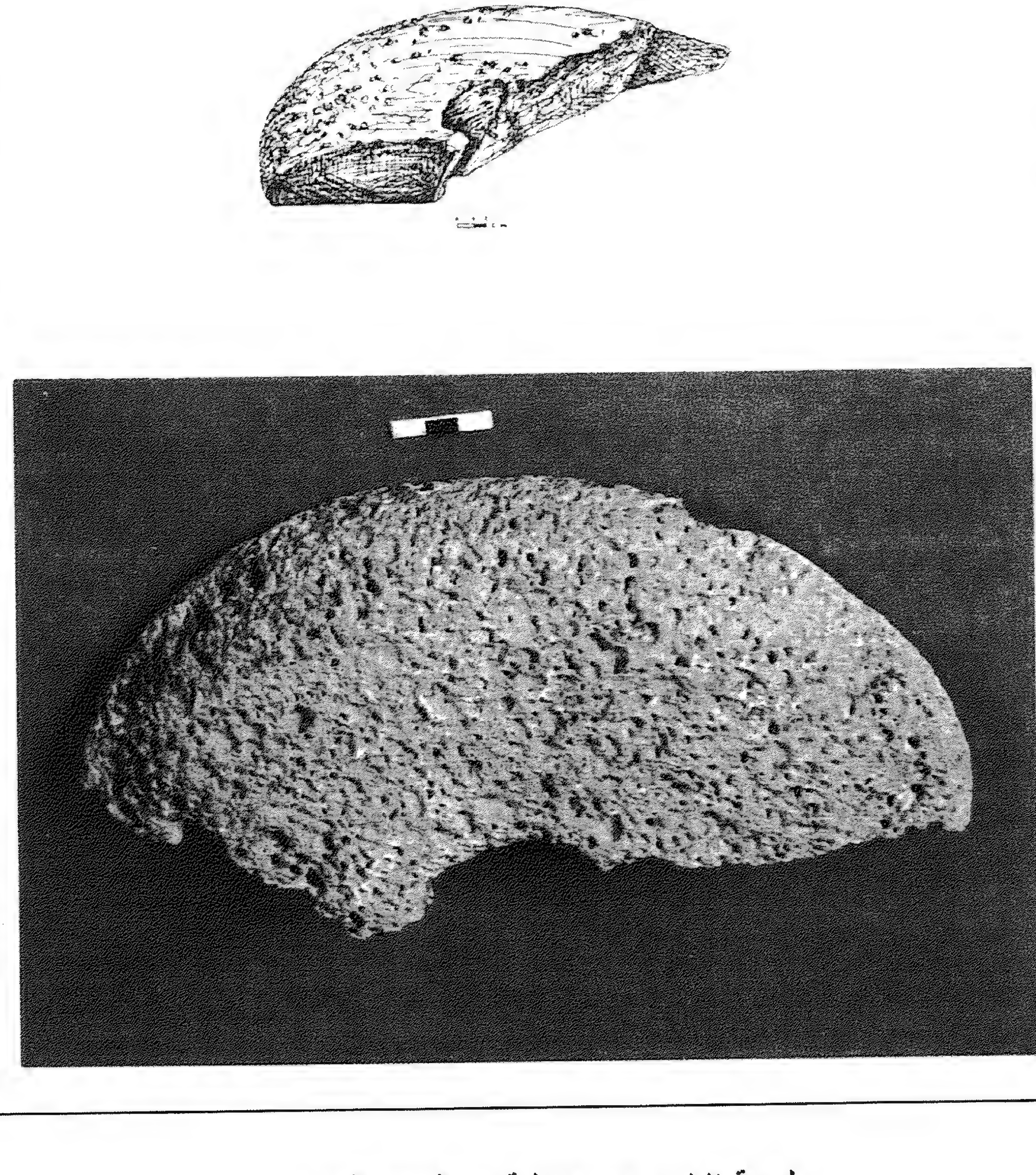


لوحة ١٠: رسم يوضح تراصف الطبقات في المجسين .

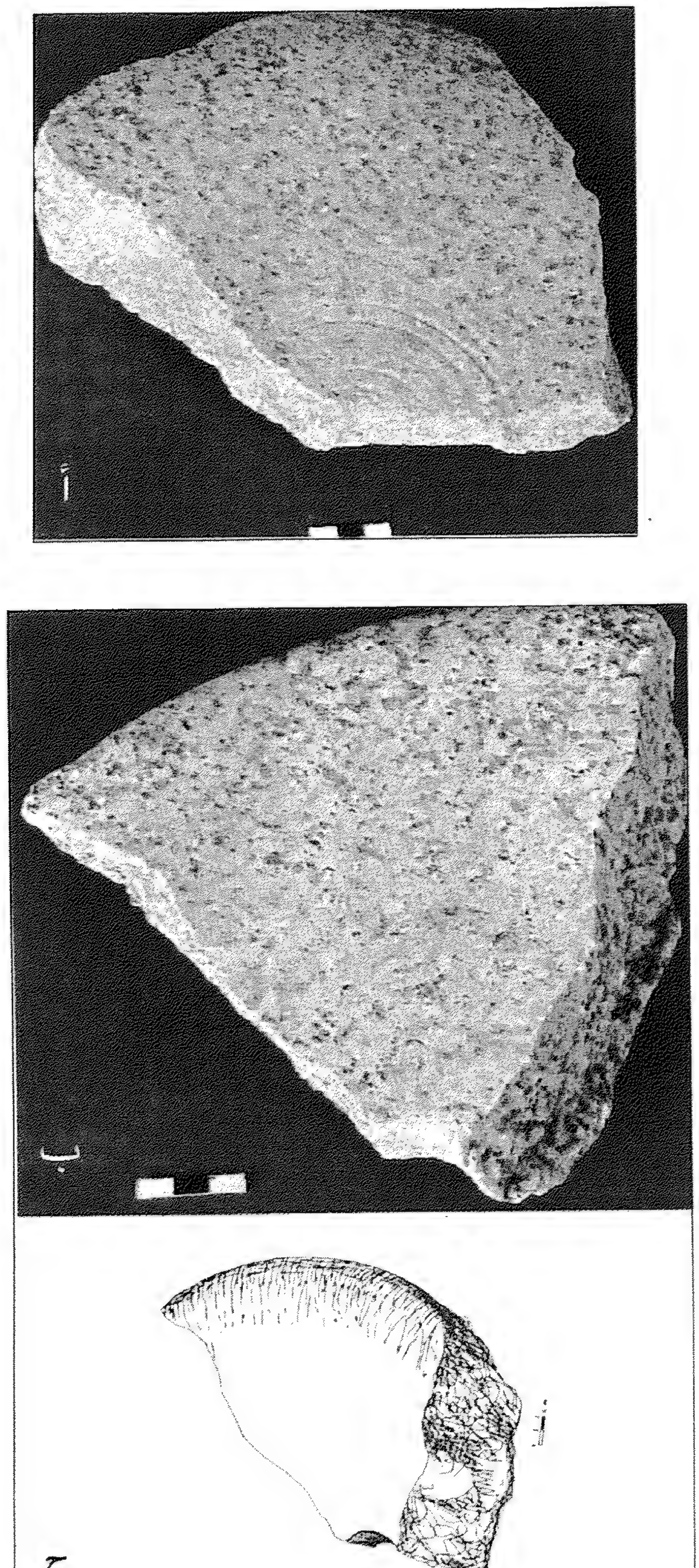




لوحة ١١ : حفرية اختبارية في الوحدة رقم ١ (المجس الثاني)

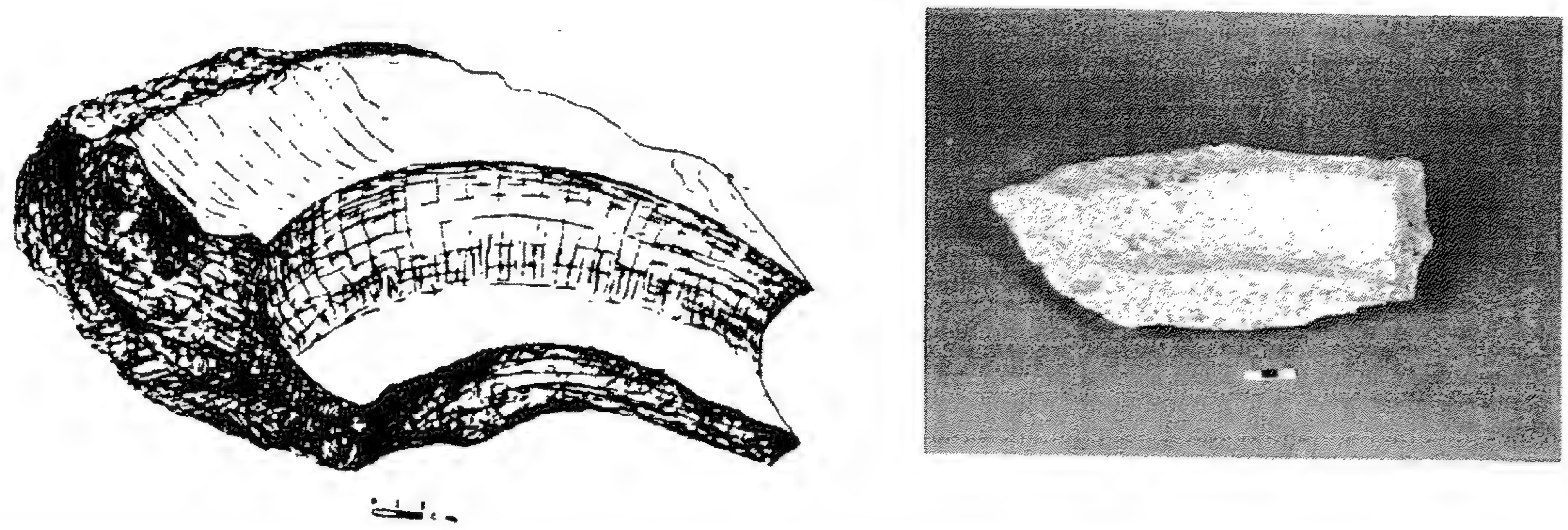


لوحة ١٢ : رحى منزلية من الحجر الحري

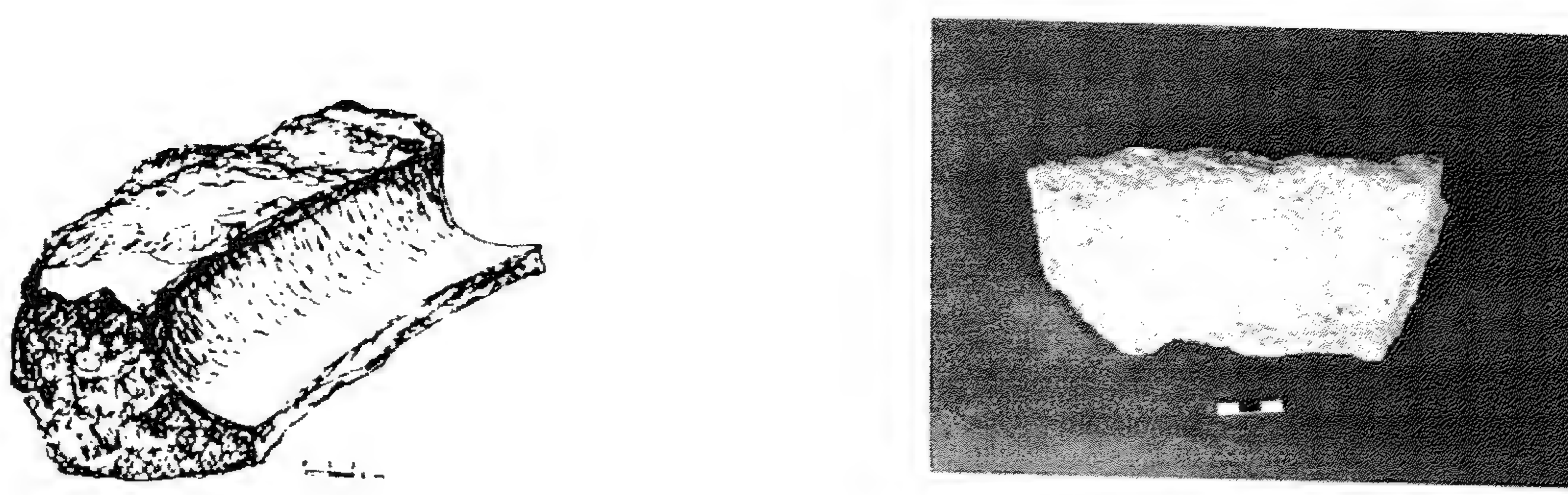


لوحة ١٣ : كسر لأرحاء منزلية مصنوعة من الجرانيت

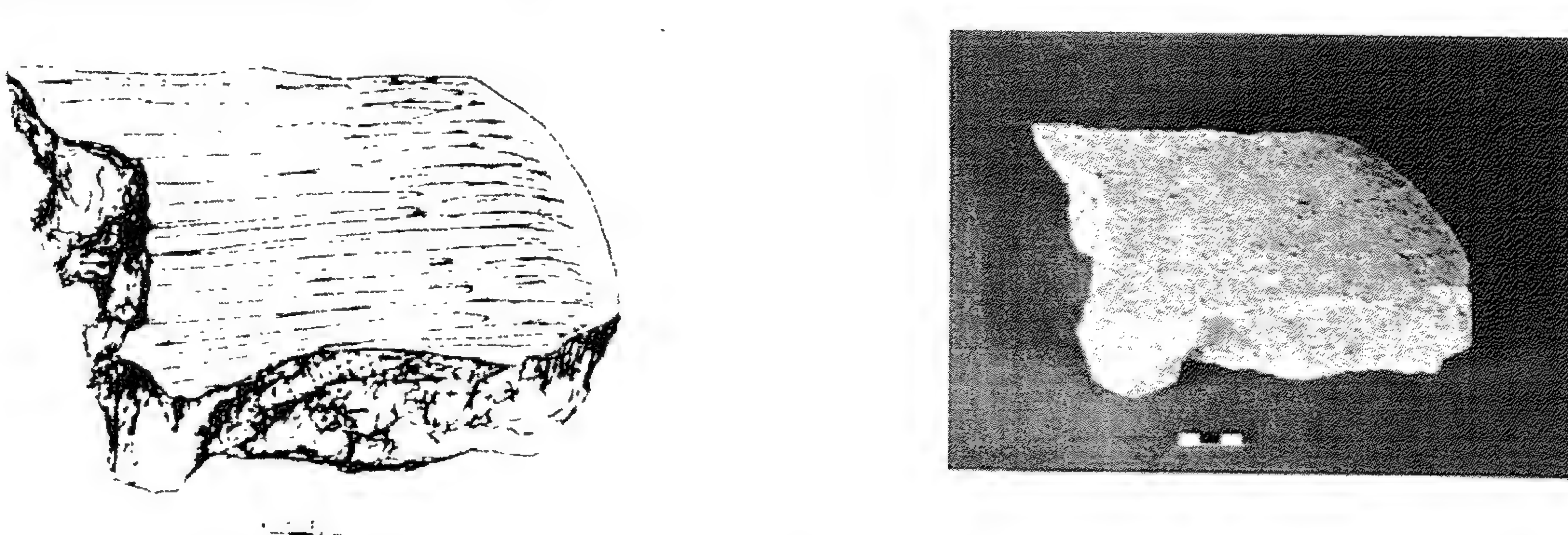
أ



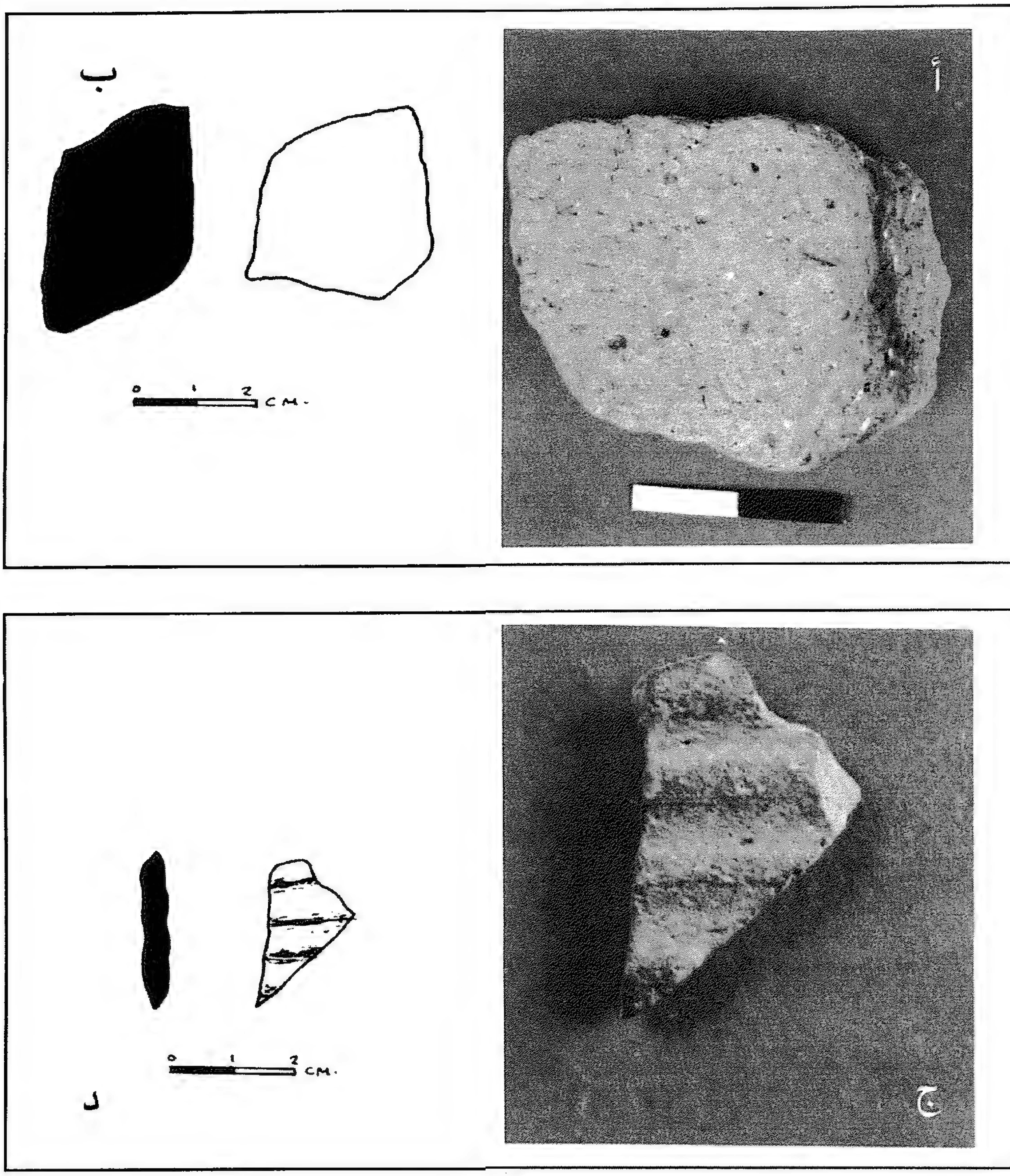
ب



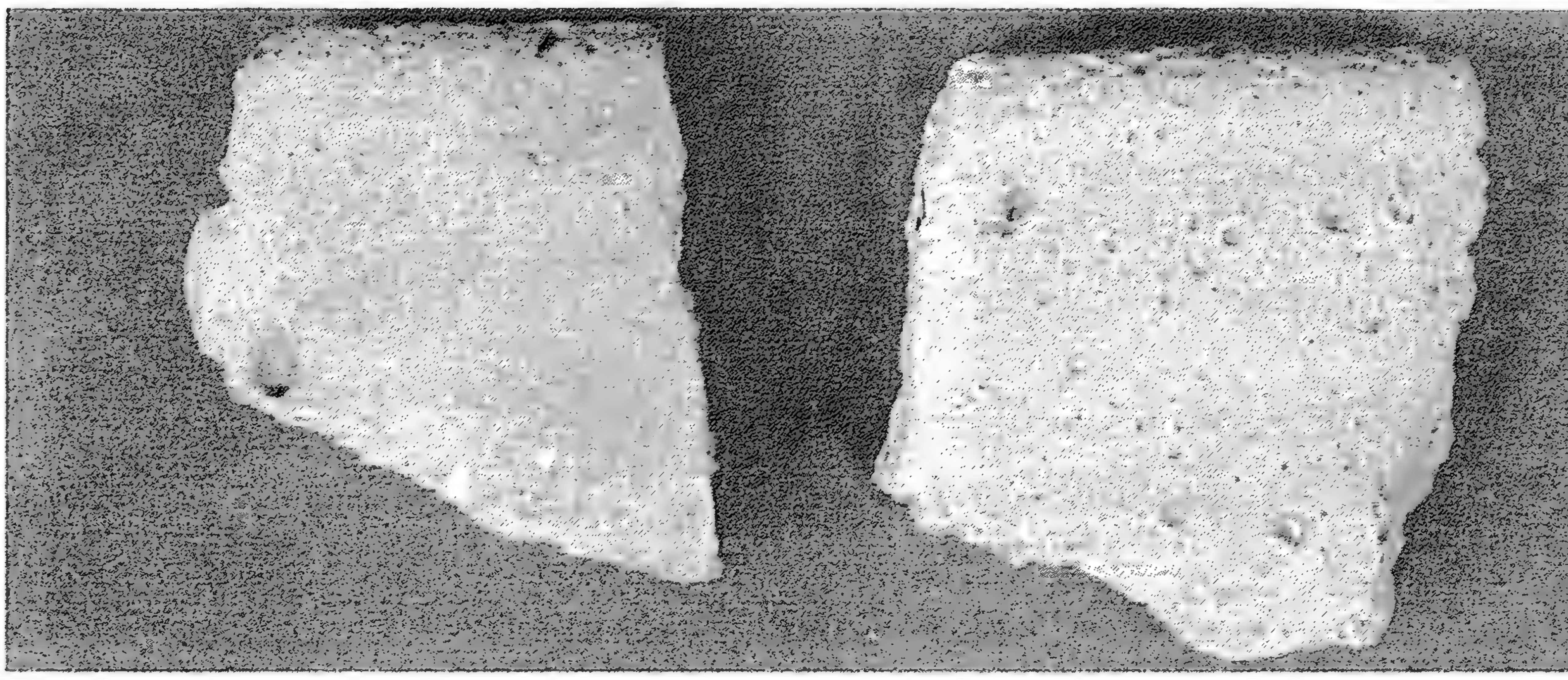
ج



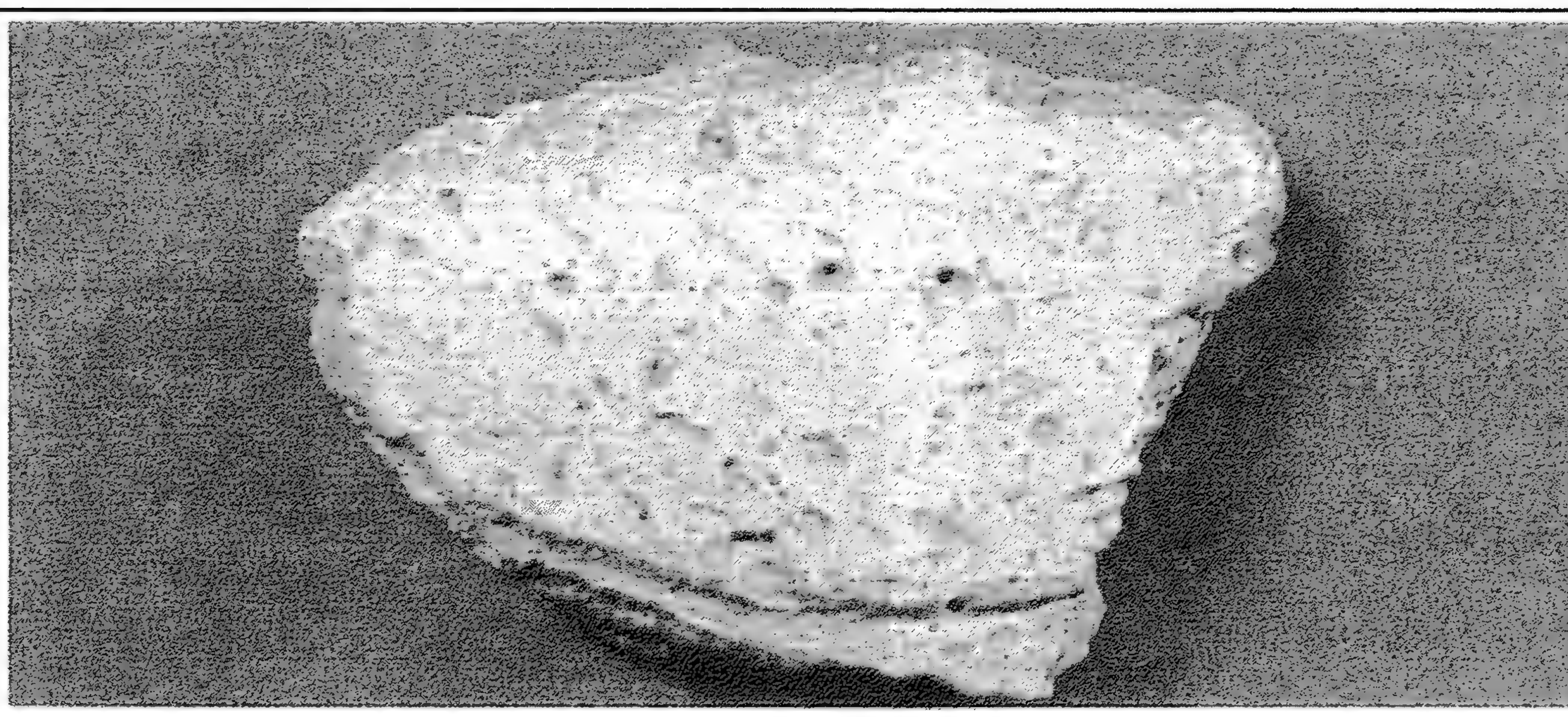
لوحة ١٤ : كسر مطاحن ذهب مصنوعة من الجرانيت



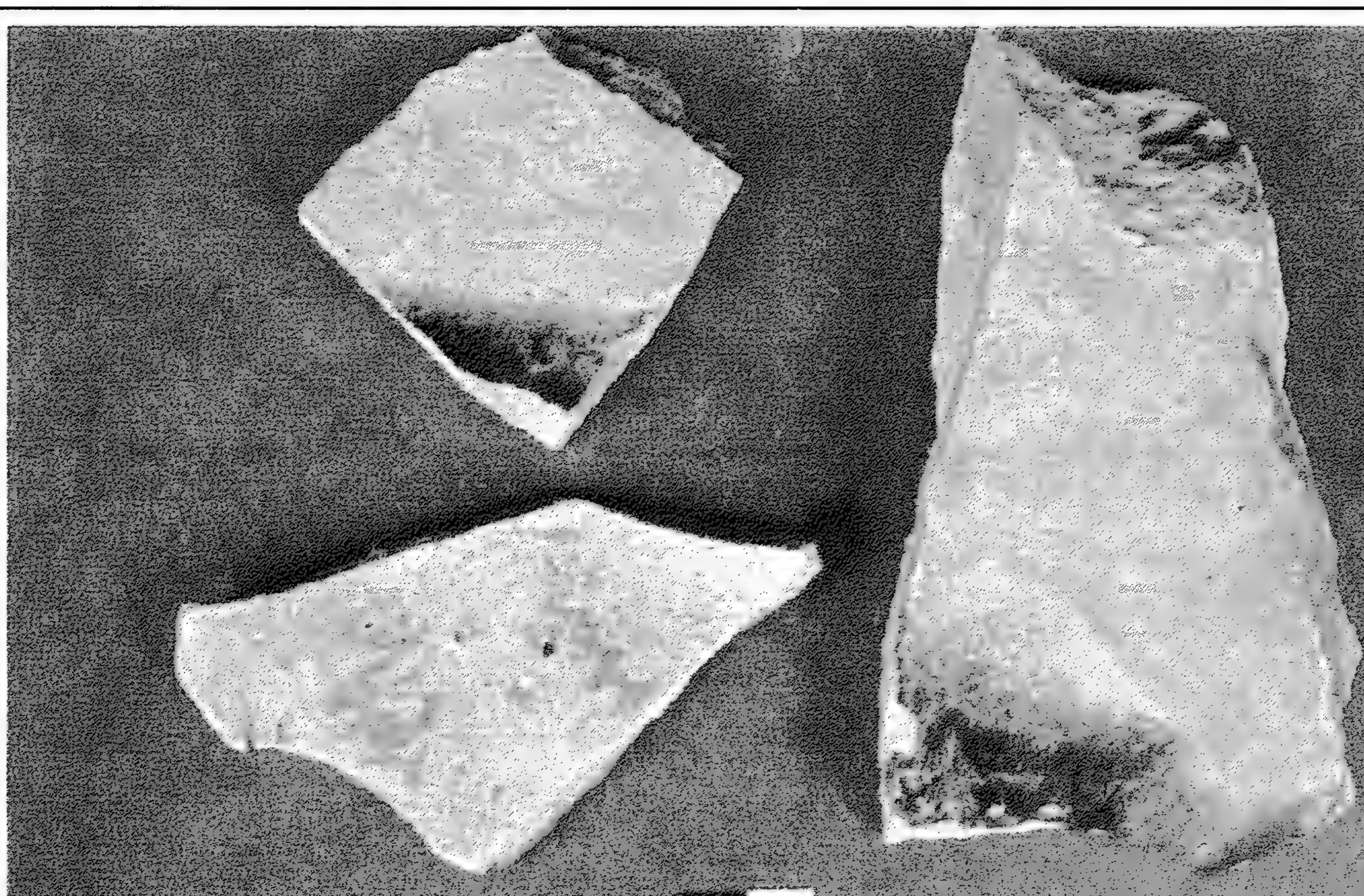
لوحة ١٥ : كسرتان فخاريتان من الموقع



أ

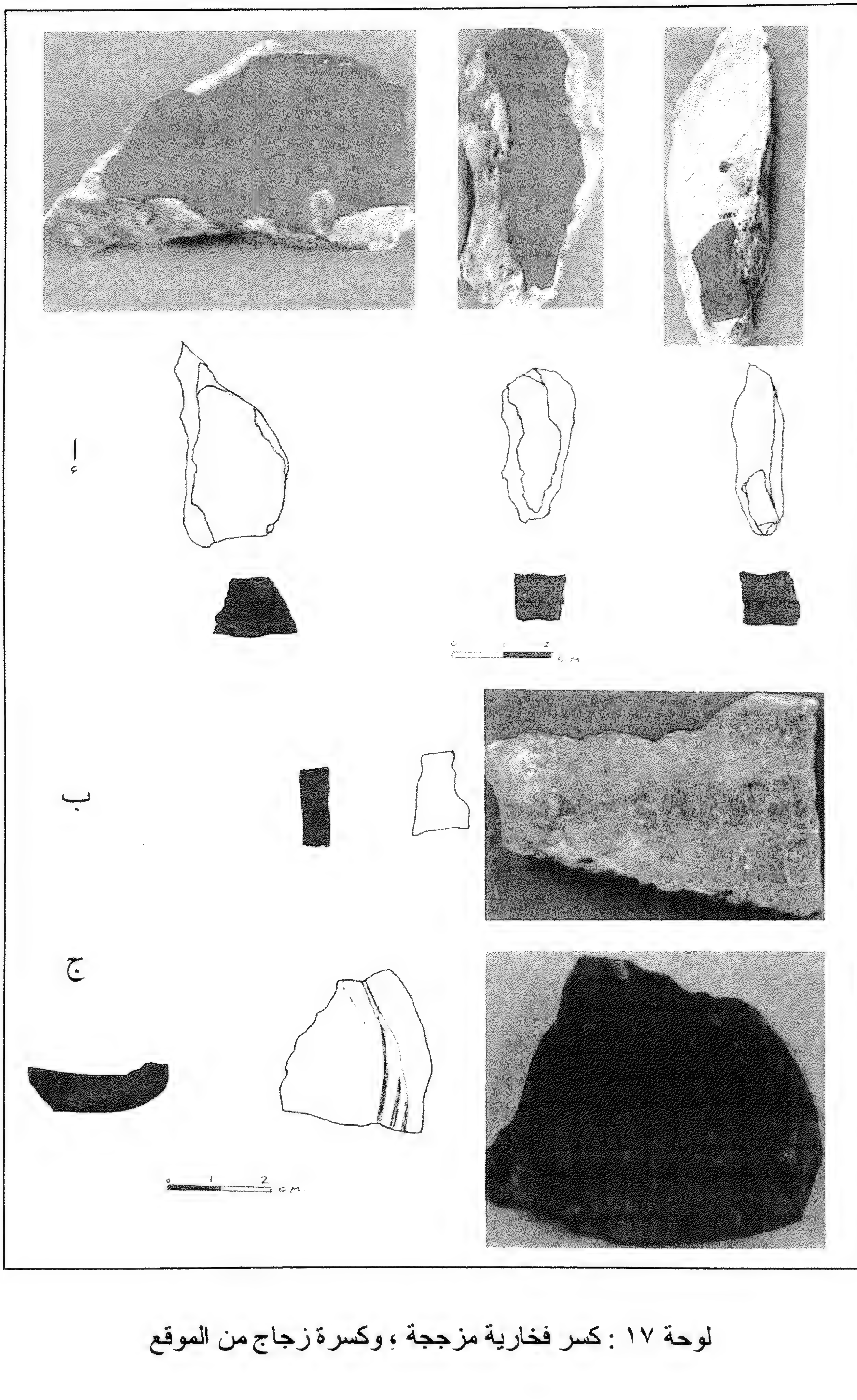


ب



ج

لوحة ١٦ : كسر فخارية من الموقع



لوحة ١٧ : كسر فخارية مزججة ، وكسرة زجاج من الموقع

العصور، المجلد الثاني عشر، الجزء الأول، ٧٩ – ٩٩ (٢٠٠٢م)

التأديب والتثقيف الموجه نحو الخلفاء العباسيين وأبنائهم في مرحلة ما قبل العهد البويهي (٢٧٩-٣٣٤هـ)

د. عبد الرحمن السنيدي

ملخص البحث:

تتناول هذه الدراسة الموضوعات الآتية: التأديب والمؤدبون في دار الخلافة، مشكلات التأديب بعد عودة الضعف للخلافة، تثقيف الخلفاء. ومن خلال هذا الموضوع سوف نركز على أهم المؤثرات على ثقافة خلفاء هذه المرحلة وطبيعة المواد الثقافية التي ساقتها هذه المؤثرات، مع إبراز الثقافة السائدة عند خلفاء مرحلة الضعف ومدى قوة ثقافتهم الدينية أو ضعفها.

مقدمة:

يتعلق البحث بإحدى حلقات التاريخ العباسي التي شهدت بدايتها صحوة مثيرة للتفاؤل والأمل بتلافي سلبيات ما مضى، تلاها مرحلة قلقة مهدت لما هو أسوأ في تاريخ الدولة العباسية، حيث ضاعت منجزات المرحلة السابقة وتم خلال تلك المرحلة القلقة التي استهلت بخلافة المقتدر بالله (٢٩٥ – ٣٢٠هـ) التفريط بالمنجزات التي تحققت في عهد الصحوة والانتعاش، تلك المنجزات التي يعود تحقيقها إلى رجلين محنكين هما:

أبو أحمد الموفق طلحة بن المتوكل الذي سيطر على زمام الأمور في عهد أخيه المعتمد على الله (٢٥٦ – ٢٧٩هـ)، وأحمد بن الموفق (المعتضد بالله) (٢٧٩ – ٢٨٩هـ).

وكما كان للقائدين العباسيين جهود عسكرية وسياسية، فقد عنيا بالجوانب الثقافية والتعليمية في محيط دار الخلافة العباسية، ومن الطبيعي أن يُعنيا بذلك، فالموفق لم يكن مجرد قائد عسكري عباسي مُنبتٍ عن العلم والثقافة، بل كان عالماً بالأدب والنسب والفقه وسياسة الملك[1]، ورجل يحملُ هذه السمات مع ما يتمتع به من قوة الشخصية والإرادة لن يغيب عن ذهنه ما للتعليم والثقافة من أثر في إعداد

---

(١) ابن الأثير، علي بن محمد (ت٦٣٠هـ). **الكامل في التاريخ**، بيروت، دار صادر، الطبعة الأولى، جـ٧، ص٤٤٣. لمعرفة المزيد من المعلومات عن الموفق العباسي وفترة الانتعاش المؤقت، يراجع فاروق عمر: الخلافة العباسية السقوط والانهيار، بيروت،= دار الشروق، ١٩٩٨م، جـ٢، ص٣١ - ٣٢، عبدالعزيز الليميلم، **نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١١هـ، جـ١، ص١٦٤،١٠٧.

رجل الدولة ولهذا ولغيره حرص الموفق على تأديب أولاده وتزويدهم بالعلوم النافعة، فعلى سبيل المثال نجده يطلبُ من الإمام المحدث (أبو داود السجستاني) أن يُعلم أولاده "السنن" وأن يفرد لهم مجلساً للرواية عنه[٢]، كما يذكر بعض المؤرخين عنه ما يدُل على اهتمامه بما يجري لحفيده علي (المكتفي بالله)[٣]، وفوق ذلك تقصد الموفق أهدافاً تربوية وسلوكية عندما أمر سنة (٢٧٥هـ) بحبس ولده أحمد المعتضد بالله في حجرة في دار الوزير إسماعيل بن بلبل[٤]. وكان ثابت ابن قره الطبيب[٥] يدخلُ إليه في كل يوم ثلاث مرات يحادثه ويسليه ويعرفه أحوال الفلاسفة وأمر الهندسة والنجوم[٦]، ولما ثار القواد بعد جيش أبي العباس (المعتضد) قال لهم الموفق: أترون أنكم أشفق على ولدي مني وقد احتجت إلى تقويمه[٧]، ولقد تربى المعتضد بالله وأعد بإشراف والده الموفق حتى أصبح مؤهلاً لنيل الخلافة التي أنيطت به عام ٢٧٩هـ، ومن ثم واصل مسيرة أبيه في دعم الجهود الثقافية والتعليمية في محيط الخلافة على النحو الذي سوف نتعرف عليه في ثنايا هذه الدراسة.

لقد جاء في مجال الدراسة ليشمل مرحلتين في تاريخ الخلافة العباسية بعد عصر الفوضى السياسية في سامراء (٢٤٧ ـ ٢٥٦هـ) وخلافة المعتمد على الله، حيث شمل البحث المعتضد بالله والمكتفي بالله وهما من خلفاء عصر الصحوة والانتعاش، كما شملت الدراسة المقتدر والقاهر والراضي والمتقي والمستكفي، خلفاء مرحلة عودة الضعف إلى الخلافة، وذلك لمعرفة وضع التأديب والتثقيف الموجهة للخلفاء وأولادهم في ظل انتقال الخلافة من طور إلى طور، ولمعرفة المعوقات التي واجهت عملية التأديب بعد زوال نفوذ الخليفة على أجهزة الدولة.

التأديب والمؤدبون في دار الخلافة:

يراد بالتأديب الدروس الأولية التي يتلقاها الصبية والتي يركز فيها على القرآن الكريم

---

(٢) انظر: الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ): **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: علي أبو زيد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١٠، ١٤١٤هـ، جـ١٣، ص٢١٦، ولم يقبل أبو داود أن يُفرد لهم مجلس خاص.. انظر: المصدر نفسه.

(٣) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (٤٦٣هـ)، **تاريخ بغداد**، القاهرة، دار السعادة، ط٢ ١٣٤٩هـ، جـ١٠، ص٨٩.

(٤) أبو الصقر إسماعيل بن بلبل استوزره الموفق لأخيه المعتمد على الله، انظر: ابن طباطب محمد بن علي (ت٧٠٩هـ)، **الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية**، بيروت، دار صادر (د، ت) ص٢٥٢.

(٥) ثابت بن قرة الصابئ الفيلسوف الحراني صاحب التصانيف. توفس سنة (٢٨٨هـ)، انظر ابن كثير: عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت ٧٤٧هـ)، **البداية والنهاية**، تحقيق عبدالله التركي، القاهرة، دار هجر، ط١ ١٤١٩هـ.

(٦) ابن أبي أصيبعة، أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم (٦٦٨هـ)، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، بيروت، دار مكتبة الفكر، ١٣٥٧، جـ٢، ص١٩٤، انظر خبر الحبس عند ابن الأثير، جـ٧، ص٤٣٣.

(٧) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج٧، ص٤٣٣.

والنحو والشعر ونوادر العرب ومأثوراتهم، إضافة إلى التوجيه الخلقي والسلوكي الذي يقوم بتوجيهه المؤدب، يفهم ذلك مما يرد من روايات وأخبار عن المؤدبين ومن يقومون بتأديبهم[٨]، كما يستشف ذلك من الوصايا الموجهة للمؤدبين والتي تعد نبراساً لممارسي تلك الصناعة، كوصية الشافعي لمؤدب أولاد هارون الرشيد[٩]، ووصية الرشيد للأحمر النحوي وقد أناط به تأديب ولده محمد الأمين[١٠].

ولاشك أن التأديب الموجه إلى أبناء الخلفاء العباسيين تأديبٌ متميز قياساً إلى ظروف ذلك العصر، مثلهم في ذلك مثل أولاد الخاصة من وزراء وكتاب، حيث يناط بتأديب أولاد الخلفاء نخبة من حذاق النحو واللغويين[١١]، كما أن المعلمين والمؤدبين كانوا يخضعون لإشراف وملاحظة من جانب الخليفة أو الحاجب.

ومن الطبيعي أن يعنى الحكم العباسي في مرحلة صحوة الخلافة بالتأديب لاعتبارات عديدة منها أهمية دور التأديب في تأهيل رجل الدولة والمرشح لنيل الخلافة. كما أن الاهتمام بالتأديب، مما عنى به الخلفاء والأوائل. وبكل تأكيد فإن الموفق والمعتضد كانا ينظران بعين الاعتبار إلى خطوات الخلفاء الأوائل على أنها نموذج ينبغي الاحتذاء به ومما يجعل الموفق والمعتضد يبذلان مزيداً من الجهد في سبيل تثقيف الأبناء والأحفاد وجود شخصيات مثقفة من أبناء السابقين كعبدالله بن المعتز الأديب الشاعر، وأبو عبدالله بن المهتدي بالله[١٢] ومحمد بن موسى حفيد المأمون[١٣]، مما يجعل أرباب القرار في الدولة العباسية آنذاك يحاولون رفع كفاءة الأبناء لئلا ينفرد أبناء العم بالذكر والصيت.

(٨) انظر مثلا ما كان ينهجه ابن أبي الدنيا أثناء تأديبه للمكتفي بالله والصولي أثناء تأديبه للراضي بالله كما سيمر بنا، انظر: الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** جـ١٠، ص ٨٩-٩٠، الصولي: محمد بن يحيى (٣٣٥هـ): أخبار الراضي بالله والمتقي لله، بيروت، دار المسيرة، ١٣٩٩هـ، ص٢٥٢٨ وانظر المسعودي: علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ): **مروج الذهب ومعادن الجوهر** تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٦٥م جـ٤، ص ٣٢٨-٣٢٩، حيث يرد حديث العروضي المؤدب عن بعض الأخلاق أمام الراضي في حياه.

(٩) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، جـ٣، ص١٨٧.

(١٠) انظر: المسعودي، المصدر السابق، جـ٣، ص٣٦٢.

(١١) يفهم مما يذكره ابن الأثير: أن المؤدب هو من يعلم الناس اللغة والأدب، **اللباب في تهذيب الأنساب**، بيروت، دار صادر، ١٤٠٠هـ، جـ٣، ص٢٥١، ٢٦٧، ويرى جورج المقدسي أن المؤدب، هو =

= معلم أولاد العائلات الثرية، انظر نشأة الكليات معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب ترجمة محمود سيد أحمد، جدة، نشر جامعة الملك عبدالعزيز، ١٤١٤هـ، ص٢٤٢، راجع كذلك، صالح العايد "المؤدبون وتجربتهم في تعليم اللغة العربية" مجلة الدراسات اللغوية، الرياض، العدد الأول ١٤٢٠هـ، ص٨٨-٨٩.

(١٢) فقيه مشهور على مذهب الشافعي توفي سنة ٣٢٣هـ، انظر: الصولي: **أخبار الراضي بالله والمتقي لله**، ص٦٧، ابن كثير: **البداية والنهاية**، تحقيق عبدالله التركي، جـ١٥، ص٩٣.

(١٣) ولي إمارة مكة، وقدم مصر وحدث بها، له "فقه عبدالله بن عباس" موزعاً على أبواب الفقه، توفي سنة ٣٤١هـ، ابن حزم: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (٤٥٦هـ)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، مصر، دار المعارف، ط٥ (د، ت)، ص٢٤، ابن كثير: **البداية والنهاية**، جـ١٥، ص٢١٨.

وبما أنه كان للمؤدبين أثر أساسي في تحديدها معالم منهج التأديب ومواد الدراسة فإنّ التعريف بهم والوقوف على خلفيتهم العلمية والثقافية مما يكشف عن طبيعة مواد الدراسة التي تلقاها الناشئة والأبناء العباسيون. وفي الفقرة الآتية سوف نتعرف على مجموعة من هؤلاء المؤدبين.

المؤدبون في دار الخلافة:

ومن مطالعتنا للمصادر الأدبية والتاريخية نلحظ أن هناك عدداً من المؤدبين الذين عملوا في دار الخلافة ابتداءً من عهد المعتضد بالله وحتى نهاية عهد الراضي، ويغلب على أولئك كونهم من علماء النحو واللغة، وفيهم من برز في علوم أخرى وعلى أي حال فإنَّ مِنْ هؤلاء المؤدبين الأعلام التالية:

١- أبو بكر بن أبي الدنيا: عبدالله بن محمد ابن سفيان الحافظ المصنف المشهور، تزيد تصانيفه على (١٠٠) مصنف من بينها مجموعة من الكتب التاريخية كأخبار قريش و"تاريخ الخلفاء" و"المغازي" أدب المعتضد وابنه علي الملقب بالمكتفى وكأن رزقه في كل شهر خمسة عشر ديناراً[١٤]، يتميز بأسلوبه المشوق وأخباره الطريفة (فإنه إذا جالس أحداً إن شاء أضحكه وإن شاء أبكاه. لتوسعه في الأخبار)[١٥] وعنه يقول المكتفي الخليفة: أول من فتق لساني بذكر الله وهو مع ذلك إن شاء أضحكك وإن شاء أبكاك[١٦].

ويروى أنه لما أفضت الخلافة إلى المكتفي كتب إليه رقعة فيها بيتان هما:

إن حق التأديب حق الأبوة
عند أهل الحجى وأهل المروءة
فأحق الرجال أن يحفظوا ذلك
ويرعوه أهل بيت النبوة

فأمر له المكتفي بعشرة آلاف درهم.[١٧]

٢- محمد بن العباس اليزيدي شيخ العربية (ت٣١٠هـ) كان رأساً في نقل النوادر وكلام العرب، إماماً في النحو، له كتاب "الخيل" وكتاب "مناقب بني العباس" و "أخبار اليزيديين"[١٨].

أدب أولاد المقتدر بالله ويذكر الصولي أنه كان في جملة من أدب الراضي وأخيه هارون[١٩].

وقد عرف عن اليزيدي الإسهام بتأديب الخلفاء العباسيين مثل يحيى المبارك اليزيدي

(١٤) انظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، جـ١٣، ص٤٠٠، ابن كثير **البداية والنهاية**، جـ١٤، ص٦٥٧.

(١٥) انظر: الذهبي: المصدر السابق، جـ١٣، ص٤٠٠.

(١٦) انظر: الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، جـ١٠، ص٩٠.

(١٧) العريفيين إبراهيم بن محمد (٦٤١هـ)، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ، ص٣٠٣: المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ، ص٦٢، السيوطي: جلال الدين (ت٩٠٢هـ): **تاريخ الخلفاء**، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ، ص٣٠٣.

(١٨) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ٣٦١/١.

(١٩) الصولي: **أخبار الراضي بالله والمتقي لله**، ص٩٢٨.

مؤدب المأمون(٢٠)، ويذكر الصولي أنّ إسحاق وعلي أبناء إبراهيم اليزيدي كانا يعلمان الخط في دار الخلافة العباسية أيام المقتدر(٢١).

٣- إبراهيم بن السّري الزجاج النحوي (٣١١هـ)(٢٢)، تولى رئاسة التأديب في دار الخلافة(٢٣) لقد ابتدأت صلته بالبلاط العباسي منذ أيام المعتضد بالله حيث علم أولاده وفسره له كتاب "جامع النطق"(٢٤).

ويظهر أن الزجاج قد تدرج في ممارسة التأديب من تعليم أولاد العامة ثم أولاد الوزراء، إلى أن صار معدوداً في المعلمين الملتحقين بدار الخلافة، فقد كان يعلم أولاد قومٍ بالصَّراةِ ثم رشحه شيخه المبرد لتأديب القاسم ابن عبيد الله بن سليمان الوزير(٢٥)، وقد خلفه في رئاسة التأديب بدار الخلافة ابن غالب المؤدب(٢٦).

٤- إسحاق بن إبراهيم بن عبدالله بن الصباح التميمي، معلم المقتدر وأولاده تذكر بعض المصادر أنه علّم المقتدر وأولاده. ويبدو أنه علمهم الخط والكتابة بحكم خلفيته الجيدة في هذا الفن، فقد كان مُبرزاً في مجال الخط والكتابة، وله فيهما العديد من المؤلفات(٢٧).

٥- أبو الحسن العروضي: أحمد بن محمد ابن الحسن (ت ٣٤٢هـ) أدب الراضي وأولاده وكذلك المتقي(٢٨)، اشتهر بمعرفته الجيدة بعلم العروض ويفهم مما أوردته بعض المصادر أن العروضي(٢٩) كان يقدم لمن أدبه بعض الروايات ذات المغزى الأخلاقي والسلوكي. يروي المسعودي، أن العروضي حَدّث الراضي وهو في صباه وعنفوان حداثته خبراً لقتيبة بن مسلم الباهلي(٣٠) في الكبر وغيره من الخصال التي توجد في أهل الرياسات مما يحمد فيهم وما يكره منهم من الأخلاق فكتب ذلك. ومما جاء في ذلك الخبر، قول قتيبة بن مسلم الباهلي (من عظم كبره اشتد عجبه ومن

(٢٠) انظر: ياقوت، المصدر السابق، جـ١، ص١٣٠.

(٢١) ياقوت، المصدر السابق، ص٨.

(٢٢) انظر: ياقوت، المصدر السابق، جـ١، ص١٣٠.

(٢٣) أخبار الراضي بالله والمتقي لله، ص٨.

(٢٤) النديم، محمد بن أبي يعقوب (ت ٣٨٥هـ) **الفهرست** طهران، ١٣٩١هـ (د، ن)، ص٦٦ وانظر: ياقوت: **معجم الأدباء**، جـ١، ص١٤٩.

(٢٥) ياقوت: المصدر نفسه، جـ١، ص١٣١-١٣٢.

(٢٦) الصولي، **أخبار الراضي بالله والمتقي لله**، ص٨، ولم أقف على ترجمة وافية "لابن غالب" وقد ذكر الصولي.. أنه توفي قبل خلافه الراضي..، المصدر نفسه، ص٩٩.

(٢٧) انظر: النديم، **الفهرست**، ص١١-١٢، ياقوت: معجم الأدباء، جـ٦، ص٥٩-٦٠.

(٢٨) انظر: المسعودي، **مروج الذهب**، جـ٤، ص٣٢٨، الصولي، المصدر السابق، ص٨.

(٢٩) ياقوت، المصدر نفسه، جـ٤، ص٢٣٣.

(٣٠) قتيبة بن مسلم بن عمرو الباهلي من القادة البارزين في عهد الوليد بن عبد الملك.. خلع سليمان بن عبد الملك بعد أن تولى سدة الخلافة الأموية مما أدى إلى المعارضة له من قبل عامة جنده وجيشه. وقد تطور هذا الموقف إلى السعي إلى قتل قتيبة قال ابن كثير: هدى الله على يديه خلقاً لا يحصيهم إلا الله فأسلموا ودانوا لله عز وجل.. ولكن زل زلة كان فيها حتفه وفعل فعلة رغم فيها أنفه وخلع الطاعة فبادرت إليه المنية، **البداية والنهاية**، جـ١٢، ص٦١٥-٦١٦.

أعجب برأيه لم يشاور كفياً، ولم يؤامر نصيحاً ومن تبجبح بالإعجاب وفخر بالاستبداد كان من الصنع بعيداً ومن الخذلان قريباً والخطأ مع الجماعة، خير من الصواب مع الفرقة).[٣١]

وإيراد العروضي لهذا القول المأثور عن قتيبة بن مسلم مما يوضح لنا أن دروس التأديب قد شملت وصايا أخلاقية وأقوالاً مأثورة تستهدف التهذيب السلوكي والأخلاقي لأبناء الخلفاء، وبحكم فساد الجو السياسي آنذاك وانحدار أوضاع الخلافة. فقد يكون ذلك محاولة اجتهادية من بعض المؤدبين تستهدف إصلاح أخلاق أبناء الخلفاء وتأهيلهم للحكم.

٦- أبو بكر الأنباري محمد بن القاسم (ت ٣٢٨هـ) يوصف بأنه من بحور العلم في اللغة العربية أدب عبد الواحد بن المقتدر.[٣٢] وكان يتردد إلى أولاد الراضي بهدف التعليم والتأديب[٣٣].

٧- محمد بن يحيى الصولي (ت٣٣٥هـ) نادم الراضي وكان أولاً يعلمه، وقد ذكر في كتابه (أخبار الراضي بالله والمتقي) أنه علم الراضي -في صباه- وأخاه هارون بن المقتدر حيث كان يأتيهما نوبتين في كل أسبوع[٣٤] ويبين لنا الصولي أن من أبرز الأنشطة التعليمية التي قام بها الراضي وأخوه، بإشرافه، قراءة كتب اللغة وسماع الحديث النبوي من بعض المحدثين[٣٥] ، وقد تضمن كتابه المذكور جوانب من تجربته في تأديب ابني المقتدر (الراضي وهارون) وصلاته ببعض أركان دار الخلافة والمعوقات التي واجهته في أثناء ممارسته فن التأديب في دار الخلافة ومع ذلك فقد كان حريصاً على أن يقوم بما وكل إليه خير قيام متوخياً أن يلي من أمور المسلمين شيئاً فينفعهم الله بهم[٣٦].

كان التركيز في دروس التأديب على تعليم النحو واللغة العربية والشعر العربي، وربما أصبح ذلك ضرورياً لشيوع اللكنات الأعجمية واللغات الأجنبية في محيط القصر الخلافي، فالرومية والفارسية مما شاع وذاع في أركان ذلك المحيط[٣٧]، كما تضمنت دروس المؤدبين القصص والمواعظ ذات المغزى الأخلاقي والوعظي كما أثر ذلك عن ابن أبي الدنيا[٣٨] والعروضي[٣٩]. ويلحظ أن بعض المؤدبين عمل على الإتيان ببعض العلماء المشهورين ليستفيد منهم من يؤدبهم. وهذا ما نهجه الصولي. فقد أحضر أبا القاسم البغوي الحافظ الإمام "ابن بنت منيع" أبرز

---

(٣١) المسعودي: **مروج الذهب**، جـ٤، ص٣٢٧-٣٢٩.
(٣٢) الصولي: **أخبار الراضي بالله**. ص٩.
(٣٣) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، جـ٣، ص١٨٤.
(٣٤) المصدر نفسه، ص٢٥
(٣٥) المصدر نفسه، ص٢٥-٢٦.
(٣٦) المصدر نفسه، ص٢٦.
(٣٧) كانت الرومية من أدوات التخاطب بين الخليفة ومماليكه، انظر على سبيل المثال.. هلال الصابي: هلال بن المحسن (ت٤٤٨هـ): رسوم دار الخلافة، نشر ميخائيل عواد، بغداد، ١٣٨٣هـ، ص٨٩.
(٣٨) انظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، جـ٣، ص٤٠٠.
(٣٩) المسعودي: **مروج الذهب**، جـ٤، ص٣٢٨.

علماء الحديث في زمانه وأعلاهم إسناداً[٤٠] إنه أعلى من بقي من الزمان إسناداً، وورد في بعض المصادر أنه لا يعرفُ في الإسلام مُحَدِّث وازى عبدالله بن محمد البغوي في قدم السماع[٤١].

ووقف القاضي الحسين بن محمد المحاملي (ت٣٣٠) على مستوى الراضي العلمي بحضور الصولي وآخرين. فأثنى عليه ورد ذلك إلى جهود مؤدبه (الصولي)[٤٢].

إن تأثير المؤدبين السلوكي والأخلاقي على من أدبوهم من أبناء الخلفاء وإن كان من مقاصد التأديب فإننا لا نبالغ إذا قلنا إنه قد قل وضعف، لوجود مؤثرات أخرى أسهمت وبشكل كبير في صياغة شخصيات الأبناء، بل إن بعض المؤدبين وإن امتلك ثقافة شرعية ولغوية مميزة. فقد تأثر بالجو الإداري والقيادي العباسي وما يسوده من فساد إداري ومجون، فالزجاج على سبيل المثال جعله الوزير القاسم بن عبيدالله على الرقاع، فكان يأخذ على الرقاع المتضمنة حوائج الناس وشكاواهم مبلغاً معلوماً من المال يفرضه على مقدم الرقعة حتى جمع في مدة قليلة عشرين ألف دينار[٤٣]، يعقب ابن الجوزي على ذلك فيقول: "رأيت كثيراً من أصحاب الحديث والعلم يقرؤون هذه الحكاية ويتعجبون مستحسنين لهذا الفعل، غافلين عما تحته من القبيح، وذلك أنه يجب على الولاة إيصال قصص المظلومين وأهل الحوائج، فإقامة من يأخذ الأجعال على هذا قبيح حرام وهذا ما يهن به الزجاج وهناً عظيماً، ولا يرتفع لأنه إن كان لم يعلم ما في باطن ما قد حكاه عن نفسه فهذا جهل بمعرفة الشرع وإن كان يعرف فحكايته في غاية القبح نعوذ بالله من قلة الفقه[٤٤].

ومن مظاهر تجاوب المؤدبين مع الجو السائد في محيط الطبقة السياسية الحاكمة أن الصولي كان يعمل الشعر الغزالي بطلب من الراضي الذي نحا منحاه في ذلك، كما يذكر الصولي، أن الراضي مكث سنتين بعد خلافته "لا يشرب النبيذ ونشربه نحن بين يديه... حتى أغواه أصحابنا، وكتب رقعة بلفظ يمينه وعرضها على الفقهاء، فوجد رخصة فوجه بألف دينار إلي لأتصدق بها عنه وشرب..."[٤٥]

والحقيقة أن الصولي المؤدب العالم، رغم علمه وموسوعيته إلا أن صلته بالبلاط العباسي وانسياقه وراء بريق الخلافة حدا به

---

(٤٠) أخبار الراضي بالله، ص٢٥، والإسناد العالي: هو الذي قل عدد رجال إسناده (انظر: محمد ضياء الرحمن الأعظمي، معجم مصطلحات الحديث ولطائف الأسانيد، الرياض، مكتبة أضواء السلف ط١، ص٢٦٢.

(٤١) انظر: عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (ت٥٩٧هـ). **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، = بيروت، دار الكتب العلمية، ط١ ١٤١٣هـ، جـ١٣، ص٢٨٧.

(٤٢) أخبار الراضي بالله ص٢٦.

(٤٣) انظر: ياقوت، **معجم الأدباء**، جـ١، ص١٣٣.

(٤٤) ابن الجوزي: عبدالرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ) **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، جـ١٣، ص٢٢٦.

(٤٥) انظر: **أخبار الراضي بالله والمتقي لله**، ص٤٧.

إلى نظم المدائح الزائفة في الراضي والمتقي وغيره.(٤٦) وقبل ذلك ألف كتاباً في جواز ولاية المقتدر رغم صغر سنه واستدل بأنَّ الله بعث يحيى بن زكريا عليه السلام ولم يكن بالغاً وذكر من استعمله النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكن بالغاً. وكان القاضي أحمد بن يعقوب المثنى قد امتنع عن البيعة له لأنه صبي لا يصلح للإمامة(٤٧).

مشكلات التأديب بعد عودة الضعف إلى الخلافة:

إذا وضعنا بعين الاعتبار أن من أهداف التأديب الموجه نحو أبناء الخلفاء هو تزويدهم بقدر من العلوم والمعارف، وتنمية الميول العلمية والثقافية لديهم، فثمة معوقات ومشكلات برزت أثناء قيام المؤدبين بواجباتهم المنوطة بهم، وتزايدت تلك المشكلات التي واجهت المؤدبين بعد عهد المكتفي بالله، نتيجة ضعف جهاز الخلافة، ذلك أن وجود خليفة قوي من عوامل دعم مسيرة التأديب، حيث يتولى الإشراف على تأديب ابنه وفلذة كبده، ويجلب أفضل الكفاءات في مجال التعليم والتأديب إلى دار الخلافة كما فعل الرشيد(٤٨) والمتوكل، ويؤمن للمؤدب ما يعينه على القيام بمهمته إدراكاً منه لأهمية هذه المهمة.

ونتج عن تحكم جماعات الضغط ومراكز القوى في دولة المقتدر النظر بريبة وتوجس إلى عمليات التأديب الموجهة نحو الأبناء. ذلك أن الوزراء وحرم القصر المتحكمين في الدولة لا يسرهم أن يتلقى الأبناء المهيؤون للخلافة علماً ومعرفة تفتح أمامهم سبل الممارسة الصحيحة للحكم، يرى بعض الباحثين أن أصحاب النفوذ في الدولة العباسية كانوا يرون الحجر على من يرشح للخلافة لينشأ غراً جاهلاً فينصرف إلى لهوه ولذاته ويترك لهم أمور الخلافة (٤٩).

لقد حرص جزء من الوزراء والكتاب على بيعة المقتدر بالخلافة وهو صبي غير رافضين بيعة عبدالله بن المعتز الأديب المثقف بسبب كفاءته وجدارته بحمل أعباء ذلك المنصب، ومن الطبيعي ألا تبذل تلك الفئة من

---

(٤٦) يقول الصولي في مدح المتقي:

وقاك الذي سماك متقيا له	فأنت عماد الدين ليس يزول
أديل بك الإسلام فازداد عزة	فأنت من الدهر الغشوم تديل

المصدر نفسه، ص١٨٩، ويقول في مدح الراضي:

فلم تزل فوق الملوك الأولى	من عرب سادوا ومن فرس
من لا يرى حبك فرضاً فما	أدى فروض الله في الخمس
كل الورى أنت وكل يرى	عبدك من عال ومن نكس

(٤٧) انظر: عبد الرحمن سنبط الاربلي: **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك**، بغداد، مكتبة المثنى، ص٢٣٩، وبسبب ذلك قتل هذا القاضي صبراً، راجع: عريب القرطي، صلة تاريخ =

= الطبري، ص٣٢، التنوخي: **الفرج بعد الشدة**، جـ٢، ص١٢٣.

(٤٨) انظر على سبيل المثال ما لقيه علي بن الحسن الأحمر المؤدب في عهد هارون الرشيد من تكريم وصلات، ياقوت: **معجم الأدباء**، جـ١٣، ص٨-٩.

(٤٩) انظر، أمينة البيطار: **تاريخ العصر العباسي**، دمشق، ١٤١١هـ، ص٢٣٥، وعن أصحاب النفوذ في دولة المقتدر بالله راجع: حامد غنيم أبو سعيد: الدولة العباسية ومراكز القوى في عهد المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ)، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الثالث ١٣٩٩هـ، ص١٠٢-١٣٣.

الكتاب أي جهد في سبيل انتشال هذا الخليفة من جو المجون والترف الذي ينشأ في ظله.

ومن المشكلات التي واجهت التأديب أن الأجواء المحيطة بالأبناء وأولاد الخلفاء لم تكن في مجملها مما يخدم التأديب كعملية تربوية وتثقيفية مبكرة، حيث عاش الأبناء منذ أيام المعتضد في جو مترف وعيش رغيد يمتلئ بالملذات والمغريات إلى حد الإفراط مما أدى إلى ضعف كفاءتهم قياساً إلى نظرائهم أيام قوة الخلافة الذين عركتهم التجارب والأحداث.

ويعد (المقتدر) نموذجاً للخلفاء الذين أنتجتهم مثل هذه الأجواء(٥٠)، وفي رأي فاروق عمر فالمقتدر ابن بيئته. ولا يمكننا أن نضع كل اللوم عليه، بل إن القراءة الدقيقة لمجريات الأحداث تبين أن هناك خطة مدبرة من رجال السيف والقلم اشتركت فيها نساء من الحرم وذلك لتنشئة أمراء بني العباس تنشئة لا تؤهلهم لقيادة دولة وزعامة أمة(٥١). ومن الطبيعي أن يولد التشاغل بالشهوات ونيل الملذات إلى إضعاف همة المتأدب وصرفه عن متابعة تحصيله العلمي، كما أن ذلك التشاغل مما يؤدي إلى تعطيل الذهن وبلادة الفكر.

ويوضح لنا أبو بكر الصولي بعض المشكلات الناشئة عن هذا الوضع السياسي والإداري الذي أصبح فيه الخليفة ذا وجود صوري، فانعكس ذلك الوضع على عملية التأديب في دار الخلافة. فلقد كان الصولي يُعلِم في البلاط العباسي اللغة والأدب كما مر بنا ومع ذلك واجه متاعب مُدبرة من أجل إيقاف حماسه المتقد الهادف إلى بلوغ ابني المقتدر مكانة علمية تليق بهما، ومن ذلك إشعاره بأن أهدافه الرامية إلى بناء شخصيتهما العلمية، مرفوضة، ذلك أن بعض أركان البلاط العباسي كانوا يقولون ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء وهذا أبوهما (المقتدر) قد رأينا فيه كل ما نحب وليس بعالم(٥٢)، وتقول القهرمانة زايدان ذات الصلة القوية بأم الخليفة المقتدر الشخصية الرئيسية في الدولة (إن المحاسن من هذا الرجل (الصولي) عند السيدة ومن يخدمها مساوئ)(٥٣).

وعندما أحضر الصولي أحد علماء الحديث البارزين في ذلك العصر وهو أبو القاسم البغوي قيل له (والله ما عندنا دنانير لهذا المحدث ولا بنا حاجة لمجيئه)(٥٤).

ويوضح الصولي أن خدم السيدة (أم المقتدر)

---

(٥٠) انظر عن حياة المقتدر أثناء طفولته، التنوخي أبو علي المحسن بن علي (ت٣٨٤هـ): **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**، بيروت، ١٣٩١هـ جـ١، ص٢٨٧، الخطيب البغدادي، جـ٧، ص٢١٦، حمدان الكبيسي: **عصر الخليفة المقتدر بالله**، بغداد، مطبعة النعمان، ١٣٩٤هـ، ص٢٤-٢٥، ٤٨.

(٥١) انظر: **الخلافة العباسية السقوط والانهيار**، بيروت، دار الشروق، ١٩٩٨م، جـ٢، ص٥٨.

(٥٢) **أخبار الراضي بالله والمتقي لله**، ص٢٦.

(٥٣) المصدر نفسه، ص٢٦.

(٥٤) المصدر نفسه، ص٢٥.

أخذوا كتباً كان ابن المقتدر يقرؤها عليه، وأنه يقال لهم إن الأمير ينظر في كثير لا ينبغي أن ينظر في مثلها[٥٥].

ويظهر أن السيدة كانت تُحرِّضُ من قبل بعض الوزراء المتنفذين، كأبي الحسن بن الفرات[٥٦] الذي كانت تقول له عن المقتدر (يا أبا الحسن هذا ولدك وأنت قلدته الخلافة أولاً وثانياً)[٥٧].

وعلى أية حال فإن ما يذكره الصولي في النصوص السالفة يبين لنا بوضوح أن أهداف التأديب الرامية إلى إخراج جيل مثقف من الأبناء يتميز بقوة الجانب العلمي فيه هذه الأهداف أصبحت مرفوضة، لا تحظى بحماس أركان البلاط العباسي آنذاك.

كذلك نلحظ ضعف الإمكانات الموضوعة بين يدي المؤدبين وما يلزم التأديب من كتب ونحوها، وقد أورد الصولي أنه لما تولى تأديب الراضي وأخيه (هارون) اشترى لهما من كتب الفقه والشعر واللغة والأخبار قطعة حسنة، وعمل كل واحد منهما خزانة لكتبه[٥٨]، مما يدفعنا إلى القول بأن الجهة المشرفة على تأديب الأميرين لم توفر كتباً يستفيدان منهما أثناء دروس التأديب فتولى تأمين ذلك المؤدب نفسه، لقد كان التأديب في عهود الخلفاء الأقوياء يحظى بكل أنواع الدعم ومثال ذلك ما وفره المأمون لمؤدب ولده، الفراء (يحيى بن زياد الأسلمي) من وراقين وأمناء ومنفقين[٥٩]. أما في مراحل انحطاط الخلافة كما في عهد المقتدر بالله فآل الأمر إلى ذلك الوضع الذي أصبح فيه المؤدب يؤمن الكتب لأبناء الخليفة !.

وإذا كانت الدسائس والتهم والوشايات من الظواهر التي لم تغب عن المجتمع السياسي العباسي فالملاحظ أن فئة المؤدبين قد طالها شيء من ذلك. فمع إخلاص الصولي وحماسه المتقد في سبيل أداء مهمته كمؤدب في دار الخلافة إلا أن هناك من حاول الإساءة إلى سمعته عند المقتدر ووالدته إذ ذكر بعض الخدم لهما أن الصولي يعلم أسماء الفرج والذكر وكان الراضي وأخوه يقرآن عليه كتاب، خلق الإنسان للأصمعي (ت٢١٦هـ)، ويذكر الصولي أنَّه حمل الكتاب إلى نصر الحاجب[٦٠] وبين له أن هذا من العلوم التي لابد للفقهاء والقضاة منها وأنهم يلجأون إلى أهل اللغة، فأخذ الكتاب وأدخله على المقتدر[٦١].

---

(٥٥) المصدر نفسه، ص٦.

(٥٦) أبو الحسن بن الفرات تولى الوزارة للمقتدر ثلاث مرات عزل في المرتين الأولى والثانية وقتل بعد المرة الثالثة سنة ٣١٢هـ، انظر: ابن كثير: **البداية والنهاية** جـ١٥، ص١٥.

(٥٧) الصابي: **الوزراء والكتاب**، ص ٦٩.

(٥٨) **أخبار الراضي بالله والمتقي لله**، ص٢٥.

(٥٩) انظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، جـ١٠، ص١٥٠، ياقوت: **معجم الأدباء**، جـ٢٠، ص١٢.

(٦٠) نصر الحاجب، حاجب المقتدر، يعد من خيار الأمراء، أنفق من ماله في حرب القرامطة مئة ألف دينار وخرج بنفسه محتسباً، توفي سنة ٣١٦هـ، انظر: ابن كثير: **البداية والنهاية**، جـ١٥، ص٣٤.

(٦١) **أخبار الراضي والمتقي**، ص٢٥-٢٦.

التثقيف الموجه نحو الخلفاء:

يهيئ التأديب ذو المنهج التربوي أو التعليمي (المتعلم) للإلمام بالعلوم والثقافات وتأتي المؤثرات الأخرى لتسهم في بناء وتكوين البنية الفكرية للخلفاء وأبنائهم.

وعندما نتناول تثقيف الخلفاء في هذه الصفحات فمقصودنا بهذا المصطلح في هذه الدراسة عملية اكتساب الثقافة من جانب الخلفاء التي تتم في الغالب بشكل غير مقصود، ومن خلال وسائل مختلفة من أبرزها مجالسة الخلفاء ولقاؤهم وغير ذلك من الوسائل، والثقافة هنا حسب المفهوم الذي تتبناه الدراسة تشمل العلوم والآداب والتقاليد والعادات ومختلف جوانب الفكر الإنساني.

إن التثقيف عملية مستمرة ومتنامية، وفيما يتعلق بخلفاء المرحلة التي نتناولها فقد كان من أبرز المؤثرات على ثقافاتهم ما يلي:

١ - البيئة المحيطة بدار الخلافة:

ومن العوامل ذات التأثير على ثقافة وفكر الخليفة البيئة المحيطة به.. من حاشية، ونسوة متنفذات ومماليك[٦٢] وقد تجلى تأثير تلك الفئة في عهد المقتدر بالله حيث بدأ الخليفة مسيراً بقرارات تصدرها هذه الفئة (فقد غلب على الأمر النساء والخدم)[٦٣].

ولقد كان لهذه الفئة المكونة من نساء ومماليك دار الخلافة، وفي مقدمة أولئك السيدة شغب أم الخليفة المقتدر[٦٤]، تأثيرها على ثقافة الخليفة وعوائده، وبشكل عام فإن وجود هذه الفئة اللصيقة بدار الخلافة قد ترك أثرهم على كثير من الخلفاء وأبنائهم، خصوصاً أن تلك الفئة المشار إليها تنتمي إلى أصول أجنبية لها عوائدها وخلفيتها الحضارية، وبمعاشرتها والاحتكاك بها اكتسب الأبناء ألواناً من السلوك وأنماطاً من العادات الأجنبية، كنتيجة طبيعية لعيشهم ضمن هذا الوسط وبالمقابل ضعف شأن القيم الدينية ومعطيات الثقافة العربية عندهم. إن تحسين البيئة التي يدب فيها الناشئ مسألة كان من الأولى أن تهتم الخلافة بها في عهدي المعتضد والمكتفي، وقد ذكرت بعض المصادر أن المعتضد توقع أن لا يطول عمر ابنه "علي" المكتفي، وأن جعفر الذي كان عمره لا يتجاوز السابعة. عند وفاة المعتضد، سوف يبايع بعده بالخلافة، وأن النساء سوف

---

(٦٢) كان في دار المقتدر نحو من أحد عشر ألف غلام خصيان غير الصقالبة والروم و (٤٠٠٠) امرأة بين حرة ومملوكة. وعند مرور رسول ملك الروم بدار الخليفة صف له (٧٠٠٠) غلام منهم (٤٠٠٠) غلام أبيض وثلاثة آلاف أسود، انظر الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، جـ١، ص١٠١، الصابي: رسوم دار الخلافة، السيوطي: **تاريخ الخلفاء**، ص٣٠٨ وربما بالغت بعض المصادر في إيراد هذا الكم الكبير من المماليك والغلمان لكن من = المؤكد أن هؤلاء كانوا من الكثرة بحيث لفت أنظار أولئك المؤرخين.

(٦٣) المسعودي: **التنبيه والإشراف**، ص٣٢٨، مسكويه: أحمد بن محمد (٤١٦هـ): **تجارب الأمم**، مصر، ١٣٣٣هـ، ٣/١.

(٦٤) انظر: حمدان الكبيسي: **عصر المقتدر بالله**، ص٨٣، ١٠٢، ١٠٥ والسيدة "شغب" من أصول رومية، انظر: ابن العمراني: **الأنباء في تاريخ الخلفاء**، ص١٥٣.

يحتوين عليه لقرب عهده بهن فيقسم الأموال، ويبذر ارتفاع الدنيا ويخربها، وتضيع الثغور. وتحدث الأسباب التي يكون فيها زوال الملك عن بني العباس أصلاً، وقد جاء في الخبر أن المعتضد قال: "والله لولا النار والعار لقتلت هذا الصبي اليوم فإن في قتله صلاحاً للأمة".(٦٥)

والخبر فيه ما يدل على أن المعتضد بالله لم يبذل جهده في تحسين البيئة التي نشأ فيها ابنه، كما لم يهتم بتربيته لتوقي المكاره التي توقع حصولها في عهده عندما يبايع له. إلا أنه من الصعب قبول كل تفاصيل ذلك الخبر الذي يروى عن صافي الحُرمي أحد مماليك دار الخلافة والذي أورده عدد من المؤرخين كالتنوخي(٦٦) وابن الجوزي(٦٧) والخطيب البغدادي(٦٨)، فقد يكون موضوعاً لخدمة المماليك العسكريين أثناء صراعهم مع نساء القصر، ثم كيف تحدث المعتضد نفسه بقتل ثمرة فؤاده ؟ كما يثير ظلالاً من الشك على هذا الخبر، إنه قد ورد ما يناقضه عن صافي الحرمي نفسه، حيث أورد عريب في صلة تاريخ الطبري(٦٩) خبراً يفهم منه اعتزاز المعتضد بابنه (جعفر) وهو في حجره، متوقعاً خضوع ملوك فارس لـه (أي بقايا الأمراء الصفاريين) وجاء في الخبر أن صافي الحرمي كان يوم بيعة المقتدر يُحدِّث بهذا ويدعو الله أن يحقق هذا القول(٧٠).

وإذا انتقلنا من جو دار الخلافة إلى فئة أخرى لصيقة بالخلافة هم الوزراء وكتاب الدواوين نجد أن فريقاً من هؤلاء قد أخذ على نفسه تعميق الثقافة غير الجادة عند الخلفاء وأشغالهم بما لا يؤدي إلى تحسين قدراتهم الذاتية ورفع كفاءتهم في الجانب السياسي والتاريخي، يروي ابن طباطبا أن الخليفة المكتفي بالله (٢٨٩-٢٩٥هـ) طلب كتباً يلهو بها ويقطع زمانه بمطالعتها، فتقدم الوزير إلى النواب بتحصيل ذلك وعرضه عليه قبل حمله إلى الخليفة فحصلوا شيئاً من كتب التاريخ وفيها شيء مما جرى في الأيام السالفة من وقائع الملوك وأخبار الوزراء ومعرفة التحايل في استخراج الأموال. فلما رآه الوزير قال لنوابه: "والله إنكم أشد الناس عداوة لي، أنا قلت لكم حصلوا لـه كتباً يلهو بها ويشتغل بها عني وعن غيري، فقد حصلتم لـه ما يعرفه

(٦٥) التنوخي: **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**، جـ١، ص٢٨٧.

(٦٦) المصدر نفسه، جـ١، ص٢٨٧-٢٩١.

(٦٧) **المنتظم**، جـ٦، ص٧١.

(٦٨) **تاريخ بغداد**، جـ٧، ص٢١٧، أورد حمدان الكبيسي هذا الخبر دون أن يعقب عليه، وذكر أن المعتضد كان متشائما من مجيء ابنه جعفر إلى دست الخلافة وقد صدق حدسه، عصر الخليفة المقتدر بالله ص٣٠-٣١.

(٦٩) ص٣٧.

(٧٠) الخبر يرويه الصولي عن صافي الحرمي، ومعلوم أن الصولي عمل كتاباً في جواز ولاية جعفر المقتدر كما مر بنا بتحريض من بعض الوزراء. فهل يكون الخبر جزءاً من الحملة المراد منها تسويغ بيعة المقتدر رغم صباه وصغر سنه ؟ هذا ما نميل إليه.

مصارع الوزراء ويوجده الطريق إلى استخراجه المال ويعرفه خراب البلاد من عمارتها، ردوها وحصلوا له كتباً فيها حكايات تلهيه وأشعار تطربه"[٧١].

٢- جماعات الندماء:

وهؤلاء يجالسون الخلفاء ويروون لهم الأشعار والأخبار بحسن إيرادهم للطرائف والحكايات التي يميل إليها الخلفاء.

يورد المسعودي عن أبي محمد عبدالله بن حمدون أنه قد جرت مذاكرة في مجلس المكتفي عن أصناف الأشربة فأنشده أبياتاً في بعض تلك الأشربة ثم روى للخليفة خبراً مضحكاً عن أبان القارئ مع هارون الرشيد[٧٢].

وقد كان مما يجري في مجلس الراضي بالله مذاكرات حول الشعر[٧٣] تعكس ما ذكرناه من غلبة الثقافة الأدبية على أولئك الندماء.

ومن أبرز ندماء الخلفاء في هذه المرحلة الشاعر أبو بكر العلاف (ت٣١٩هـ) أحد ندماء المعتضد[٧٤] ويحيى بن علي بن المنجم الذي نادم المعتضد والمكتفي[٧٥] وابنه أحمد ابن يحيى نديم الراضي ومحمد بن عبدالله بن حمدون من ندماء الراضي[٧٦] وكان والده نديماً للمعتمد على الله ثم المعتضد بالله[٧٧].

وقد مارس بعض المؤدبين مهنة منادمة الخلفاء مثل أبي إسحاق الزجاج تذكر بعض المصادر أنه أحد ندماء المكتفي بالله. وكان له رزق في الندماء[٧٨] في أيام المعتضد بالله، إضافة إلى راتبه الذي يأخذه من خزينة الدولة باعتباره فقيهاً وعالماً تحتاج إليه الخلافة.

وقد يقدم بعض الندماء للخليفة قدراً من الأخبار التاريخية لتسليته وإمتاعه، يذكر المسعودي عن العروضي أنه دخل على الراضي وقد اعتراه هم جراء تسلط القائد التركي عليه، يقول: فقال الراضي: "أما ترى صنع هذا الإنسان وما تسمو إليه همته وما تُحدثه به نفسه فلم أجبه بشيء وأخذت به في أخبار من مضى من الخلفاء وسيرهم في أتباعهم، ثم نقلته إلى أخبار ملوك الفرس وما كانت تلقاه من أتباعها وجدهم عليهم وحسن سياستهم لذلك حتى تصلح أمورهم، فسلا عما عرض لنفسه"[٧٩].

وقدم الإخباري محمد بن علي العبدي الخراساني للقاهر بالله استعراضاً لبعض مزايا وخصائص خلفاء بني العباس[٨٠].

---

(٧١) ابن طباطبا، **الفخري في الآداب السلطانية**، ص٧.
(٧٢) المسعودي، **مروج الذهب**، جـ٤، ص٢٨٩-٢٩٠.
(٧٣) انظر: **أخبار الراضي بالله والمتقي لله**، ص٥٩. على سبيل المثال.
(٧٤) السمعاني، **الأنساب**، ٩٦/٩.
(٧٥) انظر: ياقوت، **معجم الأدباء**، جـ٢٠، ص٢٨، الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، جـ١٣، ص٤٠٥.
(٧٦) انظر: الصولي، **أخبار الراضي والمتقي**، ص٨، ١٠٢.
(٧٧) انظر: المسعودي، **مروج الذهب**، جـ٤، ص٢٣٢، ياقوت، **معجم الأدباء**، جـ١٢، ص٢١٢.
(٧٨) ياقوت، المصدر نفسه، جـ١، ص١٥٠.
(٧٩) **مروج الذهب**، جـ٤، ص٣٣٧.
(٨٠) المصدر نفسه، جـ٤، ص٣١٥.

إن المتأمل في المواد الثقافية التي يقدمها الندماء للخلفاء يلحظ أنها تدور حول الأدب والشعر ومأثورات الأقدمين وأخبارهم، أما التثقيف السياسي للخليفة فهو قليل ونادر، ومثل ذلك يقال عن تبني هؤلاء لقضايا الرعية وهمومها تلك، الرعية التي عانت غلاء الأسعار والجوع ومختلف الأزمات الاقتصادية[٨١].

وإذا كان بعض أولئك الندماء من المبرزين في علوم الكلام مثل يحيى بن علي بن المنجم الذي كان رأساً في الاعتزال[٨٢] ومثله ابنه أحمد بن يحيى[٨٣]، فإنما لديهم من علم وثقافة لم يجر توظيفه بشكل يساعد الخلافة على تكوين خطة سياسية واقتصادية تعالج أوضاعها، وتبني مستقبلها خصوصاً في عهدي المعتضد والمكتفي بالله عندما كان زمام المبادرة بيد الخليفة وما ذلك إلا لكون المنتمين إلى تلك الفئة – في الغالب – من أصحاب الأغراض النفعية الذين لا يعنيهم إصلاح وضع الخلافة وإنما هم باحثون عن المنافع المادية والنفوذ.

وعلى أي حال فلقد تضاءل دور الندماء بعد الراضي بالله، فالخليفة المتقي صرف أولئك الندماء وكان يقول: "المصحف نديمي ولا أريدُ جليساً غيره"، مما أثار حفيظة الصولي الذي عقب على ذلك بقوله: "ما سمع بخليفة قط قال أنا لا أريد جليساً أنا أجالس المصحف، افتراه ظن أن مجالسة المصحف خص بها دون آبائه وأعمامه الخلفاء وأن هذا الرأي غمض عليهم وفطن له..."[٨٤].

ويرد ابن الجوزي على الصولي، فيقول: "أعجبوا لهذا المتنكر للصواب كان هو والجلساء لا يكادون يشرعون فيما ينفع وأقله المدح فيا ليته إذ قال هذا لم يثبته في تصنيفه"[٨٥]. وعلى كل فإنه حتى ولو لم يصرفهم المتقي بالله، فإنهم لن يجدوا عنده بغيتهم ذلك أن وهج الخليفة انتهى مع اضطراب الأوضاع وتسلط المتغلبين[٨٦].

٣- اللقاء بعلماء الدين:

كان لبعض الخلفاء صلات وثيقة ببعض علماء الدين، وعبر هذا اللقاءات والاتصالات أتيح للخلفاء معرفة قدر من الأحكام الشرعية المتعلقة ببعض القضايا، ومن أولئك العلماء في عهد المعتضد بالله القاضيان إسماعيل بن إسحاق الأزدي (ت٢٨٢هـ) وموسى بن إسحاق الخطمي (٢٩٧هـ) جاء في تاريخ بغداد أن المعتضد بالله قال عنهما لوزيره

(٨١) انظر الصولي، **أخبار الراضي بالله**، ص٦١.

(٨٢) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، جـ١٣، ص٤٠٥.

(٨٣) النديم، **الفهرست**، ص٢٠٥. ياقوت: معجم الأدباء، جـ٥، ص١٤٦-١٤٧.

(٨٤) **أخبار الراضي بالله**، ص١٩٣.

(٨٥) ابن الجوزي، **المنتظم**، ٣١٧/٦.

(٨٦) ضم بحكم أمير الأمراء إليه ندماء الراضي وجلساؤه ويقول ابن الأثير، إنه لم يفهم منهم ما ينتفع به، انظر: ابن الأثير، **الكامل** ٣٦٧/٧.

عبيدالله بن سليمان: إنهما ممن إذا أراد الله بأهل الأرض خيراً دفع عنهم بدعائهما[٨٧].

لقد أثرت بعض الآراء والنصائح التي قدمها القاضي إسماعيل بن إسحاق الأزدي على المعتضد بالله في عدة مواقف منها: أن المعتضد بالله كان لديه كتاب الرخص ويضم فتاوى مختلفة بشأن عدد من المسائل، فدفعه إلى القاضي الأزدي فنظر فيه ووقف على ما احتواه من الرخص، ثم قال: "يا أمير المؤمنين مصنف هذا الكتاب زنديق". فقال المعتضد بالله: "لم تصح هذه الأحاديث". فقال القاضي: الأحاديث على ما رويت ولكن من أباح المسكر لم يبح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبح الغناء، وما من عالم إلا وله زلة ومن جمع زلل العلماء وأخذ بها ذهب دينه فأمر المعتضد بالله فأحرق ذلك الكتاب"[٨٨].

ومن العلماء الذين نجحوا في ثني المعتضد بالله عن اتخاذ بعض الإجراءات القاضي يوسف بن يعقوب فإنه لما عزم المعتضد بالله على لعن معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه – حيث أخرج كتاباً كان المأمون قد أمر بإنشائه في هذا المعنى وهو كتاب حُشي بأحاديث غير صحيحة وروايات باطلة بغية تسويغ الإجراء المذكور.

عند ذلك جاءه القاضي يوسف بن يعقوب وناقشه فيما يترتب على نشر الكتاب من إبراز للطالبيين الذين يميل إليهم كثير من الناس، مما حفز المعتضد على عدم إعلان الكتاب[٨٩].

ومن العلماء الزهاد الذين حاوروا المعتضد ونصحوا له الزاهد (أبو الحسين النوري) (ت٢٩٥هـ) حتى إن المعتضد بالله أطلق يده في تغيير المنكرات فقال: "الآن نقص عزمي عن التغيير" فقال: ولم ؟ فقال: "كنت أغير عن الله، وأنا الآن أغير عن شُرطي".[٩٠]

لقد كان المعتضد بالله والمكتفي يلتقيان علماء دينيين معظمهم من فئة القضاة الذين كانوا يمثلون علماء الدين الرسميين. أما بعد التحول في مسيرة الخلافة واستبداد الوزراء والقادة الأتراك وحرم القصر بأمور الخلافة فمن الطبيعي أن تقل هذه اللقاءات، ولاسيما أن تلك العناصر المستبدة لا تريد – كما مر بنا – للخليفة أن يكون عالماً، ولا تريد أن يأتي المحدثون لتدريس أبناء الخلفاء[٩١].

لقد التقى المقتدر بعض العلماء وسمع أقوالهم التي تضمنت نصحاً في بعض القضايا الجزئية. فالقاضي أبو جعفر أحمد بن إسحاق ابن البهلول رفض دعوى الوزير حامد بن العباس على الوزير المعزول أبو الحسن بن

---

(٨٧) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، جـ٦، ص٢٨٨.

(٨٨) انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، جـ١٣، ص٤٦٥، ابن كثير، **البداية والنهاية**، جـ٤، ص٧٠١.

(٨٩) انظر: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، جـ١٠، ص٦٣.

(٩٠) ابن كثير، **البداية والنهاية**، جـ٤، ص٧٠٤.

(٩١) راجع: الصولي، **أخبار الراضي بالله**، ص ٢٥-٢٦.

الفرات والمتضمنة الزعم أن ابن الفرات راسل يوسف بن أبي الساج أحد ولاة العباسيين واتفقا على أن يبايعا بالخلافة لأحد الطالبيين حيث قدم حامد بن العباس رجلاً ادعى أنه قدم من أردبيل رسولاً من ابن الفرات إلى ابن أبي الساج، ولا يعنينا البحث في تفاصيل تلك الحادثة ذات الأبعاد المختلفة لكن المهم هنا ما حمله ذلك الموقف من نصائح وإرشادات وجهت من القاضي الملم بدسائس الوزراء على بعضهم حيث يقول للمقتدر بالله: وقد سأل عن رأيه: الجواب يا أمير المؤمنين ما قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنْ جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾[٩٢] ومثل هذا لا يقبل فيه خبر واحد والتمييز يمنع من قبول ذلك من ابن الفرات، أتراه يظن به أنه رضي أن يكون تابعاً لابن أبي الساج ولعله ما كان يرضى وهو وزير أن يستحجبه ثم أقبل على الرجل وطلب منه وصف أردبيل ودار إمارتها فتلجلج، فقال القاضي: "يا أمير المؤمنين هذا جاهل متكسب مدسوس". وقد اعترف الرجل بعد ذلك بحضرة المقتدر والقاضي والوزير حامد بن العباس أنه غدر وكذب[٩٣]. لا شك أن موقف القاضي يحمل في طياته ما هو جدير بأن يستفيد منه الخليفة ويستنير به.

وجاء في بعض المصادر أن المقتدر بالله أرسل طبيباً من النصارى إلى أبي بكر الشبلي فقال الطبيب: "لو علمت أن قطع بعض جسدي يشفيك لقطعته". فقال الشبلي: "يشفيني قطع ما هو أيسر عليك من ذلك"، فقال: "وما هو" قال: "قطعُ زنارك" !! فقطعه وأسلم فقال الخليفة: "بعثنا طبيباً إلى عليل فإذا هو عليل إلى طبيب"[٩٤].

وعلى أي حال فإن ما حازه المقتدر بالله من ثقافة دينية لم يؤد إلى تفعيل دوره وتحريك همته، ولو على المستوى الدعائي والإعلامي خصوصاً أن الخلافة آنذاك أصبحت تواجه أخطاراً عقدية وفكرية تهدد سلطانها ونفوذها فقد شكل القرامطة وهم ذوو تطلعات عقدية فاسدة خطراً حقيقياً يهدد مركز الخلافة، وانقطع طريق الحج إلى مكة من جهة العراق عدة سنوات، مما حال بين مسلمي المشرق وبين أداء الركن الخامس من أركان الإسلام، ولقد حاول الوزير الناصح علي بن عيسى استنهاض همة المقتدر عندما بادر إلى حثه على دعم الجهاد ضد القرامطة بعد أن زحف زعيمهم أبو طاهر القرمطي نحو العراق واستولى على الكوفة وأسر قائد الجيش العباسي سنة ٣١٥هـ وطلب منه إخراج المال لقمع أعداء الدين – القرامطة – وذكر "أنه لم يلحق المسلمين منذ قبض رسول الله صلى الله

---

(٩٢) سورة الحجرات، الآية ٦.

(٩٣) ياقوت، **معجم الأدباء**، جـ٢، ص١٥٢-١٥٣.

(٩٤) ابن كثير، **البداية والنهاية**، جـ١٥، ص١٨٥، والزنار، حزام يشده النصراني على وسطه، إبراهيم أنيس وآخرون: **المعجم الوسيط**، القاهرة، مطابع دار المعارف، ط٢، ١٣٩٣هـ، ٤٠٣/١.

عليه وسلم أعظم من هذا الأمر لأن هذا الرجل كافر ولم يبق في مال الخاصة شيء فاتق الله يا أمير المؤمنين".[٩٥]

إن الوعي بتلك الأخطار التي واجهت المسلمين آنذاك ومن ثم الانتقال إلى محاولة العمل على مدافعتها من صميم الواجبات الدينية المنوطة بالخليفة. ومعلوم أن المقتدر أثناء اشتداد هجمات القرامطة كان قد تجاوز الثلاثين من العمر. أي أنه في مقدورنا القول بأنه أصبح مهيأ لفهم ما حوله بشكل أكبر من ذي قبل، ورغم أن الراضي بالله كان على صلة ببعض الفقهاء كالقاضي عمر بن محمد الأزدي[٩٦] الفقيه المالكي (ت٣٢٨هـ) إلا أن الراضي بالله لم يكن مستوعباً أطروحات المذاهب الدينية السنية وبخاصة الحنابلة، حيث خرج من دار الخلافة كتاب يحمل توقيع الراضي يوبخ فيه الحنابلة، ويتهمهم بالجهل والتشبيه[٩٧] في إجراء ينقصه التروي والحكمة، ويدل على سوء فهم الخليفة لمذهب الحنابلة في الاعتقاد والاستجابة لحملات التشويه والافتراء الموجهة تجاه قطاع مهم من فقهاء حاضرة الخلافة.

٤- الاطلاع على الكتب والرسائل:

يعد الاطلاع على الكتب المؤلفة والمترجمة والرسائل المفردة فناً من فنون العلم أو مسألة من مسائله من وسائل بناء الثقافة. لقد عرف عن الخلفاء الاهتمام بهذا الجانب، وبخاصة المعتضد بالله. يروي سنان بن ثابت (ت٣٢١هـ) أنه اشترك مع المعتضد بالله في البحث في الخزائن القديمة عما يصلح للأميرين أبي جعفر وأبي الفضل من كتب الفقه وكتب اللغة وكتب السير القديمة والقريبة العهد وأخبار الملوك وأيام الناس وأخبار الدولة العباسية وأشباه ذلك[٩٨].

ويفهم مما يذكره الصولي أن الراضي بالله قد اطلع على عدد من الكتب والمؤلفات من أبرزها تاريخ الطبري[٩٩].

وتجاوباً مع رغبة بعض الخلفاء ألف عددٌ من العلماء كتباً في شتى الأغراض لأولئك الخلفاء الراغبين في مزيد من المعرفة عبر الكتاب. فقد ألف أبو العباس الفضل بن حاتم كتاب "أحداث الجو" للمعتضد بالله[١٠٠] وألف الطبيب يحيى الحلاجي كتاب " تدبير الأبدان

---

(٩٥) مسكوية أحمد بن علي (ت٤٢١هـ) **تجارب الأمم**، عناية هـ، ف. آمدروز، مصر، شركة التمدن الصناعية، ١٣٣٣هـ، جـ١، ص١٨٠-١٨١. ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، جـ١٣، ص٢٦٤-٢٦٥.

(٩٦) يقول عنه الراضي (كنت أضيق بالشيء فيوسعه علي) انظر الصولي، **أخبار الراضي بالله والمتقي لله**، ص١٤١.

(٩٧) انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، جـ٧، ص ٣٠٨، ويذكر الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي أنه يحتمل أن يكون الراضي جاهلاً بحقيقتهم أو أنه =

= أراد مسايرة الجمهور بإشاعة تلك التهم، انظر، نقض كلام المفترين على الحنابلة السلفيين، الكويت، مكتبة ابن تيمية (د، ت)، ص١١-١٢.

(٩٨) انظر: فرانز روزنثال، **علم التاريخ عند المسلمين**. ترجمة، صالح العلي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٣هـ، ص٦٩-٧٠، وقد نقل ذلك عن ابن العديم الحلبي.

(٩٩) **أخبار الراضي بالله والمتقي لله**، ص٣٩.

(١٠٠) النديم، **الفهرست**، ص٣٣٨.

النحيفة"[١٠١] للمعتضد بالله أيضاً، وألف علي بن هارون المنجم كتاب "شهر رمضان للراضي بالله"[١٠٢].

هذا ومن المعلوم أن الخليفة باعتباره رأس الهرم الإداري والسياسي فإنه يتلقى رسائل وتقارير من الوزراء والعمال والكتاب، فتسهم في إثراء معلوماته ومفاهيمه، لكن عدم الاستقرار السياسي في الدولة وتسلط المتغلبين على الخلفاء وتلاشي دور الخليفة في السياسة والإدارة منذ عهد المقتدر، أدى إلى أن لا يصل إلى الخلفاء رسائل وتقارير من هذا القبيل إلا في حالات قليلة.

ومن خلال هذه المؤثرات الثقافية تعرف الخلفاء ومن في محيطهم على جوانب من الثقافة وعلى اتجاهات فكرية حملتها عناصر من البيئة المحيطة بالخلافة وجماعات الندماء والعلماء والقضاة. والواقع أن البيئة المحيطة بالخلفاء وجماعات الندماء كان لهم أثر في تعزيز مكانة الثقافة الأدبية عند الخلفاء بجميع جوانبها وأشكالها، ومنها ما كان عديم الفائدة وربما كان الأخذ به وتعاطيه دالاً على هبوط الذوق الفكري عند ذلك المحيط.

لقد شاع في محيط الخلافة في عهد المقتدر كتب الأساطير ومن ذلك أساطير الدانيالي المحتال الذي وضع كتاباً حمل بعض التوقعات ونسبه إلى دانيال عليه السلام، وقد اطلع عليه المقتدر بالله وكان ذلك من أسباب توزير الحسين بن القاسم عام ٣١٩هـ[١٠٣].

وينقل الصولي عن الراضي قبل خلافته أنه قال لخدم جدته عندما أخذوا من بين يديه كتب اللغة والأدب والحديث: " قولوا لمن أمركم بهذا قد رأيتم هذه الكتب وإنما هي حديث وفقه وشعر وأخبار و كتب العلماء ومن كلمه الله بالنظر في مثلها ينفعه بها، وليست من كتبكم التي تبالغون فيها مثل عجائب البحر وحديث سندباد والسنور والفأرة"[١٠٤]. ويفهم من ذلك أن هذه النوعية من الكتب كان يجري نشرها في البلاط العباسي من قبل بعض الشخصيات النافذة في البلاط وهي من كتب الأسمار والخرافات كما يذكر ذلك النديم في الفهرست[١٠٥].

وثمة اتجاهات فكرية مناهضة للثقافة الإسلامية والعربية تعلق بها بعضٌ من المحيطين بالخلفاء من طبقة الوزراء والكتاب، إذ إن بينهم شعوبيين معادين للتراث العربي، وآخرين متعلقين بعادات أجنبية كالاحتفال بالنيروز إذ احتفلت به والدة المقتدر موقدةً المجامر على رؤوس حيطان قصر الخلافة[١٠٦].

---

(١٠١) النديم، المصدر نفسه، ص٣٥٦، وانظر: ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، جـ٢، ص١٧٠.

(١٠٢) النديم، **الفهرست**، ص١٦١.

(١٠٣) انظر: ابن الأثير، **الكامل**، جـ٨، ص٦.

(١٠٤) انظر: **أخبار الراضي والمتقي**، ص٦.

(١٠٥) ص٤٦٣-٤٦٥.

(١٠٦) التنوخي، **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**، جـ١، ص٢٩٣.

ويصل الأمر في مجلس بعض الوزراء، إلى ازدراء تراث المسلمين والزعم بتفوق مأثورات الساسانيين على ذلك التراث.

ويذكر الذهبي أن عهد أردشير كان يقرأ في مجلس القاسم بن عبيدالله وزير المعتضد والمكتفي وأن من جلسائه من يقدمه على القرآن الكريم(١٠٧)، والعجيب أن بعض الوزراء والكتاب لا يرى إمامة العباسيين، وهذا ما يفهم من قول أبي الحسن بن الفرات وزير المقتدر لاحقاً للوزير العباس بن الحسن وهما يتشاوران في البيعة للمقتدر متى اعتقدت أنت أو نحن إمامة البالغين من هؤلاء(١٠٨)، مما يدل على أن بعض رجال الإدارة في الدولة العباسية آنذاك كانوا يستبطون نزعات معاويه للخلافة وباعتبارهم عنصراً مؤثراً في بنية الخلافة الإدارية والسياسية فإنّ وجودهم عزز التأثيرات السلبية الهدامة على التربية والتثقيف الموجهين نحو الأبناء والخلفاء.

ومن بين عناصر التأثير التي حملت لواء الثقافة العربية الإسلامية الفقهاء والقضاة، ويظهر أن تأثيرهم كان محدوداً وأنّ حضورهم كان ضئيلاً في البلاط العباسي وقد يكون ثقيلاً على بعض المتنفذين. وعلى أي حال فإن هذه المؤثرات ساقت إلى عقول الخلفاء مواد ثقافية مختلفة وكان لبعضها تأثير إيجابي على شخصيات بعض الخلفاء كالراضي بالنظر إلى ثقافته الأدبية القوية، كما كان لبعضها الآخر تأثير سلبي على شخصيات بعض الخلفاء وتحصيلهم العلمي وثقافتهم الدينية واللغوية.

إذ يعد الراضي بالله من ذوي الثقافة الأدبية العالية والعلم بفنون الشعر والنثر وقد عرف بالفصاحة والبلاغة وقول الشعر، وعنه يقول الصولي: "إنه أطبع ملوك بني العباس في الشعر وأكثرهم شعراً وعشرة لجلسائه"(١٠٩) ولقد أورد بعض المؤرخين كابن الأثير نماذجَ من شعره الذي جادت به قريحته(١١٠)، وفي رأي بعض الباحثين فإن الراضي بالله كان ناضجاً مدركاً للأمور غير أن موقفه كان موقف الضعيف المستسلم(١١١). والحقيقة أن ثقافة الراضي العالية لم تقده إلى تبني مشروع إصلاحي يستهدف إصلاح ما يمكن إصلاحه من أوضاع الدولة العباسية كما فعل المهتدي بالله سابقاً والقادر بالله لاحقاً.

وهناك خلفاء أدت المؤثرات السلبية الهدامة والظروف التي عاشها إلى التأثير سلباً على ثقافته ومعالم شخصيته، كالمقتدر الذي نُصّبَ

(١٠٧) انظر: **سير أعلام النبلاء**، جـ١٤، ص١٩.

(١٠٨) انظر: الصابي، **الوزراء**، ص٧٠، وانظر عن ميول بني الفرات، ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، جـ٨، ص١٨٤.

(١٠٩) انظر: **أخبار الراضي بالله والمتقي لله**، ص١٩.

(١١٠) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، جـ٨، ص٣٦٦-٣٦٨. وقد أورد الصولي أشعاراً له انظر: **أخبار الراضي بالله**، ص١٥٤.

(١١١) فاروق عمر، **الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية**، ص٩٨.

خليفة من قبل وسط إداري وعسكري لا يهمه أمر الثقافة والعلم (وقد مر بنا في موضع سابق الإشارة إلى طبيعة الوسط الذي نشأ فيه) ولقد وصفه التنوخي: "بأنه جيد العقل صحيح الرأي ولكنه كان مؤثراً للشهوات" وعنه يقول الوزير الصالح علي بن عيسى "ما هو أن يترك النبيذ خمسة أيام متتابعة حتى يصح ذهنه ولو قلت إنه إذا ترك النبيذ هذه المدة في أصالة الرأي وصحة العقل كالمعتضد والمنصور ومن أشبههما من الخلفاء وما خشيت أن أقع بعيداً، وما يفسده غير متابعة الشراب ولا يخبله سواها" (١١٢).

ويمكن القول أن تأثير الثقافة الدينية كان معدوماً عند القاهر بالله بن المعتضد، ولذلك نلحظ استحكام النزعة العدوانية عنده، ظهر ذلك واضحاً في المعاملة السيئة التي تلقتها امرأة أبيه منه والدة المقتدر، حيث ضربها أشد ما يكون الضرب، وعلقها برجلها(١١٣). وهذه المعاملة الشنيعة وذلك التصرف يعكس انعدام التربية الصالحة ويوضح بجلاء ما يؤدي إليه انعدام الثقافة الدينية، تلك الثقافة التي كرهها بعض أصحاب النفوذ في دار الخلافة في عهد المقتدر بالله – كما مر بنا -. كما يبدو ضعف تأثير الثقافة الدينية وما تولده من قوة عزيمة وثبات عند المقتدر بالله في عدة مواقف تكشف عن تخاذله وانهزاميته أمام بعض مراكز القوة في عهده كالقائد مؤنس الخادم. ففي سنة (٣١٧هـ) أبدى الخليفة ما يدل على سريان هذه الروح المتخاذلة أمام من سلب منه صلاحياته باعتباره خليفة المسلمين، حيث أخذ يتوسل إليه أن لا يشك في صفاء نيته له، فيقول مخاطباً مؤنس الخادم: "أنت يا أبا الحسن لا خلونا منك، شيخي وكبيري ومن لا أزول ولا أحول عن الميل إليه... أرجو ألا تشك في ذلك..."(١١٤).

إن الثقافة الدينية الشرعية لها أهميتها في بناء شخصية الخليفة المأمول منه تحسين أوضاع الخلافة، وغالباً ما تكون الدافع والمحرك لأي مشروع إصلاحي، وإضافة إلى ذلك فقوتها عند الخليفة مما يعبر عن تحرره من المؤثرات الهدامة وجوها الفاسد وإذا كان القاهر بالله ممن ضعفت ثقافته وقل تحصيلهم

---

(١١٢) انظر: التنوخي، **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**، جـ١، ص٢٨٢، ولقد كان علي بن عيسى من أبرز وزراء المقتدر وقد وزر له مرتين قال عنه الصولي، لا أعلم أنه وزر لبني العباس مثله في عفته وزهده وحفظه للقرآن، انظر: ياقوت، **معجم الأدباء**، جـ١٤، ص٦٩، الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، جـ١٥، ص٢٩٩، وقد وزر مرتين للمقتدر فيما بين عامي (٣٠١-٣٠٤هـ) وفيما بين عامي (٣١٤-٣١٦هـ) ورغم جهوده الإصلاحية إلا أنه كان يصطدم بضغوط = أفراد الحاشية ويواجه سوء معاملتهم.

راجع: حمدان الكبيسي، **عصر المقتدر بالله**، ص ١٨٤-١٨٥، ٢٢٠-٢٢١، وضيف الله الزهراني: الوزير العباسي علي بن عيسى إصلاحاته الاقتصادية والإدارية، ص٢٧-٢٨.

(١١٣) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٢٤٥/٨.

(١١٤) الهمذاني، محمد عبد الملك (ت٥٢١هـ)، **تكملة تاريخ الطبري**، ملحق بالجزء (١١) من تاريخ الطبري، بيروت، دار سويدان (د، ت)، ص٢٥٩.

فإن المستكفي بالله، وهو الخليفة الأخير في سلسلة الخلفاء ما قبل العهد البويهي – وقد عاصر دخول آل بويه بغداد، لم يكن بعيداً عن القاهر بالله.. يقول عنه أحد معاصريه كنا إذا كلمنا المستكفي بالله وجدنا كلامه كلام العيارين(١١٥). ولعل في ذلك ما يشير إلى ضعف الحصيلة اللغوية وتدني القدرة على مخاطبة الآخرين من أهل لفكر والرأي، وذلك مما لا ينسجم مع المركز الذي يشغله والمكانة التي تسنمها.

الخاتمة

تناول البحث التأديب في دار الخلافة العباسية وتثقيف الخلفاء من خلال دراسة بعض العوامل المؤثرة على ثقافة الخلفاء.

وقد أبرز البحث بعض المعوقات التي أسهمت في تدني التأديب وضعف فاعليته بعد عهد المكتفي بالله ومن ذلك ضعف دور الخليفة وتسلط مراكز القوى على شؤون الخلافة، وكون أصحاب هذه المراكز لم يكونوا راغبين في وصول خلفاء رفيعي الثقافة إلى سدة الحكم، ومن تلك المعوقات أن الأجواء التي أحاطت بالأبناء لم تكن في مجملها مما يخدم التأديب كعملية تربوية وتثقيفية مبكرة وبينت الدراسة أن هناك فئات على تعميق الثقافة غير الجادة عند الخلفاء في هذه المرحلة. كما اتضح من خلال الدراسة أن ضعف تأثير الثقافة الدينية أدى إلى بروز سمة الانهزامية والتخاذل واستحكام النزعة العدوانية عند بعض الخلفاء.

(١١٥) - العيار من الرجال الذي يخلي نفسه وهواها لا يردعها ولا يزجرها، انظر، **حاشية تكملة تاريخ الطبري**، للهمذاني، ص٣٥٤ وفي **القاموس المحيط** العيار الكثير المجيء، = والذهاب وقد كان العيارون من الطبقات الفقيرة المعدمة من عامة المجتمع.. انظر الفيروزآبادي: المصدر نفسه، ص٥٧٤.

- الهمذاني: **تكملة تاريخ الطبري**، ص٣٥٤.

العصور، المجلد الثاني عشر، الجزء الأول، ١٠١ – ١١١ (٢٠٠٢م)

نقش تأسيسي عثماني من حي القلعة بالقطيف مؤرخ في عام ١٠٣٩هـ

د. مشلح بن كميخ المريخي

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث دراسة نقش تأسيسي عثماني من حي القلعة بالقطيف، مؤرخ عام ١٠٣٩هـ ممهور باسم أحد أشهر الولاة العثمانيين بمنطقة الخليج العربي. وتعنى هذه الدراسة بقراءة النص وتحليل مضمونه، مبينة أهمية مدلولاته التاريخية والأثرية، فضلاً عما يحمله من معطيات فنية وقيم جمالية، وتبرز الدراسة ما اشتمل عليه النقش من ألقاب، ونعوت، وأسماء أعلام.

توطئة:

تمتعت منطقة شرق الجزيرة العربية على مر العصور بأهمية اقتصادية واستراتيجية كبيرة، اكتسبتها نتيجة لكونها إحدى أهم معابر الطرق التجارية القديمة بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب. ونتيجة لذلك نشأت على شواطئ الخليج العربي موانئ ومدن مهمة، مثل: جزيرة هرمز، وصحار، وجلفار، والقطيف، والبحرين، والبصرة. وبسبب هذه الأهمية كانت المنطقة محطاً لأطماع القوى الخارجية وبخاصة الاستعمارية منها، بداية بالبرتغاليين، ومروراً بالإنجليز، ثم الهولنديين، ونهاية بالفرنسيين، ثم الإنجليز.[١]

وقد مهد البرتغاليون لتدخلهم في منطقة الخليج باستيلائهم على بعض موانئ جنوب الجزيرة العربية وموانئ الساحل العماني، وتوجوه بالاستيلاء على جزيرة هرمز عام ٩١٢هـ/١٥٠٧م.[٢] وكان هدف البرتغاليين من ذلك هو تأمين تجارتهم من جوا على الساحل الهندي، مروراً بطريق رأس الرجاء الصالح، وصولاً إلى أوروبا عن طريق المحيط الأطلسي. وبالرغم من أن هذه الطريق كانت آمنة بالنسبة إلى تجارتهم، إلا أنهم كانوا يبحثون عن طرق أقصر وأوفر، لذلك كان تطلعهم للسيطرة على طريقي الخليج العربي والبحر الأحمر.[٣]

---

(١) الخطيب، مصطفى عقيل، **التنافس الدولي في الخليج العربي**، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت (١٩٨١م)، ص ص ٧-١٢؛ الخصوصي، بدر الدين عباس، **دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر**، ج١، منشورات ذات السلاسل، الكويت، الطبعة الثانية (١٩٨٤م)، ص ص١٣-٤٨.

(٢) المسلم، محمد سعيد، **ساحل الذهب الأسود: دراسة تاريخية إنسانية لمنطقة الخليج العربي**، دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الثانية (د.ت)، ص ١٧٠.

(٣) الخطيب، **التنافس الدولي في الخليج العربي**، ص ١٥.

لذا أحس المماليك بأن البرتغاليين بسيطرتهم على الطرق التجارية والاقتصاد العالمي، وكذلك بتهديدهم الأمكنة المقدسة، أصبحوا يهددون كيانهم؛ لذلك دخلوا معهم في صراع، توَّجه البرتغاليون بالانتصار على القوات المملوكية في ديو عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م.

وكان العثمانيون يراقبون الوضع بحذر، وعندما أحسوا بأن البرتغاليين أصبحوا يهددون الأمكنة المقدسة، وطرقهم التجارية، أيقنوا أن السبب الحقيقي يكمن في ضعف دولة المماليك، لذلك قرر العثمانيون الزحف ضد المماليك، فاستولوا على الشام عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م، ثم أنهوا حكم الأخيرين بالاستيلاء على مصر عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م.(٤)

وفي هذه الأثناء دارت مفاوضات بين البرتغاليين والصفويين انتهت بتوقيع معاهدة صلح بين الطرفين عام ٩٢١هـ/١٥١٥م، وكان من أهم بنودها قيام تحالف عسكري بين الطرفين ضد الدولة العثمانية، وعلى أن تساند البحرية البرتغالية القوات الإيرانية في الاستيلاء على البحرين والقطيف.(٥) وقد نتج عن هذا التحالف أن ضم البرتغاليون البحرين عام ٩٢٧هـ/١٥٢١م، ثم القطيف بين عامي ٩٣٢-٩٣٧هـ/١٥٢٦-١٥٣٠م. وبذلك بدأ ميناء القطيف يظهر بشكل أكثر أهمية على مسرح الأحداث، وأصبح سبباً للصراع بين أربع قوى هي: البرتغالية، والصفوية، والعثمانية، والمحلية.

وبعد سقوط القطيف أصبحت المدينة خاضعة لحكام هرمز الخاضعين بدورهم للسيطرة البرتغالية، فأيقن العثمانيون أن البرتغاليين أصبحوا يهددون ممتلكاتهم الجنوبية، لذلك استولوا على شمال العراق، ثم أتموا سيطرتهم عليه باستيلائهم على بغداد عام ٩٤١هـ/١٥٣٤م.

كان هناك ما يشبه الاتفاقية الاقتصادية بين البرتغاليين وبين آل مغامس،(٦) حكام البصرة والقطيف والحسا، والتي تقضي بتأمين الطريق التجاري بين هرمز-البوابة الجنوبية للخليج- وبين البصرة بوابته الشمالية. ولكن بعد استيلاء البرتغاليين على القطيف ساءت العلاقة بين الطرفين، وأحس آل مغامس أن الوجود البرتغالي في الخليج أصبح يهدد سلطتهم على هذه المناطق.

لم يجد راشد بن مغامس بدّاً من اللجوء إلى العثمانيين لمساعدته ضد البرتغاليين،

(٤) إيفانوف، نيقولاي، **الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦-١٥٧٤م**، نقله إلى العربية يوسف عطا الله، راجعه وقدم له سعود ضاهر، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٨٨م) ص ٥٣ وما بعدها.

(٥) الخطيب، **التنافس الدولي في الخليج العربي**، ص ٢٤.

(٦) يطلق بعض المؤرخين على هذه الأسرة لقب آل شبيب، لمزيد من التفاصيل عن تاريخ هذه الأسرة وحكمها للبصرة والأحساء والقطيف، انظر الحميدان، عبداللطيف الناصر، **إمارة آل شبيب في شرق جزيرة العرب**، مطابع الحميضي، الرياض (١٩٩٧م).

حيث كانت تربطه بهم صلة دينية ومصالح اقتصادية، لذلك رحب الشيخ راشد بن مغامس زعيم البصرة بالوجود العثماني في بغداد، وبعث ابنه مانع على رأس وفد إلى بغداد، حيث قدم للسلطان العثماني مفاتيح البصرة، وخطاب الولاء للسلطان العثماني.

تتابعت في السنوات التالية وفود حكام البصرة إلى إستنبول حتى تم إعلان البصرة إيالة عثمانية عام ١٥٣٨/٩٤٥م، وتم تعيين الشيخ راشد بن مغامس حاكماً عليها برتبة أمير أمراء، وهي أعلى رتبة في الإيالات العثمانية آنذاك، وبذلك أصبحت المواجهة مباشرة بين العثمانيين والبرتغاليين. وبمساعدة العثمانيين تمكن مانع بن راشد من استعادة القطيف من البرتغاليين عام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م. وفي السنوات التالية دارت مناوشات بحرية بين العثمانيين والبرتغاليين في الخليج العربي والبحر الأحمر وبحر العرب. وكان من ضمن نتائجها سيطرة البرتغاليين على القطيف للمرة الثانية عام ٩٥٢هـ/١٥٤٥م، وإنهاؤهم لحكم آل مغامس في الحسا والقطيف.

ثم شن البرتغاليون حملة كبرى بهدف استعادة ميناء وقلعة القطيف، وبالرغم من فشلهم في تحقيق هدفهم إلا أنهم تمكنوا من تدمير ميناء المدينة وقلاعها وتحصيناتها الدفاعية،[٧] وبذلك خضعت القطيف والحسا للحكم العثماني المباشر (٩٥٤-١٠٨٢هـ/١٥٤٧-١٦٧١م).

شعر العثمانيون أن سلطة آل مغامس في البصرة أصبحت ضعيفة وغير قادرة على الدفاع عن أراضيها، لذلك ضمت البصرة للحكم العثماني المباشر عام ٩٥٣هـ/١٥٤٦م، وفي السنة التالية ضمت الحسا وأعلنتها إيالة عثمانية. وبمساعدة السكان المحليين تمكن العثمانيون من استعادة القطيف من البرتغاليين عام ٩٥٧هـ/١٥٥٠م وأعلنوها لواءً عثمانياً تابعاً لإيالة البصرة، ثم تم ضمها لإيالة الحسا في وقت لاحق.

تعاقب على حكم إيالة الحسا خلال هذه الفترة ما يزيد على ٤٩ أميراً، تراوحت مدد حكمهم ما بين شهرين وخمس سنوات وأربعة أشهر. إلا أننا نجد أن اثنين من الأمراء قد زادت مدة حكم كل منهما على ربع قرن، وهما علي باشا الذي حكم لمدة ٢٦سنة (١٠١٨-١٠٤٤هـ/١٦٠٩-١٦٣٤م) وابنه محمد باشا الذي حكم لمدة ٣٠ سنة (١٠٤٤-١٠٧٤هـ/١٦٣٥-١٦٦٣م).[٨] وعلي باشا هذا هو الذي في عهده أعيد بناء القلعة التي يوجد فيها النقش التأسيسي الذي هو محور هذه الدراسة.

مر الحكم العثماني في بلدان الخليج بمراحل قوة وضعف تبعاً لقوة الدولة،

(٧) الوهبي، عبدالكريم بن عبدالله، **الحكم العثماني في الحسا** (٩٥٤-١٠٨٢هـ/١٥٧٤-١٦٧١م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم التاريخ - كلية = الآداب - جامعة الملك سعود، الرياض (١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ص ١٤٨.

(٨) الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٦٨.

وضعفها، أو لانشغالها بالدفاع عن حدودها الشاسعة، وخصوصاً على الجبهة الأوروبية، وقد شجع هذا الوضع بعض الأمراء على محاولة التخلص من التبعية العثمانية، ونجح بعضهم في الاستقلال بحكم إيالاتهم بما يشبه الحكم الذاتي، ومن أشهر الأمراء الذين استقلوا بالحكم أسرة الأفراسياب في البصرة.(٩)

إن المتأمل لفترة حكم علي باشا وابنه محمد باشا من بعده يتساءل هل استقلا بحكم إيالة الحسا؟ وهو سؤال لدينا من المبررات ما يحملنا على الاعتقاد بتمتعهما بنوع من الاستقلال، يساند هذا الرأي عدة أمور، منها ما يلي:

١- طول فترة حكم كل من علي باشا وابنه محمد باشا من بعده، والتي زادت على نصف قرن.

٢- الصراع الذي دار بين الأفراسياب في البصرة وبين محمد باشا في الحسا، حيث كان هذا الصراع بعيداً عن أعين الدولة، مما يعني أنه صراع بين حاكمين مستقلين للسيطرة على أكبر مساحة من الأرض.

٣- إن النقش التأسيسي - موضوع هذه الدراسة - يخلو من أي ذكر للدولة العثمانية، أو السلطان العثماني، وينعت علي باشا أمير الحسا بألقاب سلطانية ودينية لا يمكن إطلاقها إلا على من يحكم باستقلالية.

وبالرغم من أن هذا ليس مدار دراستنا، فإن التساؤل الذي يظل مطروحاً هو: هل تمتعت الحسا بالحكم الذاتي بقيادة علي باشا وابنه محمد باشا؟، مع التذكير بأهمية نقشنا موضوع الدراسة على تأكيد ذلك.

أولاً: حي القلعة بالقطيف:

تقع القلعة في مدينة القطيف بالمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، إلى الشمال الغربي من مدينة الدمام، وكان حي القلعة هو مركز مدينة القطيف قديماً، إذ كانت مدينة محصنة ذات شكل بيضاوي، تنقسم إلى أربعة أحياء، ليس بينها فواصل، ولكل قسم (حي) اسم عرف به، فالجهة الجنوبية من الناحية الغربية كانت تسمى فريق الخان، وفي الناحية الشرقية كان يوجد فريق السدرة، وفي الجانب الشمالي من الناحية الغربية وجد فريق الزريب، وفي الناحية الشرقية كان يوجد فريق الوارش.(١٠) وكان يحف بالقلعة من الجهتين الغربية والجنوبية بعض الأحياء الصغيرة.

---

(٩) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأسرة، انظر: الخطيب، **التنافس الدولي في الخليج العربي**، ص ٩٩ وما بعدها؛ الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٤٣٩ وما بعدها؛ الحمداني، طارق نافع، "العلاقات بين أفراسياب والدولة العثماني إبان حكم - أفراسياب باشا وعلي باشا ١٥٥٦-١٦٥٠م"، **مجلة الخليج العربي**، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، ع١، مجلد ١٦، البصرة (١٩٨٤م).

(١٠) المسلم، **ساحل الذهب الأسود**، ص ٤٨.

لقد انتزعت ملكية القلعة في وقتنا الحاضر، وأزيل منها ثلاثة أحياء (فرق)، وهي فريق الخان، وفريق السدرة، وفريق الوارش، وأبقي على الحي الرابع، وهو فريق الزريب، حيث تسلمته وكالة الآثار والمتاحف السعودية للمحافظة عليه.(١١)

وقد كانت القلعة تستخدم مستودعاً للعطور والتوابل ومختلف البضائع، ثم تحولت في فترة لاحقة إلى مقر سكني للأهالي، وذلك لمناعتها، وأصبحت تمثل حاضرة القطيف.(١٢) وكان يحيط بالقلعة سور منيع يبلغ سمكه ٧ أقدام، وارتفاعه ٣٠ قدماً، وتبرز بين جوانبه وزواياه أبراج عالية مستديرة الشكل، وكانت توصل هذه الأبراج التي يبلغ عددها ١١ برجاً جسوراً ممتدة في أعلى السور لتمكين الحاميات من الاتصال ببعضها بعضاً أثناء المراقبة،(١٣) وكان للقلعة أربعة أبواب، أحدها في الشرق، ويسمى دروازة البحر، والثاني في الغرب، ويسمى دروازة باب الشمال، والثالث في الجنوب عند مدخل السوق، ويسمى دروازة السوق، والرابع يقع في الشمال، ويصلها بالكوت.(١٤)

إن أقدم إشارة لهذا السور في المصادر التاريخية تعود إلى القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، عندما ذكره أبو الفداء،(١٥) ووصفه وصفاً لا يختلف عن وضعه المعروف عند أهالي المنطقة قبل ما يربو على الستين عاماً مضت.(١٦) وقد جدد بناء السور في عهد السلطان سليمان القانوني في غرة المحرم من عام ٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م، كما يتضح من لوحة تأسيسية تشير إلى ذلك،(١٧)، ثم أعيد بناؤه في عام ١٠٣٩هـ أيضاً في عهد أحد الولاة العثمانيين؛ وهو الوالي علي باشا كما هو واضح من الحجر التأسيسي الذي كان مثبتاً بدروازة باب الشمال؛(١٨)، وهذا الحجر التأسيسي هو موضوع هذه الدراسة.

تجدر الإشارة إلى أن هناك عدة أمور دفعتني لدراسة هذا النقش التأسيسي، منها:

١- أنه لم يسبق نشره من قبل.

٢- إشارة المسلم له في كتابه "القطيف – سلسلة هذه بلادنا"، ص ص٢٨-٢٩، وتضمين صورة النقش دون تقديم قراءة له، فضلاً عن الخطأ الذي وقع فيه عند إشارته إلى أن النص أرّخ بحساب

---

(١١) المسلم، محمد بن سعيد، **القطيف: سلسلة هذه بلادنا**، الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ/١٩٨٩م)، ص ٢٨، حاشية رقم ١.

(١٢) المسلم، **القطيف**، ص ٢٨.

(١٣) المسلم، **ساحل الذهب الأسود**، ص ٤٦.

(١٤) المسلم، **القطيف**، ص ص ٢٨-٢٩.

(١٥) المسلم، **ساحل الذهب الأسود**، ص ٤٤.

(١٦) المسلم، **ساحل الذهب الأسود**، ص ٤٤.

(١٧) المسلم، **القطيف**، ص ٢٨.

(١٨) المسلم، **القطيف**، ص ٢٩.

الجمل، وأنه تضمن كلمة "محفوظة" وهي ما يعادل ١٠٣٩هـ، والتاريخ صحيح ولكنه لم يدون بحساب الجمل، بل كتب بجملة عربية صريحة متبوعة بالتاريخ رقماً.

٣- ورود هذا النص في أطروحة ماجستير بقسم التاريخ بجامعة الملك سعود، مقدمة من الأستاذ عبد الكريم بن عبدالله الوهبي، الذي أشار خطأً إلى أن النص مؤرخ في سنة ١٠٣٧هـ.[١٩]

٤- تضمينه إلى مجلد "المختار من إبداعات الخط العربي" الصادر عن الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض بمناسبة إقامة معرض الخط العربي، حيث وردت صورة النقش في المجلد ضمن نقوش أخرى قدمت قراءاتها ما عدا هذا النقش، وضاعف من الخطأ أن التاريخ الذي وضع هو سنة ٩٦٨هـ، فضلاً عن أن ما ورد من معلومات مصاحبة للصورة، لا تمت لها بصلة سواء فيما يتعلق بوصف مضمون النص أو تاريخه[٢٠].

هذه الأسباب وغيرها دفعتني للقيام بتقديم قراءة لهذا النقش وتحليل مضمونه وتقديمه بدراسة منفردة.

ثانياً: دراسة وصفية تحليلية لنقش حي القلعة التأسيسي بالقطيف:

١- وصف النقش:

نفذ هذا النقش بخط الثلث المركب، بطريقة الحفر البارز المفرغ[٢١] على لوح حجري جيري بحري. أبعاده ٩٣×٤٨سم، ويتكون النص من أربعة أسطر يحيط بها إطار مستطيل طولي، وضع كل سطر منها في إطار مستقل (خرطوش).

قراءة النص (لوحة ١، شكل١):-

١. الحمد لله الذي أقام تشييد هذه القلعة
٢. الميمونة حرسها الله تعالى من العدوان بهمة
٣. الملك الهمام في سنة تسع وثلاثين وألف ١٠٣٩

٢- التحليل العام لمضمون النقش:

يتكون النص من أربعة أسطر، نقشت للإعلان عن الانتهاء من تشييد القلعة، وهي:

السطر الأول:

افتتح النص بالحمد لله الذي يسر إقامة وتشييد القلعة.

(١٩) **الوهبي، الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٥٩.
(٢٠) **مجلد المختار من إبداعات الخط العربي**، صدر بمناسبة إقامة معرض الخط العربي الذي أقامته الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض، الرياض (١٤٢٠هـ)، ص ٢١٧.

(٢١) إن تنفيذ الكتابات بأسلوب الحفر البارز تعد طريقة أصعب وأشق مقارنة بالحفر الغائر، فهي تستحوذ على جهد أكبر، وتحتاج إلى دقة وإتقان وأناة وصبر.

السطر الثاني:

تضمن نعت هذه القلعة بالميمونة، مع الدعاء والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى بأن يحميها ويحرسها من العدوان، مع الإشارة إلى أنها قامت بفضل وهمة الوالي العثماني.

السطر الثالث:

اشتمل على ألقاب من قام بتشييد هذه القلعة وهي "الملك الهمام" و "القائم بأمور الإسلام"، مع إيراد اسمه، وهو علي باشا.

السطر الرابع:

تضمن لقب الوالي العثماني، مع الدعاء له بدوام الإقبال. ثم ختم النص بتاريخ الانتهاء من تشييد القلعة، وهو سنة تسع وثلاثين وألف بعد الهجرة. علماً أن التاريخ كتب بجملة عربية صريحة متبوعة بكتابة التاريخ رقماً.

يفهم من مضمون نص النقش أن القلعة قد أنشئت في فترة ولاية الوالي العثماني علي باشا وذلك في عام ١٠٣٩هـ، والنص صريح في أنها عملية تشييد وبناء وليست ترميمات لمبنىً قائم. ولكن الثابت تاريخياً وأثرياً أن القلعة كانت قائمة قبل هذا التاريخ، ودليلنا على ذلك النقش التأسيسي المؤرخ في سنة ٩٦٨هـ والذي يشير صراحة لبناء القلعة[٢٢]، فضلاً عما ذكره أبو الفدا عن مشاهدته للقلعة، ووصفه لها.[٢٣]

إن هذا يقودنا إلى الاعتقاد بأن القلعة قد دمرت أثناء الاحتلال البرتغالي الأخير للمنطقة، إذ تذكر المصادر أنه نتيجة لثورة أهل القطيف، واحتجاجهم ضد الوجود البرتغالي، وطردهم لهم عادوا مرة أخرى، وانتقموا من أهل القطيف شر انتقام، ودمروا الحصون والقلاع وسووها بالأرض، بيد أن العثمانيين ما لبثوا أن استعادوا القطيف والأحساء، وأنهوا الوجود البرتغالي ليس في المنطقة الشرقية فحسب، بل في منطقة الخليج على وجه العموم.

وهذا يدفعنا إلى الترجيح أن النقش التأسيسي المؤرخ في سنة ٩٦٨هـ يعود إلى عمارة العثمانيين للقلعة عقب تمكنهم من طرد البرتغاليين، وأنه بعد قرابة ٧١ سنة أعيد إعمار القلعة، كما اتضح لنا من تاريخ النقش التأسيسي، موضوع هذه الدراسة. ولعل تدميرها هذه المرة كان نتيجة لقلاقل وفتن داخلية، وربما بفعل عوامل الزمن.

٣- الألقاب والنعوت الواردة في النقش:

يجدر بنا ملاحظة نعت الوالي العثماني بنعوت وألقاب اختص بها الخلفاء والسلاطين، فعادة ألقاب "الملك الهمام" و"القائم بأمور الإسلام" هي ألقاب ينعت بها رأس الدولة. كما أن النص ختم بالدعاء له

(٢٢) المسلم، **ساحل الذهب الأسود**، ص ٤٤.

(٢٣) المسلم، **القطيف**، ص ٢٨.

بدوام الإقبال، وهو ما يدعى به عادة لصاحب السلطان ورمز الدولة؛ مما يقودنا إلى الاعتقاد بأنها هنا ما هي إلا ألقاب ونعوت فخرية ولا تمثل سلطة حقيقية، خاصة وأنها أصبغت على أحد الولاة العثمانيين دون تضمين النص لاسم السلطان العثماني الذي شيدت القلعة في عهده.

* **الملك الهمام:** أي الملك العظيم الهمة، والسيد الشجاع السخي.(٢٤) والملك لقب يطلق على الرئيس الأعلى للسلطة، وهو من الألقاب المعروفة في اللغات السامية الجنوبية والشمالية القديمة، فأول إشارة لهذا اللقب وردت في نقش صرواح الذي تركه "كرب ال وتر" ملك سبأ، كما ورد اللقب نفسه في النقوش الشمالية، ويعد نقش النمارة المؤرخ في سنة ٣٢٨م، والذي يؤرخ لوفاة الملك امرئ القيس بن عمرو ملك الحيرة أول نقش عربي ترد فيه هذه الصيغة.

ولم يعرف هذا اللقب بصفة رسمية في صدر الإسلام والعصر الأموي، بيد أن بعض ولاة بني العباس أخذوا في الاستقلال عن مركز الخلافة- حتى وإن احتفظ بعضهم بالتبعية الاسمية- فتلقبوا بهذا اللقب، كما أن بعض رجال الدولة العباسية استبدوا بالسلطة السياسية في مركز الخلافة- وتلقبوا بهذا اللقب الذي يحمل في طياته معنى السيادة العليا.(٢٥)

* **القائم بأمور الإسلام:** كان لفظ "القائم" يضاف إلى كلمات أخرى لتكوين ألقاب مركبة مثل "القائم بأمر الله" و"القائم بأوامر الدين" و"القائم بدعوة الله" و"القائم بالسنة والفرائض" و"القائم بفرض الله".(٢٦) بيد أن هذا اللقب الذي ورد في النقش، موضوع دراستنا، يعتبر-حسب علمي- الأول من نوعه، حيث تخلو النقوش والكتابات الإسلامية منه، سواء النقوش التأسيسية، أو الشاهدية، أو الكتابات التذكارية، أو المسكوكات وغيرها.

* **باشا:** لقب تعظيم بمعنى: رئيس، يطلق على كبار العسكريين في الدولة العثمانية، مثل كبار القادة، وحكام الولايات، ثم أطلق على كبار الموظفين المدنيين.(٢٧) وفي نهاية العصر العثماني تدهور مستواه فأصبح

---

(٢٤) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، ص ١٥١٢.

(٢٥) الباشا، حسن، **الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار**، دار النهضة العربية، القاهرة (١٩٧٨م)، ص ص ٤٩٦-٤٩٧.

(٢٦) الباشا، حسن، **الألقاب**، ص ص ٤٢٨-٤٣٠.

(٢٧) النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد المكي، **البرق اليماني في الفتح العثماني**، تحقيق حمد الجاسر، الطبعة الأولى، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص ٧٥؛ الصفصافي، أحمد المرسي، **معجم صفصافي تركي - عربي**، كلية الآداب بجامعة عين شمس، القاهرة (١٩٧٩م)، ص ٣٩٠.

يعطى لكل من تريد الدولة استمالته وكسب تأييده.[٢٨]

٤- الأعلام الواردة في النص:

اللافت للنظر عدم تضمين النص اسم السلطان العثماني الذي أنشئت القلعة في فترة حكمه، واقتصر النص على إيراد اسم الوالي العثماني علي باشا.

علي باشا: (١٠١٨-١٠٤٤هـ/١٦٠٩-١٦٣٤م).

تولى علي باشا أمير أمراء إيالة الأحساء قرابة ٢٦عاماً، وذلك بعد وفاة أمير أمراء الإيالة بهرام باشا.[٢٩] وفيما يبدو أنه كان يشغل قبل ذلك منصب أمير لواء في الإيالة، وتوليته أمير أمراء كانت بمبادرة محلية من أمراء ألوية الإيالة وقادتها العسكريين، إضافة إلى بعض أعيان الإيالة،[٣٠] وذلك لمواجهة الفراغ الحاصل في منصب أمير الإيالة،[٣١] وفيما بعد أقر المجلس السلطاني بتاريخ ١٠جمادى الآخرة ١٠١٨هـ/ ٩سبتمبر ١٦٠٩م ذلك الإجراء، وتم تعيين علي باشا بصفة رسمية أمير أمراء على إيالة الحسا.[٣٢]

هذا وقد شرع علي باشا في مواجهة القلاقل والفتن التي اعترضت الإيالة خصوصاً من قبل القوى الموالية للصفويين، حيث كانت على مقربة من المنطقة، وشكلت مع القوى المحلية تهديداً مباشراً للإيالة، فقام علي باشا بتنظيم الأمور الإدارية، وعزز قواتها العسكرية واستحكم دفاعاتها وتحصيناتها بدعم وتأييد من المجلس السلطاني في استنبول.[٣٣]

ويعد علي باشا من نتاج أفراد الطبقة العسكرية العثمانية التي استقرت في المنطقة العربية وازدادت صلتها بها نتيجة للتزاوج وترابط المصالح، وقد لقب بالبغدادي نسبة إلى نشأته ببغداد، وارتباطه بها. عرف هو وأفراد عائلته بالتدين والغنى، ونالوا قسطاً وافراً من المعرفة والثقافة خصوصاً في العلوم الشرعية واللغة العربية وآدابها، واشتهر لذلك فضلاً عن طول المدة التي قضاها أميراً لأمراء الإيالة، وأحد أبنائه من بعده.[٣٤]

وقد استمر علي باشا في منصبه أميراً لأمراء الإيالة حتى سنة ١٠٤٤هـ/١٦٣٤م، حيث تذكر الروايات المحلية أن أحد أبنائه قد زور رسالة باسم أبيه أثناء إحدى زياراته

---

(٢٨) غبان، علي بن إبراهيم حامد، **شمال غرب المملكة العربية السعودية " الكتاب الأول": بحوث في التاريخ والآثار**، (د.م)، الطبعة الأولى (١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، ص ١٢٨.

(٢٩) الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٥٧.

(٣٠) الغرابي، أحمد بن عبدالله البغدادي، **تاريخ الغرابي**، مخطوط بالمتحف العراقي في بغداد تحت رقم ٩٣١١، ص ص ١٣٤-١٣٥؛ الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٥٧.

(٣١) الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٥٧.

(٣٢) الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٥٧.

(٣٣) الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٥٧.

(٣٤) الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٥٧.

السنوية لاستنبول تضمنت طلب علي باشا إعفاءه من منصبه نظراً لكبره وعجزه، وأنه يوصي بتعيين ابنه حامل الرسالة بدلاً منه، فاستجابت استنبول لطلبه فعزلته، وعينت ابنه بدلاً منه.(٣٥)

غادر بعد عزله المنطقة متوجهاً إلى المدينة المنورة، حيث جاور الحرم النبوي، وعاش بقية حياته هناك، وعرف هو وابناه اللذان قدما معه من إيالة الحسا بالجود والعلم والصلاح.(٣٦) وتوفي بالمدينة سنة ١٠٥١ هـ/١٦٤٠-١٦٤١م.(٣٧)

ثالثاً: الدراسة التحليلية لخصائص الخط الفنية:

نفذ النقش بأسلوب ونمط كتابي يمثل تلك الكتابات المنفذة على غالبية النقوش التأسيسية العثمانية، وتحديداً تلك المنفذة بخط الثلث المركب. ومما لا شك فيه أن هذا النقش قد نفذ بطريقة فنية رائعة أبدعها خطاط ماهر محترف، وبأسلوب واضح بسيط يمكن قراءته بيسر وسهولة، ولعل هذا هو المطلوب في النقوش التأسيسية التي عادة ما توضع لتأريخ عمل ما، وإصباغ الشهرة والتخليد على اسم من قام بهذا العمل.

وقد التزم الكاتب بقواعد خط الثلث، وأتقن الشكل العام للنقش من حيث توزيع الكلمات على الأسطر، وطول الأسطر وتناسقها، ووضعها بجداول منسقة (خراطيش)، وبالرغم من ذلك فإنه من فرط حرصه على تحقيق هذا التوازن، قام بقطع بعض الأطراف الداخلية للإطار العام، ولاسيما من الجهة اليسرى، كما هو الحال في الكلمات: (القلعة) في السطر الأول، و (علي) في السطر الثالث، و (ألف) في السطر الرابع، **(لوحة رقم١، شكل رقم١).**

ويمكننا ملاحظة جملة من صور الإبداع الفني في أسلوب هذا الخطاط، (انظر جدول أشكال الحروف)، منها:

- قدرته على سحب قوائم الألفات في رشاقة متناهية.
- دقة تنفيذ عراقات الحروف النازلة عن الأسطر، ومنها: الراء، والزاي، والواو.
- تكرار حالات قطع حرف بحرف آخر أو أكثر، وإخراجها بشكل واضح ومتقن.
- إبداعه ومهارته في تدوير رأس الفاء، والقاف، والواو.
- تلويز رأس العين.
- إسباله للميم النهائية.
- تقديم حروف بعض الكلمات عن موضعها دون إخلال بالكتابة أو الشكل العام للنقش.

---

(٣٥) الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٥٧.

(٣٦) الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٦٠.

(٣٧) المحبي، محمد، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، ج١، دار صادر، بيروت (د.ت)، ص ص ٩٠-٩٢؛ الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٦٠.

- تقـاطع اليـاء العائدة مع ما سبقها من حروف دون التباس هيئتها مع الحروف الأخرى.
- تنفيذ الكلمات وحروفها بطريقة مركبة على دورين، وثلاثة أدوار.
- ورد لفـظ الجلالة مرتين، رسم الثاني مـنهما بـألف طويلة مسحوبة، ولامين قصيرتين، وهاء نهائية مخطوفة.
- مـلء الفراغات بنقط الإعجام، ونفذت على هيئة مربعات.
- توظيـف رؤوس حروف الألف واللام والكـاف في السطر الثالث لتؤدي دوراً زخـرفياً عـلى هيئة شريط دالٍ، أو ما يعـرف بالزقـزاق، فضلاً عن دورها جزءاً من هيئة الحرف، ولم يقف الأمر عند ذلك الحد فحسب بل نجد أن الخطاط ختم النقش بالهيئة الزخرفية نفسها، وذلك فـي نهاية الجدول (الخرطوش) الرابع بعد التاريخ المدون كتابة ورقما.

وبعـد فإنـه يتضـح من خلال ما سبق عرضـه، مدى أهمية هذا النقش التأسيسي، وقيمـته العـلمية، سواء من حيث مدلولاته الـتاريخية، أو الأثرية، أو مواكبته للأحداث التاريخية العائدة إلى تلك الفترة، أو من حيث مـا اشتمل عليه من صيغ وتراكيب وألقاب ونعوت ذات مدلول رسمي، فضلاً عن قيمته الآثاريـة الخطيـة، وما يبرزه من معطيات فنية، وقيم جمالية.

العصور، المجلد الثاني عشر، الجزء الأول، ١١٣ – ١٣٥ (٢٠٠٢م)

سكان القدس في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي

د. محسن يوسف

ملخص البحث:

يعالج البحث موضوع الخارطة الدينية لسكان القدس عشية الاحتلال الصليبي للمدينة عام١٠٩٩م. والبحث محاولة جزئية لتفنيد مزاعم عدد من المستشرقين، وعلى وجه الخصوص المستشرقون الصهاينة، الذين يدعون بأن المسلمين لم يهتموا بمدينة القدس إلا عندما كانت محتلة من قبل غيرهم. وقد ادعوا بأن عدم الاهتمام هذا تمثل في جوانب عديدة أهمها الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية وحتى الجانب الديموغرافي. وفيما يتعلق بالجانب الديموغرافي، وهو موضوع الدراسة، ادعى المستشرقون أن المسلمين كانوا أقلية عشية الاحتلال الصليبي للمدينة، أي بعد خضوعها لحكم المسلمين لفترة تقارب خمسة قرون.

إن المصادر القديمة العربية والصليبية على حد سواء لم تزودنا بإحصاءات عن أعداد ونسب سكان القدس أو غيرها من المدن والبلاد، لذلك على الباحث أن يستخدم المعلومات المتعلقة بالضرائب وحجم المدينة وأحيائها وأمكنتها المقدسة وغيرها من معلومات، لتقدير أعداد السكان ونسبهم لبعضهم بعضاً. وعندما أخذت جميع المصادر بالحسبان، وعلى وجه الخصوص المصادر العربية والصليبية، تبين أن الغالبية الساحقة من سكان المدينة عند احتلال الصليبيين لها كانوا من المسلمين. أما بالنسبة إلى النصارى فقد أشارت المعلومات إلى أنهم سكنوا في حي واحد فقط وهو الحي نفسه الذي مازال يطلق عليه اسم حي النصارى. وكان حجم هذا الحي يبلغ سدس حجم المدينة. إلى جانب ذلك لم يقتصر السكن في ذلك الحي على النصارى وحدهم بل شاركهم في ذلك المسلمون. وعليه فإن نسبة النصارى إلى مجموع السكان كانت أقل من السدس. أما بالنسبة إلى اليهود فقد تبين بأن الضريبة السنوية التي كانت مفروضة عليهم كانت زهيدة بشكل لافت للانتباه حيث بلغت ١٠٠ دينار فقط. وعلى الرغم من زهادة المبلغ فقد أظهرت المصادر أنه كان ثقيلاً عليهم، مما يشير إلى أن عددهم كان قليلاً جداً. ومما يؤكد قلة عددهم أن الصليبيين جمعوهم جميعا في كنيسهم رغم أن حجم ذلك الكنيس كان متواضعاً، وأحرقوهم به. على هذا الأساس تم تقدير نسبة السكان المسلمين لمجموع سكان المدينة، الذين راوح عددهم بين ٢٠٠٠٠و ٣٠٠٠٠ نسمه، حوالي ٨٥٪، والنصارى أقل من ١٥٪ واليهود ما بين ١٪ و ٢٪.

مقدمة:

هناك اهتمام مبالغ فيه من قبل المستشرقين خصوصاً الصهاينة منهم في إثبات عدم أهمية أو عدم اهتمام المسلمين بالقدس. ويمكن تلخيص الأسلوب الذي يتبعونه في إثبات عدم الاهتمام هذا في أربع نقاط رئيسية وهي:

(١) أن العرب والمسلمين لم يفتحوا مدينة القدس في بداية عهد الفتوحات في جند فلسطين، بل على العكس من ذلك فإنها كادت تكون آخر مدينة تفتح في هذا الجند، وقد تم فتحها بعد بداية عهد الفتوحات في هذا الجند بأربع سنوات.

(٢) أن العرب والمسلمين لم يتخذوها عاصمة للإمبراطورية الإسلامية ولم يتخذوها عاصمة لولاية بلاد الشام بل حتى إنهم لم يتخذوها عاصمة لجند فلسطين، في حين اتخذها اليهود (قديماً وحديثاً) واليونان والرومان والصليبيون والبريطانيون عاصمة لهم.

(٣) أن اهتمام المسلمين بالمدينة من الناحية العمرانية ومن جميع النواحي كان عرضياً وفي أغلب الأحيان كان كرد فعل لحدث معين. إنهم، على سبيل المثال، يدعون بأن بناء قبة الصخرة والمسجد الأقصى كان نتيجة ثورة عبدالله بن الزبير في الحجاز وعدم مقدرة الأمويين على الحج لبيت الله الحرام. وإن إنشاء المباني الكثيرة وتأليف عدد كبير من الكتب التي تتحدث عن تاريخ وقدسية وفضائل المدينة في الفترتين الأيوبية والمملوكية كان رد فعل للاحتلال الصليبي. وحسب رأيهم فإن اهتمام المسلمين الحالي في المدينة "والتباكي" عليها نابع من كون المدينة تخضع للسيطرة الإسرائيلية لا أكثر ولا أقل.

(٤) لم يسكن المسلمون في المدينة بأعداد كبيرة وبقوا أقلية بين سكانها حتى مجيء الصليبيين. ويربطون ذلك بالفترة الحديثة حيث يقولون إن المسلمين أصبحوا أقلية بالمدينة من جديد بعد الهجرة اليهودية والاهتمام المسيحي الأوروبي بها خلال القرن التاسع عشر [١].

من غير الصعب تفنيد هذه الادعاءات وتوضيح عدم دقتها وصحتها. ورغم أني اخترت أن أكرس البحث الحالي لفحص موضوع التركيبة الدينية لسكان القدس في نهاية الفترة الإسلامية الأولى، أي عشية الاحتلال الصليبي، إلا أنني أريد أن أوضح بعض الحقائق عن النقاط الثلاث الأولى التي ذكرت أعلاه. فتأخر فتح المدينة من قبل المسلمين لا يعني بالضرورة عدم اهتمام المسلمين بالمدينة أو عدم تقديسهم لها لأن

---

١) من الأمثلة على ذلك المقالة التي كتبها شلومو دوف غويتاين وعنوانها "القدس في الفترة العربية ٦٣٨-١٠٩٩" في كتاب **القدس: دراسات في تاريخ المدينة**، من تحرير أمنون كوهين، (القدس، ياد يتسحاق بن تسفي، ١٩٩٠). ص ١١-٣٤. والمقالة التي نشرها نفس المؤلف تحت عنوان Quds في = Encyclopedia of Islam الطبعة الثانية. ومقالة حواء لاسروس يافه بعنوان "قدسية القدس في الإسلام" في كتاب **القدس: دراسات في تاريخ المدينة**، من تحرير أمنون كوهين، (القدس، ياد يتسحاق بن تسفي، ١٩٩٠). ص ٣٥-٤٥. انظر كذلك Encyclopaedia Judaica, vol. 9, pp.1407-10.

توقيت الفتح كان يتم لاعتبارات عسكرية محضة وليس لاعتبارات دينية. فالمتتبع للفتوحات الإسلامية في فلسطين وفي بلاد الشام وفي المناطق الأخرى يجد أنها كانت تبدأ في المناطق المنخفضة مثل المناطق الصحراوية والسهول تنتقل إلى المناطق الجبلية كمنطقة القدس. علاوة على ذلك فإنه لم يكن للمسلمين مناص من بدء الفتوحات في المناطق المنخفضة لأن القوات البيزنطية التي كانت تسيطر على البلاد آنذاك كانت تتركز في هذه المناطق الساحلية السهلية ولم تتركز في المناطق الجبلية.(٢)

ليس من العيب أن يهتم المسلمون بشؤون المدينة ومستقبلها وأن يكتبوا عن أهميتها وقدسيتها وفضائلها عندما تخضع للهيمنة الأجنبية، بل على العكس من ذلك فإنه من العار عليهم أن لا يهتموا بها وأن لا يكتبوا عن تاريخها وقدسيتها وفضائلها في الأزمنة العصيبة أكثر منه في فترات السلام. وإننا حقيقة نخالف الحقائق التاريخية إذا ادعينا بأن المسلمين تجاهلوا المدينة ولم يهتموا بها وبفضائلها في الأوقات السلمية. فالمباني الفخمة التي أقيمت في القدس خلال الفترة الأموية والمتمثلة في قبة الصخرة والمسجد الأقصى والقصور الواقعة إلى الجنوب الغربي من المسجد الأقصى (أي دار الإمارة) تثبت أن المسلمين اهتموا بالمدينة خلال فترات السلام هذه اهتماماً عظيماً يفوق اهتمامهم في أي مدينة أخرى في بلاد الشام وخارجها. وقد أنفق على إنشاء هذه المباني أموال طائلة تفوق بكثير ما أنفق على منشآت في مدن أخرى مثل دمشق التي كانت عاصمة الأمويين أنفسهم، ومكة المكرمة التي كانت ومازالت تعتبر أقدس المقدسات الإسلامية على الإطلاق. إن هذا الاهتمام العظيم لم يقتصر على الجوانب المادية فقط بل عداه للجوانب السياسية والدينية، فهناك عدد من الخلفاء ممن توّج نفسه في المدينة وهناك عدد من الخلفاء العباسيين والفاطميين وغيرهم ممن زار المدينة ورمم مبانيها، وهناك حكام وملوك مثل الأخشيديين الذين طلبوا أن يدفنوا في المدينة. باختصار، إن ما حظيت به مدينة القدس من اهتمام المسلمين يفوق ما حظيت به أي من المدن المقدسة الإسلامية الأخرى. إلى جانب ذلك فقد زار المدينة وعلم في مساجدها ومدارسها وجاور بها عدد كبير من العلماء والصوفيين المسلمين، مثلها في ذلك مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة. وكان يحج إليها أكثر من ٢٠٠٠٠ مسلم سنوياً في موسم الحج وحده.(٣)

---

(٢) أبو عبدالله بن عمر الواقدي: **فتوح الشام**، (بيروت، دار الجيل للنشر والتوزيع). ج٢، ص ١٦-٣٥.

(٣) ناصري خسرو، **سفر نامه، رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس هجري**، ترجمة يحيى الخشاب (بيروت دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠). ص ٥٥. علي بن ابي الكرم بن الأثير، الكامل في التاريخ = = (بيروت، دار صدر ودار بيروت، ١٩٦٦). ج١٠، ص ٢٨٤، ابو المحاسن يوسف بن تغري بردي التابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٣) ج٥، ص ٩٦، ١٦٠، ١٦٤. غويتاين، ص ١٦-٢٢، ٢٩-٣٠ Encyclopedia of Islam, edition, vol.5,

وفيما يتعلق بالكتابة والتأليف في مجال تاريخها وفضائلها وقدسيتها فلم ينتظر المسلمون حتى سقوطها بيد الصليبيين، كما ادعى بعض المؤرخين، بل إن مكي بن عبدالسلام الرميلي المقدسي كان يعد كتاباً عن تاريخها عندما لقي حتفه في المجزرة الفظيعة التي نفذها الصليبيون في حق سكانها عام ١٠٩٩م. وقد ذكرت المصادر أن اسحق بن بشر القرشي المتوفى عام ٨٢١ قد ألف كتاباً بعنوان "فتوح بيت المقدس". وألف أحمد بن خلفي السبحي (من رجال القرن التاسع) كتاباً بعنوان "أخبار بيت المقدس". وهناك عدد كبير جداً من الكتب التي خصت مدينة القدس بفصول طويلة جداً.(٤) ونكاد نجزم أن جميع القصص والخرافات والمعجزات التي ملأت كتب الفضائل التي كتبت بعد الاحتلال الصليبي ما هي إلا نسخ مباشر أو إعادة صياغة لما ألفه المسلمون الذين عاشوا قبل الاحتلال الصليبي. ويكفي أن نشير في هذا المقام إلى ما كتبه الرحالة الفارسي ناصري خسرو الذي زار المدينة عام ١٠٤٧م، وما كتبه الواقدي المتوفى عام ٨٢٣ م في كتابه المسمى "فتوح الشام". فمن جملة ما ادعاه هذا المؤرخ بشأن فتحها على يد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب أن بطريك المدينة كان على علم بمن سيفتح المدينة وبأوصافه لأنها حسب ما يذكره الواقدي، قد وجدت في الإنجيل والكتب المقدسة الأخرى التي كانت بحوزة البطريك. وحسب هذا المصدر فإن اسم الشخص الذي سيفتح المدينة هو عمر الفاروق صاحب النبي!. وقد رفض البطريرك تسليم المدينة إلا للخليفة عمر ليتأكد من صحة ما جاءت به الكتب المقدسة. وعندما حاول المسلمون خداعه وتقديم خالد بن الوليد على أنه هو عمر بن الخطاب وذلك للتشابه الجسماني الكبير بين الشخصين أقسم البطريرك بأن الشخص الذي أمامه يشبه الشخص الذي يجد أوصافه في الكتب المقدسة إلى حد كبير جداً إلا أنه ليس هو. وفي النهاية لم يجد المسلمون بداً من الطلب من الخليفة المجيء للمدينة المقدسة وتسلمها بشكل شخصي من البطريرك. وعندما حضر الخليفة وعاينه البطريرك تعرف عليه فأمر بفتح أبواب المدينة أمامه وأمام الجيش العربي الإسلامي.(٥) إن القيمة التاريخية للمعلومات التي احتوت عليها القصص والخرافات قليلة جداً ولكنها في الوقت نفسه تعكس اهتمام مؤلفيها ومروجيها في المدينة المقدسة. إن ما ألف من قصص وخرافات ومعجزات عن مدينة القدس ليس فقط يعادل ما كتب عن المدن الإسلامية المقدسة الأخرى بل إنه يفوقه من ناحية الكمية والفحوى. علاوة على ذلك

---

(٤) غوتاين، ص١٢. ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي: **معجم البلدان**، (بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٨٤)ج١، ص ٥٢١. ابن تغري بردي، ج٥، ص ١٦٤.

(٥) الواقدي ج١، ص ٢٢٩-٢٤٥. ناصري خسرو ص ٥٥-٧١.

فإن مدينة القدس هي المدينة الوحيدة التي ذكرت في المصادر العربية الإسلامية على أنه تم فتحها بشكل مباشر من قبل أحد الخلفاء الراشدين ولم تفتح من قبل أحد قادتهم.

إن عدم اتخاذ مدينة القدس عاصمة للإمبراطورية الإسلامية أو عاصمة لولاية الشام أو جند فلسطين لا يقلل من أهميتها وقدسيتها بعين المسلمين. فالقداسة والأهمية بالنسبة إلى المسلمين لم تكن قط مرتبطة بالجوانب السياسية. فمكة المكرمة، وهي أقدس المدن الإسلامية على الإطلاق، لم تكن أبداً عاصمة للإمبراطورية الإسلامية. والمدينة المنورة التي تعتبر ثاني أقدس المقدسات قد خسرت مكان الصدارة السياسية في العالم الإسلامي لمدن غير مقدسة منذ فترة حكم رابع الخلفاء الراشدين. وهناك أمثلة كثيرة عن مدن مقدسة لفرق إسلامية مثل كربلاء والكوفة والمشهد بالنسبة إلى الشيعة الاثني عشرية والتي لم تتخذ عواصم لدول شيعية أو غير شيعية. علاوة على ذلك فإن السلطات الإسلامية قد اتخذت القدس عاصمة لها بين الفينة والأخرى، فهناك معلومات آثارية وغير آثارية تشير إلى أنها كانت عاصمة الإمبراطورية الأموية لفترة معينة. وهناك مصادر كثيرة تؤكد أن القدس قد حلت محل مدينة الرملة كعاصمة وكأعظم مدينة في فلسطين خلال العهد السلجوقي الذي سبق الاحتلال الصليبي مباشرة. واتخذت عاصمة خلال العهد المملوكي. وأصبحت مركزاً وعاصمة لمتصرفية القدس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.[٦] باختصار كانت القدس عاصمة فلسطين عشية احتلالها من قبل الصليبيين في بداية القرن الثاني عشر وعشية احتلالها من قبل البريطانيين في بداية القرن الحالي.

مدينة القدس

كان حجم مدينة القدس في الفترة الأولى من التاريخ الإسلامي أعظم من حجمها في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، وقد اختصر هذا الحجم في منتصف القرن الحادي عشر ليصبح مطابقاً تماماً لحجم المدينة الحالي (أي حجم المدينة القديمة المحاطة بالسور).[٧] وبما أنه لم يكن للمدينة أي أحياء حقيقية خارج السور فإن مساحتها في نهاية هذا القرن كانت حوالي كيلومتر مربع واحد. وقد قدر الرحالة الفارسي ناصري خسرو الذي زار المدينة عام ١٠٤٧م عدد رجالها بحوالي ٢٠٠٠٠ حيث قال: " وهي مدينة كبيرة كان بها، في ذلك الوقت، عشرون ألف رجل"[٨]. رغم أن هذا الرحالة قد وصف المدينة بأنها كبيرة إلا أننا نتوقع بأنه فعلاً قصد أرباب عائلات فيصبح عدد سكان المدينة يقارب ١٠٠٠٠٠ شخص، وهو أمر يتنافى كلياً مع وصف

(٦) **Encyclopedia of Islam**, second edition, vol. 1, pp. 662-7,750-1. vol. 3, pp. 1118-9. vol.5.

(٧) **Encyclopedia of Islam**, second edition, vol. 5, p. 342. Encyclopaedia Judaica, vol. 9, p. 1414.

(٨) ناصري خسرو، ص ٥٦.

المدينة الذي تكلمت عنه المصادر الأخرى. كذلك الحال فإن حجم المدينة الذي كان يقل عن كيلومتر مربع واحد لا يمكن أنه استوعب هذا العدد الضخم من السكان، لذلك نعتقد بأن ناصري خسرو قد قصد أشخاصاً ولم يقصد رجالاً. والعدد ٢٠٠٠٠ تلاءم مع عدد سكان مدن مشابهة لمدينة القدس من ناحية الحجم كطرابلس الشام، ومع عدد سكانها في الفترة المعاصرة حيث بلغ عددهم ٢٩٤٠٠ شخص عام ١٩٩٣، ويتلاءم مع تقديرات برافر لعدد سكانها في نهاية القرن الحادي عشر حيث قدرهم بثلاثين ألف نسمة.[٩]

هناك عدد من المؤرخين الذين ادعوا بان عدد سكان المدينة قد تقلص خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر لكثرة الحروب التي نشبت في المنطقة وتنقلها بين أيدي المحتلين. فيشيرون إلى أن السلاجقة بزعامة القائد اتسز قد هاجموها عام ١٠٧١. وثار سكان المدينة ضد حكامهم الجدد مما دفع باتسز لإعادة احتلالها عام ١٠٧٦. وفي عام ١٠٨٦ احتلها قائد سلجوقي آخر باسم ارتوق لتسقط عام ١٠٩٨ بيد القائد المصري الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي. وفي السنة نفسها حاول السلاجقة بقيادة تتش استعادتها إلا أن جهودهم باءت بالفشل. وقبل مرور عام واحد على الاحتلال الفاطمي سقطت المدينة بيد الصليبيين الذين قاموا بمذبحة مروعة في سكانها المسلمين[١٠].

إن كثرة الحروب وتنقل المدينة بين أيدي المحتلين لم تؤد إلى إحداث دمار كبير وانخفاض في عدد السكان. والسبب في ذلك أن غالبية هذه الحروب كانت تنشب بين الجيوش المتصارعة على السلطة ولم يتأثر بها السكان المدنيون. ومما يؤكد هذا الأمر ما قاله ابن العربي، الذي زار المدينة عام ١٠٩٣ وسكن بها ما يزيد على ثلاث سنوات، عن أحد التمردات التي نشبت في المدينة أثناء وجوده بها حيث قال: "ورأيت فيه (أي في محراب داود) ... أن ثائراً أثار به على واليه وامتنع فيه بالقوت محاصرة حاول قتاله بالنشاب مدة، والبلد على صغره مستمر في حاله، ما أغفلت لهذه الفتنة سوق، ولا سار إليها من العامة بشر، ولا برز للحال من المسجد الأقصى معتكف ولا انقطعت مناظرة ولا بطل التدريس، وإنما كانت العسكرية قد تفرقت فرقتين يقتتلون، وليس عند سائر الناس لذلك حركة. ولو كان بعض هذا في بلادنا (الأندلس) لاضطرمت نار الحرب في البعيد

---

(٩) Joshua Prawer; **Crusader Institutions**, (Oxford. Clarendon Press. 1980). P. 88. Statistical **Yearbook, Jerusalem 1993,** (Jerusalem. Municipality of Jerusalem, 1993).p.45. كامل جميل العسلي بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، عمان، ١٩٩٢. ص ٥٤.

(١٠) أبو يعلي حمزة بن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق** (بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨). ص ١٠٩-١١١. ابن الأثير ج ١٠، ص ١٠٣-١٠٤، ٢٨٢-٣. ابن تغري بردي، ج٥، ص ٨٧، ١١٥، ١٥٩. غويتاين، ص ٢٤.

والقريب ولانقطعت المعايش وغلقت الدكاكين وبطل التعامل"[١١].

وفي اعتقادي أن عدد سكان القدس ليس فقط لم يتقلص خلال الفترة المذكورة بل على العكس من ذلك فقد زاد على حساب مدينة الرملة ومنطقة الساحل وذلك لسببين رئيسيين: فالكوارث الطبيعية والزلازل التي ضربت فلسطين عام ١٠٣٣و١٠٦٧ قد أحدثت خسائر فادحة في مدينة الرملة وقراها والمنطقة الساحلية ولم تؤثر إلا قليلاً في مدينة القدس ومنطقتها. فعن زلزال عام ١٠٦٧ وما أحدثه من خراب قال ابن القلانس: "جاءت زلزلة عظيمة بفلسطين هدمت أكثر دور الرملة وسورها وتضعضع جامعها مات أكثر أهلها تحت الردم. وحكي أن معلماً كان في مكتبه به تقدير مائتي صبي وقع المكتب عليهم فما سأل أحد عنهم لهلاك أهليهم وأن الماء طلع من أفواه الآبار لعظم الزلزلة. وهلك في بانياس تحت الردم نحو من مائة نفس وكذلك في بيت المقدس". وقد قدرت المصادر عدد الذين لاقوا حتفهم في الرملة بسبب هذا الزلزال بين ١٥٠٠٠ و ٢٥٠٠٠ شخص[١٢].

كذلك الحال فإن انتشار القبائل العربية البدوية كبني طيء وفيما بعد القبائل التركمانية التي صاحبت الغزو السلجوقي قد أفقد الرملة والمنطقة الساحلية الأمان ودمر اقتصادها، في حين نجت القدس والمنطقة الجبلية من هذا الدمار إلى حد كبير. إن مسحاً مستعجلاً للمصادر التي عالجت تاريخ المنطقة يشير إلى أن مدينة الرملة قد هوجمت أكثر من عشرين مرة بين السنين ٩٧٠- ١٠٨٩ في حين هوجمت القدس خلال الفترة الزمنية نفسها ثلاث مرات فقط.[١٣] لقد ذكر سابقاً أن السكان المدنيين لم يتأثروا في غالب الأحيان من جراء الحروب ولكنهم في أحيان أخرى عانوا الأمرين. فابن القلانسي يدعي بأن الخراب والمجاعة قد عما المدينة بسبب أعمال بني طيء عام ٩٨٠ حيث قال عن ذلك: "وعاد ابن جراح (الطائي) إلى فلسطين فأخربها وأهلك من فيها. وكان الرجل يدخل إلى الرملة يطلب فيها شيئاً يأكله فلا يجده، ومات الناس بالجوع وخربت الأعمال".[١٤]

ومما يؤيد تدهور أوضاع الرملة ومنطقة الساحل أن سكان هذه المنطقة وهذه المدينة لم يقاوموا القوات الصليبية المتجهة نحو القدس بتاتاً بل إن الصليبيين وجدوا مدينة الرملة خالية من السكان.[١٥]

---

(١١) العسلي ص ٥٤.

(١٢) ابن القلانسي ص ٩٤. ابن تغري بردي ج٥، ص ٨٠. ابن الأثير ج ١٠ ص ٥٧. ناصري خسرو ٥٤.

(١٣) Muhsin D. Yusuf; **Economic Survey of Syria During the Tenth and Eleventh Centuries**, (Berlin, Klaus Schwaez Verlag, 1985). Pp. 188-194.

(١٤) ابن القلانسي ص ٢٤. صادق أحمد داود جودة: **مدينة الرملة منذ نشأتها حتى عام ٤٩٢/ ١٠٩٩م**، (بيروت مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦) ص ١٢٥، ١٤٩، ١٥٣، ١٥٧-١٦٧. **Encycloediap of Islam, second edition**, vol.5, pp. 327-8.

(١٥) جودة ص ١٦٨. ابن القلانسي ص ١٣٦. حمد أحمد عبدالله يوسف: بيت المقدس من العهد الراشدي وحتى نهاية الدولة الأيوبية، (القدس، دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٨٢). ص ١٥٦.

كان المستفيد الأكبر من الناحية الديموغرافية والسياسية والاقتصادية من تدهور أوضاع لمدينة الرملة خلال القرن الحادي عشر مدينة القدس وإلى حد ما مدينة عسقلان. فأصبحت القدس أكبر مدينة بعد أن كانت ثاني أكبر مدينة في فلسطين بعد الرملة. وأصبحت تؤدي الدور الأهم بين مدن فلسطين من النواحي السياسية والاقتصادية والعسكرية. إن دورها القيادي والريادي في جميع المجالات المذكورة قد فتح أعين الملوك والحكام والفاتحين إلى أهميتها فتمت مهاجمتها وفتحها أربع مرات خلال العقود الثلاث التي سبقت الاحتلال الصليبي لها.(١٦)

المسلمون

النص المفضل لدى المؤرخين الذين يدعون بأن المسلمين كانوا أقلية في مدينة القدس هو ما كتبه الجغرافي العربي "المقدسي" المشهور في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" الذي كتبه في النصف الثاني من القرن العاشر ميلادي. فالمقدسي يقول عن مدينته إنها: "كثيرة النصارى"، وفي مكان آخر يقول: "قد غلب عليها النصارى واليهود".(١٧) ففيما يتعلق بالعبارة الأولى فإنها لا تشير بالضرورة إلى أن النصارى كانوا لا يشكلون إلا نسبة بسيطة من مجموع السكان. وبالنسبة إلى العبارة الثانية "غلب" فهي غير دقيقة لأن الغلبة في اللغة ربما تكون غلبة عددية، كما أراد أن يفهمها بعض المؤرخين والمستشرقين، وربما تكون غلبة اقتصادية أو إدارية أو غلبة من نوع آخر. في الحقيقة هناك معلومات تشير إلى أن هذه الغلبة كانت غلبة اقتصادية وإدارية. فابن العربي الذي عرف المدينة عن كثب حيث سكن بها أكثر من ثلاث سنوات عشية الاحتلال الصليبي قال عن سكانها النصارى: "وخاصمنا (أي أنه ناظر) النصارى بها، وكانت البلاد لهم ياكرون (أي يؤجرون) ضياعاً ويلتزمون أديارها ويعمرون كنائسها".(١٨)

هناك عدد من الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين الذين زاروا مدينة القدس أو عرفوها عن كثب أمثال ابن حوقل مؤلف كتاب "صور الأرض" والذي كان معاصراً للمقدسي، والرحالة الفارسي ناصري خسرو، إلا أن أحداً منهم لم يشر إلى أن المسلمين كانوا أقلية بين سكان المدينة أو أن النصارى واليهود كانوا أكثرية.

في غياب المعلومات الإحصائية الدقيقة عن عدد سكان المدينة وتوزيعهم حسب الطوائف الدينية نجد أنفسنا مضطرين إلى البحث عن معلومات بديلة قد تساعدنا في تقدير هذه الأعداد . وقد تكون أمكنة العبادة وحجمها إحدى الأساليب المستعملة لهذا الغرض.

---

(١٦) yusuf, pp. 193-5.

(١٧) محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق م.ج. دي خويه، (ليدن، برل، = ١٩٠٦). ص ١٦٧.

(١٨) العسلي ص ١٧٠.

فبالنسبة إلى المسلمين قد ضمت أمكنة عبادتهم المسجد الأقصى وقبة الصخرة وجامع عمر القريب من كنيسة القيامة وزوايا وخانقات وغيرها من أمكنة عبادة. فالمسجد الأقصى بحرمه الواسع الذي ضم عدداً كبيراً من أمكنة العبادة كان من أكبر مساجد العالم الإسلامي آنذاك. فبالنسبة إلى مساحة الحرم (الصحن المكشوف والأمكنة المبنية) فإنها لم تتغير منذ ذلك الوقت وحتى الآن، أما بالنسبة إلى مبنى المسجد الأقصى فقد طرأت عليه تغييرات كثيرة مع مرور الزمن. ومن أهم هذه التغييرات أن حجمه قد أنقص لأقل من النصف في منتصف القرن الحادي عشر. ففي القرن العاشر كان يتكون، حسب ما قاله المقدسي، من خمسة عشر رواقاً وكان يقوم على سبعمائة عامود رخام. وقد أكد حوقل ضخامة هذا المسجد حيث قال: "وبيت المقدس مسجد ليس في الإسلام مسجد أكبر منه، وله بناء في قبلته مسقف في زاوية من غربي المسجد ويمتد هذا التسقيف على نصف عرض المسجد..."[١٩] ولكن المسجد قد تعرض عام ١٠٣٣ لزلزال كبير الأمر الذي نتج عنه دمير جزء كبير منه فقام الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله (١٠٢١-١٠٣٦) بترميمه عام ١٠٣٤ ولكنه حذف منه أربعة أروقة من كل جانب حتى أصبح يتكون من سبعة أروقة فقط (كما هو عليه وضعه اليوم)، وأصبح عدد أعمدته حسب ما أثبته ناصري خسرو منتين وثمانين عاموداً[٢٠]. باختصار فإن مبنى المسجد الأقصى كان عظيماً جداً لأن ما تبقى منه حتى الآن ما زال يعتبر من المساجد الكبيرة في العالم الإسلامي وأنه ما زال حتى اليوم دون منافس له بين جوامع فلسطين. فوجود مبنى عظيم بهذا الشكل مع وجود أمكنة عبادة أخرى يشير إلى كثرة عدد السكان المسلمين في المدينة وفي المنطقة القريبة منها ليس فقط منذ نهاية القرن الحادي عشر وإنما أيضاً منذ فترة حكم الخلفاء الأمويين عبدالملك ابن مروان والوليد بن عبدالملك اللذين أشادا مبني قبة الصخرة والمسجد الأقصى، إن هذا الأمر ليس مستغرباً لأن عدد المسلمين الذين استوطنوا المدينة بعد فتحها مباشرة كان كبيراً، ومما يؤكد ذلك حجم المسجد الأول الذي أقامه المسلمون آنذاك حيث وصفه القس الرحالة الفرنسي اركولف الذي زار المدينة في فترة حكم معاوية بن أبي سفيان، بأنه مسجد كبير يتسع لثلاثة آلاف مصلٍ.[٢١]

من الواضح أن مبنى المسجد الأقصى لم يبن ليلبي حاجة مسلمي المدينة فقط وإنما ليلبي حاجة جميع المسلمين في العالم

---

(١٩) أبو القاسم أبن حوقل النصيبي، **كتاب صورة الأرض**، (بيروت، دار مكتبة الحياة.). ص ١٥٨. المقدسي ص ١٦٩. العسلي ص ١٥٣. بيضون ص ٤٨-٤٩.

(٢٠) ناصري خسرو، ص ٦١. حمد يوسف ص ١٢٨. **Encyclopedia of Islam**, second edition, vol.5 p. 342.

(٢١) عارف العارف: **المفصل في تاريخ القدس**، (القدس مطبعة المعارف، ط٣، ١٩٩٢). ص ١٠٦. حمد يوسف ص ٧١-٧٢.

خصوصاً أن هذا المسجد يعتبر من أهم المقدسات الإسلامية. وما انفك المسلمون على مر العصور يزورونه بأعداد كبيرة جداً، فقدر ناصري خسرو عدد الحجاج المسلمين الذين كانوا يزورونه في موسم الحج والذين لم يتمكنوا من أداء فريضة الحج إلى مكة بحوالي ٢٠٠٠٠ شخص سنوياً.[٢٢] إنه من غير المعقول أن هذا البناء العظيم بني بهذه الضخامة ليخدم الزوار الموسميين فقط، ولابد أنه بني في الأساس لخدمة السكان المسلمين المحليين. وبالنسبة إلى الزوار الموسميين فإذا زاد عددهم عن مساحة المبنى فإنه كان بمقدورهم استعمال ساحة المسجد المكشوفة كما يفعل كثير من المصلين المعاصرين.

بالنسبة إلى الانتماء المذهبي لمسلمي القدس فانتمى غالبيتهم في منتصف القرن العاشر للمذاهب المسنية، وإن عدداً كبيراً منهم انتمى للفرقة الكرّامية. فالمقدسي يقول عن موضوع الانتماء المذهبي لأهل بلاد الشام بشكل عام وبضمنهم سكان القدس: "مذاهبهم مستقيمة، أهل جماعة وسنة، وأهل طبرية ونصف نابلس وقدس (قرية على الشمال من طبريا) وأكثر عمّان شيعة، ولا ماء فيه لمعتزلي إنما هم في خفية، وبيت المقدس خلق من الكرّامية لهم خوانق ومجالس، ولا ترى به مالكياً ولا داودياً، وللأوزاعية مجلس بجامع دمشق". أما بالنسبة إلى الكرّاميين الذين ذكرهم المقدسي كسكان في مدينة القدس فقد تواجد عدد كبير منهم في المدينة ومنطقتها، حيث بلغ عددهم حسب بعض المصادر ٢٠٠٠٠ شخص. وهؤلاء الكرّاميون انتموا إلى الفرقة الإسلامية التي أسسها محمد بن كرّام السجستاني في منتصف القرن التاسع ميلادي. وكان المؤسس قد انتقل مع عدد من أتباعه إلى مدينة القدس حيث توفي ودفن. وتعتبر هذه الفرقة التي كان لها مراكز ومجالس درس في القدس من الفرق المشبهة، بمعنى أنها كانت تقول إن الله سبحانه وتعالى يشبه الإنسان في صورته.[٢٣]

من المعروف أن مدينة القدس قد خضعت للحكم الفاطمي الشيعي لفترة قرن من الزمان (منذ عام ٩٧٥ وحتى عام ١٠٧٢). ومن المعروف أيضاً أن الفاطميين الشيعة كانوا متعصبين لمذهبهم وقد بذلوا جهوداً كبيرة في سبيل نشر تعاليمهم بين المسلمين. لذلك فإننا سوف لن نكون بعيدين عن الصحة لو اعتقدنا بأن عدداً من سكان المدينة قد تشيعوا خلال هذه الفترة الطويلة. في ١٠٧٢ سقطت مدينة القدس بيد الحكام السلاجقة الذين كانوا سنيين والذين بذلوا جهوداً جبارة للقضاء على الفكر الشيعي وفي سبيل إعادة السيطرة السنية على العالم الإسلامي. ومن الجدير ذكره أن السلاجقة ووزيرهم المشهور نظام الملك قد

---

(٢٢) ناصري خسرو، ص ٥٥.

(٢٣) المقدسي، ص ١٧٩. Shorter Encyclopaedia of Islam, edited by H.R. Gibb and J. H. Kramers, (*Ithaca, Cornell University Press, 1953*).

أسسوا المدارس، كالمدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية في بغداد، كوسيلة لمحاربة التعاليم الشيعية واحتوائها. ومما يشير إلى انتشار الفكر الشيعي بين سكان مدينة القدس خلال الفترة الفاطمية أن سكان المدينة قد ثاروا على حكامهم السلاجقة عام ١٠٧٦ وأعادوا الخطبة للخليفة الفاطمي أثناء محاولة حاكمهم اتسز فتح مصر. وعلى ما يظهر أن قصدهم من هذه الثورة كان ليس فقط التخلص من الحكام السنيين وإنما أيضاً لإجبار هؤلاء الحكام على إلغاء مشروعهم لاحتلال مصر التي كانت معقل الشيعة الفاطميين في العالم الإسلامي. ويشير رد فعل اتسز العنيف ضد الثوار المقدسيين إلى تعصب ديني من جانبه حيث قتل عدداً كبيراً من الثوار يزيد عددهم حسب بعض المصادر على ٣٠٠٠ شخص وذلك رغم أنهم احتموا بالمسجد الأقصى، وقد سلب من المدينة أموالاً طائلة.(٢٤) وإن احتلال الفاطميين للقدس عشية الاحتلال الصليبي لها يندرج تحت بند الصراع الديني بين الشيعة والسنيين ولم يندرج تحت بند حماية المدينة من الهجوم الصليبي الوشيك.

لقد بذل السلاجقة خلال فترة حكمهم للمدينة جهوداً كبيرة لنشر التعاليم السنية وحاولوا احتواء الفكر الشيعي وغيره من الفرق الإسلامية، فأنشأوا مدرسة للمذهب الشافعي إلى جانب باب الأسباط وهي المدرسة النصرية، وأخرى للمذهب الحنفي وكانت تدعى مدرسة أبي عقبة وكانت بالقرب من كنيسة القيامة. وقد وصف ابن العربي النشاط التعليمي والمناظرات الدينية التي كانت تتم في هذه المدارس بشيء من التفصيل، الأمر الذي يشير إلى أن هذه المدارس كانت مراكز عملية عظيمة الأهمية حتى إنها جلبت إليها خيرة الطلاب أمثال ابن عربي نفسه وخيرة المدرسين أمثال أبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي الفهري ونصر ابن إبراهيم النابلسي المقدسي وزوار المدينة كأبي حامد الغزالي وغيرهم كثير.(٢٥)

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا أقاموا مدرستين واحدة للشافعيين وأخرى للحنفيين؟ والجواب عن ذلك هو أن المدرسة الشافعية أقيمت لخدمة سكان المدينة الذين كانوا في غالبيتهم شافعيين، أما المدرسة الحنفية فيظهر أنها أقيمت لنشر هذا المذهب الذي كان مذهب الحكام السلاجقة أنفسهم. ومما يؤكد انتماء غالبية سكان المدينة السنيين للمذهب الشافعي إن غالبية علماء المدينة الذين ذكرتهم المصادر ينتمون إلى هذا المذهب، إلى جانب ذلك فإن الغالبية العظمى من سكان القدس وفلسطين ما زالوا ينتمون إلى هذا المذهب حتى اليوم. وانتمى بعض سكانها المسلمين في نهاية القرن إلى الفرق الشيعية والكرّامية والمعتزلة وغيرها من الفرق حيث ذكر ابن العربي: "وكنا نفاوض الكرّامية والمعتزلة

(٢٤) ابن الأثير، ج ١٠، ص ١٠٣.

(٢٥) العسلي ص ٥٣، ١٦٩، ١٧١.

والمشبهة" وفي كتاب آخر ذكر" وكان فيه (أي ببيت المقدس) من رؤوس العلماء ورؤوس المبتدعة، على اختلاف طبقاتهم كثير".(٢٦)

أدت القدس دوراً تعليمياً مهماً بالنسبة إلى المسلمين. وقد زارها وعلم وتعلم بها عدد كبير جداً من مشاهير العلماء المسلمين أمثال ابن كرام السجستاني والغزالي وابن العربي. وقد نبغ من أبنائها المسلمين عدد كبير من الأشخاص الذين اشتهروا في مجالات عديدة. ومن بين الذين اشتهروا بالتأليف والذين عاشوا في القرن الذي سبق الاحتلال الصليبي نذكر: أبو المعالي المشرف ابن المرجي بن إبراهيم المقدسي الذي كتب كتاباً بعنوان **فضائل بيت المقدس والصخرة**، وكتاباً آخر بعنوان **آثار فضائل الشام**. ونصر بن إبراهيم ابن داوود المقدسي النابلسي الذي ألف كتاب **الانتخاب الدمشقي** وقد جاء في أكثر من عشرة مجلدات، وكتاب **التهذيب**. وأبو القاسم مكي بن عبدالسلام الرميلي المقدسي، الذي قتله الصليبيون عام ١٠٩٩ ويذكر بأنه ألف كتاباً بعنوان **تاريخ بيت المقدس**. وأبو الفتح سلطان بن إبراهيم بن المسلم، وكتب كتابا بعنوان **الذخائر**. وأبو الفضل محمد بن طاهر ابن علي المقدسي الشيباني، مؤلف **رجال الصحيحين، وصفوة التصرف، وأطراف الكتب الستة**. أما أشهر المؤلفين المقادسة على الإطلاق فكان شمس الدين محمد بن بكر المقدسي الذي عرف بكثرة ترحاله وسفره وبحدة ذكائه وحسن اطلاعه، وقد كتب كتاباً بعنوان **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، الذي يعتبر من أفضل ما كتب في الجغرافية على الإطلاق حتى فترة العصور الوسطى.(٢٧)

النصارى:

هناك تناقض ما، بين ما تذكره المصادر العربية الإسلامية وبين ما تذكره المصادر الصليبية بشأن الوضع الاقتصادي وربما عدد السكان النصارى في مدينة القدس في نهاية القرن الحادي عشر. فالمصادر العربية الإسلامية المتمثلة في المقدسي الذي قال "وكانت البلاد لهم يأكرون ضياعها ويلتزمون أديارها ويعمرون كنائسها"، تعطي الانطباع بأن عدد النصارى في المدينة ربما كان كبيراً وأن وضعهم الاقتصادي كان ممتازاً. في مقابل ذلك تعطي المصادر الصليبية والمتمثلة في رئيس أساقفة مدينة صور - وليم الصوري في كتابه "تاريخ الحروب الصليبية"، الانطباع أن عدد نصارى المدينة كان قليلاً وأن وضعهم الاقتصادي كان سيئاً إلى حد كبير. وبما أننا قد ناقشنا سابقاً ما ورد في المصدرين العربيين الإسلاميين فإننا سنركز

(٢٦) العسلي ص ١٧٠، ٥٤. ابو اليمن مجير الدين الحنبلي: **الأندلس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، (عمان، مكتبة المحتسب، ١٩٧٣). ج١، ص ٢٩٦ -٣٠٣. غويتاين، ص ٢٩.

(٢٧) م. جيل: **فلسطين خلال الفترة الإسلامية الأولى**، ٦٣٤-١٠٩٩ (تل أبيب، ١٩٨٣). (بالعبرية). ص ٣٤٧-٣٥٣. غويتاين ص ٢٨-٣٠. **Encyclopedia of Islam**, second edition, vol 5, p. 330

النقاش في هذا الفصل على المعلومات الواردة في الكتب الصليبية.

سكن النصاري في منتصف القرن الحادي عشر في حي واحد من المدينة وهو الحي المعروف إلى اليوم باسم حارة النصارى، الذي امتد من باب الخليل غرباً وحتى باب العامود شمالاً. فبعد أن ضرب المدينة زلزال وهدم أجزاء من سورها عام ١٠٢٣ أمر الخليفة الفاطمي سكان المدينة بترميم ما تشعث من سورها وحصونها. وقد فرض على النصارى إصلاح السور الذي يحيط بحارتهم، إلا أنهم لم يتمكنوا من تنفيذ ما فرض عليهم، لذلك لبوا المساعدة المالية من الإمبراطور البيزنطي الذي وافق على مساعدتهم بشرط أن يخصص هذا الحي من المدينة لهم وحدهم. وقد وافقت جميع الأطراف المعنية على ذلك وبضمنهم الخليفة الفاطمي نفسه، فرمم السور عام ١٠٦٣. عن هذا الموضوع يقول وليم الصوري: "وكان المسيحيون والمسلمون قد سكنوا مع بعضهم بدون تمييز حتى تلك الآونة (عام ١٠٦٣)، وأجبر المسلمون منذ ذلك الحين فصاعداً، بأمر الخليفة، على الانتقال إلى أجزاء أخرى من القدس، تاركين المكان المذكور للمؤمنين دون جدال،... وسارت حياتهم بشكل أكثر هدوءاً بعدما تمكنوا أخيراً من العيش وحدهم... ويمكن وصف هذا الربع على النحو التالي: يشكل الحد الخارجي السور الذي يمتد من الباب الغربي، أو باب داود (باب الخليل) ماراً بالبرج الواقع عند الزاوية... وصولاً حتى الباب الشمالي المعروف باسم أول الشهداء ستيفن (باب العامود)، بينما يشكل الحد الداخلي الطريق العام الذي يمتد من باب ستيفن على موائد الصرافين ويعود من هناك ثانية إلى الباب الغربي".[٢٨]

هناك عدد من الأمور المهمة ذات الصلة بموضوع البحث والمتعلقة بالنص السابق وهي:

(١) أن النص يشير إلى انتقال المسلمين من هذا الحي إلى أحياء أخرى في حين لم يشر إلى انتقال النصارى من أحياء أخرى إلى هذا الحي، الأمر الذي يقودنا إلى الاعتقاد بأن جميع نصارى المدينة كانوا يسكنون قبل عام ١٠٦٣ في هذا الحي.

(٢) كانت مساحة الحي المذكور تساوي حوالي سدس مساحة المدينة فقط.

(٣) على ما يظهر فإن انتقال المسلمين على خارج حي النصارى قد ترك هذا الحي قليل الكثافة السكانية مقارنة بالأحياء الأخرى، الأمر الذي شجع المسلمين على العودة للسكن ولإنشاء المؤسسات به. فابن العربي الذي سكن المدينة بعد انتقال المسلمين من هذا الحي بأقل من ثلاثة عقود وجد به مسلمين

(٢٨) وليم رئيس أساقفة صور، تاريخ الحروب الصليبية، الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، نقله إلى العربية سهيل زكار (دار الفكر، ١٩٩٠). ص ٤٧٠-٤٧١.

ووجد مدرسة للحنفيين في قلب الحي إلى جانب كنيسة القيامة.[٢٩] لو كانت الكثافة السكانية في هذا الحي، بعد انتقال المسلمين منه شبيهة بكثافتهم في جميع أنحاء المدينة فإننا لن نكون بعيدين عن الحقيقة إذا قدرنا عدد نصارى المدينة بحوالي ٤١٧٠ شخصاً، على اعتبار أن مجموع سكان المدينة كان حوالي ٢٥٠٠٠ نسمة. ولكن الكثافة السكانية في هذا الحي كانت أقل منه في الأحياء الأخرى، لذلك لابد أن عدد سكان نصارى المدينة كان أقل من ٤١٧٠.

عندما كانت جيوش الصليبيين تزحف في طريقها على مدينة القدس، فرض حكام المدينة المسلمين جزية على سكانها النصارى مقدارها ١٤,٠٠٠ قطعة ذهبية (أي دنانير)، حسب ما ذكره وليم الصوري الذي يضيف بهذا الشأن: "وتوجب على البطريك الذي كان يترأس (كنيسة) المدينة في تلك الآونة أن يدفع الجزية هذه، وذلك بالإضافة وبالتعاون مع السكان المسيحيين الموجودين في المدينة والأديرة القائمة في المنطقة المجاورة. ولم تكن جميع ممتلكات المسيحيين القاطنين في القدس كافية لدفع هذا المبلغ، لذلك توجب على البطريرك المبجل القيام برحلة على قبرص ليحصل على الوسائل اللازمة لتلبية هذا المطلب الثقيل..."[٣٠] ولكن هذا المبلغ لم يكن مبالغاً فيه لو كان عدد النصارى كبيراً. ففي ظروف مشابهة لظروف نصارى القدس فرض على مدينة أنطاكية عام ١٠٦٨ مبلغ قدره ١٠٠,٠٠٠ دينار، وبعد سبع سنوات فرضت على المدينة جزية جديدة مقدارها ٢٠,٠٠٠دينار. وفي عام ١٠٩٢ دفعت مدينة طرابلس الشام مبلغ ٦٠,٠٠٠ دينار كجزية، وفي عام ١٠٩٣ فرض الفاطميون على مدينة صور جزية مقدارها ٦٠,٠٠٠ دينار كجزية، وفي عام ١٠٩٣ فرض الفاطميون على مدينة صور جزية مقدارها ٦٠,٠٠٠دينار.[٣١] لقد كان حجم سكان المدن التي ذكرت أعلاه وعددها شبيهاً بحجم سكان القدس وعددهم، خصوصاً مدينة طرابلس التي قال ناصري خسرو عن عدد سكانها إنه مطابق لعدد سكان القدس[٣٢]. لقد كان نصيب كل فرد من سكان طرابلس من جزية عام ١٠٩٢ حوالي ثلاثة دنانير. فلو كان نصيب كل نصراني من نصارى القدس ثلاثة دنانير لاستنتجنا بأن عددهم كان حوالي ٤٦٦٠ شخصاً، وهو رقم شبيه بالرقم الذي قدرناه على أساس حجم الحي. ولكن وليم الصوري يدعي بأن نصيب كل واحد من الجزية المذكورة كان أكثر من ثلاثة دنانير بكثير حيث ادعى أن جميع

(٢٩) العسلي ص ٥٣، ١٧١.

(٣٠) وليم رئيس أساقفة صور، ج١، ص ٤٠١-٤٠٢.

(٣١) كمال الدين بن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان ج٢، ص ١١-١٢؛ ابن الأثير، ج١٠، ص ص٢٢٣،٢٠٣؛ ابن القلانسي، = ص ١٢٤ ؛ يوسف بن قزغلو سبط بن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ العيان، تحقيق علي سفن (أنقرة: جامعة أنقرة، ١٩٦٨). ص ١٧٥-١٧٦.

(٣٢) ناصري خسرو ص ٤٧-٤٨.

ممتلكاتهم لم تكن كافية لدفع المبلغ. الأمر الذي يؤكد لنا مرة أخرى أن عددهم في نهاية القرن الحادي عشر كان أقل من ٤٦٦٠ بكثير بل ربما لم يتجاوز ثلث أو حتى ربع هذا العدد.

وفيما يتعلق بمصيرهم أثناء تقدم القوات الصليبية نحو المدينة، يورد وليم الصوري معلومات مختلفة بل حتى متناقضة مع بعضها بعضاً. ففي مكان ما من كتابه ادعى بأن المسلمين قد قتلوهم حيث قال: "بينما قللت المحن والمصائب الكثيرة تعداد المسيحيين السريان، الذين كانوا في الأصل سكان المدينة،... بحيث اضمحلت أعدادهم وباتت لا شيء تقريباً... بدأ الكفار (المسلمين) من أبناء جلدتهم بالإساءة إليهم... حيث قتلوا الكثيرين منهم لأتفه الأسباب ولم يوفروا المسنين ولا العجزة". وفي مكان آخر ادعى بأن السلطات المسلمة قد طردتهم من المدينة حيث قال " ثم طردوهم من المدينة باستثناء الرجال المسنين والمرضى والنساء والأطفال، وكان هؤلاء المنفيون حتى ساعة قدومنا يموتون جوعاً وهم يتسكعون في القرى الصغيرة الواقعة بالقرب من المدينة بانتظار مستمر للموت. ولم يكن هناك مكان آمن أو ملاذ لهم حتى في خارجها، حيث أحاط مضطهدوهم بهم، ونظر سكان القرى بارتياب إلى تحركهم، وكلفوهم بأشد المهام مشقة وخزياً" وفي مكان ثالث من الكتاب تكلم عنهم على أنهم كانوا موجودين في المدينة أثناء الحصار وكانوا يقومون بأعمال شاقة حيث قال:" فقد أرغموا على تأدية جميع الأعمال الاستثنائية... وسحبوا مكبلين بالسلاسل إلى السجون... ولم يتجرأ أحد من المؤمنين على صعود الأسوار أو الظهور علناً ما لم يكن محملاً بحمل ثقيل... وأجبروا على حمل الأحمال الثقيلة. كما أرغم الذين كانوا مهرة في أية مهنة على ممارستها... وفرض عليهم استقبال اللاجئين من القلاع والقرى المجاورة الذين هربوا إلى القدس في بيوتهم... وتوجب عليهم أن يتقاسموا مقتنياتهم مع الغرباء.[٣٣]

عند دراستنا لشخصية هذا الأسقف المؤرخ نجد أنه كان يكن العداء التام للمسلمين وحاول إظهارهم بمظهر الكفرة والقتلة والمتوحشين. وعلى هذا الأساس نستنتج أن اتهامه السلطات الإسلامية بقتل سكان المدينة النصارى ما هو إلا مجرد تهمة لا أكثر ولا أقل، مع أننا لا نستبعد أن يكون أفراد قلائل قد لاقوا حتفهم في ظل الظروف العصيبة التي مرت بها المنطقة قبل واثناء حصار المدينة. فلو تم قتلهم فعلاً لما وجدنا هذا المؤرخ يدعي في مكان آخر بأنهم طردوا من المدينة أو أجبروا على القيام بالأعمال الشاقة داخلها في أثناء حصارها، ولوجدناه يتفيض بوصف أعمال القتل وليس يذكر ذلك بشكل عابر جداً. كذلك الحال فإنه من المستبعد أن يكون المسلمون قد

---

(٣٣) وليم رئيس أساقفة صور، ج١، ص ٤٠٢، ٤٢١، ٥٦٠.

أخرجوا أعداداً كبيرة من سكانها النصارى إلى خارجها لأنه لو حدث ذلك لوجدناهم يتعاونون مع الصليبيين ويقدمون لهم يد المساعدة أثناء الحصار، انتقاماً من المسلمين. إن اتصالهم بالصليبيين والانضمام إليهم في أعقاب المعاملة السيئة ليس بالأمر الغريب، فنصارى مدينة بيت لحم اتصلوا بالصليبيين ومدوا لهم يد العون وطلبوا منهم احتلال مدينتهم[٣٤] حتى دون أن يجبرهم المسلمون على مغادرة بيوتهم ومدينتهم. إننا لم نجد حتى مصدراً واحداً يشير من قريب أو بعيد إلى أي نوع من التعاون قد تم بين نصارى القدس والصليبيين رغم كثرة المصادر التي اهتمت بهذه الفترة وكتبت عنها، ورغم أنه كان يهم كثير من المؤرخين الصليبيين إظهار مدى مساعدة نصارى القدس وتعاونهم مع القوات الصليبية المهاجمة.

فإذا استثنينا الروايتين السابقتين نستخلص أن الرواية الثالثة التي تكلمت عن بقاء النصارى في بيوتهم ومدينتهم هي الرواية الأقرب إلى الصحة والأقرب إلى المنطق. إننا قلما نجد في التاريخ الإسلامي أن السلطات تجبر جزءاً من السكان على مغادرة مدينته عشية مهاجمتها من قبل العداء. ومن المتوقع أن هذه السلطات لم تجبر بل ربما لم تفكر إخراج نصارى القدس عشية مهاجمة الصليبيين لها باختصار عن بقائهم في المدينة كان أمراً طبيعياً، وربما شاركوا في الدفاع عن مدينتهم ضد الصليبيين بمحض إرادتهم ولم يكرهوا على ذلك كما ادعى وليم الصوري. وربما قررت السلطات المسلمة إبقاءهم في المدينة للاستفادة منهم في الأعمال الدفاعية ولخوفها من مساندتهم للقوات الصليبية.

ولو تواجد نصارى من المدينة خارجها في أثناء حصارها لعادوا إليها وإلى بيوتهم بعد احتلالها من قبل الصليبيين، إلا أنه لم تكن هناك عودة إلى بيوت الحي المسيحي، بل على العكس من ذلك فإن حقيقة خلو هذا الحي من سكانه هو الذي شجع النصارى الأوروبيين (الصليبيين) على الاستيطان في الحي المذكور. أما النصارى الشرقيون الذين تجمعوا في المدينة مع مرور الزمن فقد سكنوا في الحارة الشمالية الواقعة إلى الشرق من حارة النصارى.[٣٥] والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو ماذا حدث لهؤلاء السكان الذين يظهر بأنهم قد اختفوا بشكل مفاجي؟ في الحقيقة لا توجد إجابة شافية لهذا السؤال ولكن على ما يظهر أنهم لاقوا حتفهم أثناء المجزرة الرهيبة التي نفذها الصليبيون بحق سكانها. إننا لا ندعي بأن الصليبيين قد قتلوهم بشكل متعمد، رغم ان ذلك غير مستبعد كلياً، ولكننا نعتقد بأن حالة النشوة أصابتهم في أعقاب انتصارهم على المسلمين ودخولهم المدينة المقدسة قد أفقدتهم إحساسهم الإنساني حتى إنهم لم يميزوا بين مسلمين وغير مسلمين.

(٣٤) المصدر السابق، ص ٢٠٢-٣.

(٣٥) Prawer. pp. 90-4.

بعد احتلال القدس عاد عدد كبير من المحاربين الصليبيين إلى بلادهم الأصلية في أوروبا والتحق بعضه بالمدن والمعسكرات الصليبية المتأثرة في فلسطين وفي بلاد الشام. أما الذين استوطنوا في المدينة فكان عددهم قليلاً جداً، حتى إن حارة النصارى التي تعتبر إحدى الحارات الصغيرة في المدينة قد زادت عن حاجتهم. إن قلة عدد المستوطنين في المدينة اعتبر من قبل السلطات الصليبية مشكلة عسكرية من الدرجة الأولى لذلك شجعت الهجرة المسيحية إليها، حيث أعطت امتيازات كثيرة ومغرية لكل شخص من أصل أوروبي أو محلي رغب في السكن بالمدينة بشكل دائم. ولكن هذه المغريات لم تحل مشكلة خلوها من السكان. فيصف وليم الصوري الوضع الديموغرافي للمدينة بعد عقدين من احتلالها قائلاً: "في هذه الآونة لاحظ الملك بقلق كبير أن المدينة المقدسة، حبيبة الله، خالية من السكان تقريباً، حيث لم يكن هنالك عدد كاف لمواصلة المشروعات اللازمة للمملكة، وبالفعل لم يكن هناك عدد كاف لحماية المداخل إلى المدينة وللدفاع عن الأسوار والأبراج... وكان أهالي بلدنا قليلين جداً ومعوزين لدرجة أنهم لم يستطيعوا شغل شارع واحد إلا بصعوبة". وبعد أن يئس الملك "بالدوين الأول" من هجرة النصارى الأوروبيين والمحليين للمدينة قام بحملة عسكرية على منطقة شرق الأردن للوصول إلى نصارى منطقة الكرك والشوبك. وبالفعل تكللت حملته التي قام بها عام ١١١٦ بالنجاح، فاحتل المنطقة وأقنع عدداً كبيراً من مسيحييها بالهجرة إلى المدينة المقدسة. وقد تم توطينهم في "حارة المشارقة" التي كانت تقع على الشرق من باب العامود.[٣٦]

في اعتقادي أن عدد سكان المدينة النصارى ووضعهم الاقتصادي كان أقل مما أوحت به المصادر العربية، ولكنه كان أكبر وأفضل مما أوحت به المصارد الصليبية.

اليهود:

بالنسبة إلى سكان القدس اليهود فقد تفاوت عددهم بين مد وجزر. فمن المعروف أن السلطات المسيحية البيزنطية التي كانت تحكم المدينة قبل الفتح الإسلامي قد منعتهم من السكن داخل المدينة منعاً باتاً. ولأسباب غير واضحة حاول نصارى المدينة الإبقاء على هذا المنع حتى بعد الفتح العربي للمدينة حيث تم إدخال بند ينص على عدم السماح لليهود بالسكن في القدس فيما يعرف العهدة العمرية أو كتاب الأمان الذي كتبه خليفة المسلمين عمر بن الخطاب لسكان القدس. الآن يتوفر لدينا نسخ مختلفة الفحوى لهذه الاتفاقية أو لهذا الأمان إلا أن غالبية هذه النسخ تشير إلى هذا البند، أما النسخ التي لا تشير إليه فيوجد شبه إجماع عليها بأنها غير صحيحة.[٣٧] في

---

(٣٦) وليم رئي أساقفة صور، ج١، ص ٥٦٠-٥٦١.
Prawer pp. 91-3.

(٣٧) حمد يوسف ص٤٨-٤٩.

الحقيقة لا يمكن الركون إلى هذه النسخ حتى التي يميل الباحثون إلى القبول بها وذلك لأسباب عديدة أهمها: أنه إذا كانت هذه العهدة أماناً من خليفة المسلمين لسكان المدينة أو اتفاقية بين المسلمين الفاتحين وبين سكان المدينة النصارى فهل من المعقول أن يرمي المسلمون بها عرض الحائط ولا يطبقوا ما وعدوا به أو اتفقوا عليه؟! حيث نجد فترة وجيزة أحد المراكز اليهودية الدينية المهمة في فلسطين.

رغم قلة عدد اليهود في فلسطين وفي القدس إلا أنهم انقسموا إلى ثلاث فرق رئيسية وهم: الربانيون والقرّاؤون والسامريون. أما بالنسبة إلى الربانيين فإنهم يمثلون التيار القديم والأساسي ويعتمدون في شريعتهم على التوراة وعلى تعاليم مجتهديهم وشيوخهم، في حين تعتمد طائفة القرائين، التي ظهرت للوجود وانفصلت عن الربانيين في القرن الثامن ميلادي، على التوراة فقط ولم تأخذ باجتهاد المجتهدين الذي جمع في كتب التلمود والمشناة. وفيما يتعلق بالسامريين فإنهم يعتبرون أنفسهم اليهود الأصليين وأن التوراة التي يتداولونها هي التوراة الصحيحة، ويعتبرون التوراة التي يتداولها الربانيون والقراؤون محرفة وغير صحيحة، في حين يعتبرهم الربانيون والقرّاؤون كفاراً وخارجين عن الملة اليهودية.(٣٨)

كما هو متوقع في مثل ظروف الانشقاق التي سادت بين الفرق اليهودية فإن العلاقة بينهم كانت علاقة تنافس وحسد وعداء، حيث ادعت كل فرقة منهم أنها تمثل تعاليم الدين اليهودي الصحيحة، وتنافسوا فيما بينهم على كسب أعضاء بعضهم بعضاً وعلى كسب ود السلطات المسلمة. أما بالنسبة إلى الفروق التي وجدت بين السامريين من جهة والربانيين والقرائين من جهة أخرى فكانت كبيرة جداً حتى إن السامريين كانوا يفضلون المسلمين من ناحية اجتماعية على باقي اليهود.(٣٩) أما بالنسبة إلى التنافس والعداء بين الربانيين والرّائين فكان على أشده ربما لأوجه الشبه الكبيرة بين الطرفين من ناحية دينية ولسكنهم إلى جانب بعضهم بعضاً في المدن الفلسطينية. ففي نهاية عيد العرش الذي كان يحتفل به في مدينة القدس كان رئيس الكلية التلمودية الربانية يعلن عن مواعيد الأعياد والتقويم للسنة القادمة، الأمر الذي كان يعارضه القرّاؤون لأن القرائين كانوا يعينونها بواسطة رؤيا الهلال بالعين المجردة بالعكس من الربانيين الذين كانوا يعينونها بواسطة الحساب الفلكي.(٤٠) وكان رئيس الكلية يعلن في الاحتفالات نفسها عن تجديد الحرمان على القرائين كأفراد وكمجموعة، الأمر الذي كان يثير أعمال الشغب بينهم.

---

(٣٨) Jacob Mann: **The Jews in Egypt and in Palestine Under the Fatimid Caliphs,** ed.by Gerson D.Cohen (New York, Ktav Publishing House, 1970). pp. 42, 61, 135.

(٣٩) شمس الدين محمد الدمشقي: **كتاب نخبة الدهر في** = **عجائب البر والبحر**، تحقيق مهران، (بطر سبورغ، الأكاديمية الملكية العلمية، ١٨٦٦). ص ٢٠١.

(٤٠) Norman A. Stillman: **The Jews of The Arab Lkand, A History and source Book,** (Philadilphia, 1979). pp. 154-5.

وعلى هذا الأساس كان القرّاؤون يشتكون للسلطات المسلمة ويطالبونها بالتدخل وتحميل الربانيين مسؤولية الإخلال بالنظام والأعمال العدائية التي كانت تنشب بين الجهتين والتي راح ضحيتها عدد من القتلى من كلا الطرفين ومن بينهم شخصيات قيادية. وبالنسبة إلى الربانيين فبالإضافة إلى خلافاتهم الدينية مع القرائين فقد كان يثير الحسد في نفوسهم أن عدد القرائين أصبح وبسرعة يفوق عددهم في القدس، وأصبح الأفراد الربانيون يتأثرون بتعاليمهم، وأن السلطات أصبحت تفضلهم عليهم. إن نقل الربانيين للأكاديمية التلمودية من الرملة إلى القدس كإجراء لتعزيز وضعهم في المدينة لم يجد نفعاً حيث أصبح القرّاؤون، خلال القرن العاشر الميلادي، أكثر عدداً منهم وأصبحت السلطات تعتمدهم كممثلين لجميع يهود المدينة.[٤١]

انتمى سكان القدس اليهود في نهاية القرن الحادي عشر ميلادي إلى فرقة القرائين وفرقة الربانيين فقط ولم ينتموا إلى فرقة السامريين. ربما يكون السبب في ذلك عدم اعتبار السامريين مدينة القدس مدينة مقدسة، حيث احتفظوا بهذا المنصب لمدينة نابلس التي مازالوا يعتبرونها قدس الأقداس. لقد سكن السامريون في كل من الرملة ويبنه وعسقلان وغيرها من المدن الفلسطينية على جانب سكنهم في مدينة نابلس. أما بالنسبة إلى القرائين الذين انشقوا عن الربانيين خلال القرن الثامن ميلادي فكان مركزهم في العراق. وعلى ما يظهر فإن جميع القرائين الفلسطينيين كانوا من أصل عراقي وإيراني، حتى إنه كان يطلق على حيهم الذي سكنوه في مدينة القدس (إلى الشرق من باب العامود) اسم حي المشارقة نسبة إلى أصلهم العراقي والإيراني. لقد هاجر القراؤون إلى القدس والرملة منذ الثلث الثاني من القرن التاسع ميلادي. أما الربانيون الذين سكنوا في القدس منذ الفتح العربي للمدينة وسكنوا في مدن فلسطينية أخرى بل وفي بعض القرى الجليلية فكانوا خليطاً من سكان فلسطين ومن مهاجرين هاجروا لهذا البلد من مصر والمغرب وأوروبا. لقد تضاءل عدد الربانيين في القدس مع مرور الزمن حتى كاد يتلاشى في القرن الحادي عشر. إن هذه الأوضاع أدت بهم إلى إعادة أكاديميتهم سالفة الذكر إلى مدينة الرملة، ولكن سوء الأوضاع الأمنية في منطقة الرملة خلال هذه الفترة أجبرهم على نقلها إلى حيفا ومن ثم إلى عكا وبعد ذلك إلى صور وعلى إثر احتلال الصليبيين لهذه المدينة تم نقلها إلى دمشق حيث استقرت لفترة طويلة.[٤٢]

---

(٤١) Encyclopaedia Judaica, vol. 9, pp. 1411-2 Mann, pp. 42, 143-5.

(٤٢) يِنر براك: في ظل الصليب، مجتمع كولونيالي (القدس، معهد بيالك، ١٩٧٥). ص ١٩٨. برافر، ص ٧٣. المقدسي ص ١٧٩. أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي: كتاب البلدان، تحقيق م.ج. دي خويه، (ليدن، برل، ١٨٩٢). ص ٣٢٨-٣٢٩. محمد بن = أحمد بن جبير: رحلة ابن جبير، (بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٥٩) ص ٧٣. محسن يوسف: "الخارطة الدينية لسكان فلسطين عشية الاحتلال الصليبي" آفاق فلسطينية، مجلة أبحاث جامعة بير زيت، (عدد ٧، ١٩٩٣. ص ٢٤-٤٧). ص ٢٦-٢٧. **Encyclopaedia Judaica,** vol. 9, p. 1412 Mann, p. 42.

كنا نتوقع أن يكون عدد اليهود في مدينة القدس كبيراً جداً وذلك لعدد من الأسباب أهمها:

(١) أن السلطات المسلمة سمحت لهم بزيارتها والسكن بها بحرية تامة بعد أن منعتهم من ذلك السلطات الرومانية والبيزنطية لفترة طويلة جداً.

(٢) أن القدس لا تعتبر فقط أقدس المقدسات بالنسبة إليهم وإنما تكاد تكون مدينتهم المقدسة الوحيدة في العالم.

(٣) أنهم طالما ادعوا أن السكن بالقدس وزيارتها ركن من أركان الدين وحلمهم القديم.

ولكن توقعنا هذا كان خاطئاً لأن عددهم بقي قليلاً على مر القرون الخمسة الأولى من حكم المسلمين، بل إن المدينة كادت تخلو منهم تماماً في نهاية القرن الحادي عشر. فالمصادر تعلمنا بأن السلطات المسلمة قد فرضت على يهود المدينة في نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر ضريبة مقطوعة مقدارها ١٠٠ دينار سنوياً.[٤٣] وهي ضريبة صغيرة جداً حسب جميع المقاييس. وكما هو معروف فإن السلطات المسلمة كانت تفرض على أهل الذمة ضريبةعلى الرأس اسمها الجزية وكان مقدارها ديناراً واحداً على الأشخاص العاديين وديناران على أبناء الطبقة الوسطى وأربع دنانير على الأغنياء. ومن المعروف أيضاً أن هذه الضريبة فرضت على العاملين فقط ولم تفرض على الفقراء والنساء والأولاد وغيرهم ممن لم يملك دخلاً. في اعتقادي أننا لن نكون بعيدين عن الصحة لو افترضنا بناء على حجم الضريبة المذكورة أن عدد العائلات اليهودية في المدينة كان حوالي ١٠٠ عائلة. والسبب في ذلك أنه في حين دفع رؤساء العائلات دينارين وأربعة دنانير لوضعهم الاقتصادي الجيد لم يدفع عدد منهم الجزية بتاتاً بسبب فقرهم. ولا بد هنا من الإشارة إلى أنه سكن في المدينة عدد من المجاورين الفقراء اليهود بشكل أفراد ودون أن يكون لهم عائلات. فإذا صحت هذه التقديرات يكون العدد الإجمالي ليهود المدينة حوالي ٥٠٠ شخص أو ما يعادل ٢% من مجموع السكان.

إن هذا الرقم وهذه النسبة على صغرها تظهر كبيرة ومبالغاً فيها. ومما يؤكد هذه المبالغة رسالة بعث بها رجل دين من القدس إلى يهود القاهرة يطلب منهم مساعدة مالية حيث يقول في الرسالة: "الضريبة المفروضة علينا الآن ثقيلة ومقطوعة، وعددنا قليل وما يوجد لدينا من مال لا يكفي إلا لتغطية جزء بسيط من الضريبة، أما الباقي فنستدينه بفائدة، لكي يتمكن الحجاج من زيارة المدينة المقدسة دون أن تفرض عليهم السلطات أي ضرائب.[٤٤] فهذه الرسالة توضح عدداً من الأمور التي تهمنا في هذا المقام وهي:

(١) أن عدد اليهود كان قليلاً.

---

(٤٣) غويتاين، ص ٢٧.

(٤٤) Mann, p. 163. Stillman, pp. 192-193.

(٢) أن الضريبة المذكورة أعلاه ومقدارها ١٠٠ دينار كانت مجموع ما فرض على يهود المدينة من ضرائب وليس فقط ضريبة الجزية.

(٣) أن الضريبة المذكورة احتوت أيضاً على مبلغ من المال مقابل السماح للحجاج اليهود بزيارة القدس دون أن يدفعوا الجزية المستحقة عليهم وغيرها من الضرائب التي كانت تفرض على الحجاج والزوار من غير المسلمين. وبناء على ذلك فإن عدد العائلات اليهودية في المدينة كان أقل من ١٠٠ عائلة وأن عددهم الإجمالي كان أقل بكثير من ٥٠٠ شخص.

تكاد تكون المصادر والمراجع اليهودية القديمة والمعاصرة تجمع على أن عدد اليهود في مدينة القدس قد قل بشكل كبير جداً خلال القرن الحادي عشر خصوصاً خلال النصف الثاني منه، ويعزون ذلك على معاملة السلاجقة السيئة لهم ولأهل الذمة بصورة عامة. إني أوافق هذه المصادر على أن عدد يهود المدينة كان متدنياً في نهاية القرن المذكور ولكني أعتقد أن العدد قد تدنى خلال الفترة الفاطمية المتأخرة، أي في بداية القرن الحادي عشر، وليس خلال الفترة السلجوقية. فالمصادر العربية الإسلامية لم تشر إلى أي ملاحقة قام بها السلاجقة ضد أهل الذمة على العكس من ذلك فإنها تشير إلى معاملتهم بشكل جيد وربما متميز. فعلى سبيل المثال، لم ينتقم القائد السلجوقي استز من أهل الذمة المقدسيين في أعقاب إخماد الثورة التي اندلعت بها ضده عام ١٠٧٨م في حين انتقم من مسلميها. في اعتقادي أن تدني عدد اليهود في بداية القرن الحادي عشر نابع من طبيعة نمط حياة يهود المدينة ومن الأوضاع الاقتصادية العامة في المنطقة. فجزء كبير من يهود القدس كانوا رجال دين وتلاميذ ومجاورين ومتعبدين ولم يمارسوا أي نشاط اقتصادي، واعتمدوا في معاشهم على الهبات التي كانوا يحصلون عليها من القاهرة والرملة وغيرها من البلاد. ولهذا السبب تأثر يهود المدينة سلبياً بشكل كبير جداً عندما ساءت الأوضاع الاقتصادية في مصر وفلسطين في بداية القرن الحادي عشر على إثر الاضطرابات والحروب والزلازل التي أصابت المنطقة، الأمر الذي أدى بكثير منهم إلى الهجرة إلى مناطق أخرى.(٤٥)

إن أحداث الاحتلال الصليبي للقدس عام ١٠٩٩م تؤكد قلة عدد اليهود وطبيعة الحياة التي كانوا يعيشونها في هذه المدينة والتي تميزت بأنها دينية وغير منتجة اقتصادياً. فالمصادر تشير إلى أن الصليبيين قد جمعوا

(٤٥) S. D. Goitein: Evidence on the Muslim Poll tax From Non- Muslim Sources **Journal of the Economic and Social History of the Orient,** (1963, pp. = 192-3. Mann, p.162 **Encyclopedia of** vol. = 6, pp. 278-295). P. 293. Stillman, **Islam,** second edition, vol. 1,p. 751، برافر ص ص ٧٣-٧٤.

غالبية اليهود في كنيسهم وأحرقوهم فيه، أما القلة المتبقية منهم التي بقيت تخضع لحكم المسلمين لفترة طويلة جداً بعد سقوط القدس.[٤٦] إن الرحالة والجغرافيين المسلمين والمسيحيين واليهود الذين زاروا القدس رتركوا أوصافاً شبه مفصلة عن الأمكنة المقدسة الإسلامية والمسيحية لم يذكروا أي تفاصيل ذات قيمة عن كنيس اليهود، الأمر الذي يقودنا للاعتقاد بأنه كان صغيراً وبسيطاً جداً، وعليه لا يمكن أن يكون عدد اليهود الذين أحرقوا فيه كبيراً.

الخاتمة

بالعكس مما يدعيه بعض المستشرقين فإن المصادر قد أثبتت أن المسلمين بصورة عامة والحكام المسلمين بصورة خاصة قد أبدوا اهتماماً عظيماً بمدينة القدس يفوق اهتمامهم بغالبية المدن الأخرى في العالم الإسلامي، خصوصاً في المجال العمراني وفي المجالات ذات العلاقة بقدسيتها. أما بالنسبة إلى قلة اهتمامهم بها سياسياً وعسكرياً فذلك مرده سوء موقعها الجغرافي المتمثل في وعرة منطقتها وعدم وقوعها على الطرق التجارية الرئيسية التي تمر من المنطقة. ولكن سوء ووعرة موقعها لم يمنعا من أن تكون ثاني أعظم مدينة في فلسطين من الناحية الديموغرافية خلال القرون الأولى من التاريخ الإسلامي، بل على العكس من ذلك فإن هذا العامل قد أصبح عاملاً إيجابياً عندما ساءت الأحوال الأمنية خلال القرن الحادي عشر، حيث أصبحت أكثر أمناً من المدن التي كانت تتمتع بموقع استراتيجي ووقعت على الطرق التجارية الرئيسية مثل مدينة الرملة، الأمر الذي جعل منها أعظم مدينة في فلسطين من الناحيتين الديموغرافية والسياسية أثناء الحكم السلجوقي. وقد تراوح عدد سكانها في نهاية القرن بين ٢٠,٠٠٠ و ٣٠,٠٠٠ نسمة.

مدينة القدس مدينة مقدسة لدى المسلمين والنصارى واليهود لذلك سكنها أتباع هذه الأديان أثناء حكم المسلمين لها. فبالعكس من الرومان والبيزنطيين والصليبيين فقد فتح المسلمون المدينة على مصراعيها أمام جميع من رغب في زيارتها والسكن بها. إنه لا تتوفر لدينا معلومات إحصائية دقيقة أو حتى تقريبية عن التركيبة الطائفية لسكان المدينة خلال الفترة الخاضعة للبحث، ولكن المصادر تزودنا بمعلومات كافية لتقدير حجم ونسب هذه التركيبة. المعلومات التي تحدثت عن مسلمي المدينة بشكل مباشر هي معلومات عامة جداً ولا تشير إلى أكثر من أن عددهم كان كبيراً. أما بالنسبة إلى معلومات المتعلقة بالنصارى واليهود فهي أكثر دقة وبإمكانها أن تساعدنا في احتساب عددهم التقريبي ونسبتهم لمجموع السكان. ففقد سكن النصارى في نهاية القرن الحادي عشر في حي واحد من المدينة، وهو

---

(٤٦) ابن القلانسي ص ١٣٧. براك ص ١٩٩.
Encyclopaedia Judaica, Vol. 9, p. 1415.

حي النصارى الحالي، إلا أن الكثافة السكانية في هذا الحي أصبحت متدنية في أعقاب إجبار سكانه المسلمين على مغادرته خلال العقد السادس من القرن نفسه. وبما أن حجم هذا الحي كان يعادل سدس حجم المدينة فإننا لن نكون بعيدين عن الحقيقة إذا افترضنا أن عدد النصارى لم يتجاوز ٢٥٠٠ شخص، أي ما يعادل ١٠ بالمئة من السكان. أما بالنسبة إلى اليهود فإننا نقدر عددهم بناءً على حجم الضرائب التي كانوا يدفعونها وحجم كنيسهم الذي أحرقهم به الصليبيون بأقل من تقدير نسبة المسلمين لمجموع سكان المدينة بأكثر من ٨٥ بالمئة. وقد انعكس هذا الأمر على نبوغ واشتهار عدد لا بأس به من رجالها المسلمين على المستوى المحلي والإسلامي والعالمي أمثال المقدسي البشاري في حين لم يشتهر أي من أبنائها النصارى أو اليهود.

إن غالبية المؤرخين الذين ادعوا أن المسلمين لم يعيروا المدينة الاهتمام الذي يليق بها هم من اليهود الصهيونيين، ولكن هؤلاء المؤرخين تجاهلوا كلياً والتزموا جانب الصمت فيما يتعلق بعدم اهتمام الشعب اليهودي وقيادته الدينية بالمدينة التي يعتبرونها مدينتهم المقدسة الوحيدة في العالم. لقد فتح الحكام المسلمون الباب على مصراعيه أمامهم وامام غيرهم للانتقال إليها وإنشاء المؤسسات التي يرونها بها، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك إلا على نطاق ضيق وفضلوا السكن وإنشاء المؤسسات الدينية والاقتصادية في المدن الاستراتيجية والواقعة على الطريق التجارية الرئيسية أمثال مدن الرملة وعسقلان في فلسطين ودمشق والقاهرة وبغداد في المنطقة القريبة منها. وهنا تجدر الإشارة إلى أن منطقة القدس تحتل الآن، وفي ظل الحكم الإسرائيلي، المرتبة الثانية بل تكاد تكون المرتبة الثالثة، ديموغرافياً واقتصادياً بعد مرتبة منطقتي تل أبيب وحيفا.

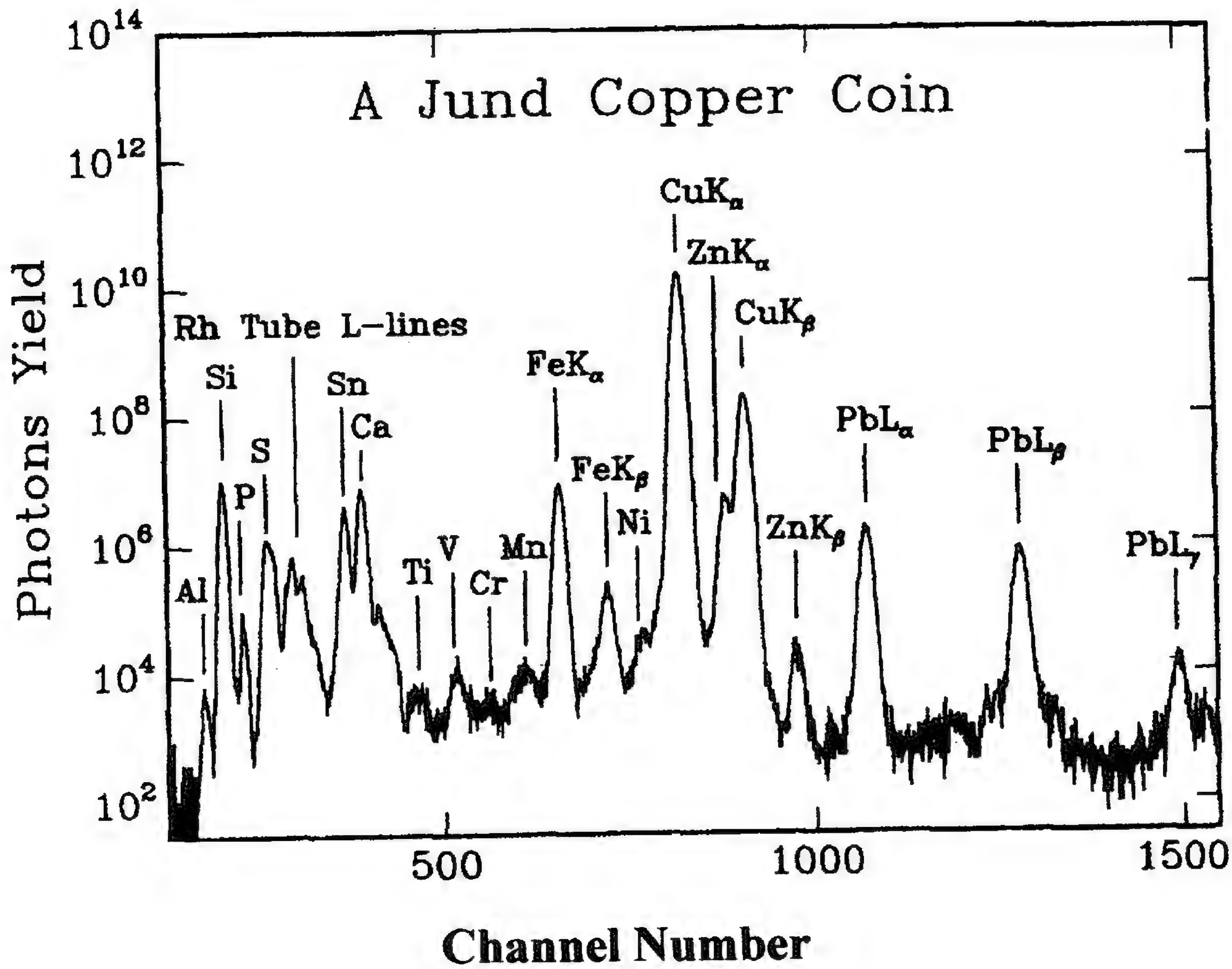


Fig. 3: A representative XRF spectrum for coin D1 showing the characteristic K- and L-lines *of various elements in the coin sample.*



Oberse Side



Reverse Side

Fig. 2: A Photograph showing the obverse and reverse sides of a typical Jund's copper coin-the coin number D1 of Jund Dimashaq.



Fig. 1: A map showing the locations of the five Junds (counties) of the Umayyad state where the copper coins were issued. These Junds are: Al-Urdunn (Jordan), Filastin (Palestine), Dimashaq (Damascus), Hims and Qinnasrin.

Table 3: Constituents of the Coins for the Junds of Jordan, Palestine, Hims and Qinnasrin..

Coin	A1	A2	A3	A4	F1	F2	H1	H2	Q1	Q2
El.	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or
	ppm	ppm	ppm	ppm	ppm	ppm	ppm	ppm	ppm	ppm
Al	0.43	0.66	0.22	2.90	11.16	6.77	2.14	5.64	2.08	0.66
Si	3.01	7.01	1.00	7.98	25.82	24.70	12.90	21.08	14.41	5.76
P	0.35	0.71	0.48	0.99	0.39	0.26	0.52	0.27	2.57	1.28
S	0.24	764ppm	0.12	439ppm	0.19	0.12	2.15	0.47	0.32	0.45
K	886ppm	144ppm	----	0.38	3.28	1.86	0.41	1.95	0.36	77ppm
Ca	0.92	1.79	1.21	3.22	2.57	10.22	6.27	2.05	7.31	0.94
Ti	----	----	114ppm	617ppm	0,61	0.52	830.ppm	0,20	0.10	----
V	391 ppm	380ppm	106ppm	440ppm	459ppm	0.30	784ppm	0.35	0.27	262ppm
Cr	132 ppm	----	----	56ppm	198ppm	380ppm	136ppm	43ppm	14ppm	39ppm
Mn	518ppm	----	240ppm	906ppm	855ppm	633ppm	290ppm	----	169ppm	----
Fe	0.22	1.03	0.34	0.44	4.39	3.12	0.63	1.10	0.66	0.13
Co	352ppm	----	109ppm	528ppm	252ppm	123ppm	138ppm	----	124ppm	----
Ni	369ppm	528ppm	934ppm	218ppm	0.15	935ppm	9ppm	612ppm	520ppm	----
Cu	86.65	77.72	67.27	81.20	43.41	44.76	57.80	57.76	42.23	74.12
Zn	0.76	0.77	0.22	----	1.24	----	0.11	0.20	0.20	----
Ag	1ppm	1ppm	6ppm	3ppm	3ppm	----	6ppm	5ppm	----	----
In	46ppm	22ppm	4ppm	7ppm	10ppm	9ppm	32ppm	26ppm	19ppm	7ppm
Sn	2.84	2.39	1.73	2.54ppm	0.66	0.86	1.20	1.62	1.49	0.50
Pb	7.08	7.73	27.27	2.54	5.94	6.30	15.65	7.23	27.92	16.12

Table 2: Constituents of Jund Coins investigated in the present work which were issued at Damascus.

Coin	D1	D2	D3	D4	D5	D6	D7	D8
El.	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or
	ppm	ppm	ppm	Ppm	ppm	ppm	ppm	ppm
Al	1.71	0.56	7.31	0.53	1.92	0.44	0.31	0.57
Si	9.33	3.32	6.03	0.91	8.63	0.79	1.30	2.73
P	0.83	1.16	1.76	0.31	1.14	0.39	0.43	0.50
S	0.49	0.48	0.21	0.29	0.32	0.27	0.26	0.62
K	0.53	0.28	1.36	333ppm	0.32	-----	-----	-----
Ca	3.58	2.02	2.90	0.53	6.53	0.76	1.13	1.50
Ti	593ppm	258ppm	0.41	-----	675ppm	-----	315ppm	-----
V	826ppm	350ppm	694ppm	17 ppm	-----	-----	-----	-----
Cr	250ppm	-----	-----	60 ppm	13 ppm	-----	-----	32 ppm
Mn	286ppm	-----	0.37	-----	-----	-----	356ppm	155ppm
Fe	1.83	1.07	2.16	0.22	0.54	0.16	0.29	1.03
Co	426ppm	127ppm	346ppm	-----	146ppm	-----	57 ppm	327ppm
Ni	458ppm	523ppm	226ppm	288ppm	519ppm	596ppm	0.11	369ppm
Cu	72.26	50.72	52.71	85.34	63.00	89.13	80.78	83.67
Zn	1.15	2.62	165ppm	0.31	0.24	0.16	0.32	-----
Ag	4 ppm	6 ppm	10 ppm	3 ppm	-----	-----	-----	-----
In	25 ppm	33 ppm	45 ppm	21 ppm	7 ppm	15 ppm	50 ppm	66 ppm
Sn	1.89	2.12	1.11	1.11	1.44	0.83	1.72	3.02
Pb	6.11	35.52	23.51	10.37	15.79	7.01	13.26	6.25

high temperature, and many sophisticated extraction processes, which were not available at that time. However, the copper coins have the least value compared to the golden and silver coins, which explains why such variations in the concentrations of all constituents were both tolerable and acceptable.

Table 1: Information about the 18 coins concerning: coin symbol in the present work, city and Jund (county) of issue, mass and diameter.

Coin Symbol	City of Issue	Jund (County)	Mass (gram)	Diameter (mm)
D1	Amman	Dimashaq	1.75	16
D2	Damascus	Dimashaq	1.84	17
D3	Damascus	Dimashaq	2.22	15
D4	Amman	Dimashaq	2.55	17
D5	Amman	Dimashaq	2.67	17
D6	Damasucs	Dimashaq	2.26	18
D7	Damasucs	Dimashaq	1.77	17
D8	Damasucs	Dimashaq	2.15	17
A1	Tabariyah	Al-Urdunn	3.14	22
A2	Tabariyah	Al-Urdunn	3.67	17
A3	Al-Urdunn	Al-Urdunn	2.15	16
A4	Al-Urdunn	Al-Urdunn	5.54	22
F1	Ar-Ramlah	Filastin	3.43	17
F2	Ludd	Filastin	4.25	20
H1	Hims	Hims	2.09	13
H2	Hims	Hims	1.63	15
Q1	Qinnasrin	Qinnasrin	3.86	19
Q2	Aleppo	Qinnasrin	4.34	16

Table 2 shows that the coins: D4, D6, D7 and D8 of Jund Dimashaq are HQC, the coins: D1 and D5 are MQC and the coins: D2 and D3 are LQC. Likewise, table 3 shows that the coins: A1 and A4 of Jund Al-Urdunn are HQC, the coins : A2 and A3 of Jund Al-Urdunn and Q2 of Jund Qinnasrin are MQC, and the coins : F1 and F2 of Jund Filastin, H1 and H2 of Jund Hims, and Q1 of Jund Qinnasrin are LQC. Therefore, the best quality copper coins were made in the Junds of Dimashaq and Al-Urdunn and the lowest quality copper coins were made in the Junds of Filastin and Hims. This can be understood on light of the fact that Jund Dimashaq was at the center of the Umayyad Empire, with Dimashaq city being the capital of the empire, and Jund Al-Urdunn is located nearby Jund Dimashaq, see Fig1. Thus, the mints that issued the copper coins were of the best quality and more advanced ones. Moreover, many of those mints were under strict control of the central government beside the control of the local Jund authorities, so that it always makes the coins that had the best quality.

The variations in the concentrations of various major, minor and trace constituents in the coins were significant and did not follow clear patterns. This indicates that various mints at different issuing cities fabricated the copper coins by following different techniques, and using various types of raw materials containing copper as their major element. The changes in the type of elements, and in their concentrations indicate that the copper raw materials, were brought from different sources. The significant changes in the concentrations of major and minor elements, implies that very poor quality control practices, or none of such practices were followed in the making of the copper coins in the mints far away from the center of the empire:

The significant variations, in the concentrations of the constituents of the coins, and the poor quality control in the fabrication of the coins, can also be attributed to the fact that the process of coin making at the Great Islamic Empire was in its early stages. The Great Umayyad Caliph Abd al-Malik bin Marwan has initiated this process, and introduced the first Arabic-Islamic coinage, in the year 77H (697AD), to replace the modified Byzantine and Sassanian coins, that had been used until then(15). Another reason for the poor making of this coinage is that the smelting of copper raw materials requires

(15) "History of the Ancient Middle East", Grolier Multimedia Encyclopedia, Grolier Electronic Publishing, Inc., U.S.A. (1993).

curves to relate the intensity of X-ray photons at a specific tube current with elemental concentration. From the quantitative XRF analysis of the coins, the concentrations of various constituents present in these samples were determined.

Table 2 gives the constituents of the eitht coins belonging to Jund Dimashaq, and table 3 gives the constituents of the remaining ten coins, belonging to the Junds of Al-Urdunn, Filastin, Hims and Qinnasrin. For convenience, we shall call the elements which have concentrations of more than 1% by weight in this paper as major elements, elements of concentrations between 0.1% and 1% as minor elements, and elements of concentrations less than 0.1% as trace elements. As shown in tables 2 and 3, the major elements the coins are: Cu, Pb, Si, Ca and Sn. The minor elements are: P, S, K, Fe and Zn, and the trace elements are: Ti, V, Cr, Mn, Co, Ni, Ag and In. However, this classification of the elements is not strict, since some of the major elements, like Al and Si, are minor in some of the coins; and some minor elements, like P and Fe are major in some of the coins.

3.3 Discussion

As shown in tables 2 and 3, the coins were found to have compositions ranging from about 42.23% to 89.13% by weight Cu, 2.54% to 35.52% Pb, 0.79% to 25.82% Si, 0.22% to 11.16% Al, 0.53% to 10.22% Ca and 0.50% to 3.02% Sn. The addition of some major elements like Pb, Si, Al and Sn to copper produces types of copper alloys which have better mechanical properties. This is important in the fabrication of the coins and in making them more resistant to corrosion and erosion. As for the minor and trace elements in the coins, the variations in their concentrations may be attributed to the variation in the origins of the raw materials used in making the coins.

It is appropriate to classify the coins into three categories: High-, Medium- and Low Quality Coins based on the concentration of Cu in their composition. High Quality Coins (HQC) have a concentration of Cu by weight of 80% or more, Medium Quality Coins (MQC) have a concentration of Cu which is more than 60% and less than 80%, and Low Quality Coins (LQC) have a concentration of Cu which is less than 60%. Tables 2 and 3 show that the coin D6 of Jund Dimashaq has the best quality, where the concentration of Cu in this coin is 89.13% by wight. The tables also show that the coin Q1 of Jund Qinnasrin has the lowest quality, where the concentration of Cu in this coin is 42.23% by weight.

copper coin (fils)[13,14]. Obviously, the dinar is the most valuable, and the fils is the least.

Arabic inscriptions from the Quran-the holy book of Islam-decorated the two sides of the coins. For convenience, these two sides are named as obverse and reverse sides in this study. All of the eighteen coins have the Arabic statement "لا إله إلا الله وحده" on their obverse side, which means, "There is No God but Allah Alone". Likewise, the eighteen coins have the Arabic statement "محمد رسول الله" on their reverse side, which means "Mohammed is the Messenger of Allah". These statements are much shorter than the similar decoration statements written on the silver coins (dirhams) of the same period(2). The reason for this is that the size of the copper coins is much smaller than that of the silver coins.

In addition the Arabic inscriptions on the coins, there were some geometrical ornaments and drawings of plants and/or animals on the obverse side of the coins. An image of a flower or a drawing of a six point's star decorated the coins of Jund Dimashaq. An image of a palm tree appeared on the coins of Jund Al-Urdunn. An eight point's star decorated the coins of Junds Filastin and Qinnasrin. Lastly, an image of Jarbou (an animal) decorated the coins Jund Hims. Fig.2 shows a photograph of the obverse and reverse sides of atypical Jund's coin.

3.2 Constituents of the Coins

Fig. 3 Shows a representative XRF spectrum for one of the coins- D1 of Jund Dimashaq. The spectrum show the characteristic K-and L-lines of various elements present in the coin sample. The XpertEase Software package was used for the acquisition of the XRF spectra as well as for qualitative and quantitative analysis of the coin samples(10). After acquiring the XRF spectrum for a coin sample, a qualitative analysis was performed to identify the constituents of the sample. Then a method was tailored using the General and Very Heavy fixed conditions and the acquired spectrum to evaluate the composition of the sample. XpertEase implements the Fundamental Parameter Method with a similar standard for the computation of concentrations for various constituents in the samples. It uses a multielement standard for energy calibration and a pure titanium standard- 99.99%- as well as a set of data libraries for the profiles of k- and L-lines and concentration sensitivity

(13) N. Goussos and K. Tarawneh, "Coinage of the Ancient and Islamic World", Aquamedia Press, Amman, Jordan (1991) p.47.

(14) Michael Mitchiner, "The World of Islam", London (1977) p.55.

condition of the system are selected through the software package XpertEase[11] running under Windows 3.11 on and IBM 486DX-2 66 MHz computer. XpertEase also sets the tube current and voltage and controls the acquisition of X-ray spectra on-line.

The samples were irradiated in two different fixed conditions under vacuum to achieve the best sensitivity and to cover all elements in the periodic table between Na and U. These conditions are named: General and Very Heavy Elements. The General fixed codition uses a tube voltage of 25 kV (at 10 mA) without a primary beam filter to excite all the elements from sodium to uranium in the sample. A primary beam aperture of 4.5 mm is used to restrict the forward power. So that the count rate remains within the normal measurement range. The characteristic X-ray K-lines are used to identify elements between Na and Mo, while the characteristic L-lines are used for the identification of heavier elements from Rh to U.

The Very Heavy Elements fixed condition uses a tube voltage of 50 kV (at 280 mA) with a thick copper filter. This method is suitable for major to trace concentration levels of the elements Nb to Nd (k-lines) and Th to U (L-lines). K line peaks resolve well in this region showing both K alpha 1 & 2 and K 2. The two methods complemented one another in the comprehensive analysis of the coin samples.

3 Results and Discussion

3.1 Description of the Coins

The place of issue of each coin, its diameter and mass are given in table 1. As shown in the table, eight coins were issued in Jund Dimashaq in tow cities Damascus and Amman. Four coins were issued in Jund Al-Urdunn and in the city of Tabariyah. Tow coins were issued in Jund Filastin in the cities of Ar-Ramlah and Ludd. Tow coins were issued in Jund Hims in the city of Hims itself. Finally, two coins were issued in Jund Qinnasrin in the cities of Qinnasrin and Aleppo. Figure 1 shows the locations of the aforementioned cities as well as the boundaries of these five Junds[12]. It worths mentioning that the values of these copper coins are equal, regardless of their mass and diameter. There were three types of coins in that period with three different values: the golden coin (dinar), the silver coin (dirham) and the

(10) & (11) Oxford Instruments Industrial Analysis Group, 19/20 Nuffield Way, Abingdon, Oxon, OX14 1TX, England. Fax: (01235) 535416.

(12) Al-Baladhuri, "Kitab Futuh Al-Buldan", M. de Goeje, editor, Leiden (1866) p131.

Empire (GIE). Five Junds (counties) of the Umayyad state issued these coins, namely: Al-Urdunn (Jordan), Filastin (Palestine), Dimashaq (Damascus), Hims and Qinnasrin. As shown in Fig. 1, the boundaries of these Junds extended over the territories located in the eastern cost of the Mediterranean and covered parts of the states of Syria, Jordan, Palestine and Lebanon. This region is usually referred to in the literature as Bilad Ash-Sham. During the Umayyad period, Damascus was the capital of the state where the Caliph resided and ruled the empire. The remaining four Junds were the closest to the capital, Hims and Qinnasrin from the north, and Al-Urdunn and Filastin from the South(9). The study of Umayyad coinage is of great importance because the Umayyad State was the first state to issue its own currency in the Great Islamic Empire. More historical details about the five Junds and the Umayyad coinage will be given later in the discussion section.

XRF is a well-established technique for nondestructive analysis of materials. It has the advantages of multielemental analysis, Na to U, in one run with precision of better than 5%. Essentially, the primary beam from an X-ray tube or a radioisotope excites the characteristic X-rays of each elements present in the sample. Processing the complete spectrum of the sample to measure the energies of these characteristic X-rays identifies the elements and then the intensities of these energies indicate their concentration.

2 Experimental

2.1 Sample preparation

The eighteen copper coins were cleaned by water and soap using a steel brush and then dried by a clean piece of cloth. After that, soft cotton and acetone was used to clean the coins from any residues that may be left on their surfaces.

2.2 Sample irradiation

The Oxford ED2000 energy dispersive X-ray fluorescence spectromater(10), at the Physics Department of Yarmouk University - Jordan, was used to irradiate the coins and to collect their characteristic X- ray spectra. This system uses a rhodium target and a set of aluminum and copper filters and apertures with a high voltage power supply of up to 50 kV. It operates under more than 20 preset fixed settings for the filters and/or apertures and for the high voltage of the X-ray tube. The proper filter and/or aperture for each fixed

(9) Alan G. Walmsley, "The Administrative Structure and Urban Geography of the Jund of Filastin = and the Jund of Al-Urdunn". University of Sidney (Australia), (1987) p1.

judgments on the strength and order of the state that issued the coin[1].

Different workers have used various nondestructive techniques for investigating such precious ancient coins. X-Ray Fluorescence (XRF) has been used to study dirhams (silver coins) belonging to the Abbasid period 775-833 AD of the Great Islamic Empire[2]. Particle Induced X-Ray Emission (PIXE) has been used to study dirhams from the Umayyad period 702-748 AD of the same empire[3]. PIXE also was used for the elemental analysis of ancient Chinese artifacts belonging to the period 618-1679 AD[4]. Moreover, External-Beam PIXE was also used for the analysis of Chinese Coins belonging to the period 1644-1911 AD[5]. Instrumental Neutron Activation Analysis (INAA) has been used for the analysis of ancients punchmark coins ranging between 8TH century B. C. to 2nd century B.C.[6]. Concentration levels of various elements, viz. Cu, Ag, Sn, Sb, Au and As have been estimated in different ancient Indian coins using Cf-252 neutron source by Instrumental Neutron Activation Analysis (INAA)[7]. The metal contents of several ancient uncleaned Portuguese gold coins, with compositions ranging from about 35% to 99% Au, were determined and compared by using two techniques: EDXRF and PIXE[8].

In the present work, XRF is used to study eighteen ancient copper coins belonging the Umayyad period 41-132 H (661-748 AD) of the Great Islamic

(1) Guerra-MF, "Elemental Analysis of Coins and Glass", Applied Radiation and Isotopes, Vol. 46, (1995) 583-588.

(2) M. M. Al-Kofahi, K. F. Al-Tarawenh and J. M. Shobaki, "Analysis of Abbasi Dirhams Using XRF Technique", Submitted for publication in X-Ray Spectrometry.

(3) M. M. Al-Kofahi, S. Sari and W. A. Sawafteh, "A Study of Umayyad Dirhams Using PIXE Technique", Dirasat, Vol. 19, (1992) 33-55.

(4) E. K. Lin, C. W. Wang, Y. C. Yu, W. C. Cheng, C. H. Chang, Y. C. Yang and C. Y. Chang, "Application of PIXE For Elemental Analysis of Ancient Chinese Artifacts", Nuclear Instruments & Methods In Physics Research-Section B", Vol. 99, (1995) 394-398.

(5) E. K Lin, C. T. Shen, Y. C. Yu, C. W. Wang, C. H. Hsieh and S.C. Wu, "External-Beam PIXE Analysis of Ancient Chinese Coins", Nuclear = = Instruments & Methods In Physics Research-Section B", Vol. 85 (1994) 869-873.

(6) N. S. Rajurkar, A. K. Jha and R. P. Bhadane, "Instrumental Neutron Activation Analysis Of Some Ancient Punchmark Coins From India", Journal Of Radioanalytical and Nuclear Chemistry Letters", Vol. 186, (1994) 393-400.

(7) N. S. Rajurkar and R. P. Bhadane, Multielemental instrumental neutron activation analysis of some ancient Indian coins", Applied Radiation and Isotopes. Vol. 44, (1993) 781-782.

(8) M. F. Araujo and J. M. P. Cabral, "Comparison of EDXRF and PIXE in the analysis of ancient old coins", International Conference On Particle Induced X-ray Emission (PIXE) and Its Analytical Applications, Tokyo (Japan). 20-24 Jul 1992.

Age, Vol. 12, Part 1, 9 – 21 (2002)

ANALYSIS OF JUND COINS USING XRF TECHNIQUES

Dr. K. F. Al-Tarawneh, M. M. Al-Kofahi, J. M. Shobaki

Abstract:

Eighteen ancient copper coins, from the Umayyad period 41-132 Hijri (661-748 AD) of the Great Islamic Empire, were analyzed using X-Ray Fluorescence technique. The coins were issued in five Junds (counties) of the empire: Al-Urdunn, Filastin, Dimashaq, Hims and Qinnasrin. The coins were found to have compositions ranging from about 42% to 89% by weight Cu. In addition to Cu, the main element in the coins, the major constituents of the coins, with concentrations of 1% or more, were Al, Si, Sn and Pb. The minor constituents in the coins, with concentrations between 0.1% and 1% were S, P, K, Ca, Fe and Zn. The trace elements in the coins, with concentrations of less than 0.1%, were Ti, V, Cr, Mn, Co, Ni, Ag and In. Significant variations in the concentrations of the major, minor and trace constituents of the coins were observed. These variations were correlated to the historical period in which the coins were issued.

INTRODUCTION

Analysis of precious ancient coins by nondestructive techniques has become a powerful tool toward a better understanding of old civilizations. In particular, it enabled historians to draw sounder conclusion about the points of strength and weakness of these civilizations. Furthermore, the precise determination of the constituents of such ancient coins is essential in order to check on the quality control practices adhered to during the making of such coins in each period. Moreover, many historical questions can be solved by the analysis of ancient coins. For instance, knowledge of such quality control practices in the fabrication of coins in indispensable for historians in their

Age, Vol. 12, Part 1, 1 – 21 Eng., 1 - 162 Arb. (2002)

Contents

English Section

القســـم العربـــي

All MSS should be addressed to :

- Mars Publishing House,
P.O. Box : 10720. Riyadh 11443.
Saudi Arabia.
The Arabic Publishing & Distribution House Lts.
49 Goldhawk Road
London W12 8 QP
England

ANNUAL SUBSCRIPTION RATE :

- Saudi Arabia	S.R. 100
- All Arab Countries	U.S. $ 35
- All European Countries	U.S. $ 40
- U.S.A. & Canada	U.S. $ 45
- Australia & South Asia	U.S. $ 50

P.O. Box 10720 Riyadh 11443 , Tel 4647531 – 4658523 , Fax 4657939 .
Email : marspub1@zajil.net

Ages

A Semal - annual Journal of Historical, Archaeological and Civilizational Studies

VOLUME 12
PART 1
JULY 2002
RABI' II 1422

Published by : Mars Publishing House London

العصور

مجلة علمية محكمة ، نصف سنوية ، تعنى بنشر البحوث التاريخية والآثارية والحضارية

المجلد الثاني عشر

الجزء الثاني

يوليو ٢٠٠٢م

ربيع الثاني ١٤٢٣هـ

تصدر عن : دار المريخ للنشر - لندن

بسم الله الرحمن الرحيم

العصور

موقع المجلة على الإنترنت
http://alosour.netfirms.com

البريد الإلكتروني للمجلة
al_Osour@hotmail.com

تكون جميع المراسلات والاشتراكات لجميع دول العالم على العنوان التالي :

- دار المريخ للنشر - ص . ب ١٠٧٢٠ الرياض : ١١٤٤٣ - المملكة العربية السعودية.
- دار المريخ للنشر - ٤ ش الفرات - مدينة المهندسين - جمهورية مصر العربية.
- هاتف ٣٣٧٦٥٧٩ فاكس ٧٦٠٩٤٥٧.
- الدار العربية للنشر والتوزيع - ٤٩ جولد هوك رود، لندن - W128QP المملكة المتحدة.

الاشتراكات السنوية :

- المملكة العربية السعودية (١٠٠) ريال سعودي.
- الدول العربية (٣٥) دولارا أمريكيا أو ما يعادلها.
- الدول الأوروبية (٤٠) دولارا أمريكيا .
- أمريكا وكندا (٤٥) دولارا أمريكيا .
- استراليا وجنوب شرق آسيا (٥٠) دولارا أمريكيا .

المستشارون

العصور، المجلد الثاني عشر ، الجزء الثاني، ١- ١٥٩ القسم العربي ، (٢٠٠٢م).

المحتويــات

القسم العربـي

العصور، المجلد الثاني عشر، الجزء الثاني، ٧ – ٢١ (٢٠٠٢م).

نقوش سبئية جديدة في ذكر المرض

د. سعيد بن فايز إبراهيم السعيد

ملخص البحث :

لقد حبا الله – عز وجل – الإنسان بالقوة والعزم، ولكنَّ المرض من أبرز العوامل التي اعترضت إرادته، فظل المرض – على الدوام – القاهرَ لجبروته، والكابح لطموحه. ومن هنا فلا غرابة أن نجده يشغل حيزاً واسعاً من تفكير الإنسان، بغية قهره والسيطرة عليه. ومجموعةُ النقوش التي يتناولها البحث شاهدٌ على مُعاناة الإنسان العربي القديم من المرض وصراعه ضده، وفيها إيحاءات يُستَدلُّ من خلالها على ما أحدثه من خوف ورعب للإنسان في مراحل حياته المتعددة. ومن خلال هذه النقوش عَبَّر عدد من أبناء جنوب جزيرة العرب – رجالاً ونساءً – عن شكرهم لمعبودهم الوثني (إل مقه) على ما منَّ به عليهم من نعمة الشفاء من مرض ألمّ بهم، فجاء تعبيرهم عن فرحتهم بالخلاص منه من خلال قيامهم بتقديم قرابين تمثلت في مجموعة من التماثيل قدمت له في معبده الرئيس في مدينة مارب.

على الرغم من أن مجموعة النقوش العربية الجنوبيةَ القديمة تخلو – حتى الآن – من نصوص طبية، إلا أن ذكر المرض اتخذ حيزاً لا بأس به في مدونة نقوش المسند، وتعددت مسمياته في متون عدد من النقوش التي يندرج موضوعها ضمن إطار النقوش الدينية، وعلى هدي رواية هذه النقوش يمكن تقسيم المرض إلى نوعين:

- **مرض عام**[1]: وهو ما ينتشر وباؤه في منطقة أو مجتمع ما، فيفتك بالناس، ويتناقلونه عن طريق العدوى، ولا يسلم منه إلا ما شاء الله عز وجل.
- **مرض خاص**: وهو ما يصيب شخصاً بعينه دون سواه من أبناء مجتمعه.

أما تركّز ذكر المرض ومسمياته وأسبابه في نقوش المسند ضمن ما يصنف تحت إطار النقوش الدينية فلا ريب في أن السبب يرجع إلى اعتقاد سكان جنوب الجزيرة العربية – آنذاك- بأن المعبود هو من بيده إنزال المرض على العابد. ويستدل من رواية

(١) انظر – على سبيل المثال – النقش السبئي (Ja 670, s. Jamme, A., Sabaean Inscriptions from (Mahram Bilgîs (Mârib), Baltimore 1962 = الذي يذكر انتشار وباء عام في (ظفار) خلال فترة حكم (ثأران يُهَنعِم) وابنه (مَلك كَرِب) ملكي سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت.

النقوش السبئية – المعروفة حتى الآن – أن أحد مسببات الإصابة بالمرض في اعتقادهم يكمن في توتر العلاقة بين العابد والمعبود، إذ إن قيامَ العابد باقتراف ذنب تجاه معبوده مسوّغٌ كافٍ للمعبود بأن يُنْزِلَ المرض على عابده عقاباً له على ما ارتكبه من خطأ تجاهه، ففي أحد النقوش السبئية[٢] الذي يتحدث عن قيام شخص بارتكاب خطأ في معبد الإله (إل مقه) يرد ما نصه:

و ن ق م| ع ب د هـ و| ث وب إ ل| ب م ر ض| أ (ض) ر س هـ و| و ث ن هـ و|

المعنى: "وعاقَب عَبْدَه (المدعو) ثَوْب إل بمَرَضٍ أضراسه وثناياه". فهذا الشاهد ينبئ أن صاحب النقش (ثوب إل) حلت عليه عقوبة المعبود (إل مقه) جراء ما اقترفه من خطأ في حق مَعْبُوده ومَعْبَده، وأنزل به مرضاً أصاب أسنانه.

ويذكر نقش سبئي آخر[٣] حول الموضوع نفسه ما نصه:

و ت س ن | ن ك ر| ع ب د هـ و | أ ج ر م| س ث ت | أ و ر خ م| م ر ض م | ف ش أ م | ذ أ ل | م ن | ش ع ر| ك م هـ ن | هـ أ | ح ل ظ هـ و

المعنى: "وسَنَّ (أي إل مقه) عقوبةً (على) عَبْده أَجْرم (تمثلت بـ) ستة أشهر من مرض تفشى (في جسمه)، لا أحد يعرف ما هو (سبب) ألمه". ومضمون هذا الشاهد ينبئ أن ذلك المرض الذي استعصى عليهم تشخيصُه ومعرفةُ أسبابه، كان من تدبير المعبود على عابده ومعاقبة له جراء ما اقترفه في حق مَعْبَده.

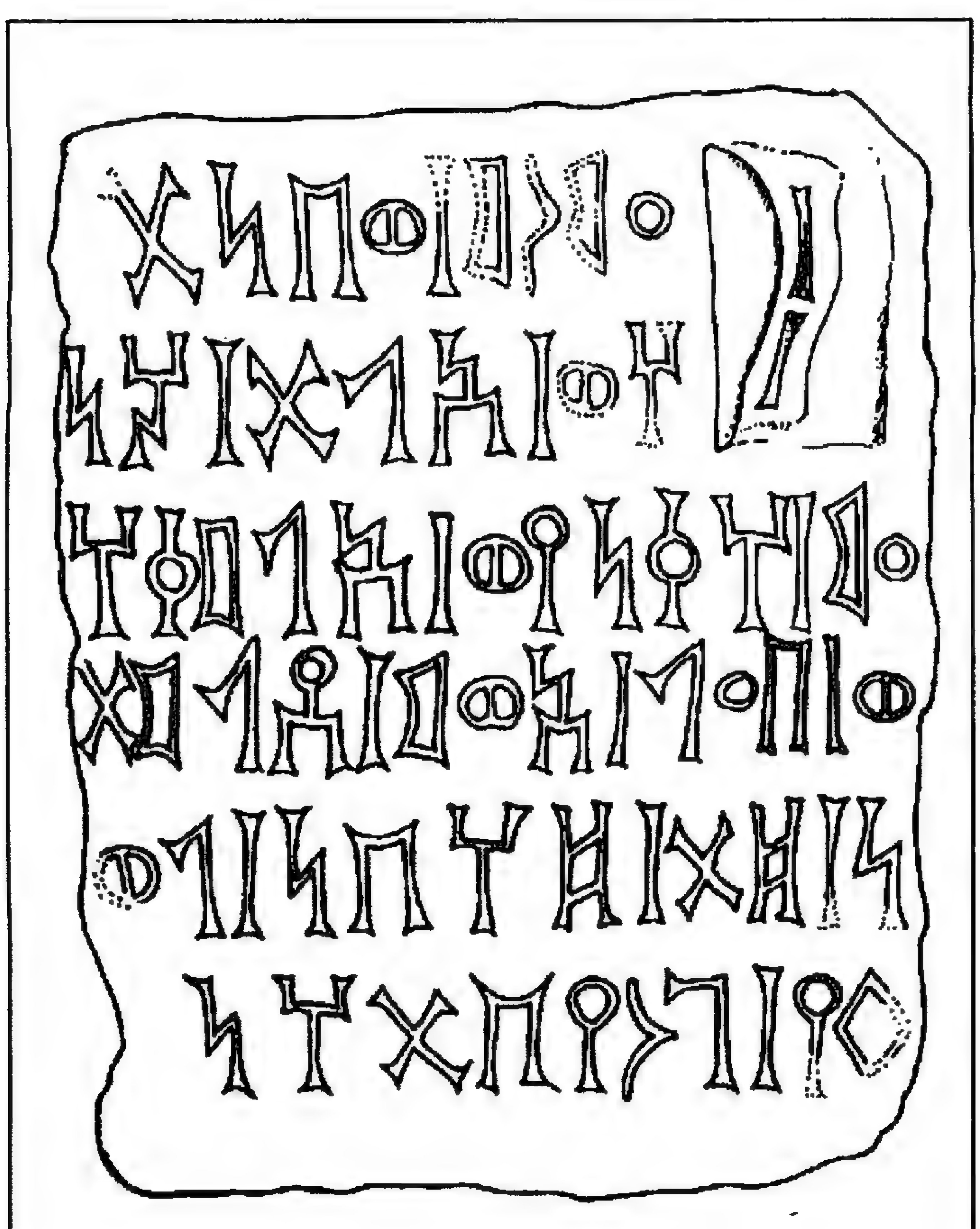
أما الشفاء من المرض فهو أيضاً – حسب رواية النقوش – من المعبود، فهو المُعافي من الشكوى والطبيب المداوي من الداء. والنقوش موضوع الدراسة تشهد بذلك، فمن خلالها وثّق أشخاصٌ أصيبوا بالمرض إقدامَهم على تقديم قرابين لكبير معبودات مملكة سبأ (إل مقه)، وذلك شكراً وعرفاناً منهم على ما منّ به عليهم من نعمة الشفاء من المرض الذي ألمَّ بهم. ومن المرجح أن المسوّغَ لقيامهم بهذه الأفعال يرجع إلى حرصهم على الوفاء بنذور قطعوها على أنفسهم، إنْ هم تعافوا مما حلّ بهم، فسيقومون بالوفاء بنذورهم تجاه معبودهم، وحينما تحققَ لهم ذلك دفعوا ما وجب عليهم من نذور مقابل عونه لهم بالخلاص من المرض وشفائه لهم منه.

---

(٢) Ja 702/10-13, s. Jamme, Sabaean Inscriptions, p. 192.

(٣) Ja 720/11-14, s. Jamme, Sabaean Inscriptions, p. 203.





نقش رقم (١)

النقش رقم ١ :

المكان: معبد أوام – مارب، مكان الحفظ: جامعة الملك سعود – قسم الآثار والمتاحف.

الزمان: العصر السبئي الوسيط.

النقش بحروف اللغة العربية الفصحى:

١- ع م ر م | و ب ن ت
٢- هـ و | أ ل ت | خ ن
٣- ع م | هـ ق ن ي و | أ ل م ق هـ
٤- و | ب ع ل | أ و م | ص ل م ت
٥- ن | ذ ت | ذ هـ ب ن | ل و
٦- ف ي | ج ر ي ب ت هـ ن

نقل المعنى إلى اللغة العربية الفصحى:

١- عَمّ رَام وابنتها
٢- (اللتان ينتميان) إلى عائلة خَنْعُم
٣- قَدَّمتَا للإله إل مقه
٤- بعل (صاحب معبد) أوام الصنمين (صنمين مؤنثين)
٥- البرونزيين (وذلك) لسلامة
٦- أجسادهن

الإيضاح:

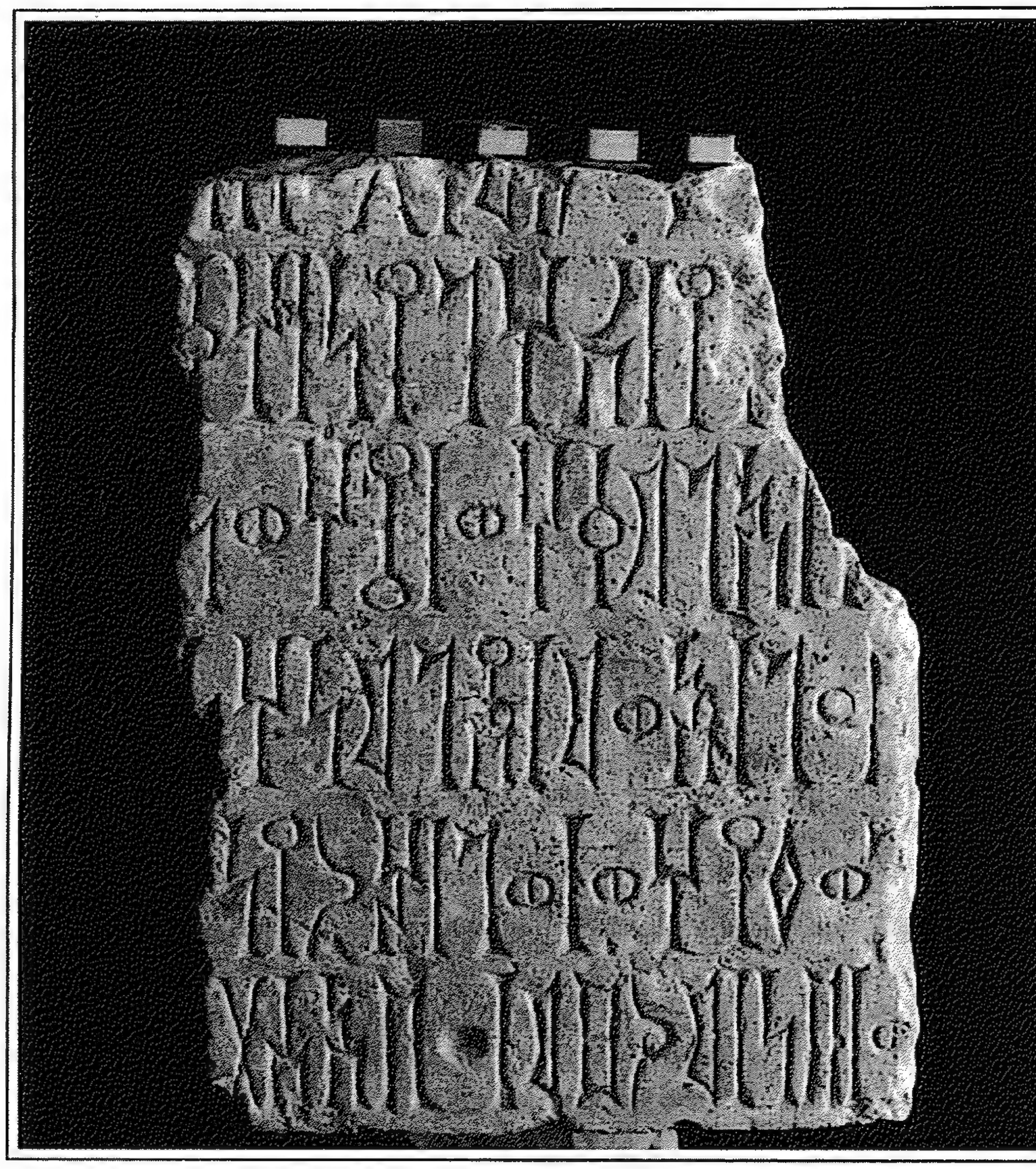
ع م ر م: هي صاحبة النقش، واسمها مركب على صيغ الجملة الفعلية من (ع م) "عَـمّ"، وهو لفظ القرابة وصفة الإله، ثم (رم)، صيغة الماضي من الفعل ر و م / ر ي م، أي "علا، وسما"، وعليه فالاسم يفيد معنى عَمّ علا وسما"، وهذا الاسم تكرر في النقوش السبئية[٤] والمعينية[٥] على صيغة الجملة الاسمية بهيئة ع م ر ي م (عَمّ رِيام)، أي "عَـمّ عـالٍ وسامٍ"، أما (ع م ر م) الذي تكرر اسم علم لرجل في النقوش السبئية والقتبانية والحضرمية[٦] فمن الجائز أن تكون دلالته مشابهة لاسم صاحبة النقش هذا، وليس من المستبعد أن حرف الميم في آخره عوضاً عن التنوين في العربية الفصحى، وبذلك يُقرأ الاسم عمْرُم، أو عامرُم قياساً على عمر وعامر في وقتنا المعاصر.

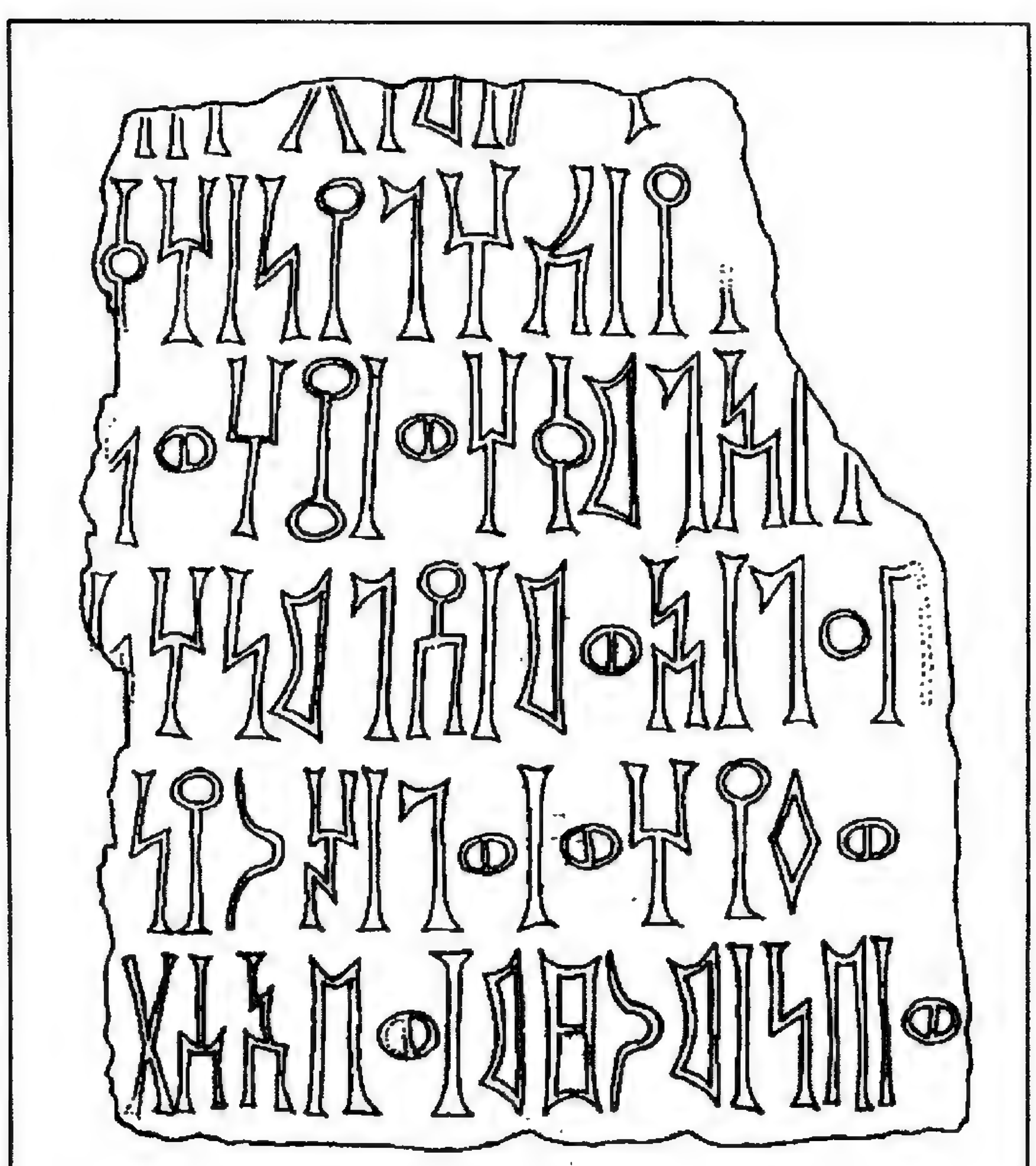
و ب ن ت هـ و: الواو في أوله حرف عطف – **ب ن ت:** اسم مفرد مؤنث حذفت منه همزة الوصل كما هو الحال في عربية

(٤) Tairan, S.A., Die Personennamen in den altsabäischen Inschriften, Ein Beitrag zur altsüdarabischen Namengebung (Texte und Studien zur Orientalistik, Band 8), Hildesheim 1992, p. 164.

(٥) Al-Said, S., Die Personennamen in den minäischen Inschriften, Eine etymologische und lexikalische Studie im Breich der semitischen Sprachen, Akademie der = Wissenschaften und der Literatur-Mainz, Veröffentlichungen der Orientalischen Kommission, Band 41, Wiesbaden, 1995, p. 141.

(٦) Hayajneh, H., Die Personennamen in den qatabanischen Inschriften, Lexikalische und grammatische Analyse im Kontext der semitischen Anthroponomastik, (Texte und Studien zur Orientalistik 10), Hildesheim 1998, p 199.





نقش رقم (٢)

الفصـــحى حين يقع بين علمين، ويفيد معنى "بِـــنْت، مؤنث ابنْ"، وحرفا الهاء والواو في آخره ضمير الغائب المؤنث المفرد في لهجة نقوش العصر السبئي الوسيط(٧).

أ ل ت: جمـــع ذت "ذات"، وهـــو اســـم موصـــول مؤنـــث بصيغة الجمع، ويستخدم كـــأداة نســـب للعائـــلة والعشيرة والقبيلة في لهجات نقوش خط المسند.

خ ن ع م: عائـــلة صاحبة النقش وابنتها من الجائز قراءتها خُناعِم، وذلك قياساً على الأسماء العربية خُنَاعَة(٨)، وخُنَيْعَة(٩).

ج ر ي ب ت هــ ن: جمع تكسير مفرده: ج ر ب، أي "جســـم، وبـــدن"(١٠)، والهـــاء والـــنون فـــي آخره ضمير الغائب المتصل لجمع الإناث.

النقش رقم ٢ :

المكـــان: معبد أوام – مارب، مكان الحفظ: جامعة الملك سعود – قسم الآثار والمتاحف.

الزمان: العصر السبئي الوسيط.

النقش بحروف اللغة العربية الفصحى:

١- ... م | ت . ب

٢- ... ب]ن ي | ك هــ ل ي ن | هــ ق [ن]

٣- يْ | أ ل م ق هــ | ث هــ و ن|

٤- ب ع ل | أ و م | ص ل م ن هــ ن |

٥- ل و ف ي هــ و | و ل | خ ر ي ن [هــ]

٦- و | ب ن | م ر ض م | و ب أ س ت

نقل المعنى:

١- فلان بن فلان

٢- من قبيلة كُهاليان (الكُهالي) قدّم

٣- (للمعبود) إل مقه ثهوان

٤- بعل (صاحب معبد) أوام (هذين) الصنمين

٥- (وذلك) لسلامته ولنجاته

٦- من (كل) مرضٍ وبأساء

الإيضاح:

لم يكن بالمستطاع التعرف على صاحب النقش، نظراً لتحطم الجزء العلوي منه، ولكنه – على أي حال – ينتمي إلى قبيلة كُهاليان، وهي قبيلة الكُهالي التي تستوطن – في عصرنا الحاضر– سفح جبل كُهال

---

(٧) Beeston, A. F.L., Sabaic Grammer, Journal of Semitic Studies Monograph No. 6, Manchester 1984, p. 39.

(٨) الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القـاموس، ج ٢٠، الكويـت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٥٣٢.

(٩) الهمداني، أبو محمد الحسن، الإكليل، ج ٢، تحقيق: محمد الأكوع الحوالي، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ١٤٣.

(١٠) Sabaic Dictionary = Beeston, A.F.L; Ghul, M.A. - Müller, W.W. - Ryckmans, J., Sabaic Dictionary (English-French-Arabic), Louvain-la-Neuve, Beyrouth 1982, p. 50.





نقش رقم (٣)

بالقـرب من قضاء النادرة في لواء إب[١١]، واسـم هـذه القبيلـة في أصله منسوب إلى مصـنعة كُهـال الـتي يقول صاحب معجم البـلدان[١٢] إنها اتخذت اسمها من كُهال بن عدي. على أي حال الاسم كُهال، هكذا على وزن فُعال يفيد معنى "القوي، والشديد"، وذلك مـن قولهم في العربية الفصحى: إنه لشديد الكاهل، أي منيع الجانب؛ ومنه قولهم: فلان كـاهل بني فلان، أي مُعتمدهم في الملمات وسندهم في المهمات[١٣].

م ر ض: انظـر شـرح دلالة الاسم في المبحث أدناه.

النقش رقم ٣ :

المكـان: معبد أوام – مارب، مكان الحفظ: جامعة الملك سعود – قسم الآثار والمتاحف.

الزمان: العصر السبئي الوسيط.

النقش بحروف اللغة العربية الفصحى:

١- ح ي و م | ع ب د | ب ن | خ ذ و ت | هـ [ق ن]

٢- ي | أ ل م ق هـ ث هـ و ن ب ع ل أ و مْ | [ص]

٣- ل م ن هـ ن | ذ ذ هـ ب ن | ل ذ ت | هـ ع ن| أ لْ [م ق هـ]

٤- ث هـ و ن ب ع ل أ و م | ح ي و م | ع ب د | | ب ن | ح]

٥- ذ و ت | ب ن| ح ل ظ | ح ل ظ | . . .

٦- . . . | [أ ل م ق هـ ث] هـ و ن ب ع ل أ و م | . . .

نقل المعنى إلى اللغة العربية الفصحى:

١- حَيوم عَبْد (خادم) قبيلة حَذْوة قَدَّم

٢- (للمعبود) إل مقه ثهوان بعل (صاحب معبد) أوام

٣- الصنمين البرونزيين، لأن إل مقه

٤- ثهـوان بعل (معبد) أوام نَجَّى حَيوم عَبْد قبيلة

٥- حَذوة من أَلمِ أصابه ...

٦- ... إل مقه ثهوان بعل (معبد) أوام ...

الإيضاح:

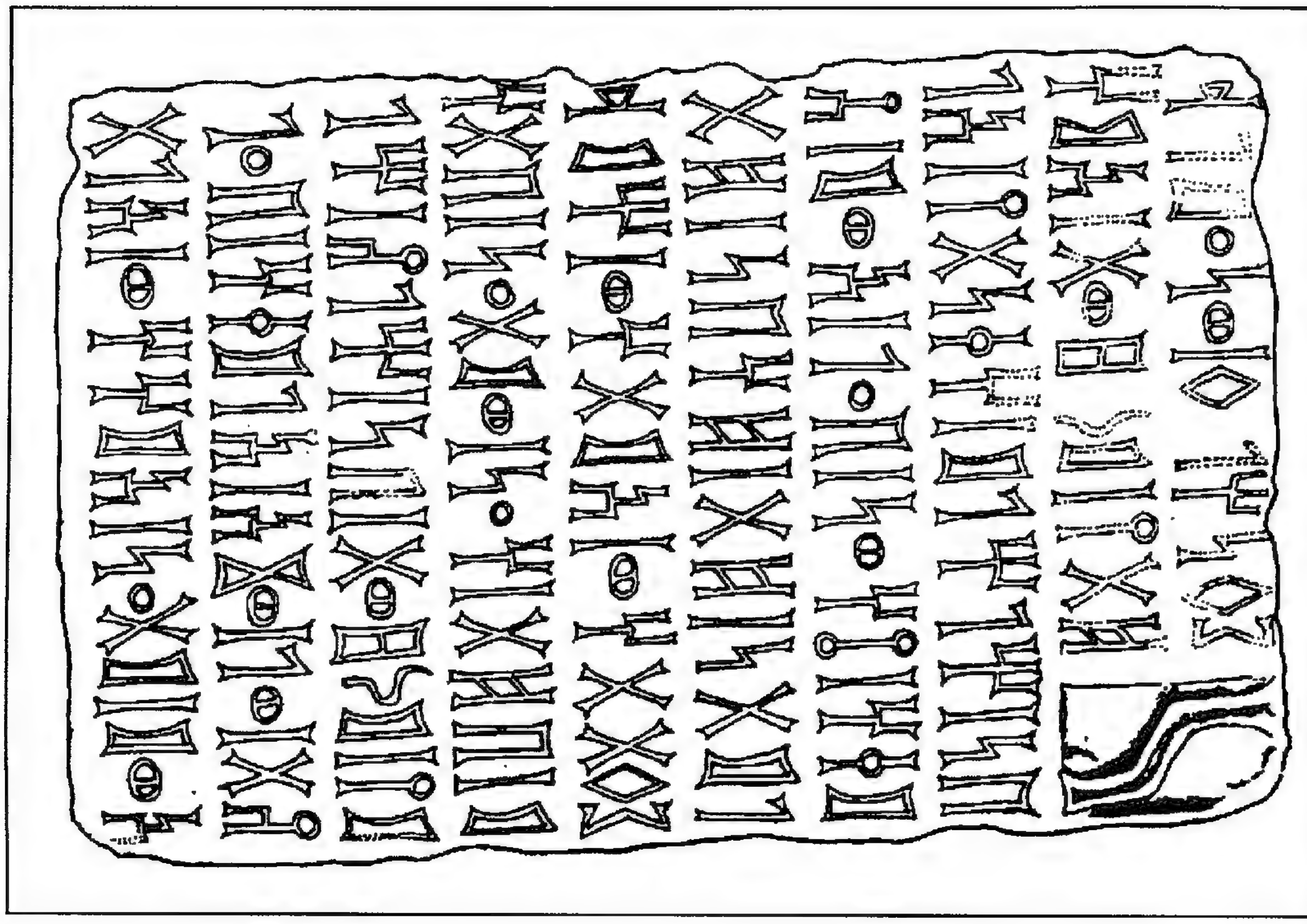
ح ي و م: اسم صاحب النقش معناه يفيد "حَـي، ضد ميت"، والميم في آخره عوضاً عـن التنوين في عربية الفصحى، وقد تكرر

---

(١١) الإرياني، مطهر، في تاريخ اليمن، نقوش مسندية وتعليقات، مركز الدراسات اليمني، صنعاء ١٩٩٠م، ص ٣١، حاشـية ١؛ Abdallah, Y.M., Die Personennamen in al- Hamdānī al-Iklīl und ihre Parallelen in den altsüarabischen Inschriften, Ein Beitrag zur jemenitischen Namengebung, Tübingen, 1975, p. 85.

(١٢) الحمـوي، ياقوت، معجم البلدان، تحقيق : فريد عبد العزيز الجندي، ج ٤، بيروت، ص ٥٦٤؛ الحجـري، محمد بن أحمد، مجموع بلدان اليمن وقبائـلها، تحقيـق : إسـماعيل الأكوع،صنعاء ١٩٩٦، ص ٦٧٣.

(١٣) ابـن مـنظور، أبـو الفضل جمال الدين، لسان العرب، بيروت ١٩٩٢م، ج ١١، ص ٦٠٢.





نقش رقم (٤)

ذكـــره اسم علم لشخص في النقوش العربية الجنوبية ما عدا الحضرمية[١٤].

ح ذ و ت: من المرجح ضبط الاسم على صــيغة فَعْلـــه، أي حَذْوَة، وهي قبيلة عربية جــنوبية تكـــرر ذكرها في عدد من النقوش السبئية، وإليها ينتسب وهب أوام يؤذف الذي تبوأ منزلة مقتوي عند الملك السبئي إل شرح يحضب[١٥].

ح ل ظ: انظـــر شـــرح دلالـــة الاسم في المبحث أدناه.

النقش رقم ٤ :

المكـــان: معبد أوام – مارب، مكان الحفظ: جامعة الملك سعود – قسم الآثار والمتاحف.

الزمان: العصر السبئي الوسيط.

النقش بحروف اللغة العربية الفصحى:

١- شْ ف ن ح لْ ف | و ن ع م جْ د
٢- ذ ت ي | م ر ض و ت | أ م هــ
٣- ب ن| ح ل ح ل م| هــ ق ن ت ي| أ ل
٤- م ق هــ| ث هــ و ن| ب ع ل| أ و م| ص
٥- ل م ت ن | ذ ت | ذ هــ ب ن | ذ ت|
٦- ش ف ت ت هــ و| أ م ت هــ و| ح م د
٧- م| ب ذ ت| هــ ع ن| و م ت ع ن| ب ت هــ
٨- م ي| م ر ض و ت| ب ن| ح ل ظ| ح ل
٩- ظ ت| و ل| و ز أ| أ ل م ق هــ| ب ع ل
١٠- أ و م| م ت ع ن| أ م هــ هــ و| أ ل ت

نقل المعنى إلى اللغة العربية الفصحى:

١- شَفانى حِلف ونَعيْم جَدّ
٢- من عائلة مَرْضَوت إماء (خادمات)
٣- قبيلة حَلْحَــلُم قَدّمتا (للمعبود)
٤- إل مقه ثهوان بعل (صاحب معبد) أوام
٥- الصـــنمين (صنمين مؤنثين) البرونزيين اللذين
٦- نذرتهمـــا لـــــه أَمَــتَـــاه (أي: شفانى حلف، ونعيم جد)، وذلك حمداً
٧- لأنه نَجَّى وخــلَّص ابنتهما
٨- مَرْضَوت من أَلَــمٍ أصابها
٩- وليُديم إل مقه بعل (صاحب معبد)
١٠- أوام نجاة إمائه أولئك

الإيضاح:

ش ف ن ح ل ف: اسم علم لامرأة، يرد لأول مرة في النقوش العربية القديمة، وهو مركب على صيغة الجملة الفعلية من ثلاثة أجزاء: الأول الفعل الماضي (ش ف)، من الفعل ش و ف، أي "حمى، و رعى، ووقى" المثبت في لغة النقوش السبئية[١٦]، والثاني ضمير المتكلم المتصل (ني، نا)[١٧]، والثالث اسم معبود عربي جنوبي يرد بهذه الصيغة

---

(١٤) Al- Said, p. 97.
(١٥) الإرياني، في تاريخ اليمن، رقم: ١/٦٩.
(١٦) Sabaic Dictionary, p. 136
(١٧) بســـبب إهمال كتابة الحروف اللينة في قلم المسند يظل تحديد حال الضمير هل هو للمفرد أو للجمع غير ممكن.

للمرة الأولى، ومن المرجح أنه هو المعبود الوثني ح ل ف ن (هكذا بإثبات حرف النون في آخره) الذي تكرر في عدد من نقوش مدينة هرم[١٨]، وطرحت من آخره النون للاختصار وتخفيف النطق[١٩]. وعلى هدي ذلك فقراءة الاسم وتفسيره يتوقفان على حال الضمير، فإن كان الضمير للجمع فالاسم يجب أن يُقرأ: (شَفانا حِلْف)، أي " حمانا حِلْف"، وإن كان الضمير للمفرد فقراءة الاسم على هيئة (شَفَاني حِلْف) "حماني حِلْف" جائزة.

ن ع م ج د: اسم علم لامرأة تكرر بالصيغة نفسها في النقوش السبئية[٢٠] والقتبانية[٢١] ، وهو مركب على صيغة الجملة الاسمية من (ن ع م)، صيغة اسم الفاعل، بمعنى اسم المفعول على وزن فَعِيل، أي "نعيم، وسرور"، ثم اسم المعبود ج د "جَـدّ"، والجد هو "الحظ، ونقيض النحس"، وعليه فمن الجائز قراءة الاسم نَعِيم جَدّ، وتفسيره بمعنى (الإله) جَدّ (هو) نعيم وسرور".

ذ ت ي: اسم موصول للمؤنث المثنى، يستخدم في لغة النقوش للنسب إلى العائلة أو القبيلة.

م ر ض و ت: اسم عائلة صاحبتي النقش، يرد هنا لأول مرة في النقوش العربية القديمة، ومن المرجح قراءته مَرْضَوت، واشتقاقه من الفعل (ر ض و / ر ض ي) الذي يفيد معنى "رَضِي، خلاف سَخِط"[٢٢].

أ م هـ: أي "إماء"، وهي صيغة الجمع من أَمَة "نقيض حُرَّة"[٢٣].

ح ل ح ل م: حَلْحَلُم، قبيلة عربية جنوبية قديمة، تركز استيطانها في مدينة نشق (حالياً البيضاء في جوف اليمن)، وتنبئ النقوش

---

(١٨) Robin, Chr. Inventaire des inscriptions sudarabiques. Tome 1. Inabba', Haram, al—Kāfir, Kamna et al-Harāshif. Fasc. A: Les documents. Fasc. B: Les planches, Académie des Inscriptions et Belles-Lettres (Paris), Istituto Italiano per il Medio ed. Estremo Oriente (Rome), Paris – Rome 1992, p. 46.

(١٩) ظاهرة حذف الحروف الأخيرة من أسماء المعبودات في أسماء الأشخاص المركبة تتكرر في عدد من أسماء أعلام النقوش العربية القديمة، انظر على سبيل المثال: د هـ ل ن ع ث ت "دهلنا/ دهلني عثتر"، وكذلك ر ف أ ن ث هـ و " رفأنا/ رفأني ثهوان" (الصلوي، ابراهيم، أعلام يمنية قديمة مركبة، ريدان ٦، ١٩٩٤م، ص ١٢٢.

(٢٠) Sholan, A. Frauennamen in den altsüdarabischen Inschriften, (Texte und Studien zur Orientalistik, Band 11), Hildesheim 1999, p. 38.

(٢١) Hayajneh, H., Die Personennamen in den qatabanischen Inschriften, Lexikalische und grammatische Analyse im Kontext der semitischen Anthroponomastik, (Texte und Studien zur Orientalistik 10), Hildesheim 1998, p. 344.

(٢٢) Sabaic Dictionary, p. 115.

(٢٣) Beeston, A. F.L., Sabaic Grammer, Journal of Semitic Studies Monograph No. 6, Manchester 1984, p. 27.

السبئية التي تعود إلى العصر السبئي الوسيط أن هـذه القبيلـة تمـتعت بمكانة مميزة في مناطقها، وبشأن وحظوة لدى حكام سبأ[٢٤].

دلالة مصطلحي (مرض وحلظ) في النقوش السبئية:

تكـرر في عدد من النقوش السبئية ذكر مصـطلحي (مرض وحلظ)، وبينما اشتركت لغة النقوش السبئية مع أغلب اللغات السامية فـي اسـتخدامها لمصـطلح (مرض) معنىً ومبـنىً، فإنهـا انفـردت دون سواها بذكر مصـطلح (حـلظ) في متون نقوشها. وكلا المصـطلحين فُسِّرا من قبل أصحاب المعجم السبئي بمعنى " المرض، والعياء"[٢٥].

وممـا يتضـح من خلال رواية النقوش السـبئية أن المرض هو اسم جنس يدل على اضـطراب الجسم بعد صفائه وخروجه من الصـحة إلى الفتور ونقص القوة الجسمانية، وهو إذاً مصطلح لا يعني مرضاً بعينه – كما هو أيضاً حال معنى الاسم في اللغات السامية الأخرى – وإذا ما أُريد تخصيصه فيُشار إلى موضـع المرض، كما تؤكد على ذلك أمثلة من النقوش المختارة التالية:

ب ن| م ر ض| م ر ض ت| ع ي ن هـــ و[٢٦]، أي: "مِنْ مرضٍ أصاب عينه"[٢٧].

ب م ر ض| أ ض ر س هـــ و[٢٨]، أي:"في مرض أضراسه".

ففـي كـلا المـثالين المـرض مصطلح للجنس، موضِعُه في الأول العين، وفي الثاني الضرس.

كذلـك الأمـر في مصطلح (ح ل ظ)[٢٩] فهـو اسـم جنس يدل على معنىً معيَّن هو

---

(٢٤) الإريـاني، فـي تاريخ اليمن، ص ٥٤؛ وانظر أيضاً النقش (Ja 619/1-3) الذي يعود إلى فترة حكـم المـلك السبئي (نشأكرب يُهأمِن يُهرحِب) ويذكـر أن: ر ب ب أ ل | أ ش و ع | و ب ن ي هـــ و| د د أ ل| ب ن و | ح ل ح ل م | ع ق ب ت | م ل ك ن | ب هـــ ج ر ن | ن ش ق م "رَبيـب إل وابـنه وَديدإل من قبيلة حَلْحَلُم عُمـال (أي: ولاة الملك السبئي نشأكرب يهأمن يهرحب) في مدينة نشق (البيضاء حالياً)، إضافة إلى ذلـك يشـير النقش السبئي (Ja 673) إلى مشـاركة أفراد من هذه القبيلة مع الملك السبئي شـاعِرُم أوتَـر أثناء غارته الحربية على شبوة حاضرة مملكة حضرموت.

(٢٥) Sabaic Dictionary, p. 68, 87.

(٢٦) Ja 706/6-7, s. Jamme, Sabaean Inscriptions, p. 195.

(٢٧) انظـر السياق نفسه في أحد نقوش خط (الزبور)، حيث تتحدث من خلاله امرأة تدعى (حموة) عن شـفائها مـن مرض أصاب عينها، قائلة: وهأ | رسـعت | مرضتم | بن | عينه، أي "هي شفيت مـن مـرض في عينها" انظر: عبدالله، يوسف محمـد، رسـالة مـن امرأة، نقش بخط الزبور اليمـاني، المسـند، المجلد الأول، العدد الأول، ٢٠٠١، ص ٦، سطر ٤.

(٢٨) Ja 702/12, s. Jamme, Sabaean Inscriptions, p. 192.

(٢٩) يـرجّح أصـحاب المعجـم السبئي (Sabaic Dictionary, p. 68) أن الفعـل (ح ل ص) (هكـذا بحـرف الصاد في آخره) الذي يرد في نقـش يعـود لعهد الملك السبئي شمّر يُهرْعش (Ja 650/32) له علاقة بالفعل (ح ل ظ)، وعلى الـرغم مـن أن ثمة براهين من النقوش السبئية نفسـها تشـهد عـلى التبدل بين حرفي (الظاء والصاد) في بعض المفردات، إلا أن شاهد الفعل (ح ل ص) – آنـف الذكـر – وحيد وأبتر ولا يكفي لتأكيد علاقة الفعلين ببعضهما البعض.

"الألـــم والوجـــع"، وإن أُريدَ تخصيصه تبعه موضع الوجع من الجسم، كأن يقول:

ل هــــ ع ن هـــ و| ب ن| ح ل ظ| ح ق و ن هـــ ن| و ح ل ظ| ي م ر ن هـــ و| د ر م| ب خ ر ف م(٣٠).

المعـــنى: "كي يُخلّصه (أي الإله إل مقه) من أَلمِ خاصرتيه ومن وجعٍ يعوده مرةً في العام".

أو أن يقول: ح ل ظ / ر ج ل ي هـــ و(٣١)، أي: "وجع رجليه".

وفي نقوش سبئية أخرى يكون تخصيص (الحلظ) عن طريق ذكر زمانه ومكانه، كأن يقول:

و ح م د م| ب ذ ت | هــ ع ن | و م ت ع ن | ج ر ب | ع ب د هــــ و | ح ي و م | ب ن | ح ل ظ | و س د م | ح ل ظ | و س د م | هــ أ | و م ق ت ت هــ و | ب هــ ج ر ن | ن ش ق م(٣٢).

المعـــنى: "وشكراً لأنه (أي إل مقه) حمى ونـــجَّى جسم عَبْده حَيوم من ألمٍ وسقمٍ أَلمَّ به وأتعـــبه هـــو ومُقْتويه (أعوانه، وخدمه) في مدينة نشقِم".

أو أن يقول: ح م د م ب ذ ت| هـــ ع ن | و م ت ع ن | ج ر ب | ع ب د هـــ و | ع و ف م | ي غ ن م | ب ن | م ذ ك ر م | و ر ش د م | ب ن | ح ل ظ | ح ل ظ | ب هـــ ج ر ن | م ر ب | ب و ر خ | ذ م ل ي ت(٣٣).

المعنى: "شُكراً لأنه (إل مقه) حمى ونجَّى جســـم عَـــبْده عَوفـــم يَغنم من قبيلة مذكرم وراشـــدُم مـــن أَلـــمٍ أَلمَّ به في مدينة مارب (وذلك) في شهر ذي مليت"

ففي المثال الأول الإشارة إلى أن صاحبه أصـــيب بالحـــلظ أثناء إقامته في مدينة نشق (البيضاء حالياً، في جوف اليمن)، أما الشاهد الثاني فينبئ أن عوفاً أصيب بالحلظ وهو في مديـــنة مـــارب، وتحديـــداً خلال شهر (ذي مـــليت). مما يعني أن (الحلظ) وجع عارض وغير مزمن(٣٤)، يصيب صاحبه لفترة زمنية محددة، ويتماثل بعدها للشفاء من وعكته.

ويتضح من خلال هذه الأمثلة المختارة أن مصـــطلحي (مرض وحلظ) في لغة النقوش

---

(٣٠) Ja 711/4-6, s. Jamme, Sabaean Inscriptions, p. 197.

(٣١) Ja 583/7, s. Jamme, Sabaean Inscriptions, p.89.

(٣٢) MAFRAY – al -Baydā´ 100/ 11-14, s. Robin, À propos, d'une nouvelle inscription du règne de Sha`rum Awtar, un réexamen de l'éponymat sabéen à l'époque des rois Saba' et de dhū-Raydān, In: Arabia Felix, FS. Walter W. Müller, Wiesbaden 1994, p. 231.

(٣٣) Ja 613/6-10, s. Jamme, Sabaean Inscriptions, p. 110.

(٣٤) انظـــر ماريـــا هفـــنر Höfner, M., Eine altsüdarabische Sühne-Inschrift, In: Hebräische Wortforschung, FS.W. Baumgartner, Leiden (1969), p. 110 التي تقـــترح تفســـير مصطلح (ح ل ظ) بمعنى "مُعاناة"، وتزعم أنه مرض محدد أو نوع من أنواع المرض، ويستمر لفترة طويلة.

السبئية يدلان على اسم جنس لا يختص بمرض دون سواه، وإنما يحتاج تخصيص معناهما إلى تشخيص موضع العلة في الجسم، والسؤال هنا ما الفرق بينهما في المعنى؟ فعلى الرغم من اشتراكهما في وصف معاناة الإنسان ويدلان على عدم صفاء جسمه، إلا أن رواية النقوش تنبئ أن ثمة فرقاً دقيقاً بينهما، وهذا ما يؤكده أحد نقوش العصر السبئي الوسيط(٣٥) الذي يرد في متنه:

م ت ع ن | ج ر ب | ع ب د هـ و | ع و ف م | ي غ ن م | ب ن | م ذ ك ر م | و ر ش د م | ب ن | ح ل ظ م | و م ر ض م.

المعنى: " نَجَّى جسم عَبْده عَوْفُم يَغْنُم من قبيلة مذكرم وراشدم من ألمٍ ومرضٍ (ألمَّ به).

فذكر مصطلحي (مرض وحلظ) هنا تلو بعضهما البعض يدل من جانب أنهما ليسا من وضع قبيلتين، أو لهجتين مختلفتين عن بعضهما البعض، ومن جانب آخر في ذلك إشارة إلى أن ثمة فرقاً دقيقاً في المعنى بينهما(٣٦). ومما يبدو أن (المرض) حسب تعبير لغة النقوش هو اسم عام لما يصيب الجسم أو عضو منه من اضطراب وعلة. أما (الحلظ) فهو ألم يعتري الجسم أو أحد أعضائه، ويضطر صاحبه إلى التضور والتململ لفترة محددة من الزمن، وبعبارة أخرى (المرض) هو " اضطراب في الجسم وعلة تلازم المريض مع ما يخامره من وهن وفتور ومعاناة". أما (الحلظ) فهو" عارض غير مُزمن يشعر من خلاله الإنسان بالألم ويتضور من وجعه".

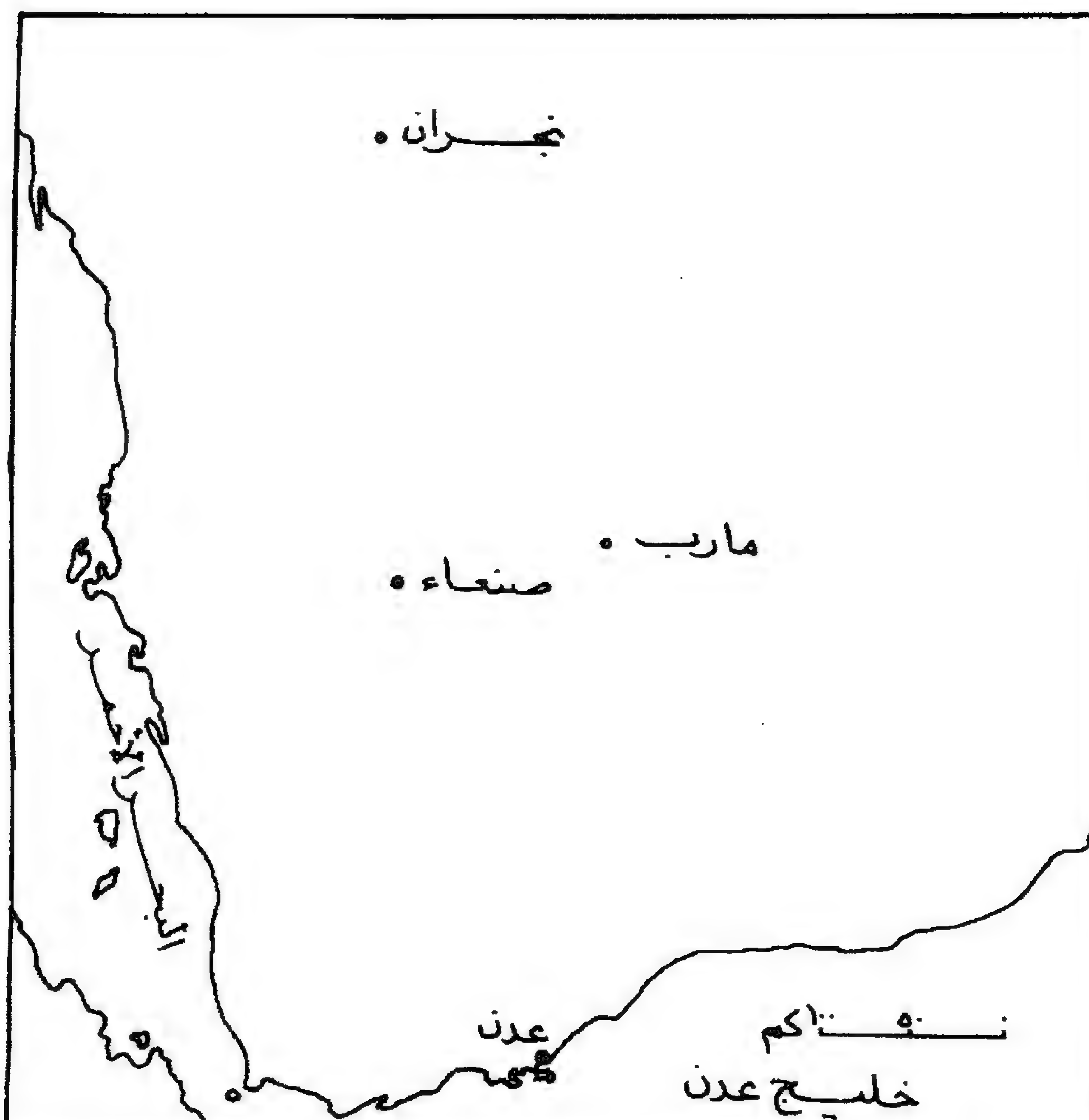
من جانب آخر يُستَدلُّ مما سبق أن مصطلح "مرض" بقي على حاله منذ وضعه الأول ولم يطرأ عليه تغير لفظي أو تطور دلالي عبر عصور اللغة المتعاقبة، على العكس من ذلك فمن المرجح أن الاسم المفرد (ح ل ظ) في النقوش السبئية اعتراه تطور من جانبين، الأول: من حيث اللفظ، إذ تبدل حرف الظاء في آخره إلى طاء، فجاء في اللهجة اليمنية المعاصرة بصيغة (حلط)(٣٧)، أما التطور الآخر الذي دخل على الكلمة فهو من جانب المعنى، حيث أصبح مصطلح حلظ (أو حلط في لهجة اليمن الحديثة) يفيد معنى "الضيق، والشدة". ولا ريب أن توارث اللغة من جيل إلى آخر هو المسوّغ – على ما يبدو – في تطور دلالة (حلظ) من مدلوله المادي في لغة النقوش السبئية إلى مدلوله

(٣٥) Ja 613/12-15, s. Jamme, Sabaean Inscriptions, p. 110.

(٣٦) حال لهجة النقوش السبئية في استخدامها لمصطلحي (مرض وحلظ) مثل حال العربية الفصحى فهي تحتوي على مسميات عدة تعبر عن شكوى الإنسان أو الحيوان واعتلال صحته = من مثل: مرض، و عيي، ووَصب، ودَنف، ووجع . . .إلخ، فهذه الألفاظ وإن اشتركت في معناها العام، فلا ريب في أن ثمة فرقاً دقيقاً في خصوصية معانيها.

(٣٧) الإرياني، المعجم اليمني في اللغة والتراث، حول مفردات خاصة من اللهجة اليمنية، دمشق ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص ١٩٥.

المعــنوي في اللهجة اليمنية الحديثة، وعلى هــدي ذلــك يبدو أن (الحلظ) بمعنى "الألم، والوجــع" قديــم، أما (الحلظ/الحلط) بمعنى "الضيق، والشدة" جديد، وبعبارة أخرى فدلالة الألــم والوجع للاسم تبدو أقرب إلى الدلالة الوضــعية الأولى، ودلالــة الضيق والشدة، هــي تطور دلالي للفظ (حلظ) عبر عصور اللغة المتعاقبة.



العصور، المجلد الثاني عشر، الجزء الثاني، ٢٣ – ٤٥ (٢٠٠٢م).

الاهتمامات العلمية للخلفاء العباسيين في الفترة (٥٧٥ – ٦٥٦هـ / ١١٧٩ – ١٢٥٨م)

د. محمد عبدالله القدحات

ملخص البحث :

شهدت هذه الفترة محاولات جادة من الخلفاء لإحياء سلطة الخلافة العباسية وإعادة نفوذها إلى ما كانت عليه في عصرها الأول. ولما كان الخلفاء يرون أنفسهم الورثة الشرعيين للإرث النبوي، والأحق بالخلافة، كان الاشتغال بالعلم والاهتمام به وبرجاله جزءاً من مقومات السياسة التي اتبعوها لإحياء الخلافة، فعلى الرغم من الدافع الذاتي والرغبة في تحصيل العلوم، إلا أنهم شعروا بأهمية هذا الجانب في إضفاء الشرعية الدينية على حكمهم، فتصدوا للتاليف والرواية والإجازة.

إن إنشاء المؤسسات الثقافية كالمدارس والمكتبات، لم يعد مقصوراً في هذه الفترة على أهل البر والخير من أبناء المجتمع، بل نجد أن الخلفاء أنفسهم أخذوا بإنشاء مثل هذه المؤسسات. ومن أجل استمرارها في تادية رسالتها، وقد حرص خلفاء هذه الفترة على دعمها مادياً من خلال الأوقاف التي أوقفوها عليها.

جهود الخلفاء للنهوض بالخلافة العباسية :

تولى منصب الخلافة في الفترة (٥٧٥ – ٦٥٦هـ/ ١١٧٩ – ١٢٥٨م) أربع من خلفاء بني العباس. كان أولهم أبو العباس أحمد بن الحسن[١] الملقب بالناصر لدين الله [٢]. بويع بالخلافة صباح يوم الأحد غرة ذي القعدة من عام (٥٧٥هـ/ ١١٧٩م)[٣]. وبعد أن استقر له الأمر ببغداد، بعث إلى ملوك الأطراف مبشراً بخلافته، طالباً منهم البيعة، كصاحب همذان[٤]، وصاحب الموصل[٥]. وكان أول

(١) ابن الكازروني، ظهير الدين علي بن محمد البغدادي، (ت ٦٩٧/١٢٩٧م) **مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس**، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، مطبعة الحكومة، ١٩٧٠م، ص٢٤٢.

(٢) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) **الكامل في التاريخ**، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت)، ج ١٠، ص ٩٨؛ ابن دحية، أبو الخطاب عمر ابن أبي علي، (ت٦٣٣ هـ/١٢٣٥م) **النبراس في تاريخ بني العباس**، تحقيق عباس العزاوي، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٤٦م، ص ١٦٥ ؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، **نكت الهميان في نكت** = **العميان**، وقف على طبعة أحمد زكي، مصر، المطبعة الجمالية، ١٩١١ م، ص ٩٣.

(٣) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٩٨.

(٤) أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٨م)، **تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين**، صححه محمد الكوثري، بيروت، دار الجيل (د.ت)، ج ٢ ص ١٥؛ ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥٧م، ج ٢، ص ٩٠.

من استجاب لذلك السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي أمر بالخطبة له في جميع أرجاءالبلاد الخاضعة له [٦].

استمرت فترة حكم الناصر لدين الله سبعاً وأربعين سنة. وهو بذلك أطول خلفاء بني العباس حكماً. ورغم بعض الانتقادات التي وجهها له بعض المؤرخين إلا أنه قد أجمع على قوة شخصيته ومقدرته على إدارة شؤون الدولة[٧].

بعد وفاة الناصر لدين الله (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)[٨]، بويع لولده أبي نصر محمد بالخلافة[٩]، ولقب بالظاهر بأمر الله. حيث تمت البيعة له يوم عيد الفطر من السنة نفسها[١٠]. ولم تدم خلافته سوى تسعة أشهر ونصف، حيث توفي في منتصف رجب سنة (٦٢٣هـ / ١٢٢٦م)[١١].

وفي نفس اليوم الذي مات فيه الخليفة الظاهر، بويع لابنه الأكبر أبي جعفر المنصور الملقب بالمستنصر بالله، الذي سار في الناس[١٢] سيرة حسنة، فأمر: فنودي ببغداد بإفاضة العدل، (وإن من كان له حاجة أو مظلمة يطالع بها، تقضى حاجته، وتكشف مظلمته)[١٣]. وقد استمرت خلافته حتى

(٥) سبط بن الجوزي، أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، حيدر آباد الهند، مطبعة مجلس المعارف العثمانية، ١٩٥١م، ح ٢، ق ١، ص ٦٣٥؛ الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك**، وقف على طبعة مكي جاسم، بغداد، مكتبة المثنى، ١٩٦٤م، ص ٢٨٢.

(٦) السيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمن (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، **تاريخ الخلفاء**، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨ م، ص ٥٣١ ؛ ابن العماد، أبو الفلاح عبدالحي (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، بيروت، دار إحياء التراث العربي (د.ت)، ج ٥، ص ٩٨.

(٧) الذهبي، محمد أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعيان**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٩٩ م، حوادث (٦٢١-٦٣٠هـ)، ص ٩٢ ؛ الكتبي، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، **فوات الوفيات**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، (د.ت)، ج ١، ص ٦٧. وتظهر من خلال تلك الروايات صورتان للخليفة، صورة رجل الدولة، المتابع للأمور بنفسه، وصورة الخليفة الظالم المتسلط. وهذا ما سنوضحه فيما بعد عند الحديث عن الجهود التي بذلها لإعادة بناء كيان الخلافة.

(٨) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٥١.

(٩) كان للناصر ولدان : أبو نصر محمد وهو الأكبر، وأبو الحسن علي وهو الأصغر، وكان الناصر قد أخذ البيعة بولاية العهد لولده أبي نصر محمد سنة (٥٨٥هـ/١١٨٩م). ولكنه بعد ذلك مال إلى ولده الأصغر علي فأمر ابنه أبا نصر بالتنازل عن ولاية العهد، وعهد بولاية العهد لعلي. لكن وفاته سنة (٦١٢هـ/١٢١٥م)، اضطرت الناصر إلى إعادة البيعة لابنه أبي نصر محمد سنة (٦١٨هـ/١٢٢١م) حول الظروف التي أحاطت بذلك، وتطور هذه القضية انظر: ابن الدُبيثي، أبو عبد الله محمد بن سعيد (ت ٦٣٧هـ/١٢٣٩م)، **ذيل تاريخ بغداد**، تحقيق بشار عواد ط١، بغداد، مطبعة دار السلام، ١٩٧٤ - ١٩٧٩، ج ١، ص ١٤٨ ، ابن الساعي، أبو طالب علي بن أنجب (ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م) **الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير**، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، ١٩٣٤ م، ج ٩، ص ١٤٤؛ ابن الكازروني؛ ص ٢٤٨؛ الذهبي، تاريخ، حوادث (٦١١- ٦٢٠هـ)، ص ٧٧.

(١٠) ابن الكازروني، ص ٢٥٥.

(١١) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٦٤.

(١٢) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٦٥ ؛ ابن الكازروني، ص ٢٨٥.

(١٣) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٦٥.

العاشر من جمادى الآخر سنة (٦٤٠هـ / ١٢٤٢م).[١٤]

وعندما شغر منصب الخلافة بوفاة المستنصر بالله، ولم يكن قد عهد لأحد بعهده، نجد أن الحاشية عادت لتلعب نفس الدور الذي لعبته من قبل في اختيار الخليفة ولم يكن من مصلحتهم أن يتولى الخلافة رجل قوي قادر على الاستمرار بالسياسة التي رسمها من سبقوه من الخلفاء[١٥]. فاتفق إقبال الشرابي (أحد مماليك الخليفة الظاهر)[١٦]، وقائد الجيش الدويدار مجاهد الدين أيبك الصغير على تقليد الأمير أبي أحمد عبد الله منصب الخلافة ولقب بالمستعصم بالله [١٧]. وكان المستعصم آخر خلفاء بني العباس، فكان في جملة من قتل على أيدي المغول الذين اجتاحوا بغداد عام (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)[١٨].

وتعتبر هذه الفترة من الفترات المهمة من عمر الخلافة العباسية، حيث شهدت مبادرات واضحة من الخلفاء - وبخاصة الناصر والمستنصر - لإعادة أمجاد الخلافة إلى ما كانت عليه في عصرها الأول.

شهد الناصر لدين الله قبل توليه الخلافة حالة الانقسام والتنافس بين كبار رجال الدولة. الذي كان في حقيقته يمثل التنافس بين السنة والشيعة[١٩]. لذلك وضع لنفسه سياسة ثابتة، وخصوصاً في تعامله مع السنة والشيعة، على مبدأ أنه خليفة المسلمين جميعاً، فقرّب الجميع، ورعى الجميع، وهذه السياسة دفعت بعض المؤرخين إلى اتهامه باتباع سياسات متناقضة[٢٠]. بل إن الذهبي[٢١] وابن أبي

---

(١٤) الذهبي، تاريخ، حوادث (٦٣١ - ٦٤٠هـ)، ص ٤٢٧؛ (مجهول منسوب خطأ لابن الفوطي)، **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة**، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، مطبعة الفرات، ١٩٣٢م، ص ١٥٥.

(١٥) كان للمستنصر بالله أخ يدعى الخفاجي، وكان قوي الشخصية، شديد البأس، وكان يقول " لئن وليت لأعبرن بالعساكر نهر جيحون، وأخذ البلاد من التتار" فخاف الدويدار والشرابي منه، فاتفقا على البيعة سراً بالخلافة للمستعصم بالله، قبل إعلان البيعة للناس. اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م)، **ذيل مرآة الزمان**، حيدر آباد الهند، مطبعة مجلس المعارف العثمانية، ١٩٦٠م، ج ١، ص ٢٥٥.

(١٦) إقبال الشرابي : هو أحد مماليك الخليفة الظاهر بأمر الله. أصبح بيده الحل والعقد في أيام المستعصم، وفي إدارته شؤون الدولة، حتى مات سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م)، ابن أبي الحديد، عز الدين عبد الحميد بن هبة الله (ت ٦٥٦هـ ١٢٥٨م)، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، = القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٠م، ج٣، ص ص ٣٧٠ - ٣٧١.

(١٧) ابن الكازروني، ص ٢٦٦.

(١٨) الأربلي، ص ٢٩٠ ؛ الغساني، أبو العباس إسماعيل ابن العباس (ت ٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، **العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك**، تحقيق شاكر عبد المنعم، ط١، بغداد، دار البيان، ١٩٧٥م، ص ٤٥٦.

(١٩) أشار سبط بن الجوزي إلى أثر مثل هذا التنافس في اختيار الناصر نفسه ليكون ولياً لعهد والده المستضيء. فقد كان ابن العطار وحاشيته من السنة يؤيدون أن يكون ولي العهد أبا منصور هاشم (شقيق الناصر)، أما ابن الصاحب وحاشيته من الشيعة فكانت ترغب في أن يتولى أبو العباس أحمد ولاية العهد. فقام المستضيء بتعيين ولده أبا منصور ولياً للعهد، لكن موته جعل المستضيء يعهد بولاية العهد لأبي العباس (الناصر). للمزيد انظر : سبط بن الجوزي، ج٨، ق ١، ص ٣٥٤.

(٢٠) ابن الأثير ج ١٠، ص ٤٥٣.

(٢١) الذهبي، تاريخ حوادث (٦٢١ - ٦٣٠هـ)، ص ٨٤.

عذيبة[٢٢] وابن الطقطقا[٢٣] – ونتيجة لتسامحه مع الشيعة – اتهموه بالتشيع.

هذه السياسة المتسامحة مع الشيعة جعلته يختار من بينهم بعض كبار رجال الدولة. فاستعمل ناصر الدين بن مهدي نقيب العلويين وولاه نيابة الوزارة، ثم ولاه الوزارة سنة (٦٠٢هـ/١٢٠٥م)[٢٤]. وسار حفيده المستنصر بالله فيما بعد على مثل هذه السياسة، فعين مؤيد الدين ابن العلقمي أستاذاً لدار الخلافة[٢٥] سنة (٦٢٩هـ/١٢٣١م)[٢٦]، ثم تولى الوزارة في عهد المستعصم بالله سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥)[٢٧].

وفي سنة (٦٠٨هـ /١٢١١م) اتخذ الناصر خطوة جريئة على سبيل التقريب بين المذاهب حيث أمر بقراءة مسند الإمام أحمد بن حنبل في مشهد موسى الكاظم[٢٨]. أما المستنصر، فإنه أمر أستاذ الدار سنة (٦٢٧هـ/١٢٢٩م) بإعمار مساجد الكرخ، كما قام بنفسه بزيارة مشهد الإمام موسى الكاظم[٢٩]، وأمر بتوزيع ثلاثة آلاف دينار على العلويين المقيمين في مشهد علي بن أبي طالب والحسين بن علي وموسى بن جعفر[٣٠].

واستكمالاً لسياسة النهوض بالخلافة، كان لا بد من الاهتمام بالجيش[٣١]، تلك الأداة الفاعلة والقادرة على حفظ الأمن في الداخل، وحماية البلاد من الأخطار الخارجية.

وبهذا الجيش الذي أعيد تنظيمه، استطاعت الخلافة استعادة كثير من المدن والأقاليم التي كانت خارج نطاق سيطرتها، حيث استعيدت دقوقا سنة (٥٧٩هـ/١١٨٣م)[٣٢]، وتكريت، وحديثة عانة[٣٣].

---

(٢٢) ابن أبي عذيبة، أحمد بن محمد بن علي (من أبناء القرن السابع) **إنسان العيون في مشاهير سادس القرون**، مخطوط، صورة محفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، عمان، رقم ١٠٨٣، ورقة ٤.

(٢٣) ابن الطقطقى، محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩هـ/١٣٠٨م)، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ط١، بيروت، دار صادر، ١٩٦٦، ص ٣٢٢.

(٢٤) ابن الساعي، **الجامع المختصر**، ج ٩، ص ١٦٨.

(٢٥) وظيفة إدارية، يتولى صاحبها شؤون دار الخلافة ونفقاتها وأمور الأسرة العباسية المقيمة في الدار انظر : أحلام النقيب، **سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية**، رسالة ماجستير/ جامعة بغداد، ١٩٨٨م، ص ٣٠

(٢٦) مجهول، الحوادث، ص ٣٥.

(٢٧) مجهول، الحوادث، ص ٧٩.

(٢٨) سبط بن الجوزي، ج ٨، ق ٢، ص ٥٥٦.

(٢٩) مجهول الحوادث، ص ١٥

(٣٠) مجهول، الحوادث، ص ٥٥

(٣١) هذه الإجراءات والإصلاحات كانت بحاجة إلى الأموال الطائلة، فحرص الناصر على جمع الأموال وسلك في سبيل ذلك كل طريق، من فرض الضرائب والمكوس، فمثلاً فرض على قرية بعقوبة مبلغ ثمانين ألف دينار، في حين كان يؤخذ منها من قبل ثمانية آلاف دينار، ولعل هذه السياسة كانت وراء اتهامه من قبل بعض المؤرخين بالظلم والاستبداد، فقد وصفه ابن الأثير بقوله : " كان قبيح السيرة في رعيته ظالماً لهم، وأن العراق خرب في أيامه ".ابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٥٨.

(٣٢) ابن الدبيثي، ج ١، ص ١٤٩.

(٣٣) سبط بن الجوزي، ج ٨، ق ١، ص ٣٧٧.

وارتبط استعادة خوزستان بالصراع مع السلاجقة، حيث طلب طغرل الثالث إعادة الخطبة له ببغداد، فسيّر الخليفة الناصر وزيره ابن القصاب على رأس جيش فدخلها [٣٤]، سنة (٥٩١هـ/ ١١٩٤م). وفي العام نفسه استعيدت همذان وأصبهان[٣٥]. وفي سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) سيطرت قوات المستنصر بالله على أربل[٣٦].

تابع المستنصر بالله السياسة التي انتهجها جده الناصر، من تجنيد الجيوش، وإقامة الحصون، خصوصاً بعد ظهور الخطر المغولي، حتى بلغ جيشه أكثر من مائة ألف[٣٧].

ولكن بعد وفاة المستنصر وتولية المستعصم مقاليد الحكم[٣٨] تراجعت قوة الدولة التي حرص سابقوه طوال خمسة وستين عاماً على ترسيخها، بسبب ضعفه وقلة خبرته السياسية، وعودة رجال البلاط للتحكم في الأمور من جديد. فقام بإنقاص عدد الجيش إلى عشرين ألفاً لتوفير الأموال[٣٩]. ولم يستطع هذا الجيش التصدي للمغول الذي اجتاح بغداد، وأسقط الخلافة العباسية ٦٥٦/ ١٢٥٨[٤٠].

كان إعادة تنظيم الفتوة[٤١] من أهم الخطوات التي اتخذها الناصر لدين الله لتوحيد الجبهة الداخلية، فقد دلت هذه الخطوة على حنكته السياسية وقدرته على التعامل مع الأحداث الجسام. فرغم الجهود التي بذلت من قبل للقضاء على الفتن المذهبية بين السنة والشيعة، إلا أنه وقعت بينهم عدة فتن، منها ما حدث في الأعوام: (٥٨١هـ/١١٨٥م)[٤٢]، (٥٩٢هـ/١١٩٥م)[٤٣]، (٦٠٣هـ/١٢٠٦م) وكانت أشدها[٤٤]. فكانت خطوة إحياء نظام الفتوة من جديد.

وإضافة إلى ما سبق، أراد الناصر تحقيق هدف مهم من وراء إحيائه لنظام الفتوة يتمثل في ربط جميع رعايا الدولة بشخص الخليفة، سواء كانوا حكاماً أو محكومين. ومن خلال فكرة الفتوة استطاع أن يجمع المسلمين تحت لوائه على مختلف طبقاتهم ومعتقداتهم،

(٣٤) الغساني، ص ٢٣٠.

(٣٥) ابن الأثير، ج ١٠، ص ص ٢٣٥-٢٣٦

(٣٦) مجهول، الحوادث، ص ص ٤٤ - ٤٧.

(٣٧) اليونيني، ج ١، ص ٢٥٥.

(٣٨) لعلّ من المناسب الإشارة هنا إلى أن المستنصر قد ارتكب خطأ حين ترك منصب ولاية العهد شاغراً، فلم يعهد لأحد من بعده، مما جعل الحاشية تتدخل في اختيار الأضعف حماية لمصالحها الخاصة.

(٣٩) ابن الكازروني، ص ص ٢٧٠.

(٤٠) مجهول، الحوادث، ص ٣٢٣ - ٣٢٥.

(٤١) حول الفتوة انظر : مصطفى جواد في تقديمه لكتاب الفتوة لابن المعمار؛ =

A.Rashad **The Abassid Caliphate (575 – 656 H)** University of London, 1963, p 101.

وهناك دراسة متكاملة ظهرت حديثاً حول الفتوة من قبل الناصر للباحث يحيى حسين، **الفتوة في العصر العباسي الأخير**، رسالة ماجستير غير منشورة، عمان، الجامعة الأردنية، ١٩٩٤م.

(٤٢) ابن الأثير، ج ١٠، ص ١٣٨.

(٤٣) سبط بن الجوزي، ج ٨، ق ١، ص ص ٣٨٦ - ٣٨٩.

(٤٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ص ٢٠٠ - ٢٠١.

فجمعت الفتوة بين السنة والشيعة، وبين الخاصة والعامة. إضافة إلى أنه استطاع من خلالها تعزيز مكانته وفرض هيبته كونه خليفة للمسلمين المفترض الطاعة على الخلق أجمعين، وكونه قبلة الفتوة ورأسها(٤٥). لذلك قام بإهدار الفتوة القديمة وتنظيمها من جديد، وكتب في ذلك منشوراً أمر بقراءته على رؤوس الفتيان(٤٦). لذلك، تحولت منظمة الفتوة من حركة شعبية لا يربطها رابط بالدولة، إلى منظمة رسمية، لها رسوم لا بد من أدائها لمن أراد الدخول فيها(٤٧).

الاهتمامات العلمية للخلفاء :

حرص الخلفاء - على جاري العادة - على تعليم أبنائهم وإسناد هذه المهمة إلى كبار العلماء، ليكونوا مؤهلين لتحمل الأعباء التي ستعهد إليهم مستقبلاً.

تلقى الناصر لدين الله علومه على عدد من العلماء، منهم علي بن عساكر بن المرحب المقريء (ت٥٧٢هـ/١١٧٦م)، وروى عنه بالإجازة(٤٨). كما أجازه أبوالحسين بن عبدالخالق بن يوسف اليوسفي(٤٩)، وأحمد ابن محمد بن كرم البندنيجي (ت ٦١٥هـ/ ١٢١٨م)(٥٠) ، وسمع من شهدة الأبرية(٥١).

أما الظاهر بالله، فقد قرأ القرآن على الشيخ أبي القاسم هبة الله بن الحسين بن أحمد البغدادي المعروف بابن الأشقر (ت ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م). وبلغ من احترام الظاهر لشيخه ابن الأشقر، أنه عندما تولى الخلافة بالغ في إكرامه وأعطاه بغلة والده الناصر فركبها(٥٢). كما أخذ الظاهر عن والده الناصر، فأجازه برواية مسند الإمام أحمد بن حنبل(٥٣).

وقد وَصَفَ الأربلي اهتمام الخليفة المستنصر بالعلم فقال : " فإنه لم يزل من أول أمره، ومبدأ عمره متشاغلا بالعلوم الدينية والأدبية، عاكفاً على نقل الكتب، حريصاً على ذلك، مواظباً عليه، حسن الخط،

(٤٥) معن مقابلة، **جهود الخلفاءلإحياء الخلافة (٥١٢ – ٦٢٢هـ)**، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، عمان ١٩٩٩م، ص ١٧٢.

(٤٦) ابن الساعي، **الجامع المختصر**، ج ٩، ص ص ٢٢٢ – ٢٢٤.

(٤٧) ابن المعمار، الفتوة، ص ص ٥١ - ٥٢ ؛ بدري محمد فهد، **تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير**، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٧٣م، ص ٣٩٣.

(٤٨) الصفدي، صلاح الدين بن أيبك، (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م)، **الوافي بالوفيات**، تحقيق عدد من الأساتذة، فيسبادن، دار فرانز شتايز، ١٩٩١ – ١٩٩٣م، ج ٦، ص ٣١١ ؛ ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن (ت ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م)، **نيل طبقات الحنابلة**، منشور مع = = طبقات الحنابلة في الجزءين (٣، ٤) بيروت، دار المعرفة (د. ت)، ج ٣، ص ٣٣٦.

(٤٩) المنذري، زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، **التكملة لوفيات النقلة**، تحقيق بشار عواد ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م، ج ٣، ص ١٦١، الذهبي، محمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق بشار عواد ومحيي الدين سرحان ط٦، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥، ج ٢٢، ص ١٩٣.

(٥٠) ابن رجب، ج ٤، ص ١٠٨.

(٥١) ظهرت دراسة جادة حول دور شهدة الكاتبة المعروفة بالأبرية في الحياة العلمية للدكتورة ناجية عبدالله، عن دار البلسم، عمان، ١٩٩٧م.

(٥٢) ابن الدبيثي، ج ١، ص ١٤٩ ؛ الأربلي، ص ٢٨٤؛ ابن رجب، ج ٤، ص ٢١١.

(٥٣) ابن رجب، ج ٤، ص ٢١٨.

صحيح الضبط"[٥٤]. وأول من تتلمذ على يديه الشيخ هبة الله بن الحسن المعروف بابن الأشقر، فكان يدخل عليه ويقرئه القرآن[٥٥].

وقد لمح به جده الخليفة الناصر الذكاء والفطنة، فحرص على تقريبه منه، وإحضاره مجالسه، وكان يسميه القاضي "لعقله وهديه وإنكاره المنكر"[٥٦].

وعندما تولى الخلافة، لم تلهه شؤون الحكم والإدارة عن العلم، فإنه عندما أنشأ المدرسة المستنصرية حرص على متابعة دروسها، فكان له شباك على إيوان الحنابلة يسمع الدرس منه[٥٧].

كان للاهتمام الذي أبداه المستنصر بالله، أثره البالغ في إقبال العلماء على العلم والتأليف وقد وصف لنا المؤرخ ابن النجار المعاصر للخليفة المستنصر ذلك بقوله : (وبيعت كتب العلم في أيامه بأغلى الأثمان، لرغبته فيها ولوقفها)[٥٨].

كما دفع ذلك أيضاً العلماء إلى تأليف بدائع المصنفات في فنون العلم ليتقربوا بإهدائها من الخليفة[٥٩].

سار المستعصم على خطى سلفه في تلقي العلوم. فتولى تأديبه وتعليمه أبو المظفر علي ابن النيار (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) فحفظ القرآن على يديه[٦٠]. ويوم ختمه للقرآن، أقيمت دعوة عظيمة، خلعت فيها الخلع على أرباب الدولة وأعيانها، وبلغت تكاليفها عشرين ألف دينار، وخلع على مؤدبه ابن النيار خلعة مُذّهبة، فامتنع عن لبسها تورعاً، فخلع عليه غيرها، وخلعت تلك على ولده، كما أعطي خمسة آلاف دينار، "وحمل إلى داره ما حمله نيف وأربعون حمالاً "[٦١].

وحرص المستعصم على تحصيل الإجازات العلمية من عدد من العلماء، وكلف بتحصيلها له المؤرخ ابن النجار، فحصل له إجازة من المؤيد الطوسي، وأخرى من عبدالمعز الهروي[٦٢].

أشرنا في مقدمة البحث إلى أن خلفاء هذه الفترة حرصوا على إحياء مؤسسة الخلافة من جديد، فبذلوا جهوداً متشعبة من تقوية الجيش وإقامة الحصون واستعادت بعض ممتلكات الخلافة. لكنهم أدركوا أنَّ لا طائل من كل تلك الجهود إذا لم ينشئوا جبهة داخلية متماسكة، تنصهر في ثناياها جميع فئات المجتمع، كما تجمع من شتتتهم ويلات الفتن الطائفية (السنة والشيعة) وباعتبارهم خلفاء المسلمين بجميع فئاتهم ومذاهبهم، كان عليهم الابتعاد عن الدخول في تلك الصراعات، أو الوقوف

(٥٤) خلاصة، ص ٢٨٦.
(٥٥) ابن رجب، ج ٤، ص ٢١١.
(٥٦) الكتبي، ج ٤، ص ١٧٠.
(٥٧) الذهبي، سير، ج ٢٣، ص ١٦٧؛ ابن رجب، ج ٤، ص ٢٦٠.
(٥٨) الذهبي، سير، ج ٢٣، ص ١٥٧
(٥٩) الكتبي، ج ٤، ص ١٧٠.
(٦٠) مجهول، الحوادث، ص ٣٢
(٦١) الذهبي، سير، ج ٢٣، ص ١٧٣؛ الأربلي، ص ٢٨٩-٢٩٠؛ الغساني، ص ص ٤٦٤ – ٤٦٥.
(٦٢) الذهبي، سير، ج ٢٣، ص ١٧٤.

بجانب فئة على حساب الأخرى، فكانت جملة الخطوات التي تحدثنا عنها.

ولإعطاء تلك الإجراءات شرعية تجعلها أكثر قبولاً من الناس. اتجه الخلفاء إلى تقريب العلماء والفقهاء، وإلى الاشتغال بالعلم. فكان أن اقتحموا باب التأليف والرواية، فصنف الناصر لدين الله كتاباً سماه (روح العارفين) حوى سبعين حديثاً[٦٣]، إجازة لجماعة من أهل العلم على رأسهم كبار علماء المذاهب الأربعة. فقد سلم إجازة الحنفية إلى ضياء الدين أحمد بن مسعود التركستاني، وإجازة الشافعية إلى عبد الوهاب بن سكينة، وإجازة المالكية إلى علي بن جابر المغربي، وإجازة أصحاب الإمام أحمد إلى أبي صالح نصر بن عبدالرزاق الجيلي[٦٤].

حرص الناصر لدين الله على نشر الكتاب في جميع الأمصار فقرئ ببغداد في أكثر من مائة مسجد[٦٥]، وأجازه للملك العادل وأبنائه[٦٦]، ولجماعة من أهل العراق والشام ومصر. ورواه ابن النجار عنه بالإجازة في الحرمين ودمشق وحلب والقدس ونيسابور ومرو وهمذان[٦٧].

وقد ظهر لهذا الكتاب شرح، وضعه سبطا ابن الجوزي بناءً على طلب الملك الأشراف بعد أن "عجز العلماء عن شرحه" سماه شرح روح العارفين[٦٨].

كما ألقى الخليفة الناصر لدين الله دروساً في شرح مسند الإمام أحمد بن حنبل، وأجاز فيه عدداً من علماء الحنابلة، وسمح لهم في شرح مسند أحمد، وأذن لهم بروايته عنه. وأجاز لعلي بن جابر المغربي لموطأ الإمام مالك، ورواه عنه بجامع القصر ببغداد [٦٩].

يظهر أن الخليفة الناصر كان يرمي من وراء ذلك كله اكتساب احترام ودعم الفقهاء والعلماء. إلى جانب محاولته الحد من الخلافات المذهبية التي كانت تثار بين أصحاب المذهبين: السني والشيعي[٧٠]. كذلك

---

(٦٣) ابن واصل، ح ٣، ص ٣٢ ؛ الأربلي، ص ٢٨١. لم يكن الناصر أول خليفة يتصدى للتأليف، بل سبقه الخليفة القادر بالله، الذي صنف كتاباً في الأصول، وذكر فيه فضل الصحابة على ترتيب مذهب أصحاب الحديث، وكان الكتاب يقرأ كل جمعة بجامع المهدي. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ/١٠٧٠م) **تاريخ بغداد**، تحقيق مصطفى عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧، ج ٤، ص ٢٥٧.

(٦٤) ابن الكازروني، ص ٢٤٥ ؛ ابن واصل، ج٤، ص ١٦٥ ؛ الذهبي، سير، ج٢٢، ص ١٩٨.

(٦٥) الذهبي، سير، ج٢٢، ص ١٩٧ ؛ الأربلي، ص ٢٨١.

(٦٦) الذهبي، سير، ج٢٢، ص ١٩٧ .

(٦٧) المنذري، ج ٣، ص ١٦١. وانظر : الصفدي، **الوافي**، ج٦، ص ٣١٦ ؛ القرشي، أبو محمد عبدالقادر بن محمد (٧٧٥هـ/١٣٧٣ م، **الجواهر المضية في طبقات الحنفية** ، تحقيق عبد الفتاح الحلو، ٦ ط٢، القاهرة، دار هجر، ١٩٩٣م، ج٢، ص ٢٠٢؛ ابن العماد، ج٥، ص ٩٨.

(٦٨) أبو شامة، ج١، ص ٩٣

(٦٩) ابن النجار، محب الدين أبو عبد الله محمد بن محمود (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، **ذيل تاريخ بغداد**، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، منشور مع تاريخ بغداد الأجزاء (١٦ - ٢٠)، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، ج ١٧، ص ١٥٩.

(٧٠) Rashad, op. cit, p 125.

لأجل تثبيت قدسية الخلافة في نفوس الناس وفي نفوس ملوك الأطراف.

لم يكن الخليفة الناصر وحده من اشتغل بالتحديث والرواية بل تابعه في ذلك من أعقبه من الخلفاء. ذكر ابن الفوطي في ترجمة كمال الدين الشيرازي الحكيم المهندس أنه سمع الأحاديث الثمانية من رواية الإمام المستعصم بالله على الأمير أبي نصر محمد سماعاً على والده الخليفة وذلك بجرنداب(٧١) بتبريز(٧٢).

وهناك ملاحظة مهمة لا بد من التوقف عندها، فقد أوردت بعض المصادر أن الخليفة الناصر كان يتعلم علوم الأوائل (الفلسفة). ففي ترجمة كامل بن الفتح (ت ٥٩٦هـ/١١٩٩م) قال الكتبي : "كان يدخل على الخليفة الناصر، ويحاضره، ويخلو معه، وعلمه علم الأوائل، وهوّن عليه الشرائع، والله أعلم"(٧٣).

وإلى مثل ذلك ذهب من قبله ياقوت، لكنه عندما أورد الرواية، أوردها بشكل يثير الشك فيها حيث قال : (وقيل إنه كان يدخل على الناصر ...)(٧٤).

ولكنَّ هذه الرواية رغم الشك الظاهري فيها، فإنه لم يكن صدفة أن يهدي شهاب الدين السهروردي كتابه الذي حمل فيه على الفلسفة اليونانية حملة شعواء ونعته بـ : (كشف القبائح اليونانية ورشف النصائح الإيمانية) إلى الخليفة الناصر لدين الله (٧٥). كما أن هذا يتعارض مع ما قدمناه حول اهتمام الخليفة بالعلوم الدينية وبخاصة علم الحديث.

يرتبط باهتمامات الخلفاء العلمية حرصهم على اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات الخاصة في قصورهم. فأنشأ الناصر لدين الله في قصره خزانة كتب ضخمة، حوت فرائد المؤلفات ونوادر المصنفات. يستدل على عظم هذه الخزانة مما نقل منها إلى خزانة المدرسة النظامية وإلى دار المسناة – كما سنبينه لاحقاً – فذكر القفطي أن الناصر نقل إليهما وإلى غيرهما من خزانة كتبه الخاصة. واعتمد على

---

(٧١) جرنداب : مقبرة مشهورة بتبريز، دفن فيها شمس الدين الجويني. ابن الفوطي، كمال الدين عبدالرزاق بن تاج الدين (ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م)، **تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب**، تحقيق مصطفى جواد، دمشق، المطبعة الهاشمية، ١٩٦٥م والجزء الخامس، لاهور، (د.ت)، ج ٤، ق ١، ص ٣٨٥.

(٧٢) ابن الفوطي، ج٥، ص ١٦١.

(٧٣) الكتبي، ج٣، ص٢١٧. ولو كان الناصر من المهتمين بعلوم الأوائل لما تعرض عبد السلام بن عبد الوهاب الجيلي للمضايقة، حتى أخذت كتبه فأحرقت على الملأ، لأنه وجد بينها ما يتعلق بعلم النجوم انظر الغساني، ص٣٤٧

(٧٤) ياقوت الحموي، أبو عبدالله بن عبدالله الرومي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، **معجم الأدباء** ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩١م، ج ٥، ص ١٣.

(٧٥) كارل بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار وآخرون، بيروت، دار المعارف، (د.ت)، ج١، ص ٤٤٠. جولد سهير، موقف أهل السنة من الفلسفة، بحث منشور ضمن مجموعة أبحاث تحت عنوان **التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية**، ترجمة عبدالرحمن بدوي، دار المعارف، القاهرة (د.ت) ص ١٣٠.

أبي الرشيد مبشر الرازي (ت ٥٩٨هـ / ١٢٠١م) في اختيار تلك الكتب[٧٦].

أما المستنصر بالله، فقد أنشأ خزانة كتب قريبة من مجلسه حوت أنواعاً من الكتب العلمية والأدبية. أوكل مهمة خزنها والإشراف عليها (أبي محمد عبد الله البادرائي)[٧٧].

وفي سنة (٦٤١هـ/ ١٢٤٣م)، أمر الخليفة المستعصم بالله بإنشاء خزانتين للكتب متقابلتين في قصره. فجاءت كل واحدة منهما في نهاية الحسن، وجعل فيهما من نفائس الكتب في سائر العلوم. وكتب على وجه الأولى :-

أَنشَأَ عمارتَها خليفة عَصره
لا َزالت الأملاكُ منْ أنصارِه
مُستَعصَمَ بالله منْ أوصافه
جَمَع العلوم بليله ونهارِه
فأُصولُها من بيته وفروعها
تُقَرأُ عليه وكتبه في دارِه

وكتب على وجه الأخرى :

خليفةْ الله قَد أكمَلتَ بنَيتَها
فلَيَس في وقتها شَيَء يدانيها
أودعتَها من عقولِ الناسِ ما سَمَحتْ
به النفوسُ وَأبَدتْ مَعانيها
حَتى كَأنَّ شيوخَ العلم قاطبةً
جَاءوا إليكَ وَقَد أسكَنتهم،[٧٨] فيها[٧٩]

وسلم المستعصم مفاتيح الأولى لعبدالمؤمن ابن فاخر الأرموي، وكلفه بنسخ ما يريد من الكتب. وسلم الثانية إلى مؤدبه وشيخه علي بن النيار[٨٠].

تقريب الخلفاء للعلماء ورعايتهم :

أدرك الخلفاء دور الفقهاء والعلماء باعتبارهم قادة الفكر والرأي في توجيه العامة، وذلك من خلال اتصالهم المباشر معهم، سواء في الجوامع والمساجد أو في دروس الوعظ. إضافة إلى أنهم لم يكونوا فئة منعزلة، بل جزء من المجتمع، ينتمون إلى كل فئاته الاجتماعية. وساعدوا بذلك على تنمية التماسك والاستقرار في المجتمع. لذلك أولى الخلفاء اهتماماً بهم وبمؤسساتهم. لاستثمار هذه المؤسسات وتوجيهها بما يخدم مصالحهم وأغراضهم فكان الخليفة الناصر يدعو شيخ الحنابلة أبا الفرج عبد الرحمن بن الجوزي[٨١] والشيخ عمر السهروردي[٨٢]، ورضي الدين القزويني

(٧٦) القفطي، جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، **أخبار العلماء بأخبار الحكماء**، القاهرة، مكتبة المثنى، (د.ت)، ص ١٧٧ ؛ كوركيس عواد، خزائن الكتب القديمة في العراق، **سومر**، مج٢، ج٢، بغداد، ١٩٤٦م، ص ٢٣١.

(٧٧) ابن الكازروني، ص ٢٥٩؛ الأربلي، ص ٢٨٦.

(٧٨) وردت في الاصل أنكتهم وتعني : ألقاه على رأسه. الفيروز آبادي، مجد الدين أبو الطاهر بن يعقوب = (ت٨٢٣هـ/١٤٣٢٠م)، **القاموس المحيط**، ٦ ط١، بيروت، دار الكتاب العربي (د.ت)، ج١، ص ١٥٩. ولعل الاصح ما أثبتناه ليستقيم بذلك الوزن والمعنى.

(٧٩) الغساني، ص ٥١٦، مجهول، الحوادث، ص ١٨٤.

(٨٠) ابن الطقطقي، ص ٣٣٣.

(٨١) الذهبي، تاريخ، حوادث (٦٢١ – ٦٣٠هـ)، ص ٩٠.

(٨٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ١٤٥.

أحد أعلام الشافعية، للجلوس بباب بدر[٨٣] - والذي يمثل جزءاً من حرم دار الخلافة - لعقد مجالس وعظهم. بل إن الناصر حرص على حضور تلك المجالس من شباك دار الخلافة من وراء ستار[٨٤].

أما الظاهر، فقد وصفه الذهبي بقوله : " نشر العدل، وبثّ المعروف، وقرّب العلماء والصلحاء، وبنى المساجد والمدارس والربط "[٨٥].

وحرص المستنصر بالله على تقريب العلماء وإحضارهم مجالسه، فكان الشيخ الفقيه عبد العزيز بن دلف الخازن (ت ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م) شيخ رباط الحريم الطاهري له الحظوة عند المستنصر بالله حتى صار " يقضي حوائج الناس عنده وعند غيره" [٨٦]. وجالس المستنصر بالله الفقيه أبا الحسن علي ابن الخطابي الواسطي (ت ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م)[٨٧]. ومما يؤثر عنه في تقديره للعلماء، أنه كان يذهب إلى (العلث) على مسافة يومين من بغداد لزيارة الفقيه الزاهد اسحاق بن أحمد العلبي[٨٨]. كما كان الفقيه أبو القاسم هبة الله بن أحمد المعروف بابن الأشقر مؤدب المستنصر بالله، يدخل عليه بعد توليه الخلافة، فلا يقبّل الأرض على جاري العادة[٨٩].

ونال الفقيه شمس الدين أبو المظفر علي بن النيار مكانة عالية لدى الخلفاء، و تولى تأديب أبنائهم. فقد أدب المستعصم، فلما أفضت الخلافة إليه رعى له حق الخدمة وقرّبه، وعوّل عليه في كثير من الأمور، حتى إنه عرض عليه منصب الوزارة، فأبى. وقال : "إني عاهدت الله أن لا أغير لبس المتصوفة، ولا أنزع عني ما تعودته"[٩٠]. عند ذلك سلمه مفاتيح إحدى خزائن كتبه، وكلفه بالاهتمام بشؤون الحج[٩١].

ومن المنطلق السابق نفسه، لقي كبار العلماء الوافدين إلى بغداد الحفاوة والتكريم، فكان يخرج الموكب الشريف للقاء القادم من العلماء. فعندما وصل صدر الدين محمد بن عبد اللطيف الخجندي إلى أطراف بغداد، خرج الموكب الشريف بأمر من الخليفة للقائه. فلما وصل أنعم عليه الخليفة الناصر وقربه وخلع عليه، وبالغ في احترامه، ثم ولاه تدريس النظامية[٩٢]. كذلك عندما وصل الفقيه

(٨٣) الأيوبي، محمد بن عمر بن شاهنشاه (ت ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٦٨م، ص ١٢٠.

(٨٤) الذهبي، تاريخ، حوادث (٦٢١ – ٦٣٠هـ)، ص ١٣٢.

(٨٥) ولكن لم نعثر في مصادرنا على إشارة لقيام الظاهر بأمر الله بإنشاء مدرسة أو مكتبة.

(٨٦) الذهبي، سير، ج٢٣، ص ١٥٦، ج٢، ص ٧٢.

(٨٧) مجهول، الحوادث، ص ١٣٤.

(٨٨) سبط بن الجوري، ج٨، ق٢، ص ٧٤٠.

(٨٩) ابن رجب، ج٤، ص ٢١١.

(٩٠) مجهول، الحوادث، ص ص ٢٨٤ – ٢٨٥.

(٩١) مجهول ، الحوادث، ص ص ١٦٣ – ١٦٤.

(٩٢) ابن أبي عذيبة، مخ، ورقة ٦٥-٦٦.

المالكي عبد الله بن عبد الرحمن الشرمساحي الأسكندري سنة (٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م) قوبل بالترحاب في ديوان الخلافة، وأحضر إلى دار الوزارة، وأحضر جميع المدرسين، فخلع عليه، وأهدي بغلة أسوة بالمدرسين بالمدرسة المستنصرية(٩٣).

ومن مظاهر التقريب والاحترام التي أولاها الخلفاء للعلماء، توزيع الأعطيات والهدايا عليهم في مختلف المناسبات، وبخاصة الأعياد الدينية. فقد فرق الظاهر بأمر الله في ليلة عيد الأضحى عام (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) مائة ألف دينار (٩٤) على العلماء والصالحين. وكذلك فعل المستنصر بالله، ففي يوم عيد الفطر سنة (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م)، أمر بتفريق الأموال على الفقهاء والصوفية وعلى الفقراء وأئمة المساجد(٩٥).

وفي رمضان سنة ٦٢٣هـ أمر المستنصر بحضور ذوي الجاه والمناصب والفقهاء ومشايخ الصوفية إلى التربة الشريفة بالرصافة، للمشاركة بالختمة، وبعد انتهاء المراسيم، أمر بانصراف الجميع ما عدا الفقهاء والصوفية والوعاظ والقراء، فأمر بخدمتهم، وتقديم ما يلزمهم على نفقة الخليفة(٩٦).

كما حرص الخلفاء على أن تشمل الوظيفة الرمضانية – التي كانت توزع كل عام في نهاية شهر شعبان – العلماء والفقهاء والمدرسين وطلاب العلم(٩٧).

هناك فئة من العلماء حظيت برعاية واهتمام الخلفاء نتيجة للخدمات التي قدمتها للخلفاء، وهؤلاء هم الأطباء. وتجدر الملاحظة إلى أن معظم الأطباء كانوا من أهل الذمة وخصوصاً من النصارى، فكان أبو الفرج بن المسيحي رئيس الطب ببغداد (٩٨). وكان صاعد بن توما النصراني من أشهر أطباء عصره، حتى صار الطبيب الخاص للخليفة الناصر لدين الله. وتقدم في أيام الناصر حتى صار بمنزلة الوزراء، وربطته بالخليفة علاقة وثيقة، جعلت الخليفة يستأمنه على حفظ أمواله الخاصة، ويرسله في مهمات خاصة خفية إلى وزرائه(٩٩).

أما الطبيب أبو نصر بن المسيحي (غير الأول)، فقد ارتفعت مكانته بين أقرانه من الأطباء، بعد أن استطاع علاج الخليفة الناصر لدين الله من مرض أصابه. فقد أشار ابن أبي أصيبعة إلى أن الناصر لدين الله أصيب بانتفاخ المثانة نتيجة للحصى، وطال المرض، وعجز الأطباء عن علاجه، إلى أن أحضر أبا نصر،

---

(٩٣) مجهول، الحوادث، ص ٨١.

(٩٤) الصفدي، الوافي، ج٢، ص ٩٦ ؛ ج٢، ص ١٤٤، ابن أبي عذيبة، ورقة ٢٣٨.

(٩٥) الغساني، ص ٤٢٢، مجهول، الحوادث، ص ١٥٦.

(٩٦) مصطفى جواد، المدرسة المستنصرية، مجلة سومر، مج ١٤، ج١، بغداد، ١٩٥٨م، ص ٥٨.

(٩٧) الغساني، ص ٦٠٣.

(٩٨) مجهول الحوادث، ص ١٣.

(٩٩) ابن القفطي، ص ١٤٤، ابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م) **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م، ص ٣٧١.

فعاين العضو المصاب، وبعد عدة محاولات علاجية، استطاع استخراج الحصاة دون الحاجة إلى شق العضو المصاب. فأمر الخليفة طبيبه ابن المسيحي بالدخول إلى دار الضرب وأن يحمل ما يقدر عليه من الدنانير والذهب. ثم أتته الخلع من أم الخليفة (زمرد خاتون)، ومن ولدي الخليفة : محمد وعلي، ومن الوزير نصير الدين أبي الحسن بن مهدي العلوي، ومن سائر كبار رجال الدولة. وقد حصل من العين عشرين ألف دينار، وفُرض له راتب سنوي. ولم يزل مستمراً في ذلك إلى أن مات الناصر[١٠٠].

وفي صورة تنم عن مدى الاحترام الذي أولاه الخلفاء للعلماء بعد وفاتهم، والمتمثلة في السماح بإقامة صلاة الجنازة على كبارهم في مسجد القصر الشريف. ذلك المسجد الذي يعتبر بمثابة المسجد الرسمي للدولة، ففيه تقرأ عهود القضاة، وفيه يصلى على جنائز الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة[١٠١]. وكان هذا المسجد لا يفتح لإقامة صلاة الجنازة إلا بإذن شريف من الخليفة نفسه[١٠٢]. سُمح بأداء صلاة الجنازة في مسجد القصر على الفقيه أبو محمد عبد العزيز بن محمود بن المبارك المشهور بابن الأخضر[١٠٣] (ت ٦١١هـ/ ١٢١٤م)[١٠٤]، وشهد الصلاة عليه كبار رجال الدولة[١٠٥]. وكذلك أبو الفتوح عبد اللطيف بن علي بن البخاري (ت ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)، وكانت جنازته عظيمة حضرها أرباب الدولة[١٠٦].

اهتمام الخلفاء بالشعراء :

اختلف موقف الخلفاء من الشعر من عصر إلى آخر. وفي الفترة التي تلت التخلص من السيطرة السلجوقية، ظهر خلفاء وقفوا من الشعر وأهله موقفاً ودياً. وقد يكون لسريان شيء من الروح العربية في جسم الدولة العباسية بعد طرد السلاجقة من العراق أثر في ذلك. لأنه من الطبيعي أن يزدهر الشعر بين أهله. ويدل على هذا الرأي علو منزله الشعر والشعراء في ظل خلفاء هذه الفترة. فكان معظم الخلفاء يحبون الشعر، وربما نظموه. فعرف عن الخليفة الناصر تشجيعه للشعراء كما تروى له أبيات، منها تلك الأبيات التي أوردها الصفدي يدافع الخليفة الناصر فيها عن نفسه ضد من اتهموه بالتشيع حيث قال :

زَعموا أنني أُحبُ علياً
صَدقُوا كُلُّهم لَدَىَّ عليُّ

(١٠٠) ابن أبي أصيبعة، ص ٣٧٠.

(١٠١) انظر ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ٦٤، ص ٨١، ص ٨٢، ص ١١٠، ص١٥٧، ص٢٥١، مصطفى جواد وأحمد سوسة، **دليل خارطة بغداد المفصل**، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٨م، ص ص ٢٤-٢٥.

(١٠٢) الأيوبي، ص ١٣٠

(١٠٣) الفاسي، التقي المكي، **تاريخ علماء بغداد المسمى منتخب المختار لأبي على محمد بن رافع السلامي**، انتخبه الفاسي، تحقيق عباس العزاوي، بغداد، مطبعة الأهالي، ١٩٣٨م، ص ١٣٧.

(١٠٤) ابن نقطة، أبو بكر محمد بن عبد الغني (ت ٦٢٩هـ/١٢٣١م)، **التقييد لمعرفة الرواة والسنن والمسانيد**، بيروت، دار الحديث ١٩٨٦م، ج٢، ص ١٢٩.

(١٠٥) المنذري، ج٢، ص ٣١٧.

(١٠٦) المنذري، ج٣، ص ١٠.

كُلُّ مَنْ صاحبَ النَّبيَّ وَلَو
طَرْفَةَ عَينٍ فَحقُّهُ مَرْعِيٌّ
فَلَقَدْ قَلَّ عَقْلُ كُلِّ غَبِيٍّ
هُوَ مِنْ شِيَعة النَّبِيِّ بَرِيٌّ (١٠٧)

ونظم الخليفة الناصر أبياتاً حاول من خلالها تشخيص حالة الضعف التي كانت تعيشها الخلافة العباسية، وما يحيط بها من أخطار :

إن طال عمري فما قصّرت في كرمٍ
ولا حراسة ملكي من أعاديه
عربٌ وعجمٌ ورومٌ كلهم طمعوا
فلم يفوزوا بشيء غير تمويه
بليت حتى بأدنى الناس من خلدي
يريد موتي وبالأرواح أفديه(١٠٨)

وإدراكاً من الخلفاء بأهمية الشعراء كوسيلة من وسائل الدعاية التي تظهر عظمتهم وتنشر مآثرهم، استمالوا الشعراء، فكان من نتيجة ذلك أن وجد في هذا العصر شعراء اختصوا بالخلفاء، يمكننا أن نسميهم " الشعراء الرسميين للدولة " وقد كان يطلق عليهم في ذلك الوقت اسم شعراء الديوان العزيز "(١٠٩).

وقد عرفت هذه التسمية في السنوات الأولى من خلافة الناصر لدين الله، حيث لم نعثر على هذه التسمية قبل هذا الوقت. ويرى مصطفى جواد أن الخليفة الناصر جعل للشعراء ديواناً خاصاً في الدولة يسمى ديوان الشعراء، وسُميَّ الشعراء المثبتة أسماؤهم فيه(١١٠).

ذكرت كتب التراجم شعراء عدة، ونعتتهم بأنهم كانوا من شعراء الديوان، منهم: أبو الفرج محمد بن أحمد بن سعيد بن نبهان (١١١)، والحسن بن محمد بن عبدوس الواسطي(١١٢)، وأبو محمد عيسى بن نصر بن منصور النميري(١١٣)، وأبو الفوارس نصر بن ناصر ابن ليث المكي المدائني(١١٤)، وأبو شجاع بن دواس القنا محمد بن أحمد(١١٥)، وعبد المنعم ابن عبد العزيز بن أبي بكر المعروف بالنطروني(١١٦)، محمد بن صدقة المعروف بالخفاجي(١١٧)، وعبدالله بن جميل وكان متقدم شعراء الديوان(١١٨).

ونلمس دور الشعراء في الترويج لكثير من الآراء والقضايا السياسية التي لا يستطيع التعبير عنها غيرهم. مثل نظرية الحكم المطلق، وأحقية بني العباس بالخلافة باعتبارهم أصحاب النسب الرفيع ووارثي النبوة. فالشاعر أسعد بن إبراهيم الشيباني حين

---

(١٠٧) الصفدي، الوافي، ج٦، ص ٣١٥.
(١٠٨) الكتبي، ج١، ص ٦٨، الصفدي، الوافي، ج٦، ص ٣١٥.
(١٠٩) ابن الدبيثي، ج١، ص ١٥٠، ص ٢٩١ ؛ ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ٦٩، ص ١٥٣.
(١١٠) ابن الساعي، علي بن أنجب، **نساء الخلفاء من الحرائر والإماء**، تحقيق مصطفى جواد، مصر، دار المعارف، (د.ت)، (مقدمة المحقق) ص ٩.
(١١١) الصفدي، الوافي، ج٢، ص ١٠٦.
(١١٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ١٥٣.
(١١٣) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ٦٩.
(١١٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ٢٧٨.
(١١٥) الصفدي، الوافي، ج ٢، ص ١١٩.
(١١٦) الكتبي، ج٣، ص ١١٧.
(١١٧) ابن الدبيثي، ج١، ص ٢٩١.
(١١٨) مجهول، الحوادث، ص ١٨٤.

يمدح الخليفة المستنصر بالله يؤكد هذا الإرث المقدس:

أعلى الأئمة من سلامة هاشم
قدراً وأشرف محتداً من عنصر
ورث النبوة طاهراً عن طاهر
إرثاً ينزه عن مقالة مفتري[١١٩]

ليس هذا فحسب بل ذهب بعضهم إلى القول بامتلاك الخلفاء لقوى خارقة قادرة على تذليل المستحيل من الأشياء.

فقال أسعد بن إبراهيم في المستنصر بالله :

لَو أنهُ في الجاهلية مَا رَأى
منه رَسولُ الله أمراً مُنكَراً
وَلَو أنَّ مُوسى يُستَجَنُّ ببأسه
مَا كانَ يَومَ الطورُ وَلَي مُدبِرا
وَلَو استعانَ به المسيحُ لَمّا غَدا
بَينَ النَصَارى كالصَّليبِ مُصَوراً[١٢٠]

ومن قبله قال سبطا بن التعاويذي في الخليفة المستضيء والد الخليفة الناصر :

لك النهي بعد الله في الخلق والأمر
وفي يدك المبسوطة النفعُ والضرُ
وطاعُتكَ الإيمانُ بالله والهُدى
وعصيانُكَ الإلحادَ في الدينِ والكفرُ
ولولاكَ ما صَحَّتْ عَقيدةُ مؤمنٍ
تقيٍّ ولم يُقبَلْ دُعَاءٌ ولا نذرُ[١٢١]

ولم يتورع شاعر مثل سبط بن التعاويذي من منح الخلفاء صفات مقصورة على الذات الإلهية. فهو حين يمدح الخليفة الناصر، ملكه والنفع والضر، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبر والبحر بقوله :

يا صاحبَ العصرِ والزمانِ ومَنْ
فيَ يده النفعُ بعدُ والضَررُ
وَمَنْ لَهُ الليلُ والنهارُ ومَا
كَرا عليه الشمُس والقَمرُ
والبَرُ والبَحرُ والشواهقُ والـ
غُرُ الغُوادي والنجمُ والشَّجَرُ[١٢٢]

استخدام العلماء في الإدارة :

استكمالاً لبناء دولة الخلافة، كان لا بدّ من الاهتمام بتنظيم المؤسسات الإدارية. ولا يكون لهذا التنظيم جدوى، إلا باختيار الرجال الأكفاء لتولي تلك المؤسسات. فكان حرص الناصر شديداً في اختيار رجال دولته.

أشار ابن الطقطقى إلى السياسة التي اتبعها الناصر في اختيار كبار الموظفين. تلك السياسة التي تنم عن حكمة وبعد نظر، وقدرة على تصريف أمور الدولة. تتلخص سياسة الخليفة في أنه إذا أراد تولية شخص منصب ما، أشاع الخبر بذلك بين الناس من خلال أشخاص عرفوا (بالعيون)[١٢٣]، فيكثر كلام

---

(١١٩) اليونيني، ج١، ص ١٢١.
(١٢٠) ديوان أسعد بن إبراهيم الشيباني، مج، ورق ٢٨، نقلاً عن عبدالكريم العبود، **الشعر في العراق في الفترة (٥٧٥ ـ ٦٥٦هـ)**، ط١، بغداد، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٧٨م، ص ٧٧.
(١٢١) سبط بن التعاويذي، **الديوان**، مصر، ١٩٠٣م، ص ١٧٣.
(١٢٢) سبط بن التعاويذي، ص ١٥٨.
(١٢٣) كان من سياسة الناصر أن تكون له عيون يتابعون الأمور من خلال الاحتكاك بالعامة، كما =

الناس في ذلك الشخص بين المدح والذم، والثناء والقدح. وكانت العيون تجمع تلك الآراء وترفعها إلى الخليفة، فإذا وصلت إليه، وازن بينها. فإن وجد أغلبية الآراء تمدحه وتصفه بحسن الإدارة ولاه، وإلا تجاوز عنه إلى غيره[١٢٤].

ولما كان العلماء يمثلون نخبة علمية متميزة، كان الحرص على الاستعانة بهم ليشغلوا الوظائف الإدارية العليا، إضافة إلى الوظائف الدينية المعتادة كالقضاء والحسبة والخطابة في المساجد والنظر في الأوقاف.

أوردت المصادر عدداً من الوظائف الإدارية، التي شغلها علماء وفقهاء، من أهمها: الوزارة، والحجابة، وأستاذية الدار، وأعمال الدواوين.

كان اختيار الوزراء يتم من بين الأشخاص الذين جمعوا المقدرة على الإدارة والثقافة في آن واحد معاً، ليكونوا قادرين على القيام بأعباء مسؤولياتهم.

كان أبو طالب علي بن البخاري نائب الوزارة[١٢٥]، من بيت عرف بالعدالة والعلم والفقه، تفقه على مذهب الشافعي[١٢٦]، وسمع الحديث من أبي الوقت وابن عبد الأول وغيرهما، وكانت له مناظرات[١٢٧].

وكان الوزير معز الدولة بن سعيد بن حديدة، محدثاً وفقيهاً[١٢٨]، له إجازات[١٢٩]، قرّب العلماء، وأكثر من الإنفاق عليهم، ويدعو ابن الجوزي الواعظ لعقد مجلس وعظه في داره[١٣٠].

ونشأ الوزير مجد الدين بن القصاب مشتغلاً بالعلوم، لا سيما علوم الحساب، والمساحة، والمقاسمات[١٣١]، إضافة إلى الاشتغال بالأدب[١٣٢] حتى وصف بأنه من رجال الدهر: " شهامة ودهاء، مع النظم والنثر والبلاغة "[١٣٣].

واشتغل الوزير نصير الدين ناصر بن

= يزودونه بأخبار البلاد الكلية والجزئية. وكان رجاله يبالغون في نقل الأخبار إليه، ويروي المؤرخون حكايات كثيرة عن ذلك، تبين مدى اطلاعه على أحوال البلاد. وبلغت هذه الحكايات من الكثرة والغرابة حداً جعل بعض المؤرخين يحاولون تعليل هذا الأمر بأن الناصر كان مخدوماً من الجنّ. للمزيد عن ذلك انظر: الذهبي، سير، ج٢٢، ص ١٩٨؛ ابن أبي عذيبة، مج، ورقة ٤.

(١٢٤) ابن الطقطقى، ص ٣٩.

(١٢٥) استوزر الناصر أربعة عشر شخصاً، ولكنه لم يقلد سوى أربعة منهم منصب الوزارة الكاملة، واكتفى الباقي بمنصب نائب الوزارة. ابن الطقطقى، ص ص ٣٢٤ – ٣٢٧ وقد فصّل ذلك وأشار إلى الأسباب التي كانت وراء =

= تلك السياسة : محمد صالح القزاز، **الحياة السياسية في العراق العصر العباسي الأخير** (٥١٢ – ٦٥٦هـ)، بغداد، مطبعة القضاء، ١٩٧١م، ص ص ٧٠ – ٧٧، وأيضاً النقيب، ص ص ٤٢ – ٤٧.

(١٢٦) سبط بن الجوزي، ج٨، ق٢، ص ٢٨١؛ الصفدي، الوافي، ج٢١، ص ٣٣٨.

(١٢٧) المنذري، ج١، ص ٢٨١.

(١٢٨) سبط بن الجوزي، ج٨، ق١، ص ٥٦٨ ؛ الذهبي، تاريخ، حوادث (٦٠٠-٦١٠هـ)، ص ٣٦٨.

(١٢٩) سبط بن الجوزي، ج٨، ق١، ص ٥٦٧.

(١٣٠) ابن الطقطقى، ص ٣٢٤.

(١٣١) الذهبي، تاريخ، حوادث (٥٩٠ – ٦٠٠هـ)، ص ١١١؛ ابن العماد، ج٦، ص ١٣٩.

(١٣٢) الذهبي، سير، ج٢١، ص٣٢٣.

(١٣٣) ابن الطقطقى، ص ٣٢٥.

مهدي في صباه بالأدب، فحصّل منه طرفاً. قرب العلماء، فكان خصيصاً بعدد منهم[١٣٤].

واشتهر محمد بن برز القمي بالأدب والبلاغة والإنشاء[١٣٥]، حتى صار متمكناً من أدوات الكتابة، خبيراً بالحساب وكان مجلسه ملتقى للشعراء[١٣٦].

أما الوزير مؤيد الدين بن العلقمي، فقد عرف باهتمامه بالأدب منذ صباه، وامتاز بأسلوب بليغ في الكتابة والإنشاء[١٣٧]، نال حظاً من المعرفة بالحديث والفقه[١٣٨].

أما الوظائف الأخرى، فقد تولى الشيخ رضي الدين بن عمر التبريزي منصب حاجب الحجاب، وكان من قبل أحد علماء النظامية ببغداد[١٣٩]. وأسند الناصر لدين الله إلى الفقيه عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلاني ديوان المظالم[١٤٠]. كما تولى المبارك بن عبدالله البغدادي المعدل الوكالة للناصر بباب طراد[١٤١]. وأوكلت مهمة النظر في عقارات الناصر لدين الله لمحمد بن محمد بن عبدالصمد النرسي[١٤٢]. وتولى الفقيه أبو عبد الله محيي الدين بن يحيى بن فضلان ديوان الجوالي[١٤٣]. وشغل الفقيه أبو محمد يوسف بن الجوزي منصب محتسب بغداد، ثم تولى أستاذية الدار للخليفة المستعصم بالله[١٤٤].

ولنا في عز الدين بن أبي الحديد المدائني (ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) الذي كان أديباً فاضلاً وحكيماً وكاتباً خير مثال على تقدير العلماء، حيث قلده المستنصر بالله الكتابة بدار التشريفات، ثم في المخزن سنة (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م). ثم جعله كاتباً في الديوان. وكتب باسم المستنصر بالله كتابه الموسوم (المستنصريات)[١٤٥].

تكليف العلماء بمهمات السفارة :

مما يؤكد بصورة أوضح متانة العلاقة التي ربطت الخلفاء بالعلماء إشراكهم لهم في مجال السياسة الخارجية للدولة. وذلك من خلال تكليفهم بمهمة السفراء، إما لنقل رسائل الخلفاء إلى الملوك وأمراء الأطراف، وإما للوساطة في حل خلاف بين طرفين. كما حصل عند قيام صلاح الدين الأيوبي بمحاصرة مدينة الموصل، فأسرع صاحبها إلى طلب المساعدة

(١٣٤) ومن هؤلاء العلماء : الفقيه أحمد بن مسعود التركستاني، وعبد الله بن الحسين بن عبدالله العبكري، ويعقوب بن صابر الحراني، وأبي البقاء بن أبي عبدالله الضرير النحوي. الصفدي، الواقي، ج ٨، ص ١٧٨؛ الذهبي، تاريخ (٦١٠ – ٦٢٠هـ)، ص ٢٩٥ ؛ مجهول، الحوادث، ص ص ٩ - ١٠.

(١٣٥) الذهبي، سير، ج٢٢، ص ٣٤٦.

(١٣٦) الذهبي، تاريخ، حوادث (٦٢٠ – ٦٣٠هـ)، ص ٤٠٨.

(١٣٧) الغساني، ص ٦٤٠.

(١٣٨) ابن الطقطقى، ص ٣٣٧.

(١٣٩) ابن أبي عذيبة، مج، ورقة ٧٠.

(١٤٠) ابن رجب، ج٤، ص ٥١.

(١٤١) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ١٤٥.

(١٤٢) الصفدي، الوافي، ج١، ص ١٤٦.

(١٤٣) مجهول، الحوادث، ص ١٣.

(١٤٤) سبط بن الجوزي، ج٨، ق٢، ص٥٠٣.

(١٤٥) ابن الفوطي، ج٤، ق١، ص ص ١٩٠ - ١٩١؛ حسين الجميلي، **عصر الخليفة المستنصر بالله**، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، ١٩٨٩م، ص ١٤٠.

من الخليفة الناصر لدين الله، الذي أرسل شيخ الشيوخ إسماعيل بن أحمد النيسابوري ليقوم بمهمة الوساطة بين الطرفين، وبعد مفاوضات تم الصلح وغادرت قوات صلاح الدين مدينة الموصل، تقديراً منه للخليفة الناصر لدين الله(١٤٦).

وللسبب ذاته، أرسل الخليفة المستنصر بالله سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) وفداً إلى (خلاط) أثناء حصار جلال الدين خوارزم شاه لها، وكان على رأس الوفد الشيخ أبو البركات عبدالرحمن بن شيخ الشيوخ(١٤٧).

وفي أثناء الصراع بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر، وتأزم الموقف بين الطرفين سنة (٦٥١هـ/ ١٢٥٣م)، إلى إعلان حالة الحرب، أرسل الملك العزيز يوسف بن محمد صاحب حلب ودمشق إلى الخليفة المستعصم بالله طالباً منه التدخل لمنع تدهور الموقف. فأرسل الخليفة الفقيه أبا محمد نجم الدين البادرائي للواسطة بين الطرفين. واستطاع إحلال الصلح بينهما على أن تكون مصر وجنوب فلسطين وبيت المقدس للمماليك، والشام تبقى في أيدي أصحابها الأيوبيين(١٤٨).

وقام عدد من العلماء بمهمة السفارة للخلفاء، لكن لم تذكر المصادر طبيعة تلك السفارات. منهم : أبو القاسم عمر بن إبراهيم التركستاني، أرسله الخليفة الناصر لدين الله إلى السلطان شهاب الدين الغوري(١٤٩). وأبو القاسم عبدالرحمن بن يحيى بن الربيع، أرسل بأكثر من سفارة إلى الملك ذاته(١٥٠). كما أرسل الناصر لدين الله أبا الفضائل الحسن بن محمد إلى ملك الهند، وبقي هناك فترة طويلة بعد وفاة الناصر، فلما عاد إلى بغداد أرسله المستنصر بالله رسولاً إلى الملك نفسه مرة أخرى(١٥١). كما أرسل المستنصر بالله الفقيه أبا عبدالله محمد بن يحيى بن فضلان إلى ملك الروم، ولما عاد ولاه تدريس النظامية(١٥٢).

وكان شيخ الشيوخ أبو حفص عمر السهروردي بمثابة السفير الخاص للخلفاء، حيث أرسل إلى عدة جهات في مهمات خاصة نيابة عن الخليفة، وقد أظهر دوره في إنجاح تلك المهمات(١٥٣).

إنشاء الخلفاء للمؤسسات الثقافية العامة :

شهد هذا العصر اهتماماً ملحوظاً بإنشاء المؤسسات الثقافية العامة كالمدارس والمكتبات. فعندما زار الرحالة الأندلسي ابن جبير بغداد عام (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) أشار إلى أن فيها من المدارس نحو ثلاثين مدرسة(١٥٤)،

---

(١٤٦) الغساني، ص ١٩٢.

(١٤٧) مجهول، الحوادث، ص٤.

(١٤٨) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م)، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد زيادة، القاهرة ١٩٣٤م، ج١، ص ص ٣٨٥ – ٣٨٦؛ الغساني، ص ٥٨٦.

(١٤٩) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ١٨٤.

(١٥٠) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ١٨٣، ص ١٨٧.

(١٥١) الذهبي، سير، ج ٢٣، ص٣٣٢.

(١٥٢) مجهول، الحوادث، ص ٦٤.

(١٥٣) الفاسي، ص ١٣٨.

(١٥٤) ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد، **رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة** =

حرص منشئوها على تخصيص الأوقاف من الأراضي والعقارات لأجل ديمومتها واستمرارها في تأدية رسالتها التعليمية[١٥٥]. يلاحظ في هذه الفترة أن مهمة إنشاء المؤسسات الثقافية لم تعد تقتصر على أهل الخير من الأمراء والأعيان والعلماء، بل ساهم الخلفاء بنصيب وافر. فأنشأوا المكتبات والمدارس، وأوقفوا عليها الوقوف، كما حرصوا على متابعة شؤونها ومراقبة إدارتها وأوقافها.

أظهر الخليفة الناصر اهتمامه بالمؤسسات الثقافية من خلال القيام بجولات تفقدية لها. ففي رمضان من عام (٥٨٠هـ/١١٨٤م)، قام الناصر بزيارة إلى المدرسة النظامية، فشاهد ما آلت إليه من الإهمال، فلما خرج كلف أستاذ داره ابن الصاحب بعمارة المدرسة على نفقة ديوان الأبنية، فأعيد ترميمها، وفرشت بالحصر من جديد[١٥٦].

واستكمالاً لعمارة المدرسة النظامية، أمر الخليفة الناصر لدين الله في عام (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) بعمارة خزانة كتبها، ثم نقل إليها من مكتبته الخاصة ألوفاً من الكتب النفيسة[١٥٧]. حدد ابن تغري بردي عدد الكتب المنقولة بعشرة آلاف مجلد[١٥٨]. وإذا كنا نعلم أن المدرسة النظامية كان بها دار كتب منذ زمن طويل، أيقنا أن الكتب التي حملها الناصر كانت من باب الزيادات، ولكن يظهر أن هذا العدد كان ضعفي ما كان فيها من قبل فقد أشار ابن الجوزي سنة (٥٧٩هـ/١١٨٣م) إلى أن بها نحواً من ستة آلاف كتاب[١٥٩].

كما أنشأ الخليفة الناصر دار علم خاصة عرفت " بدار المسناة "[١٦٠]. أنشأها لتكون مقراً للمناظرات ومجالس العلم. وجعل بها خزانة كتب ضخمة حوت نفائس ما أبدعته عقول العلماء والأدباء. ليس أدل على ذلك من أن الخليفة كلف بالإشراف على اختيار هذه الكتب أحد أشهر علماء عصره بالحساب والجبر والهندسة ألا وهو أبو الرشيد مبشر بن

= والمناسك المعروفة برحلة ابن جبير، بيروت، دار الهلال ١٩٨١م، ص ١٨٣.

(١٥٥) ابن جبير، ص ١٨٣.

(١٥٦) الأيوبي، ص ١٧٠

(١٥٧) ابن الأثير، ج ١٠، ص٢٢٩، الغساني، ص ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(١٥٨) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، مصر، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية،(د.ت) ج٦، ص١٣٦.

(١٥٩) ابن الجوزي، صيد الخاطر، ج٣، ص ٦٠٧، مصطفى جواد، دار المسناة، بقايا الإيوان بالقلعة، **مجلة لغة العرب**، عدد ٨، بغداد، ١٩٣٠م، ص ٥٦٣.

(١٦٠) ذهب غير واحد من الباحثين إلى أن هذه الدار هي البناء العباسي العتيق الذي تقوم بقاياه اليوم في قلعة بغداد على ضفتها اليسرى. كوركيس عواد، خزائن الكتب القديمة في العراق، **مجلة سومر**، مج٢، ج٢، ١٩٤٦م، ص ٢٣١. ولكن الأستاذ مصطفى جواد أشار إلى أن هذا البناء يختلف عن بقية المباني الأخرى المخصصة للسكن، من حيث أن بناءها كان أقرب إلى بنايات المدارس وأضاف أن الذي صمم المدرسة المستنصرية فيما بعد اقتبس بعض تصاميمه منها. جواد وسوسة، دليل خارطة بغداد، ص١٨٦، ويؤكد هذا الرأي ما أشرنا إليه في المتن.

أحمد بن الرازي، الذي وصفه القفطي بقوله : " كان أوحد زمانه، فاضلاً، كثير المعرفة"[١٦١]. هذه المكانة العلمية جعلته مقرباً من الخليفة، بحيث سمح له بالدخول إلى مكتبه الخاص لاختيار الكتب التي ستنقل إلى الدار.

استمرت دار المسناة تؤدي دورها في خدمة العلم وطلابه حتى عام (٦٩٦هـ/١٢٩٦م) حيث تحولت من دار علم إلى رباط للصوفية، قال صاحب (الحوادث) في حديثه عن مقتل مظفر الدين علي بن علاء الدين صاحب الديوان : " ثم أمر السلطان غازان بقتل مظفر الدين علي بن علاء الدين صاحب الديوان، فنفذ إلى بغداد من قبض عليه واعتقله أياماً، ثم قتل ودفن في دار المسناة التي بأعلى بغداد، وعملت الدار رباطاً، ثم نقل منها ودفن عند والدته في الرباط المجاور للمستعصمية"[١٦٢].

ووفاءً من الخليفة الناصر لدين الله لزوجته السيدة (سلجوقي خاتون) أنشأ خزانة كتب عامرة بتربتها بباب البصرة في الجانب الغربي من بغداد. وكانت قد توفيت سنة (٥٨٤هـ/١١٨٨م).وتم نقل كتب هذه الخزانة من مكتبة الخليفة الناصر الخاصة أيضاً[١٦٣].

ولما كانت هذه الخزانة مجاورة لرباطها، أصبحت هذه الخزانة مشتركة بينهما[١٦٤].

ويلاحظ أن هدف الخليفة الناصر من إخراج الكتب من دار الخلافة وتوزيعها بين ثلاثة خزائن : مكتبة المدرسة النظامية، دار المسناة، تربة سلجوقي خاتون، إنما كان بهدف نشر العلم بين الناس، ونيل الثواب[١٦٥]. كما تعكس لنا عدد الكتب التي كانت في خزانة كتب دار الخلافة التي أسهمت بتنمية وإنشاء ثلاث من دور الكتب[١٦٦].

لم يتوقف الأمر بالخليفة عند ذلك، بل حرص على أن تضم الربط خزائن كتب، لتكون بالإضافة إلى دورها في رعاية وخدمة الصوفية مراكز علم وثقافة. فإنه عندما انشأ رباط الحريم الطاهري على دجلة غربي بغداد سنة (٥٨٩/ ١١٩٣م)، نقل إليه كتباً كثيرة[١٦٧]، لتكون نواة لمكتبة عامرة فيما بعد.

ومن أجل استمرار هذه المؤسسات في تأدية دورها الثقافي أوقف الخليفة الناصر لدين الله عليها الأوقاف الكثيرة[١٦٨].

ولعل قصر خلافة الظاهر لم تمهله من إقامة منشآت ثقافية، حيث لم تذكر المصادر المتاحة أية إشارات لمنشآت ثقافية في عهده.

(١٦١) القفطي، ص ١٧٧.

(١٦٢) مجهول، الحوادث، ص ٤٩٤.

(١٦٣) ابن الأثير، ج١٠، ص ١٧٩ ؛ ابن أبي عنيبة، مج، ورقة ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(١٦٤) ابن الفوطي، ج٤، ق١، ص٦٢٣.

(١٦٥) جواد، دار المسناة، ص ٥٦٤.

(١٦٦) عبد الحسين الرحيم، الخدمات العامة ببغداد (٤٠٠ ـ ٦٥٦هـ)، بغداد، وزارة الثقافة، ١٩٨٨م، ص ١٨٢.

(١٦٧) ابن الأثير، ج ١٠، ص٢٢٩ ؛ ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص١١٨ ؛ الغساني، ص ٢٢٤.

(١٦٨) الأربلي، ص ٢٨٢.

تعد فترة حكم الخليفة المستنصر بالله بحق عهد النهضة العلمية والثقافية. وقد أكد المؤرخون المعاصرون له ومن جاء بعدهم على ذلك من خلال إيرادهم لروايات تبين اهتمامه بالعلم والعلماء أشرنا إليها سابقاً.

أما أول المنشآت العلمية التي أنشأها المستنصر بالله، فهو مسجد قمرية[١٦٩]، والظاهر أن السبب الذي دفعه لإنشائه، أنه أراد أن يكون داراً للعلم فضلاً عن دوره لمكان للعبادة. وكان ذلك قبل تفكيره في إنشاء المدرسة المستنصرية بأربع سنوات. قال ابن الكازروني " فتحت عمارته في سنة ست وعشرين وستمائة، وشرط أن يكون فيه من المتلقين ثلاثين نفساً"[١٧٠]. كما جعل في المسجد خزانة كتب[١٧١].

كان إنشاء المدرسة المستنصرية عام (٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) من أبرز المآثر التي خلفها الخليفة المستنصر بالله، والتي خلّدت اسمه على مر العصور.

وكان هذا الأثر العلمي قد أثار اهتمام الباحثين المحدثين للكشف عن جوانبه المختلفة، سواء العلمية أو العمرانية [١٧٢]. كما أنها أصبحت دليلاً على مدى اهتمام الخليفة بالعلم. ومن خلالها عدَّ عصره بحق عصر الازدهار الفكري والثقافي.

ما يهم الباحث في هذا الموضوع تبيان الأسباب التي كانت وراء إنشاء المستنصر بالله لهذه المؤسسة العلمية. يمكن اعتبار الباعث الديني واحداً من أهم البواعث التي حفزت الخليفة إلى إنشاء هذه المدرسة، وخصوصاً لدى ملاحظته طريقة التدريس في المدارس السابقة لعصره، فقد كانت كل مدرسة مقتصرة على تدريس مذهب معين حدده الواقف في وثيقة الوقف. فأراد المستنصر أن يجمع المذاهب الأربعة في مدرسة واحدة، تكون تحت إشرافه، لتعم الفائدة. أشارت إلى ذلك المصادر الموثوق بها ومن بينها كتاب سبط بن الجوزي، الذي قال : " عمّر المدرسة الشاطئية، ووقفها على المذاهب الأربعة، وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة "[١٧٣].

فأراد المستنصر بالله من هذه المدرسة أن تكون محط أنظار أهل السنة جميعاً، لا يقف شرط مذهبي عائقاً أمام الطالب في دخولها،

(١٦٩) حدّد صاحب الحوادث موقع المسجد بأنه بالجانب الغربي من بغداد، مقابل لرباط البسطامي، الحوادث، ص ٤.

(١٧٠) ابن الكازروني، ص ص ٢٦٠ – ٢٦١.

(١٧١) مجهول، الحوادث، ص ٤.

(١٧٢) حول ذلك انظر : مصطفى جواد، المدرسة المستنصرية، **سومر**، مج١٤، ج١، بغداد، ١٩٥٨م، ص ٣٧ - ٦٧ ؛ طاهر العميد، دور المدارس الأثرية في التعليم في العصر العباسي، **مجلة كلية الآداب**، ع٤ بغداد ١٩٥٩م، = ص ١١٦؛ حسين أمين، **المدرسة المستنصرية**، بغداد، ١٩٦٠م؛ ناجي معروف، خزانة المستنصرية، **مجلة الأقلام**، ج٤ السنة الثانية، بغداد، ١٩٦٥م؛ ناجي معروف، **المستنصرية وأساتذتها** ، بغداد، (د.ت)؛ ناجي معروف، **تاريخ علماء المستنصرية**، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٥م؛ الجميلي، ص ص ١٤٣ – ١٥٨.

(١٧٣) سبط بن الجوزي، ج١، ق٢، ص ٣٧٩. وانظر: أبو شامة، ص ١٥٠ ؛ ابن واصل، ج٥، ص١٠٧.

كما كان الحال في المدارس السابقة للمستنصرية[١٧٤].

يمكن القول أيضاً أن تأسيس المدرسة المستنصرية يعتبر امتداداً لفكرة تأسيس المدارس النظامية، أو لفكرة تأسيس المدارس بوجه عام. وهي مقاومة الدعوة الشيعية وبخاصة المغالية منها، والتي أخذت تشكك في صحة الخلافة العباسية[١٧٥].

وتأكيداً لرغبته هذه، كان المستنصر بالله يتابع المدرسة بنفسه، ويشرف على سير التدريس فيها، ويستمع إلى محاضرات ومناظرات العلماء من خلال منظرة في جدار المدرسة تطل على قاعات التدريس، فيرى المدرسين، ويستمع إلى دروسهم دون أن يروه[١٧٦].

ومن صور المتابعة للمدرسة أنه في سنة (٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م)، نمَّ إليه خبر أن بعض الفقهاء الذين يدرسون بالمدرسة، أعرضوا عن تدريس ما كان مقرراً من مؤلفات كبار الفقهاء، وأخذوا بتدريس مصنفاتهم، فلما انته هذا الخبر إلى الخليفة، أمر أن يلزم الجميع بذكر كلام المشايخ واحترامهم[١٧٧].

لم يرد المستنصر بالله أن تكون المستنصرية مدرسة للعلوم الدينية واللغوية فقط، بل أرادها مدرسة شاملة، تضم إلى جانب العلوم الدينية واللغوية العلوم العقلية وبخاصة علوم الطب، لما لهذا العلم من أهمية في خدمة المجتمع. لذلك نجده بعد عامين من إنشاء المدرسة، أي عام (٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م) يأمر بإنشاء إيوان للطب، وجعل فيه جماعة من المشتغلين بالطب يعلمون الطلاب. كما يكون ذلك المكان بمثابة مستشفى لمعالجة الناس، والفقراء خاصة، وقد وفرّ فيه ما يحتاج إليه الطبيب من العلاجات والأدوية[١٧٨].

وبخطوة مشابهة، ومن أجل التوسع في هذه الفكرة ونشرها، نجده يوعز إلى الأمير شمس الدين بتكين أمير البصرة بإنشاء مارستان ومدرسة للحنابلة وأخرى لعلم الطب[١٧٩].

عبّر الشاعر سعد بن إبراهيم الشيباني عن أهداف المستنصر بالله من وراء تأسيسه للمستنصرية، وذلك عندما زارها، ولمس اشتغال العلماء والطلاب بالفقه والحديث، ونشاط الأدب، وازدهار حركة التصنيف، وما وجده من مناقشات بين أتباع المذاهب الأربعة، فصوّر ذلك تصويراً بديعاً بقوله :

هي دارُ السلامَ فسلِّم لها وجـ
ـهاً وَصعِّد صَعيَدها تعفـيرا
لـترى دينَـك القـويـمُ وآمـا
لَـكَ تسمو وذنُبك المغفـورا

(١٧٤) أمين، ص ٢٩.
(١٧٥) أمين، ص ٣٠ ؛ الجميلي، ص١٤٦.
(١٧٦) اليونيني، ج١، ص١٣٦ ؛ مجهول، الحوادث، ص ص ٥٤ ــ ٥٥.
(١٧٧) مجهول، الحوادث ، ص ٢١٧.
(١٧٨) ابن الكازروني، ص ٢٦١ ؛ الغساني، ص ٤٧١؛ مجهول، الحوادث، ص ٨٢.
(١٧٩) مجهول، الحوادث، ص ٣٣، ١٨١ ؛ ناجي معروف، **علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي**، بغداد، ١٩٧٣م، ص ١٤٦.

وإذا جئتَ مـربعَ العلـمِ فيهـا
تلقى روضاً من العُلا محبـوراً
وترى مالكـاً وأحمـدَ والنعـ
ـمانَ والشافعيَّ والمسطورا
والأحاديثَ والتصـانيفَ والآ
دابَ تحوي المنظومَ والمنثورا[١٨٠]

وفي مناسبات عدة، حرص المستنصر على زيارة المدرسة المستنصرية. وفي إحداها حضر إلى المدرسة، فوقف الشيخ عبدالعزيز ابن دلف بين يديه، وسلم عليه، وأعقب دعاءه، تلى قوله تعالى ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار، ويجعل لك قصوراً ﴾[١٨١]. فبدا خشوع الخليفة، وتقاطرت دموعه[١٨٢].

سار المستعصم بالله على خطى أسلافه من حيث إنشاء المؤسسات الثقافية، فأنشأ المدرسة المستعصمية، وقد بقيت هذه المدرسة تؤدي دوراً في خدمة العلم حتى بعد سقوط بغداد بأيدي المغول [١٨٣].

وقامت إحدى نساء الخليفة المستعصم بالله والمدعوة (باب بشير) سنة (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م) بإنشاء دار لتعليم القرآن وتحفيظه، على شاطئ دجلة الغربي من بغداد[١٨٤]. وتم افتتاح المدرسة في جمادى الآخر سنة (٦٥٣هـ / ١٢٥٥م)، وقد أوقفتها على المذاهب الأربعة، على قاعدة المدرسة المستنصرية. و حضر الاحتفال الخليفة المستعصم بالله وأبناؤه من الأمراء، والوزير مؤيد الدين بن العلقمي، وكافة العلماء والمدرسين[١٨٥]. وجعلت بها مكتبة ضخمة حوت نفائس الكتب بالخطوط المنسوبة فيها ما هو بخط الخطاط العراقي المشهور (ابن البواب)، ومصحف بخط عثمان بن عفان، وآخر بخط زين العابدين بن علي بن الحسين رضي الله عنه[١٨٦].

(١٨٠) ديوان الأربلي، ورقة ٣٣، نقلاً عن عبود، ص ٢٩٤.
(١٨١) سورة، الفرقان؛ الآية ٢٥.
(١٨٢) مجهول، الحوادث، ص ص ٥٤ – ٥٥.
(١٨٣) ابن رجب، ج٤، ص ٢٤٥، رؤوف، المدارس، ص ٢٠٣.
(١٨٤) مجهول، الحوادث، ص ٢٧٥.
(١٨٥) الغساني، ص ٦٠٩، مجهول، الحوادث، ص ٣٠٧.
(١٨٦) الغساني، ص٦١٠، كما أن السيدة "باب بشير" قامت بإنشاء رباط للنساء المتصوفات، ووقفت على الجميع الأوقاف الكثيرة، الغساني، ص ٦٠٨.

العصور، المجلد الثاني عشر، الجزء الثاني، ٤٧ – ٧٩ (٢٠٠٢م).

مفردات فنية جديدة للزجاج المزخرف أكاسيد معدنية في مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي

(في ضوء مجموعة جديدة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة)

د. جمال عبدالرحيم إبراهيم

ملخص البحث :

تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على صناعة جديدة في تذهيب بعض الأواني الزجاجية والمحفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة – تنشر لأول مرة –.

وهذه الطريقة الجديدة تتم بأن يقوم الفنان برسم العناصر الزخرفية المطلوبة باللون الذهبي مضافاً إليه الأكاسيد المعدنية داخل سطح الإناء. ثم تضاف عليه طبقة زجاجية أخرى شفافة، ثم تحرق الآنية في درجة حرارة معينة فتظهر الزخارف بين طبقتين من الزجاج وليس على سطح الإناء نفسه، كما كان متبعاً من قبل وهو الأسلوب الصناعي في استخدام مادة البريق المعدني على الزجاج.

ويوضح البحث الآراء التي تناولت فن التذهيب على الزجاج مثل رأي الدكتور/ إستيفا كربوني وهو إيطالي الجنسية ويدرس بالجامعات الإنجليزية، والذي ذكر في مقال له باللغة الإيطالية أن طريقة التذهيب على الزجاج تتم بأسلوبين: الأسلوب الأول وهو التذهيب على البارد، والثاني التذهيب على الساخن.

كل هذه الأساليب الزخرفية في صناعة التذهيب على الزجاج جعلت الفنان المسلم يبتكر أساليب جديدة في صناعة التذهيب على الزجاج ومنها الطريقة المبتكرة التي تناولتها هذه الدراسة، حيث ظهرت الكثير من الزخارف المذهبة من عناصر نباتية وهندسية وأشكال حيوانية وطيور، بالإضافة إلى توقيعات الصناع.

عندما زار الرحالة الفارسي ناصر خسرو مصر سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م ووصف نظمها ومدنها وغناها وثروتها وحضارتها، أعجب بصناعة الزجاج، وبخاصة المذهب منه إعجابه بصناعة الخزف ذي البريق المعدني. ووصف ما رأى فيه من شفافية ونقاوة، وذلك أنه شاهد من الزجاج المصري نوعاً فاخراً يشبه الزمرد كان يباع لنفاسته بالوزن[1].

وفي متحف الفن الإسلامي بالقاهرة قطع من الزجاج المذهب، تمتاز بإبداع أشكالها

(١) خسرو، ناصر، سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٩٣م، ص ١١٨.

وجمال نسبها مما يشهد للصناع المصريين ببلوغهم المرتبة العظيمة وحذق في أسرار هذه الصناعة فساروا بها قدماً إلى الأمام، وأخذوا يبتكرون طرقاً جديدة في المضمون الفني لم يكن معروفاً من قبل.

والابتكار الفني الجديد الذي وجد في بعض هذه القطع يتمثل في وضع طبقة من الأكاسيد المعدنية المذهبة[٢] داخل سطح الإناء، ثم يضاف عليها طبقة زجاجية أخرى شفافة، ثم تحرق في درجة حرارة معينة فتظهر بين طبقتين من الزجاج وليس على سطح الإناء نفسه كما هو متبع وشائع في أسلوب صناعة استخدام الأكاسيد المعدنية المذهبة سواء على مادتي الزجاج أو الخزف.

ولهذا فإن هذه الدراسة ستلقي الضوء على التعريف لفن هذه الصناعة المبتكرة، بالإضافة إلى معرفة مفهوم تذهيب الأواني الزجاجية سواء باستخدام مادة البريق المعدني أو التمويه بالمينا وذلك في الفترة الزمنية موضوع البحث.

ونظراً لما تعج به المتاحف العالمية من نماذج رائعة للمنتجات الزجاجية الإسلامية بمصر حتى نهاية العصر الفاطمي، نجد أنها جذبت الكثير من أنظار المهتمين والمشتغلين في مجال الفنون والآثار الإسلامية الذين قاموا بعمل دراسات تناولت شرحاً وتحليلاً لهذه المنتجات[٣]، على الرغم من أن كثيراً مما وصلنا يمثل قطعاً مختلفة الأشكال والأحجام أكثر منها أوان سليمة، والسبب في ذلك يرجع إلى طبيعة مادة هذه التحف التي غالباً ما تتعرض للكسر بسهولة.

- والأسلوب الفني الصناعي والزخرفي لفن التذهيب المبتكر يتمثل في وضع طبقة رقيقة من الأكاسيد المعدنية المذهبة كما سبق القول، ويتم تثبيتها على السطح الخارجي للإناء، ويتم حفر الزخارف المطلوبة عليها، ثم يغطى سطح الإناء

---

(٢) التذهيب في الزجاج هو مصطلح أهل الصنعة على الرغم من استخدام أكاسيد معدنية أخرى ومتعددة.

انظر :

- David Whitebouse, Glass : A pocket Dictionary of Terms Commonly Used to Describe Glass and Glassmaking, New York 1993, p. 37.

(٣) من هذه الدراسات :

- حسن، زكي محمد، كنوز الفاطميين، القاهرة ١٩٣٧م، فنون الإسلام، القاهرة ١٩٤٨م.
- يوسف، عبد الرؤوف علي، دراسة في الزجاج المصري في العصر الإسلامي، مارس ١٩٦٩م.=

= - الباشا، حسن، وآخرون، القاهرة تاريخها. فنونها. آثارها، ١٩٧٠م.
- مرزوق، عبد العزيز، الفنون الزخرفية الإسلامية في مصر قبل الفاطميين، القاهرة ١٩٧٤م.
- نويصر، حسني، الآثار الإسلامية، القاهرة ١٩٩٦م.
- Lamm (C.J.), Mittellaterliche Glaser Und Steinschnittarbeiten aus dem Naher Osten, 2 vols. Berlin 1929.
- Basta, (S.J.), Astudy of ancient Islamic glass in Egypt, Master thesis, Faculty of Sciences Ain Shams University, Cairo, 1976.

Scanlon (G.T.), Rich finds at Fustat diggings in Egyptian Mail, 1985. =

بطبقة رقيقة أخرى من الزجاج الأبيض الشفاف يتم نفخها أمام النار، ولا تستخدم أي مادة لاصقة بين الإناء الداخلي والخارجي. ثم تحرق الآنية بالكامل في درجة حرارة معينة فيظهر الرسم ثابتاً كأنه بين طبقتين من الزجاج وليس على سطح الآنية نفسه[٤]. وقد نجح الفنان المسلم خصوصاً في العصر الفاطمي في تفادي عيوب هذه الطريقة من وجود فقاعات هوائية محصورة بن الطبقتين، بوضع كمية متوازنة من الزجاج الأبيض الشفاف المنصهر بحيث تغطي سطح الآنية بصورة تدريجية من الداخل إلى الخارج لتفريغ الهواء فيظهر تطابق في سطحي الآنية في الشكل والحجم[٥].

والأكاسيد الملونة التي استخدمت في هذه الطريقة هي :

- أكاسيد النحاس : فإذا استخدم في صورة أكسيد النحاسيك تم الحصول على اللون الأزرق وفي حالة وجود نسبة من أكاسيد الحديد فإن اللون يصبح بين الأزرق والأخضر.
- أكسيد الحديد وهو يوجد في صورة أيوني الحديدوز والحديديك، ويعطي كل منهما اللون الأزرق واللون الأصفر وخلطهما يعطي اللون الأخضر المائل للاصفرار.
- أكسيد المنجنيز، وهذا الأكسيد لا يعتبر عاملاً ملوناً، وإنما يعتبر عاملاً مزيلاً للون الأكاسيد الأخرى. وإذا وجد في صورة أكسيده الثلاثي يعطي لوناً بنفسجياً.
- أكسيد الكوبالت وهو يعطي بعد أكسدته اللون الأزرق أو يعطي اللون القرمزي[٦].

- أما الطريقة الثانية والمعروفة الانتشار في الزجاج والخزف فهي الزخرفة بالبريق المعدني.

وتعد هذه الطريقة من ابتكار الفنان المسلم أيضاً لدرجة أنها ارتبطت ارتباطاً تاماً بالفنون الإسلامية[٧]. فلقد كانت مصر سباقة في هذا

= - Tait (H.), Five thousand years of glass, London 1995.
- Carbni, (S.), Venezia Eloriente Attide Primo Simpsio International Sull'arte Venezianal L'arte Islamica, Venerzia, 9-12 December 1985.

(٤) - Osborne (H.), The Oxford Companion to Art. Oxford 1978, p. 744.
- Hodges (H.), Artifacts, an introduction to early materials and technology, London 1988. p. 61.
- Newton and Davison, Technology and Decoration of Glass. London, 1989. p. 87.
- Carboni, (S.), Venezia Eloriente. P. 19.

(٥) جاد الكريم، سلوى، دراسة ترميم وصيانة الآثار الزجاجية في مصر تطبيقاً على نماذج مختارة. مخطوط رسالة دكتوراه بكلية الآثار – جامعة القاهرة ١٩٩٥م، ص ٣٤ – ٣٥.

(٦) جاد الكريم، سلوى، علاج وترميم أربع قطع زجاجية من العصرين الإسلامي المبكر والمملوكي. مخطوط رسالة ماجستير بكلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٨٢م، ص ٤٤ – ٤٥.

(٧) - Basta (S.J.), A study of ancient Islamic glass, pp. 116-119.
- Tait (H.), Five thousand years of glass, p. 125.

المجال عن غيرها من الأقطار الإسلامية. حيث عرفت طرق صناعته منذ منتصف القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي على أقل تقدير، بينما لم يعرف هذا المنتج إلا في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي في الأقاليم الأخرى(٨).

وتتم هذه الطريقة بتطبيق صبغات من الأكاسيد المعدنية الملونة على سطح الزجاج وإحراقها في جو مختزل لإنتاج ألوان متباينة، وأهم الأكاسيد المعدنية التي استخدمت قديماً أكاسيد الذهب والنحاس والفضة وبرادة الحديد، ويتم إذابتها في الخل أو حامض آخر، وعند الاستخدام يضاف إليها وسيط زيتي، ويتكون من ذلك سائل يستخدم في الرسم على سطح الزجاج. وتحرق الآنية في جو مختزل في فرن ناره هادئه وهواؤه قليل ودخانه كثير بأول أكسيد الكربون، فينتج عن ذلك انصهار أكسيد المعدن بصورة رقيقة موزع على سطح الأنية بالتساوي وذو بريق متلألئ(٩).

- والطريقتان السابقتان تختلفان من حيث المضمون الفني والزخرفي للأسلوب الذي تطور والمعروف باسم "التمويه بالمينا". والمينا كلمة فارسية قديمة كانت تستخدم بمدلولات عديدة. فهي تعني بلوراً متعدد الألوان كان يستخدم في الترصيع، كما تعني أيضاً بلوراً أبيض أو زجاجياً أزرق أو الماس أو الزمرد أو الزبرجد وتكتب ميناء وتعني طلاء زجاج لامع(١٠). ويعرفها القزويني باسم "المرداسنج" نقلاً عن أرسطو بأنه حجر يتخذ من الرصاص، وهو تعريف قريب من الحقيقة لأن المرداسنج هو أول أكسيد الرصاص وهو من المواد الأساسية التي تدخل في تركيب المينا(١١). وبعد دراسة هذه المادة دراسة تكنولوجية وفنية اقترح أحد الباحثين بأن يطلق على هذا الأسلوب الفني في الزخرفة اسم "الزخرفة بالمينا" وليس " التمويه بالمينا"(١٢). لأن معنى التمويه في قواميس اللغة العربية مقصور فقط على عملية الزخرفة بماء الذهب والفضة، فيقال موه أو مهى أو ماه(١٣).

وكما سبق القول فإن هذه الطريقة انتشرت

---

(٨) نويصر، الآثار الإسلامية، ص ٣٥٤.

(٩) - Tait (H.), Five thousand years of glass, p. 127.
- مرزوق، الفنون الزخرفية قبل الفاطميين، ص ١١٩.
- جاد الكريم، دراسة وترميم وصيانة الآثار الزجاجية، ص ٣٣.

(١٠) نويصر، الآثار الإسلامية، ص ٣٥٦.

(١١) - Azeez (H.) and Ghietas (M.), Adictionary of archaeological and artistic terms, the EIP. 1993, p. 41.
نقلا عن :
- رمضان عوض رمضان، الآثار الزجاجية المزخرفة بالمينا المموهة بالذهب، مخطوط رسالة ماجستير بكلية الآثار، جامعة القاهرة سنة ١٩٩٩م، ص ٣٠.

(١٢) رمضان، عوض رمضان، الآثار الزجاجية، ص ٣١.

(١٣) يحيى، محمد بكري، فن المينا، القاهرة ١٩٦٨م، ص ٣، ٤.

في مصر في زخرفة الأواني الزجاجية الأيوبية، وزادت انتشاراً في العصر المملوكي لا سيما على زخرفة المشكاوات الزجاجية، وكذلك في العصر العثماني. ويعد استخدامها في الأخير أكثر دقة وإتقاناً حيث يتم استخدام الزخرفة بالمينا على الساخن، وبالتالي لم تتساقط المينا الملونة بمرور الزمن(١٤)، بينما كانت من قبل تستخدم الزخرفة على البارد فتتساقط طبقة التذهيب مع قدم الزمن وإن كانت تترك جزءاً كبيراً منها على سطح الإناء(١٥).

كل هذه الطرق الفنية التي انتشرت واستخدمت في صناعة الزجاج الإسلامي إذا دلت على شيء فإنما تدل على ابتكار الفنان المسلم على مر العصور الإسلامية، واستيعابه لجميع الطرق الصناعية التي سبقته.

أما عن الزجاج نفسه فيمكن تعريفه بمضمونه العادي بأنه مادة صلدة غير متبلورة سهلة الكسر وشفاف، تصنع بصهر الرمل مع الصودا أو البوتاس أو كليهما مع مكونات أخرى عند درجة حرارة غير ثابتة، كما لا تتجمد أيضاً عند درجة حرارة معينة(١٦).

وللحصول على زجاج شفاف نقي ملون يتم إضافة الأكاسيد المعدنية السابقة الذكر، ثم توضع هذه المكونات في بواتق توضع بدورها داخل قمائن كبيرة بشكل كاف لاستيعاب الإنتاج المطلوب(١٧).

ولاستخدام المعادن البراقة في زخرفة الزجاج فقد كانت ترجع إلى قديم الزمان، وصل المصريون القدماء إلى مهارة فائقة في طريقة لصق رقائق الذهب على الزجاج، وذلك دون التوصل إلى طريقة تحويل معدن الذهب إلى محلول سائل للزخرفة به على الزجاج. وهناك بعض الأمثلة على استخدام رقائق الذهب ترجع إلى الأسرة الثامنة عشرة – الدولة الحديثة لمصر الفرعونية(١٨).

ثم استخدمت هذه الطريقة – وضع رقائق ذهب على الزجاج – في مصر الرومانية، لكن من عيوبها أنها كانت عرضة للزوال، ولحمايتها من السقوط كان يوضع شبكة زجاجية بأسلوب الإضافة تحيط بالإناء من الخارج(١٩).

واستمر تطوير هذه الصناعة باستخدام أكثر من لون براق. وبداية استخدام أكسيد المعدن كان منذ الفترة البيزنطية في مصر وقبل

(١٤) أوقطاي أصلان آبا، فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد عيسى، استانبول ١٩٨٧م، ص ٢٧٠.

(١٥) - Newton (R.) and Davison (S.), Conervation of glass, London, 1995, p. 87.

(١٦) نحاس، رؤوف، صناعة الزجاج، القاهرة سنة ١٩٦٨م، ص ٨٨.

(١٧) - Hill, (D.R.), Islamic Technology An Illustrated History, Unesco, 1992, p. 154.

(١٨) - Newton, and Davision, Conservation of glass, p. 88.

(١٩) - Hodges, Artifacts. P. 61.

دخول الإسلام مباشرة، كما يظهر في إناءين صغيرين بمتحف فيكتوريا وألبرت بلندن بهما زخرفة نباتية شبيهة بالزخارف النباتية في دير باويط بصعيد مصر، ويرجعان إلى فترة الانتقال بين العصرين البيزنطي والإسلامي بمصر[٢٠]. ولكننا لا نطمئن إلى أن الزخارف الموجودة على بعض الأواني الزجاجية قبل الإسلام مرسومة بمادة البريق المعدني، على الرغم من أنها تشبهه في اللون[٢١].

وفي بداية العصر الإسلامي يمكن التأكيد بوجود أوان زجاجية صنعت في مصر مزخرفة بفن التذهيب والبريق المعدني، أي أن الفضل ينسب للفنان المصري المسلم في ابتكار ثم انتشار هذه الصناعة[٢٢].

والحق يقال أن ازدهار هذه الصناعة في مصر الإسلامية يعتبر استمراراً للتقاليد الموروثة، ثم الارتقاء بهذه الصناعة الدقيقة والإبداع في أساليب الزخرفة وإخراج كل ما هو جديد في الشكل والمضمون حتى صارت صناعة الزجاج وزخرفته تمثل باباً فريداً في ميدان الفن المصري والإسلامي.

وخير مثال على وجود هذه الاستمرارية أن مصلحة الآثار والبعثة الأمريكية عثرت على بقايا فرن من أفران صهر الزجاج من العصر الإسلامي بمدينة الفسطاط. ويتضح من تقارير البعثة أن هذه الأفران كانت تبنى على أطراف المدينة لأن صناعة الزجاج من الصناعات الضارة بالصحة، وكان يشترك في بنائها أن تكون جيدة التهوية وذات مساحات كبيرة وسقف مرتفع حتى يهيئ للصانع نفسه ظروف عمل جيدة[٢٣].

كما كان لصناعة الزجاج شأن عظيم في القرون الأولى للإسلام وحتى نهاية العصر الفاطمي لدى أصحابها أو صانعيها، حيث اقترنت وظيفة "الزجاج" بلقب عائلتهم لدرجة أنها كانت تكتب على شواهد قبور هؤلاء الصناع. فلقد وردت هذه الصنعة على شاهد قبر من الرخام من العصر العباسي مؤرخ بسنة ٢٤٧هـ/٨٦١م، يحتفظ به المتحف الإسلامي بكلية الآثار جامعة القاهرة[٢٤]. وعلى شاهد قبر من الحجر الرملي مؤرخ بسنة ٣٢٦هـ/٩٣٧م من العصر الأخشيدي باسم يوسف بن اسحق بن كامل الزجاج

(٢٠) مرزوق، الفنون الزخرفية قبل الفاطميين، ص ١١٩.

(٢١) زكي حسن، فنون الإسلام، ص ٥٨٥.

(٢٢) - Butler (A.J.), Islamic Pottery, A study Mainly Historical, London, 1926, p. 21.

(٢٣) داود، مايسة محمود، المشكاوات الزجاجية في العصر المملوكي، مخطوط رسالة ماجستير بكلية الآداب، جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥م، ص ٢٠٣. =

= - أبو سديرة، سيد طه، الحرف والصناعات في مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي، سلسلة الألف كتاب الثاني العدد ٩٥، القاهرة ١٩٩١م، ص ١٢٤.

(٢٤) الجهيني، محمد محمود، شاهد قبر أبو الفرج الزجاج المحفوظ بالمتحف الإسلامي بكلية الآثار، جامعة القاهرة، مجلة كلية الآداب بقنا جامعة جنوب الوادي، العدد السابع لسنة ١٩٩٧م، ص ٢٣٣.

ويحتفظ به متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، وعلى شاهد آخر من الحجر الرملي من العصر الفاطمي بمصر مؤرخ بسنة ٤٠٣هـ/ ١٠١١م باسم محمد بن مرزوق الله بن عيسى ابن اسحق بن كامل الزجاج ويحتفظ به المتحف نفسه[٢٥]. وفي الأخير تأكيد لوجود مدارس فنية في صناعة الزجاج استمر إنتاجها على مر العصور الإسلامية المبكرة وحتى نهاية العصر الفاطمي كان يتوارثها الأبناء عن آبائهم مثل غيرهم في الصناعات الإسلامية الأخرى.

كما وصلنا أيضاً قطع من الأواني الزجاجية على بعضها زخارف مذهبة براقة تضم توقيع وأسماء صانعيها، تؤكد أيضاً استمرارية إنتاج مدارسهم الفنية في صناعة الزجاج، فيوجد بالمتحف الإسلامي بالقاهرة قطعة يقرأ عليها "عمل نصير بن أحمد بن هيثم" وهي خاصة بالأمير ربيعة بن أحمد بن طولون، الذي قتل إثر ثورته على ابن أخيه هارون بن خمارويه سنة ٢٨٤هـ/٨٩٦م، وقطع أخرى بالمتحف نفسه عليها اسم "عباس بن نصير" وهو زجّاج قاهري من العصر الفاطمي ربما كان ابن الزجّاج الأول[٢٦]. كل هذا بالإضافة إلى كل من زاول هذه الصنعة من مشاهير المسلمين ممن وصلتنا أسماؤهم من طائفة الفنانين والمزخرفين والمذهبين الذين وضعوا بصماتهم الفنية وساهموا بقسط كبير في تقدم صناعة الزجاج[٢٧].

ومن خلال ما تقدم نجد أن صيغة "زجاج" تشمل المعنى والمضمون في هذه الصنعة، والأجدر بنا عند الحديث عن هذه الصناعة ووظيفة صانعيها أن نقول "مزخرف الزجاج" أكثر مما نقول "صانع الزجاج" لأنه من الإنصاف أن نعطي الأول حقه، فجمال وروعة التحفة الزجاجية يتجلى من خلال جودة الصنعة وحسن المظهر وجمال الزخارف التي تحليها من الداخل والخارج، وهذا يعني أن دور مزخرف الزجاج لا يقل أهمية عن دور صانع الزجاج من أجل إنتاج تحفة زجاجية يشهد لها بحسن الصنعة وجمال الزخارف.

وتجدر الإشارة إلى أنه يصعب في كثير من الأحيان نسب التحف الزجاجية إلى أقليم محدد خصوصاً في صناعة الزجاج التي ترجع إلى القرون الثلاثة الأولى للإسلام، وذلك بسبب تشابه الأساليب الفنية والزخرفية إلى حد كبير بين دول الشرق الأوسط الإسلامي مصر وسوريا والعراق، اللهم إلا إذا وجد عليها ما يثبت ذلك من مدن صناعته[٢٨].

---

(٢٥) الباشا، حسن، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ١٩٦٦م، ج ٢، ص ٥٦١ - ٥٦٢.

(٢٦) - R.C.E.A., Répertoire Chronologique D'Epigraphie arabes. Le Caire (Dépuis) 1931, Tom, VI, p. 76.

(٢٧) عبد الوهاب، حسن، توقيعات الصناع على آثار مصر الإسلامية، المجمع العلمي المصري، الجزء الثاني سنة ١٩٤٥م، ص ٥٣٨.

(٢٨) ماهر، سعاد، الفنون الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٥٨.

ففي مصر الإسلامية عرفت مدن كثيرة، واشتهرت كمراكز لصناعة الزجاج المزخرف والمذهب، يأتي في مقدمتها مدينة الفسطاط والتي اشتهرت كأهم مركز لصناعة الزجاج حتى نهاية العصر الفاطمي، كما عرفت مدينة تنيس ببحيرة المنزلة بصناعة الزجاج وكذلك مدينة الفيوم والأشمونيين وأخميم(٢٩).

وتعد مصر الإسلامية هي أول دولة إسلامية عرفت صناعة التذهيب بأكسيد المعدن على الزجاج وهي الطريقة الفنية الثانية لصناعة التذهيب بالزجاج(٣٠)، حسب ما جاء ذكرها في هذا البحث.

فالمتحف الإسلامي بالقاهرة به قطعتان من الزجاج، زخرفت كل منهما بزخارف متنوعة بالتذهيب الخارجي على سطحها، وهما من أول وأقدم الأمثلة لهذه الصناعة.

- القطعة الأولى عبارة عن كأس (لوحة١أ، ب، ج) عثرت عليه البعثة الأمريكية في حفائرها بمدينة الفسطاط سنة ١٩٦٥م(٣١).

والكأس مخروطي الشكل يتألف من عدة أجزاء صغيرة ملتصقة، وينقص من حافته وجداره جزء صغير مثلثي الشكل، كما ينقصه أجزاء صغيرة أخرى في بعض المواضع.

والزخارف المذهبة بالبريق المعدني على جدرانه باللون العسلي Amber Iustre وتضم زخارف كتابية بالخط الكوفي البسيط بالإضافة إلى عناصر نباتية متنوعة. فعلى الحافة العلوية شريط صغير شغل بالنص الكتابي "بسم الله الرحمن الـ ... عبد الصمد ابن علي أصلحه الله وأعز نصره". يلي ذلك شريط آخر صغير متشابه في المساحة للشريط السابق ولكنه شغل برسم فرع نباتي متموج يحصر بداخله نقاط دائرية متشابهة ومطموسة بلون البريق. يلي ذلك شريط دائري عريض به زخارف نباتية لزهرة اللوتس متجاورة داخل مناطق لوزية الشكل يتخللها من على الجانبين أنصاف مراوح نخيلية، أما قاع الكأس فقد شغل بالكامل برسم وريدة متعددة البتلات مجسمة تجسيماً خفيفاً.

والنص المكتوب على هذه الكأس لأمير كان أحد أفراد أسرة الخلافة العباسية على مصر، وقد تولى ولاية مصر سنة ١٥٥هـ/ ٧٢٢ ـ ٧٧٣م أيام الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور(٣٢). وكانت هذه الفترة التاريخية تمثل نضوج الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بمصر(٣٣). وتشهد هذه التحفة الجميلة أن مصر قد صنعت من أواني الشراب

(٢٩) حسن، زكي، كنوز الفاطميين، القاهرة، ١٩٣٧م، ص ٢١ ـ ٢٣.
(٣٠) انظر : الطرق الصناعية الثلاث في مقدمة هذا البحث.
(٣١) رقم السجل بالمتحف ٢٣٢٨٤، قطر ١٣,٥ سم، ارتفاع ٩ سم، قطر القاعدة ٥,٥ سم، سمك ٢,٥مم.

(٣٢) يوسف، الزجاج، ص ٣٣٣.

(٣٣) الكندي، كتاب الولاة والقضاة، طبعة بيروت، ١٩٠٨م، ص ١١٦.

وكؤوسه تحفاً فاخرة وزينتها برسوم جميلة نافست فيها حاضرة الخلافة في بغداد إذ ذاك.

والجدير بالملاحظة أن العنصر النباتي الجذاب الرئيسي والذي زخرف به هذه الكأس وهو زهرة اللوتس، أصولها آسيوية تطورت إلى أشكال عربية إسلامية غاية في الإبداع. وانتشر على كثير من المنتجات الفنية الإسلامية المبكرة، وخير مثال لها على الأفريز أو الطبلية الخشبية فوق أعمدة رواق القبلة بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط وهي ترجع إلى تجديدات الوالي العباسي عبد الله بن طاهر في هذا الجامع سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م(٣٤).

كما أن عنصر الوريدة المتعددة البتلات انتشرت على العمارة والفنون الإسلامية بعد ذلك، فعلى سبيل المثال وجدت في أسقف أبواب مدينة القاهرة الفاطمية من عمل الوزير بدر الجمالي لا سيما باب النصر ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م، وعلى زخارف القبة الحجرية الملحقة بخانقاة السلطان الأشرف برسباي بقرافة المماليك ٨٣٥هـ/١٤٣٢م. أما على الفنون الفرعية فلقد انتشرت هذه الوريدة بأشكالها المتعددة على كثير من المنتجات المعدنية، لدرجة أنها ميزت الأعمال الفنية لأسرة بني قلاوون عن غيرهم من الأسر الحاكمة الأخرى(٣٥).

ونوع الخط الذي زخرف به هذه الكأس هو الخط الكوفي الذي لم يصبه التوريق أو الإزهار أو التخميل وأن مادته كتابية بحتة أيضاً مثل البدائي والبسيط، وقد عرفه أ.د. مصطفى نجيب بالخط الكوفي البرعمي، وذلك أثناء عمل دراسة جديدة لنص ١٣٦هـ بالجامع الكبير بصنعاء، على أساس أنه الخط الكوفي البسيط وقبل الكوفي المزهر، حيث إن الأخير شبه بالزهرة التي كانت داخل كمها أو برعمها ثم خرجت منه وأزهرت، أما البرعمي فيتميز بأن له هامات ونهايات لحروفه تشبه برعم الزهرة قبل تفتحها(٣٦).

وتشبه تماماً كتابات الكأس بكتابات النص الذي قام بدراسته أ.د. مصطفى نجيب، كما أن النصين ضم كل منهما صيغة متكررة وهي "أصلحه الله". والتي يبدو أنها كانت منتشرة في الأمصار الإسلامية التابعة للخلافة العباسية في بغداد وكانت تكتب ضمن النصوص الكتابية الخاصة لولاة هذه الأمصار.

---

(٣٤) شافعي، فريد، العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، عصر الولاة ٢١ – ٣٥٨ (٦٣٩ – ٩٦٩)، القاهرة ١٩٧٠م، ص ٢٧٥، شكل ١٨١، ص ٣٦٤، شكل ٢١٠.

(٣٥) أسين أتل، نهضة الفن الإسلامي في العهد المملوكي، الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٨١، ص ٦٤ – ٦٥، لوحات ٢٦، ٣٢، ٣٣، ١١٣.

(٣٦) نجيب، مصطفى، دراسة جديدة لنص ١٣٦هـ بالجامع الكبير بصنعاء، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد السابع، سنة ١٩٩٦م، ص ١٢.

- والقطعة الثانية التي زخرفت بنفس أسلوب الكأس السابق قطعة من الزجاج الفريد (لوحة ٢) تعد أقدم قطعة مؤرخة من الزجاج المصري الإسلامي المذهب بالأكاسيد المعدنية. وهي تمثل قاع إناء صغير[٣٧]. من الزجاج الأبيض الشفاف ذهبت بالأكاسيد المعدنية باللونين الأصفر والبنفسجي الداكن، وقوام زخرفتها رسم وريدة محورة بخطوط شبه هندسية بسيطة تشغل حيز القاعدة، يلي ذلك من خارجها نص كتابي بالخط الكوفي البسيط غير المعجم نصه "من عمل طراز الفيلة بمصر سنة ١٦٣هـ - مكتوبة بالأرقام القبطية" أي أنها تعادل سنة ٧٧٩م. وهي بذلك صنعت في أيام الوالي العباسي على مصر يحيى بن داود بن ممدود الحرشي في عهد الخليفة العباسي المهدي سنة ١٦٢ – ١٦٤هـ/٧٧٨ – ٧٨٠م. حيث كانت الخلافة العباسية في بغداد لا تزال في أوج قوتها وسيطرتها على الأمصار التابعة لها، وذلك من خلال عمالها ذوي المهن المرموقة في الدولة[٣٨].

والجدير بالذكر أن كتابة التواريخ على التحف والآثار الإسلامية بالحروف القبطية استمر وجودها في مصر حتى العصر الفاطمي، حيث يتضح ذلك من خلال مجموعة من الوثائق المكتوبة على أوراق البردي[٣٩].

وعند العودة إلى شكل ومضمون النص الكتابي يُلاحظ فقدان جزء من بداية النص، ومن خلال تحديد حجم ومساحة هذا الجزء المفقود والمضمون العام للنص كله يمكن وضع كلمة "من" ثم يأتي بعدها كلمة "عمل" وبها مد طويل لحرف "اللام" كما هو واضح في النص ثم يأتي بعدها كلمة "طراز" ليصبح النص كاملاً كما سبق قراءته. ولا توجد كلمة "في" بالنص على الرغم من أن معظم المراجع صارت على منوال القراءة التي قرأها الأستاذ عبد الرؤوف علي يوسف بصيغة "مما عمل في طراز الفيلة بمصر سنة ثلاث وستين ومائة"[٤٠].

وشكل الخط المستخدم في النص يمثل الشخصية المتميزة للخط الكوفي والتي بدأت تظهر بوضوح في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، السابع الميلادي. حيث أصبحت الحروف أكثر جموداً وذات طابع هندسي واضح نتيجة تلاقي خطوط الحروف الأفقية مع الحروف الرأسية المتعامدة عليها فتكونت زوايا عديدة ميزت هذا الخط لدرجة أنه يوصف بالخط المزوي نسبة إليها[٤١].

(٣٧) رقم السجل بالمتحف ١٢٧٣٩/٩، قطر القطعة ٥,٤ سم، قطر القاعدة ٢,٥ سم، الارتفاع ١,٧ سم، السمك ٢ مم.

(٣٨) ماجد، عبد المنعم، العصر العباسي الأول، القاهرة ١٩٧٣م، ج ١، ص ١١٦.

(٣٩) يوسف، أبحاث الندوة، ص ٦٥٢.

(٤٠) نويصر، الآثار الإسلامية، ص ٢٢٢.

(٤١) عليوه، حسين عبد الرحيم، الكتابات الأثرية العربية، دراسة في الشكل والمضمون، القاهرة ١٩٨٤م، ص ٨.

وتعد هذه القطعة هي أول تحفة فنية إسلامية بمصر يزين الفنان نصها بزخارف نباتية بسيطة. حيث ستأتي محاولته فيما بعد لتزويق وتطوير هذا الخط ليصبح تسميته بالخط "الكوفي المزهر". أما الوريدة المحورة بمنتصف القاع فهي تمثل بداية محاولات الفنان في رسم العناصر النباتية الجيدة والمنسقة التكوين والمعروفة باسم الوريدات البتلات؛ على الرغم من أن فن صناعة المعادن الإسلامية كان سباقاً على التحف الأخرى في زخرفة هذا العنصر وبصورة جيدة(٤٢).

كما أن الشكل العام لهذه الوريدة – على القاع – يمثل أيضاً المحاولة الأولى لبداية تنسيق العناصر الهندسية تنسيقاً مدروساً لتصبح فيما بعد العنصر الهندسي الرائع المعروف بالطبق النجمي.

وقد اختلفت الآراء والاحتمالات في تسمية "الفيلة" الواردة في النص، هل هي "بالفاء" أو "بالقاف".

وإنني أميل بأنها "بالفاء" والفيلة كان اسم مصنع من مصانع الزجاج بمصر الفسطاط، وذلك استناداً إلى النص في الصيغة "من عمل" وهذا يدل على أن هذا المصنع كان من أهم وأكبر مصانع الزجاج إنتاجاً في مصر كلها، فقد تميزت أفرانه بالدقة والنقاء وكثرة الطلب عليه سواء من العامة أو الخاصة جعلته في المقدمة عن غيره في المنطقة والبلدان المصرية.

ويبدو أن صناعة التذهيب قد قلت في الفترة التالية بعد صناعة القطعتين السابقتين، ولم يصل إلينا إلا نادراً وإن كانت غالبية صناعته بالأسلوب الفني التقليدي الموروث مثل النفخ والقطع والإضافة. كما يبدو أيضاً أن طريقة التذهيب بالأكاسيد المعدنية بدأت تنتشر بصورة أكبر على الخزف، اعتقاداً من الفنان بأن هذه المادة أكثر رواجاً من الزجاج وأقل تعرضاً للكسر. وعليه يمكن القول بأن صناعة التذهيب على الزجاج اختفت في مصر الإسلامية منذ القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي وتحولت مصانعه إلى صناعة الخزف ذي البريق المعدني، إلا أنها عادت مرة أخرى في الإنتاج منذ القرن الرابع الهجري : العاشر الميلادي وطوال العصر الفاطمي بمصر وتحمل معها خبراتها السابقة ولتنتج نماذج رائعة ومبتكرة من حيث الشكل والمضمون كما سيأتي الحديث بعد.

والدلائل التي تشير إلى ندرة إنتاج الزجاج المذهب في القرن ٣هـ/٩م، هو ما كشفت عنه حفائر الفسطاط لبعض قطع الخزف ذي البريق المعدني ترجع إلى العصر الطولوني

---

(٤٢) حسن، زكي محمد، أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية، القاهرة ١٩٥٦م، شكل ٩، ٤٤١، ٥١٦. =

= - Eva Baer, Islamic Ornament, Edinburgh 1998, p. 62, Fig. 73-74.

عليها مناظر رسوم آدمية تمثل موسيقيين، مثل موسيقي يعزف على عود أو رجل يقعد متربصاً أو غير ذلك[٤٣].

وشهدت مصر خلال العصر الفاطمي ٣٥٨ ـ ٥٦٧هـ / ٩٦٩ ـ ١١٧١م رواجاً وتقدماً في صناعة المنتجات الزجاجية بالأكاسيد المعدنية زخرفت برسوم كتابية وطيور وحيوانات وزخارف نباتية وهندسية وغيرها رسمت بنفس الأسلوب المعروف على أواني الخزف ذي البريق المعدني من هذا العصر[٤٤] ـ بالإضافة إلى الطريقة المبتكرة كما سبق ذكرها ـ مما يقطع بارتباط صناعة الزجاج بالخزف في هذا العصر وبأن بعض الفنانين كانوا يعملون في كلا الميدانين في وقت واحد. ومن هذه الأمثلة[٤٥].

- جزء من قاع إناء[٤٦] من عجينة زجاجية عليه زخرفة بالتذهيب بالأكاسيد المعدنية المطبقة على سطحه (لوحة ٣) وهي الطريقة التقليدية المعروفة. ولهذه القطعة خلفية مزخرفة بالتذهيب أيضاً (لوحة ٤).

وباطن القاع من الداخل عليه زخرفة مذهبة باللون الذهبي لدوائر مختلفة المساحات ذات مركز واحد. ففي المنتصف توجد كلمة بالخط الكوفي المزهر محجوزة بلون البطانة بصيغة "عافية" بنفس طريقة البريق المعدني على الخزف والتي تعد نموذجاً متطوراً لفن الزخرفة في القرن السادس الهجري / الثاني الميلادي[٤٧]. يحدد هذه الكلمة من أعلى ومن الأسفل رسوم شبه مضفرة، يلي ذلك دائرة أخرى أكثر اتساعاً شغلت برسوم متراصة بالحجز أيضاً تشبه عين الكتكوت وهي تسمية من صناع المهنة أنفسهم. يلي ذلك رسوم لأفرع نباتية ملتوية مذهبة على أرضية بيضاء زخرفت على نمط زخرفة التوريق العربي المعروفة باسم (أرابيسك). أما القاع فزخرف بزخارف هندسية وأوراق نباتية محورة وخطوط غير منتظمة باللونين الذهبي والأزرق الداكن على أرضية بيضاء، وفي المنتصف يوجد توقيع الصانع بخط سميك يميل إلى الخط النسخ مما يؤكد أن هذه القطعة ترجع إلى القرن السادس الهجري. والتوقيع

(٤٣) الباشا، حسن، فنون التصوير الإسلامي في مصر، القاهرة ١٩٧٣م، ص ٥١.

- Ali Bahgat et Félix Massoul, la Céramique Musalmane de I'Egypte, Le Caire, 1936 Pls. II-V.

(٤٤) - Lane-Poole, (S.), The Art of the Saracens in Egypt, London, 1886, p. 207.

(٤٥) ستوضح الدراسة التحف المنشورة والتي لم يسبق نشرها من خلال الوصف الزخرفي لكل قطعة، =

= بالإضافة إلى توضيح القطع التي زخرفت بالأسلوب التقليدي السطحي أو المزخرفة بالأسلوب المبتكر.

(٤٦) رقم السجل بالمتحف ٦٩٤٩، أكبر طول ٨,٤ سم، أكبر عرض ٦,٩ سم، القاعدة ٤ سم، السمك ٤ مم، ينشر لأول مرة.

(٤٧) - Migeon, G., Manuel d'Art Musulman, Arts Plastiques et Industriels, Paris 1927, II. P. 118, Fig. 187.

- Lamm C.J., Mittellaterliche glaser, p. 127, Tafel 45/8.

بصيغة "زكرى"، وهو من أشهر الفخاريين والخزفيين المسلمين الذين ظهرت لهم توقيعات منذ أوائل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي[٤٨]. وربما يكون هذا الصانع مذهباً قد قام بالتذهيب على الزجاج بعد الانتهاء من زخرفته، أو ربما كان صانعاً يمتلك مصنعاً في مدينة الفسطاط وكانت تختم الأواني وتوقع باسمه سواء كانت من الفخار أو الزجاج وذلك لتسويقها محلياً وخارجياً.

ومما لا شك فيه أن هذا الصانع يعتبر استاذاً مثل أساتذة هذه الصناعات وكان له تلاميذ استمروا في التوقيع على القطع حتى العصر المملوكي، ولدينا أمثلة لذلك في فن الخط مثل الخطاط ياقوت المستعصمي الذي كان يوقع تلاميذه باسمه، رغم أنهم هم الذين قاموا بكتابة المصحف حتى بعد وفاته وذلك لتسويقها[٤٩].

كما أنه يبدو من الاسم أنه مصري نصراني. ولا غرابة في ذلك إذ من المعروف أن أقباط مصر حملوا لواء معظم الصناعات الفنية والزخرفية لمدة طويلة بعد الفتح العربي، وأن عدداً كبيراً منهم لا يزالون على دينهم المسيحي[٥٠].

- جزء من حافة طبق من الزجاج المذهب بأكسيد معدني بني اللون[٥١]. عليه كتابة بالخط الكوفي المورق المذهبة على أرضية بيضاء تقرأ " .. أبي علي الحسين ابن علي بن القـ ..." لوحة (٥).

وقد نفذت هذه الكتابات وزخارفها بنفس الأسلوب السابق للقطعة السابقة وهو التطبيق بالأكاسيد المعدنية على السطح الخارجي للإناء.

ومن خلال مضمون كتابات هذه القطعة وشكلها يرجح بأن تنسب إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. إذ من المعروف أن هذه العبارات كانت تكتب كثيراً على الفنون التطبيقية وعلى العمائر الفاطمية في تلك الفترة[٥٢]، بالإضافة إلى أن كثيراً من خلفاء الدولة الفاطمية خصوصاً في بداية حكمهم كان ينتهي نسبهم ويكتب بهذه الصيغة[٥٣]. وبمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة لوح من الرخام المحفور حفراً بارزاً عليه كتابة مشابهة بالقطعة السابقة يقرأ فيه اسم

(٤٨) يوسف، عبد الرؤوف علي، الفخار، كتاب القاهرة، ص ٣٢٣.
(٤٩) الباشا، حسن، الخط هو الفن العربي الأصيل، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، القاهرة ١٩٩٩م، المجلد الثالث، ص ١٦٤.
(٥٠) المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق، ١٢٨٠هـ، ج ١، ص ١٨١. انظر أيضاً : =
= - الفريد ج. بتلر، فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، مكتبة الأسرة ١٩٩٩م، ص ٥١٤.
(٥١) رقم السجل بالمتحف ١٣٩٦٦، أكبر طول ٩,٣ سم، أكبر عرض ٢,٨ سم، السمك ١,٥ مم. تنشر لأول مرة.
(٥٢) حسن، أطلس الفنون، شكل ٣٥٩.
(٥٣) المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٣٤٩.

شخص علوي يدعى حمزة بن علي، ثم يرفع نسبه إلى علي بن أبي طالب ويتبع ذلك بالصيغة الدعائية المعتادة عند الشيعة عند ذكر اسم علي. واللوح من العصر الفاطمي يرجع إلى نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي[(٥٤)].

- ومن القطع الزجاجية التي نفذت بنفس الأسلوب الفني السابق، جزء من جدار كأس كان مخروطي الشكل[(٥٥)]. مذهب بالأكاسيد المعدنية البنية اللون (لوحة ٦) على السطح الخارجي فقط وتم حرقه في الفرن ويرجع أيضاً إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.

وتضم هذه القطعة شريطاً ضيقاً من أعلى الفوهة الخارجية للكأس محدداً من أعلى وأسفل بلون التذهيب، وشغل بداخله بنفس لون التذهيب على أرضية بيضاء نص كتابي بالخط الكوفي البسيط يقرأ منه " ..ـن الله الصاحبه الله لكل ..." ويبدو أن النص كان "بركة من الله الصاحبه الله لكل ...". يلي ذلك من أسفل تحديد بالإضافة من مادة الزجاج بارزة باللون الأخضر الفاتح، ثم مساحة كبرى تشغل معظم حيز الكأس شغلت بكتابات كوفيه مورقة يتخللها أفرع نباتية تمثل المرحلة الأولى لبداية ظهور الخط الكوفي المزهر الذي انتشر بعد ذلك خلال العصر الفاطمي ويقرأ من النص "... له لـ..." ويبدو أنها كانت جزءاً من النص العلوي. وذلك بالتذهيب البني على أرضية شفاف بيضاء هي لون الزجاج.

وتشهد هذه التحفة أن مصر قد صنعت من أواني الشراب وكؤوسه الزجاجية تحفاً فاخرة وزينتها برسوم جميلة نافست وتفوقت فيها الحضارات السابقة عن العصر الفاطمي. والجدير بالذكر أن مضمون كتابات هذه القطعة انتشر على كثير من منتجات هذه الفترة فصيغة "بركة" بالخط الكوفي المورق وجدت زخرفتها على قدر من الخزف الأبيض ذي نقوش خضراء وزرقاء من مصر من القرن الرابع الهجري أو الخامس الهجري/ ١٠ – ١١م[(٥٦)].

كما وجدت صيغة "بركة لصاحبته" مشابهة لقطعة موضوع الدراسة مزخرفة على قنينة من البللور الصخري بالمتحف نفسه[(٥٧)].

ووجدت على قطعة أخرى من البللور الصخري بصيغة "بركة لصاحبه" بالمتحف نفسه[(٥٨)]. والقطعتان ترجعان إلى العصر الفاطمي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. أي أن هذه الصيغة الدعائية يبدو

(٥٤) وزارة الثقافة : معرض الفن الإسلامي في مصر من ٩٦٩ إلى ١٥١٧م، ص ٢٦١، لوحة ٣٢.

(٥٥) رقم السجل بالمتحف ١٤٧٣٠/٤، مشتراه من مسيو نانو سنة ١٩٤٣م، ارتفاع ٦,٩ سم، سمك ٣ مم.

(٥٦) حسن، فنون الإسلام، ص ٣٢١، شكل ٢٥٢.

(٥٧) - Lamm, Mittellaterliche glaser, p. 207, Tafel 74/3.

(٥٨) - Lamm, Mittellaterliche glaser, p. 110, Tafel 34/8.

أنها انتشرت على معظم المنتجات الفنية في هذه الفترة وما بعدها.

- ومن القطع الزجاجية التي نفذت أيضاً بالأسلوب الفني السابق ومذهبة باللون البني أيضاً[(٥٩)] جزء من حافة علوية لإناء متسع من فتحته العلوية (لوحة ٧). وهي ترجع إلى أواخر القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس / العاشر، والحادي عشر الميلادي. ويزينها من الخارج شريط من شبه الكتابة الكوفية المورقة عبارة عن حرف "كا" متكرر، وشرطة الكاف مثنية بأسلوب زخرفي يبدو وكأنه فرع ملتوي.

وبالمتحف نفسه سلطانية من الزجاج، ذات قاعة مدورة. تزينها من الداخل زخارف تشبه تماماً زخارف القطعة السابقة – موضوع الدراسة – ومذهبة بأكسيد معدني بني اللون قاتم[(٦٠)].

كما يوجد شبيه لزخارف هذ القطعة على إناء زجاجي من العصر الفاطمي ومذهب بنفس الأكاسيد المعدنية يرجع إلى بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ومحفوظ بمتحف فكتوريا وألبرت[(٦١)].

- وبنفس الأسلوب الفني السابق وباستخدام الأكاسيد المعدنية المذهبة باللون البني الفاتح والقاتم هناك جزء كبير لسلطانية صغيرة من الزجاج ذات قاعدة مدورة والجوانب منفرجة انفراجاً طفيفاً[(٦٢)]. (لوحة ٨). يزينها من الخارج عند الحافة العلوية خطان متوازيان أسفلهما بقايا رسوم كتابية غير مقروءة بأسلوب نباتي وهندسي. وترجع هذه القطعة إلى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي.

- ولم تقتصر القطع – موضوع الدراسة – على زخرفتها بالزخارف الكتابية المقروءة وغير المقروءة بأسلوب نباتي أو هندسي، وإنما يوجد قطع زجاجية زينت بزخارف أشكال طيور وزخارف كتابية. فيوجد بالمتحف جزء من قاع إناء (لوحة ٩)[(٦٣)]، باللون الأبيض الشفاف نفذت زخارفها بالأسلوب الفني المبتكر – وضع طبقة رقيقة من أكسيد المعدن وعليه طبقة أخرى من الزجاج الشفاف – ترجع إلى نهاية القرن الخامس، بداية السادس الهجري / الحادي عشر، الثاني عشر الميلادي. ويزينها بأكسيد معدني

---

(٥٩) رقم السجل بالمتحف ١٤٠٥٩، طول ٩,٢ سم، عرض ٦,٣ سم، سمك ٣ مم، تنشر لأول مرة، مصدرها من حفائر الفسطاط في ٢٠ يونيو ١٩٣٨م.

(٦٠) - Lamm, Mittellaterliche glaser, p. 110, Tafel 34/8.

(٦١) - Lamm, Mittellaterliche glaser, p. 117, Tafel 37/10.

(٦٢) رقم السجل بالمتحف ١٤٤٦٤/٣، أكبر طول ٨,٨ سم، أكبر عرض ٣,٨ سم، سمك ٢ مم، تنشر لأول مرة، مشتراه.

(٦٣) رقم السجل بالمتحف ١٤٤٥٩/١، أكبر طول ٧,٥ سم، أكبر عرض ٩,٣ سم، سمك ٣ مم، تنشر لأول مرة، وعثر عليها في حفائر ميدان المملكة فريدة خلف البوستة في ٢٩ يوليو ١٩٣٩م.

بني فاتح رسم طائر (عصفور) في قاع القطعة المستدير واقف ومتجه إلى اليمين، وهو يمسك في منقاره فرعاً نباتياً ملتوياً ينتهي بأوراق دقيقة، يمثل هذا الفرع خلفية هذا القاع، وعلى بقية الجدران كتابات الخط الكوفي المورق يقرأ منها ".. العز .." ويبدو أنها جزء من عبارة "اليمن والعز والإقبال" وهي صيغة دعائية انتشرت على بعض قطع النسج الفاطمي التي ترجع إلى المرحلة الثالثة في ٦هـ/١٢م(٦٤).

ولقد تكررت هذه العناصر الزخرفية في كثير من المنتجات الفنية الفاطمية لاسيما رسم الطائر، فنجده على الزجاج المزخرف بالبريق المعدني في كسر من قاع صحن بالمتحف نفسه(٦٥). وظهر أيضاً على نماذج متعددة من الأواني الخزفية المرسومة بالبريق المعدني ويخرج من منقاره أيضاً فرعاً نباتياً مثل تلك الموجودة على قاع إناء صغير محفوظ بمتحف كلية الآثار جامعة القاهرة(٦٦). كما أن رسم الطائر مثل مكرراً أو مع عدة طيور على كثير من المنتجات الفاطمية في الخزف والعاج(٦٧).

ومن العناصر الزخرفية الحيوانية الرائعة على قطع الزجاج المذهب قطعة تمثل جزءاً من قاع إناء من الزجاج الأبيض الشفاف (لوحة ١٠) عليه زخرفة بالأكاسيد المعدنية بالأسلوب المبتكر السابق باللون البني القاتم(٦٨). قوامه الزخرفي رسم غزال نابض بالحياة طويل القرون يجري في اتجاه اليمين، وهو يحمل في فمه فرعاً نباتياً ينتهي بورقة مخروطية الشكل تشبه القلب، ويزين الأرضية أفرع أخرى ملتوية تخرج منها أوراق متشابهة، والغزال مرسوم بعناية ودقة، وأجزاء من البدن كالصدر والبطن والفخذ مجسمة بنقط دقيقة وتظهر ناصعة خالية من الطلاء المعدني.

وهذه القطعة بأسلوبها الفني المبتكر ترجع إلى بداية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. كما أن رسم الغزال انتشر بصورة جلية سواء مفرداً أو مع مجموعات على كثير من المنتجات الفنية الفاطمية وبخاصة الخزف ذو البريق المعدني، مثال ذلك صحن من الخزف يرجع إلى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بالمتحف نفسه(٦٩). كما ظهرت على زخرفة

---

(٦٤) حسن، أطلس الفنون، شكل ٥٩٧.

(٦٥) وزارة الثقافة، معرض الفن الإسلامي، ص ٢٢٩.

(٦٦) رقم السجل ١٢٩٧.
انظر أيضاً :
- حسين، محمود إبراهيم، الفنون الإسلامية في العصر الفاطمي، القاهرة ١٩٩٩م، ص ١٥٣.

(٦٧) نويصر، الآثار الإسلامية، ص ٢٣٠.

(٦٨) رقم السجل بالمتحف ١٤٥١٩، الطول ١١,٥ سم، العرض، ٩,٥ سم، السمك في الأطراف ٣ مم، وفي المنتصف ١ مم، مشتراه.

(٦٩) - Ali Bahgat et Massoul, (F.), le Céramique Musulmane De L'Egypte. Le Caire, 1930, pl. 24.
وانظر أيضاً : =

العاج الفاطمي[٧٠].

ولم يقتصر رسم الغزال على الفنون الفرعية الفاطمية، بل وجد بصور جلية ودقيقة ورائعة على بعض المنتجات الفنية في العصر المملوكي بمصر، وخير مثال على ذلك جزء من قاع إناء من الخزف المصري من عمل الخزاف "غزال" محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة أيضاً[٧١]. وهذا يؤكد استمرارية العناصر الزخرفية المصرية على طوال فتراتها التاريخية.

- ومن القطع الزجاجية التي نفذت بنفس الأسلوب الفني السابق المبتكر وزينت بزخارف حيوانية وطيور، قطعة تمثل جزءاً من إناء من الزجاج الأبيض الشفاف (لوحة ١١)[٧٢]. ترجع إلى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. زينت بأكسيد معدني بني اللون قاتم لمؤخرة غزال يقف عليه نسر ناشر جناحيه. ويحيط بهذا التكوين رسوم نباتية لأفرع تخرج منها أوراق دقيقة وأنصاف مراوح نخيلية.

والقيمة الجمالية لهذه القطعة في أنها تجمع أكثر من عنصر زخرفي نفذ بأسلوب فني واحد، وتلك العناصر انتشرت كثيراً في الفنون الفاطمية مثل ما سبق ذكره من زخارف نباتية ورسوم غزال. كما أن النسر أيضاً له دور بارز في هذه العناصر الزخرفية، فوجد علي سبيل المثال في وضع انقضاض على غزال في رسوم الورق[٧٣]. كما وجد ناشراً جناحيه على شقافة من الخزف ترجع إلى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بالمتحف نفسه مرسوم بالبريق المعدني[٧٤]. ومهما يكن من الأمر فإن رسم النسر استمر في العصور التالية للعصر الفاطمي، وأخذ يتجه اتجاهاً آخر غير الزخرفة، حيث أصبح النسر يمثل شارة مميزة لكثير من السلاطين والأمراء إلا أنه من الناحية التصويرية فقد الكثير من قربه من الطبيعة[٧٥].

- ومن القطع الزجاجية المذهبة والمنفذة أيضاً بالأسلوب المبتكر الفني الذي ساد صناعة الزجاج الفاطمي منذ أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. جزء كبير من صحن زجاجي (ثلثيه) من عجينة معتمة ذات لون أحمر

= - حسن، زكي محمد، تحف جديدة من الخزف الفاطمي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، ديسمبر ١٩٥١م، ص ١٠٧، لوحة ١٢.

(٧٠) حسين، الفنون الإسلامية، ص ٢٠٤.

(٧١) مصطفى، محمد، الخزف الإسلامي، القاهرة ١٩٥٦م، ص ١٨، شكل ٢٦.

(٧٢) رقم السجل ١٤٤٥٩/٢، أكبر طول ٩ سم، أكبر عرض ٧,٢ سم، سمك ٢,٥ مم، تنشر لأول مرة، =

= عثر عليها في حفائر ميدان الملكة فريدة خلف البوستة.

(٧٣) حسين، الفنون الإسلامية، ص ٦٠.

(٧٤) - Ali Bahgat et Massoul, (F.), la Céramique Musulmane, Pl. 24.

(٧٥) عبد الرحيم، جمال، أعمال الأمير بيسرى المعمارية والفنية، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد الثامن سنة ١٩٩٧م، ص ٥٣٠.

داكن (لوحة ١٢)[٧٦]. زين برسم طائر (عصفور) يستعد للطيران ومتجه برأسه إلى جهة اليمين ويحتل الجزء الأكبر من مساحة الصحن. يحيط بهذا الطائر أفرع نباتية مرسومة بالأكاسيد المعدنية الزيتونية اللون وهي عبارة عن أرفع ملتوية تخرج منها أوراق ثلاثية ودقيقة وهي الأفرع المعروفة عن الفنون الفاطمية.

وكما سبق القول فإن هذه الرسوم ولا سيما شكل الطائر انتشرت على الفنون الفرعية الفاطمية.

- توجد قطعة زجاجية أخرى تشبه من حيث الأسلوب الفني المبتكر واللون القطعة السابقة، عبارة عن كسرة من قاع إناء به جزء من الجدار المنفرج[٧٧]، وهي من الزجاج العسلي اللون ومذهب بأكسيد معدني أحمر اللون داكن (لوحة ١٣)، وترجع إلى نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. والعنصر الزخرفي الرئيسي على هذه القطعة رسم شكل طائر خرافي يميل أحياناً إلى شكل الديك، وعلى الأجناب زخارف زهور محورة، بعضها غير واضح. بالإضافة إلى كتابات بالخط الكوفي بحروف كبيرة غير واضحة. والجدير هنا أن هذا الطائر رسم أكثر من مرة على المنتجات الفاطمية خصوصاً على الورق والمخطوطات[٧٨].

- وبنفس الأسلوب الفني المبتكر أيضاً، توجد قطعة من الزجاج الشفاف[٧٩]. عبارة عن جزء من إناء عليه بقايا رسم بالأكسيد المعدني البني القاتم (لوحة ١٤)، يوضح الجزء العلوي منه عصفوراً يقترب من فمه فرع نباتي من الأفرع المعروفة في الفن الفاطمي. ويرجع إلى بداية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي وقد نجح الفنان في تحديد مكونات العصفور وذلك من خلال رسم منقاره وفراغ العين والأجنحة، وهذا إذا دل فإنما يدل على تمرس المذهب وإتقانه في الزخرفة بهذا الأسلوب على الزجاج.

- ووجد أيضاً رسم الطيور بالتذهيب بالأكاسيد المعدنية باللون البني الفاتح، ولكن بالأسلوب الفني التقليدي بالرسم على السطح الخارجي للإناء في قطعة من الزجاج الشفاف تمثل جزءاً من بدن إناء

---

(٧٦) رقم السجل ٢٤٢١٦، قطر الصحن ٩,٢ سم، قطر القاعدة ٣,٥ سم، السمك ١,٥ مم، من حفائر الفسطاط ١٩٦٩/١٠/٤م.

(٧٧) رقم السجل ١٦٤٣٢، أكبر طول ٨,٢ سم، أكبر عرض ٦,٥ سم، سمك القاعدة ٢,٥ مم، سمك البدن ٢ مم، مشتراه.

(٧٨) - Grube E.J., Three Miniature from Fustat, London 1963, Pl. 1.

(٧٩) رقم السجل ١٤٤٦٠/٢، أكبر طول ٥,٤ سم، أكبر عرض ٣,٢ سم، سمك ٢ مم، ينشر لأول مرة، عثر عليه في حفائر ميدان الملكة فريدة خلف البوستة.

(لوحة ١٥)[٨٠]. زينت بشكل طائر يمسك في منقاره فرعاً نباتياً غليظ الحجم، فاقداً أجزاء منه وإن كانت الرجل اليمنى، والشكل العام للطائر ربما يوحي حمامة أو عصفوراً. وكما سبق القول فقد انتشر هذا العنصر الزخرفي كثيراً في العصر الفاطمي.

والملاحظ هنا أن التذهيب باهت اللون وفقد أجزاء صغيرة منه، وربما يرجع السبب في ذلك إلى تأثير التربة على القطعة قبل استخراجها من الحفائر. وعليه فيمكن إرجاع هذه التحفة إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.

- ومن العناصر الزخرفية التي نفذت على بعض القطع الزجاجية – موضوع الدراسة – رسم السمك – ويتضح ذلك من خلال جزء من قاع إناء (لوحة ١٦)[٨١]. زين برسم سمكة بالأسلوب الفني المبتكر فاقدة الرأس على زجاج أبيض شفاف، ويضاف للتذهيب أكاسيد معدنية استخدمت فيها ألوان متدرجة وهي اللون الأخضر والأزرق والأصفر. وتعد هذه القطعة من القطع الفنية النادرة حيث إنها ترجع إلى بداية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي.

- والمعروف أن رسم السمك على الفنون الإسلامية قد رسم بوضوح تام ويستطيع المرء أن يدرك الدقة والإتقان في تصوير هذا العنصر على كثير من المواد. فعلى سبيل المثال ظهر رسم لسمك على الورق الفاطمي يرجع إلى نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجري / نهاية الحادي عشر وبداية الثاني عشر الميلادي[٨٢] وعلى الخزف وبصفة خاصة المرسوم بالبريق المعدني. ونجد أن العصر العباسي بمصر كان سباقاً للفاطمي ويتضح ذلك من خلال صحن رسم عليه مركب ويظهر قاع البحر به رسم ثلاث سمكات[٨٣]. وفي العصر الفاطمي ظهر على كثير من الأواني سواء كانت تضم رسم سمكة واحدة أو اثنتين أو مجموعة من الأسماك[٨٤]. واستمر تصوير هذا العنصر الزخرفي على المنتجات الفنية المصرية في العصور الإسلامية التالية خصوصاً في العصر المملوكي، حيث نجح الفنان في إظهار أدق التفاصيل له من حيث

(٨٠) رقم السجل ١٤٥٤٥، أكبر طول ٥,٧ سم، أكبر عرض ٥,٩ سم، سمك ٣ مم، ينشر لأول مرة، مشتراه.

(٨١) رقم السجل ١٤٥١٨، أكبر طول ٦,٥ سم، أكبر عرض ٥,٩ سم، سمك ٣ مم، ينشر لأول مرة، مشتراه.

(٨٢) حسين، الفنون الإسلامية، ص ٥٨.

(٨٣) حسن، فنون الإسلام، ص ١٣، شكل ٢٤٠.

(٨٤) يوسف، عبد الرءوف علي، خزافون في العصر الفاطمي وأساليبهم الفنية، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ديسمبر ١٩٥٨م، ص ٢٠.

التكوينات والتصميمات خصوصاً على الفخار المطلي أو المعادن(٨٥).

- وحظيت الزخارف الهندسية نصيباً في تزويق بعض القطع الزجاجية المذهبة – موضوع الدراسة -، فهناك قطعتان من الزجاج الأبيض الشفاف عليهما زخارف هندسية نفذت بالأسلوب التقليدي بالزخرفة على السطح الخارجي باستخدام أكسيد المعدن السنجابي اللون. وترجعان إلى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. فالقطعة الأولى تمثل جزءاً من قاع إناء (لوحة ١٧)(٨٦). قوامها الزخرفي رسم مثلثين متقاطعين أو نجمة سداسية مفقود أجزاء كبيرة من رؤوسها الستة، وفي الوسط نقطة كبيرة غير كاملة الاستدارة، بينما شغل مساحات الرؤوس الستة برسم نباتي بسيط يميل إلى شكل السهم. والقطعة الثانية تمثل جزءاً من قاع إناء أيضاً (لوحة ١٨)(٨٧). قوامها الزخرفي رسم مثلثين متقاطعين مفقود رأسين فقط من رؤوسهما الستة، شغل مساحتهم بفرع نباتي بسيط ملتوي. بينما شغل معظم الحيز الداخلي للمثلثين أو النجمة أو النجمة السداسية برسم وريدة بعدة بتلات محورة.

وانتشر هذا العنصر الهندسي على الفنون الإسلامية بكثرة منذ الفترة المبكرة ولاسيما على زخرفة الأخشاب(٨٨). كذلك على صحن من الخزف الفاطمي ذي البريق المعدني يرجع إلى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي(٨٩). إلا أن الأخشاب كان لها النصيب الأكبر من غيرها من الفنون الأخرى استخداماً لهذه الزخرفة على مر العصور الإسلامية التالية للعصر الفاطمي(٩٠).

- ومن القطع الزجاجية التي ذهبت بنفس الأسلوب السابق جزء من سطح إناء (لوحة ١٩)(٩١)، من الزجاج الأبيض الشفاف قوامه الزخرفي باللون السنجابي أيضاً نقطة مطموسة غير مستوية باللون الداكن تتقابل عندها وحدات متكررة غير مستوية المساحة تأخذ في هيئتها الخارجية والداخلية شكل اللوزات.

ولم تقتصر المنتجات المذهبة بالأكاسيد المعدنية على هذه القطع السابقة والتي تنشر لأول مرة في العصر الفاطمي، وإنما توجد العديد من القطع الفنية بحالة جيدة وسليمة بعضها مكسور أيضاً نشر في العديد من

(٨٥) - Eva Baer, Islamic Ornament, p. 105. Figs. 117 - 122.

(٨٦) رقم السجل ١٤٤٧٤/٣، أكبر طول ٧,٣ سم، أكبر عرض ٦ سم، سمك ٢,٥ مم، مشتراه، تنشر لأول مرة.

(٨٧) رقم السجل ١٤٤٧٨/١، أكبر طول ٦,٩ سم، أكبر عرض ٥,٨ سم، سمك ٢,٥ مم، مشتراه، تنشر لأول مرة.

(٨٨) حسن، أطلس الفنون الزخرفية، شكل ٢٧٤، ٢٧٦.

(٨٩) حسن، أطلس، شكل ٤٩.

(٩٠) - Eva Baer, Islamic Ornament, p. 81, Figs. 102 - 103.

(٩١) رقم السجل ١٤٤٧٤/٢، أكبر طول ٥,٤ سم، أكبر عرض ٤,٥ سم، سمك ٢,٥ مم، مشتراه، تنشر لأول مرة.

المراجع العلمية، ويحتفظ بها متحف الفن الإسلامي بالقاهرة والمتاحف العالمية ومنها على سبيل المثال لا الحصر، صحن من الزجاج الأخضر بالمتحف الإسلامي بالقاهرة كان ضمن مجموعة الأمير يوسف كمال قوام زخرفته بالأسلوب التقليدي رسم وريدة في منتصف القاع، بالإضافة إلى زخرفة شبه كتابة كوفية عبارة عن حرفي "كا" مكرر أربع عشرة مرة في حافته. ويرجع إلى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي(٩٢).

وبالمتحف نفسه بعض قطع من الزجاج الأخضر عليها رسم بالتذهيب التقليدي على السطح الخارجي بالبريق المعدني الذهبي اللون خمسة أسطر من كتابة قريبة للخط النسخ يقرأ منها "عمل عباس بن نصير بن أبي يوسف بن جرير بن سعيد التلاوي"(٩٣).

ويمكن أن يكون "عباس" هذا له صلة قرابة وصانع الدوارق الزجاجية الجميلة "نصير بن أحمد بن هيثم" أيام الدولة الطولونية(٩٤). ومن خلال النص الكتابي الذي يميل إلى النوع النسخ يمكن إرجاع هذه القطع إلى بداية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي.

وهكذا ومن خلال ما تقدم يمكن القول بأن صناعة الزجاج في مصر قد تطورت تطوراً كبيراً، وبخاصة المزخرفة بالتذهيب، وأن الفنان المسلم ولا سيما في العصر الفاطمي لم يقف عند الاكتفاء بتقليد ممن سبقوه في هذه الصناعة بل أخذ يفكر ويدرس ويبتكر أسلوباً جديداً في فن الصنعة، وهو التذهيب بين طبقتين من الزجاج والمعروف بالأسلوب المبتكر.

وعليه فيكمن تقسيم الفترات الزمنية لصناعة الزجاج المذهب بهذه الطريقة في العصر الفاطمي لمرحلتين، فالقطع ذات العناصر الزخرفية المنتشرة في بداية هذا العصر مثل الطيور والحيوانات والأشكال الهندسية مثل النجمة السداسية وأشكال اللوزات ترجع إلى نهاية القرن الرابع بداية الخامس الهجري / العاشر وبداية الحادي عشر الميلادي. وقد نفذت جميعها بالتذهيب على السطح الخارجي للأواني وتسمى "بالمرحلة الأولى". بينما القطع التي ظهرت بها نفس العناصر السابقة ورسوم السمك ونفذت بالأسلوب المبتكر بوضع الأكاسيد المعدنية بين طبقتين من الزجاج الشفاف فهي ترجع إلى نهاية القرن الخامس وبداية السادس الهجري / نهاية الحادي عشر الميلادي وبداية

(٩٢) ديماند، الفنون الإسلامية، ص ٢٣٥.

(٩٣) ماهر، سعاد، الفنون الإسلامية، القاهرة ١٩٨٦م، ص ١٦١. =

= - نويصر، الآثار الإسلامية، ص ٣٥٥.

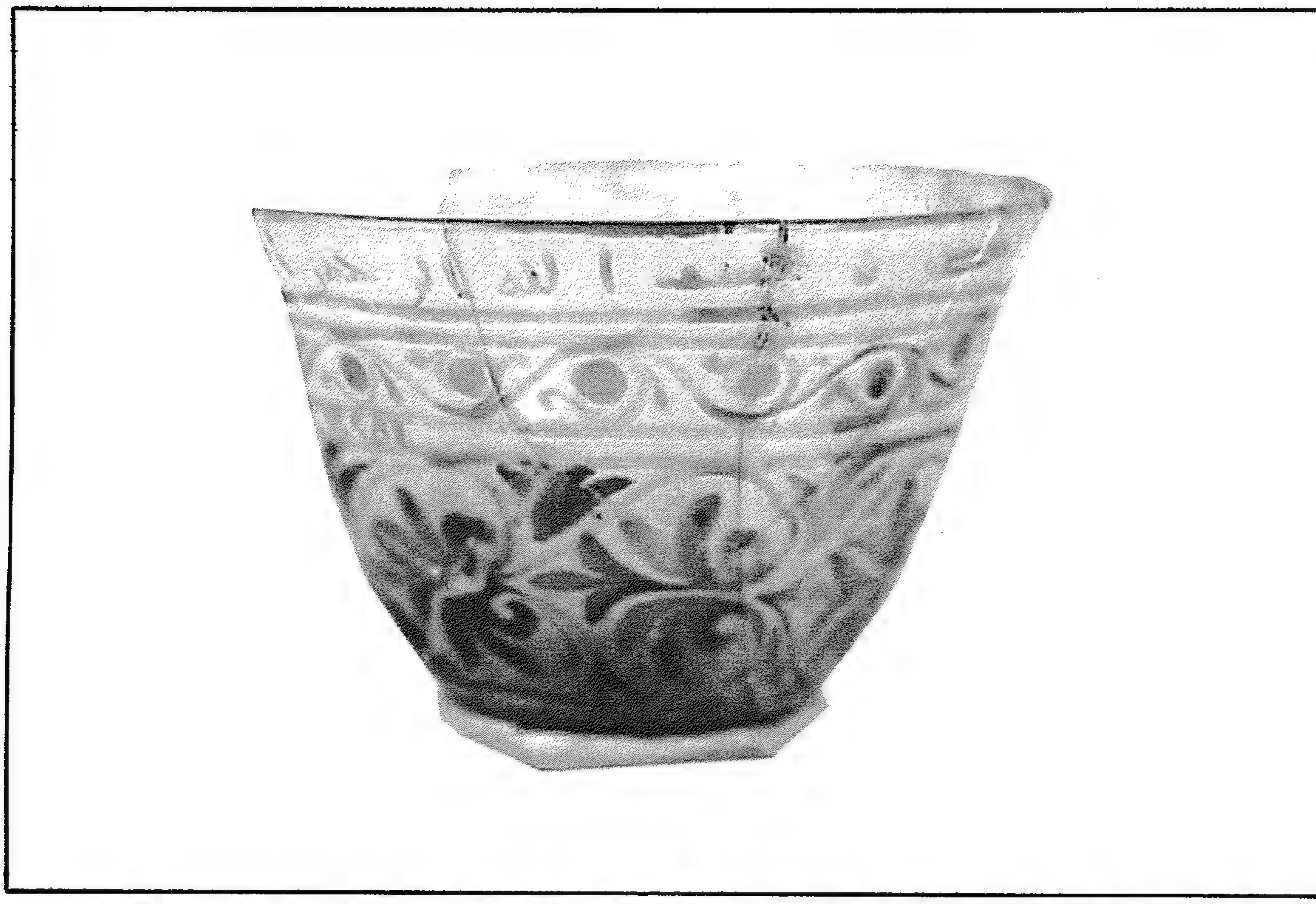
(٩٤) يوسف، دراسة في الزجاج المصري، ص ٦٥٠ - ٦٥١.

الثاني عشر الميلادي، وتسمى "بالمرحلة الثانية المتطورة".

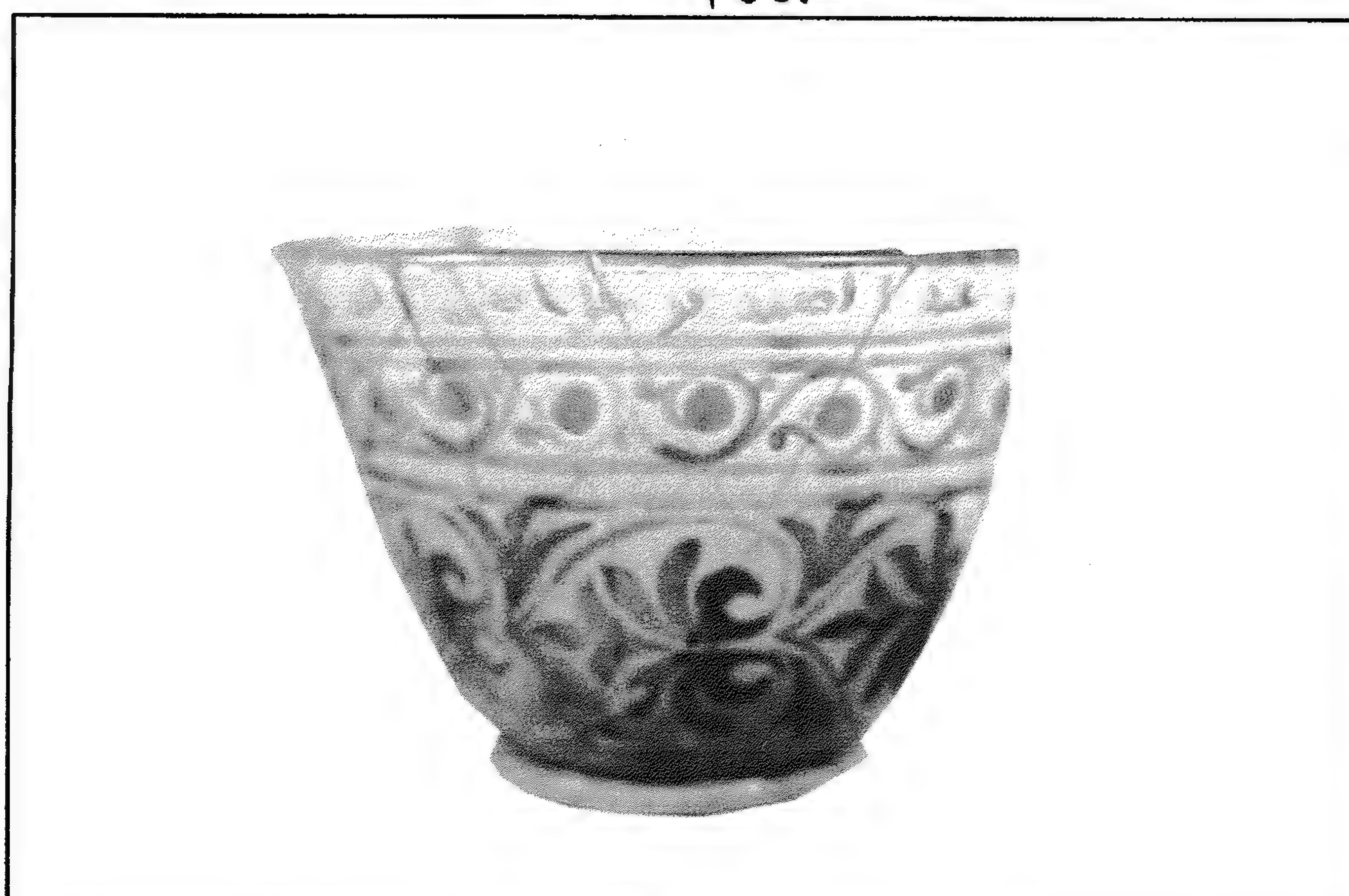
كما أنه يمكن القول بأن هذه الدراسة أثبتت استمرارية وجود العناصر الزخرفية بشكل أدق ومتطور من عصر إلى غيره من العصور التالية، حتى أثبت الفنان المسلم بأنه دائماً يبتكر ويتطور ولا يبقى على التقاليد الموروثة فقط. ومن هنا صار الفن الإسلامي في عصوره يحتل مكانة مرموقة بين الفنون العالمية، ويشهد على ذلك علماء الآثار والفنون الأجانب أنفسهم.

كما أثبتت الدراسة التشابه في استخدام العناصر الزخرفية وتذهيبها بالبريق المعدني على مادتي الزجاج والخزف، ومن الممكن أن يكون المذوق والمذهب فناناً واحداً في كل من المادتين.

كما يمكن القول أيضاً باستمرارية المدارس الفنية لصناعة الزجاج من عصر إلى عصر مباشرة مثل ما هو موجود في كتابة نص توقيع الصانع في التحفة الأخيرة.



(لوحة ١ أ) كأس من الزجاج المذهب بالبريق المعدني بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة. سجل رقم ٢٣٢٨٤ .



(لوحة ١ ب) صورة أخرى للكأس السابق.



(لوحة ٢ ج) صورة أخرى للكأس السابق.



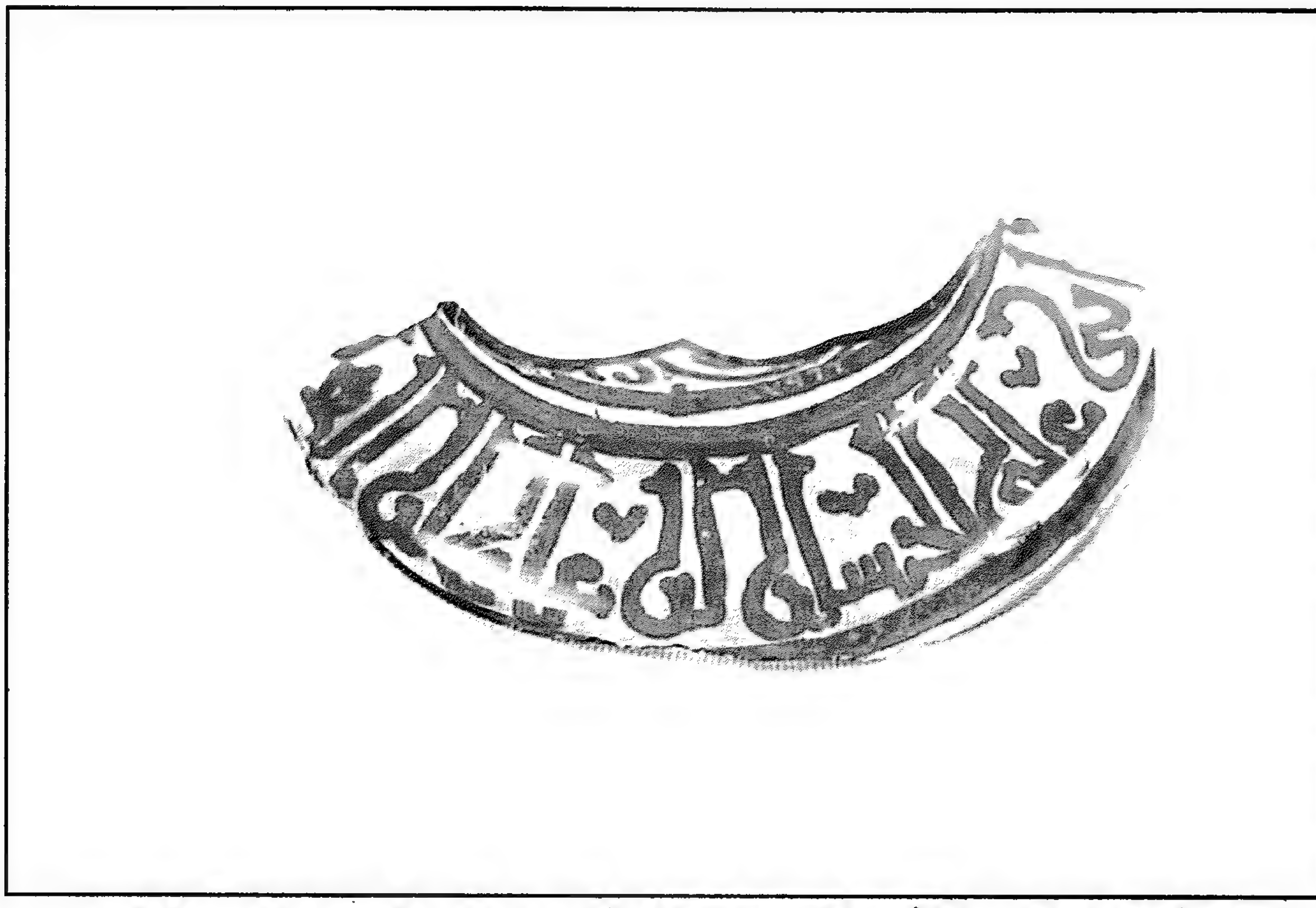
(لوحة ٢) جزء من قاع إناء صغير من الزجاج الابيض المذهب بالأكاسيد المعدنية بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة. سجل رقم ١٢٧٣٩/٩ .



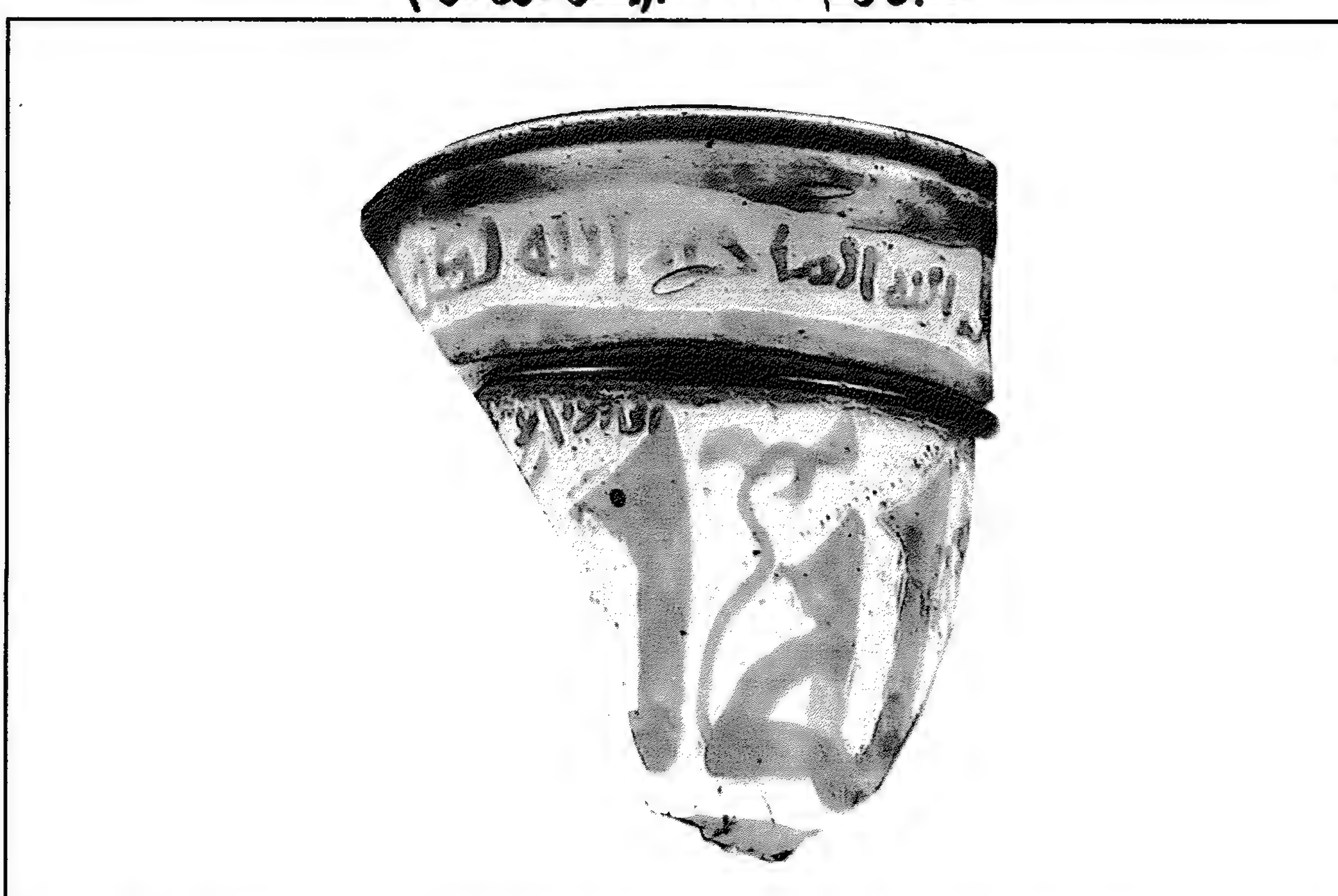
(لوحة ٣) جزء من قاع إناء المذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة. سجل رقم ٦٩٤٩.



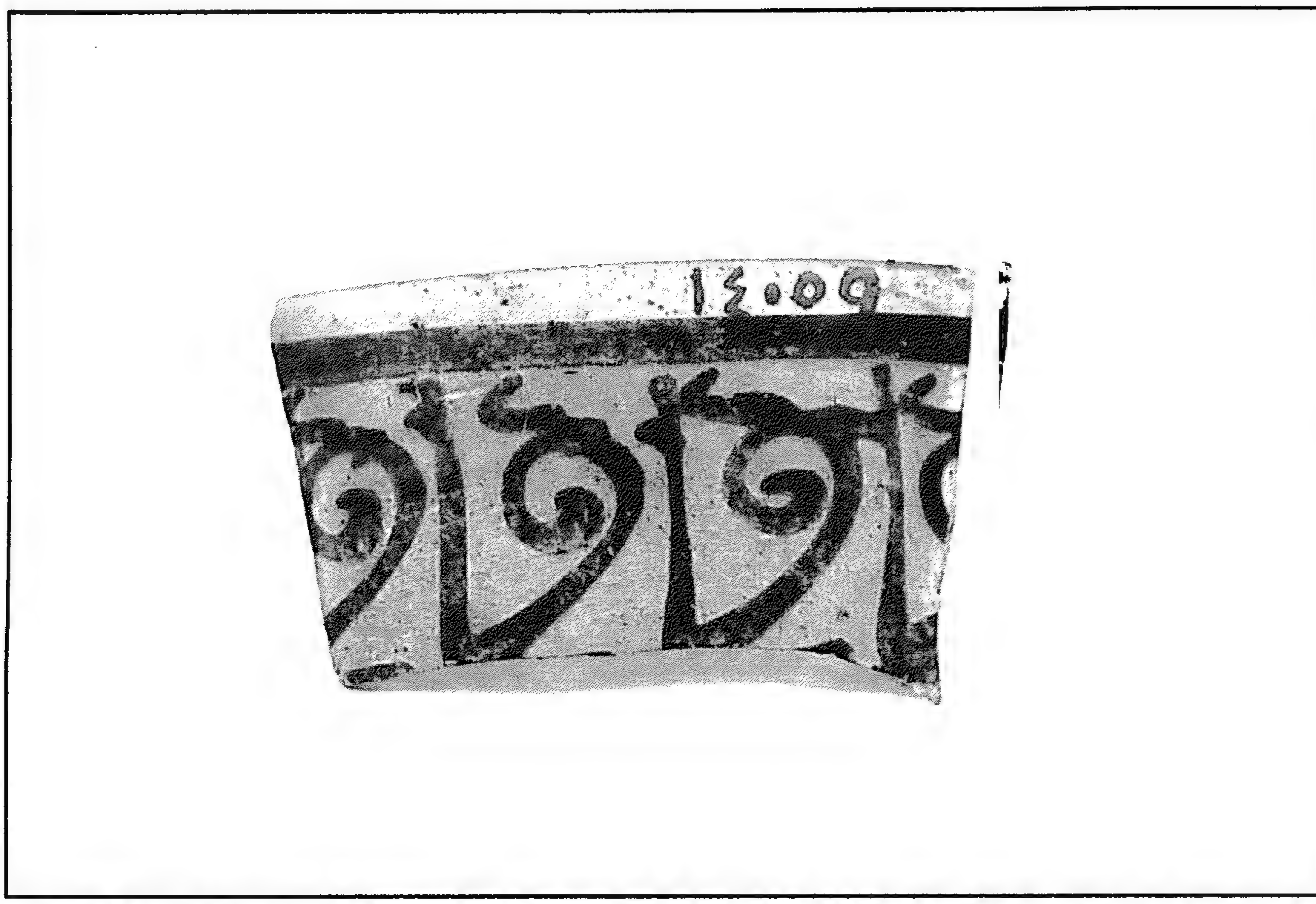
(لوحة ٤) خلفية الجزء السابق. (ينشر لأول مرة).



(لوحة ٥) جزء من حافة إناء من الزجاج المذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٣٩٦٦ .(ينشر لأول مرة)



(لوحة ٦) جزء من جدار كأس من الزجاج المذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٤٧٣٠/٤ .



(لوحة ٧) جزء من حافة علوية لإناء من الزجاج المذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٤٠٥٩ . (ينشر لأول مرة)



(لوحة ٨) جزء كبير لسلطانية من الزجاج المذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٤٤٦٤/٣ . (ينشر لأول مرة).



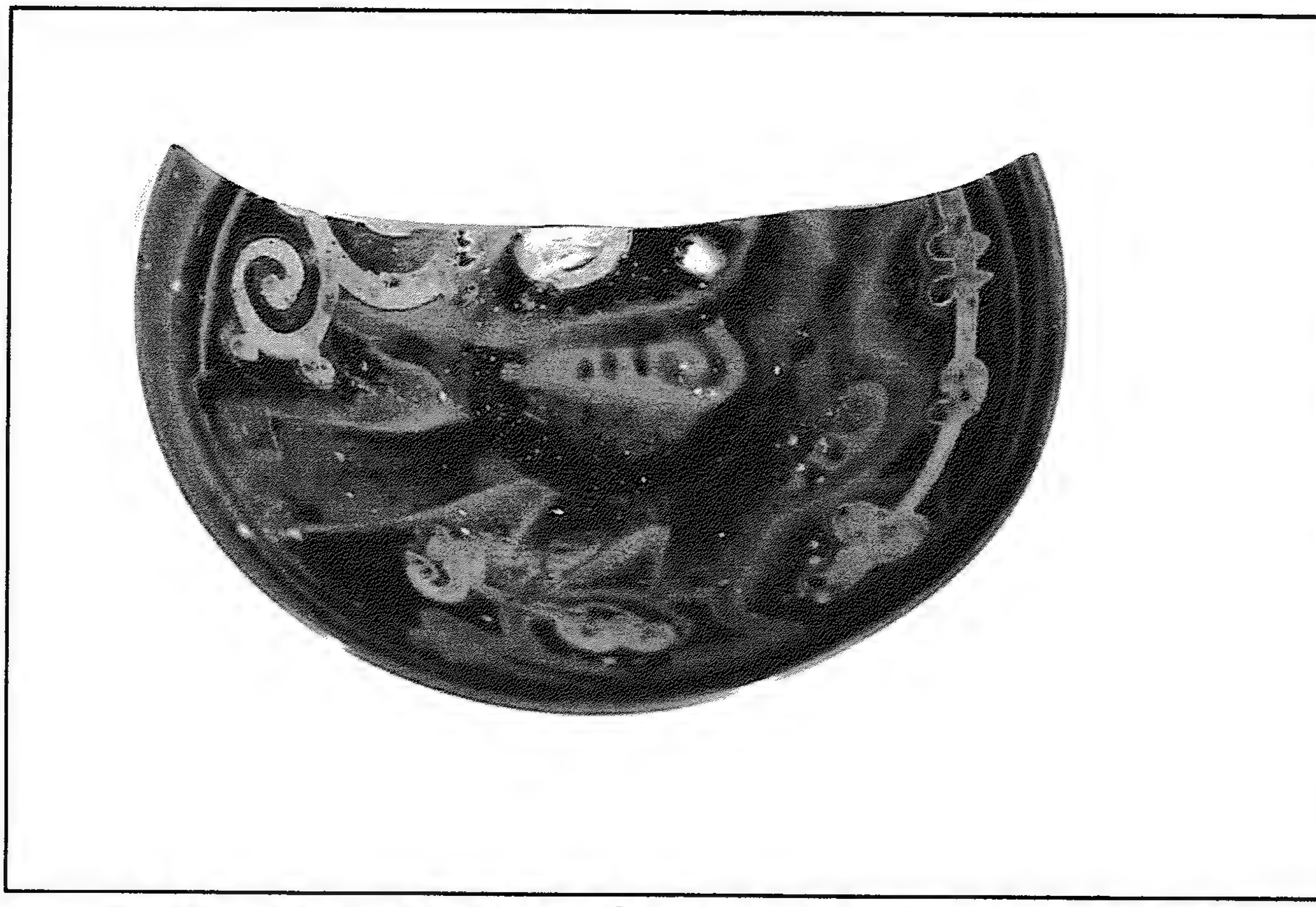
(لوحة ٩) جزء من قاع إناء من الزجاج المذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٤٤٥٩/١ . (ينشر لأول مرة)



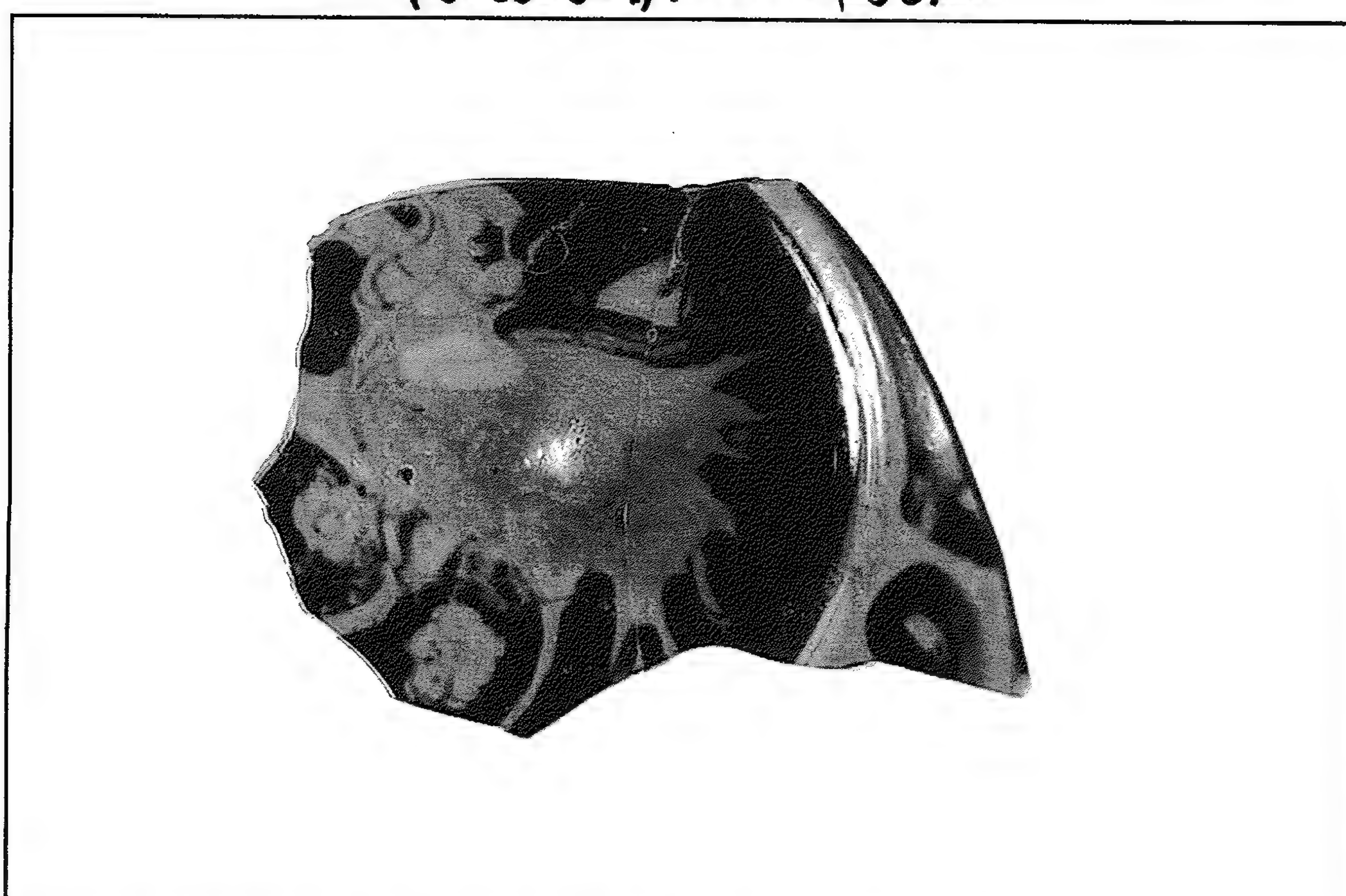
(لوحة ١٠) جزء من قاع إناء من الزجاج الأبيض الشفاف المذهب
بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة . سجل رقم ١٤٥١٩ .



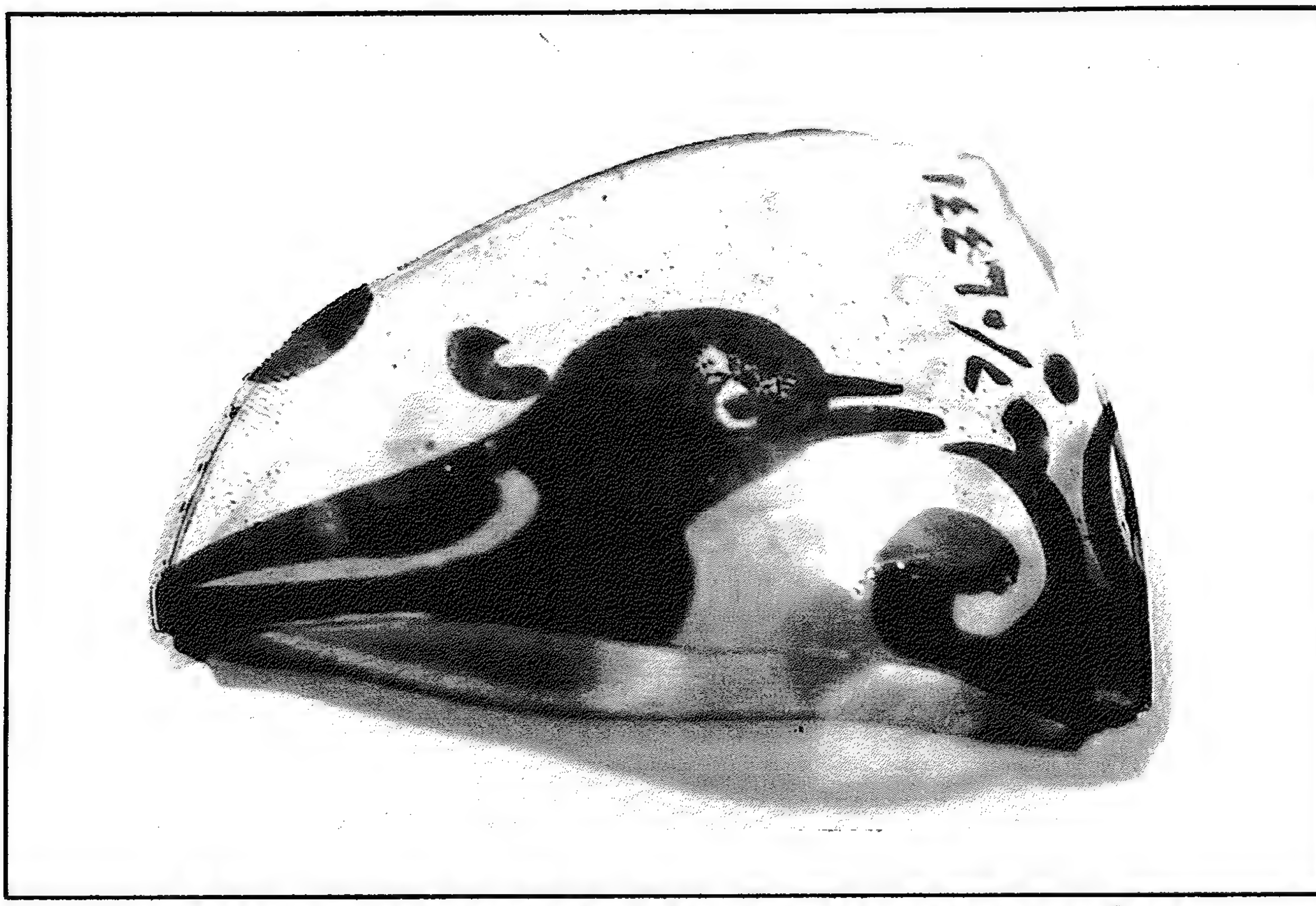
(لوحة ١١) جزء من إناء شفاف مذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٤٤٥٩/٢ . (ينشر لأول مرة)



(لوحة ١٢) جزء كبير من صحن زجاجي مذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ٢٤٢١٦ . (ينشر لأول مرة)



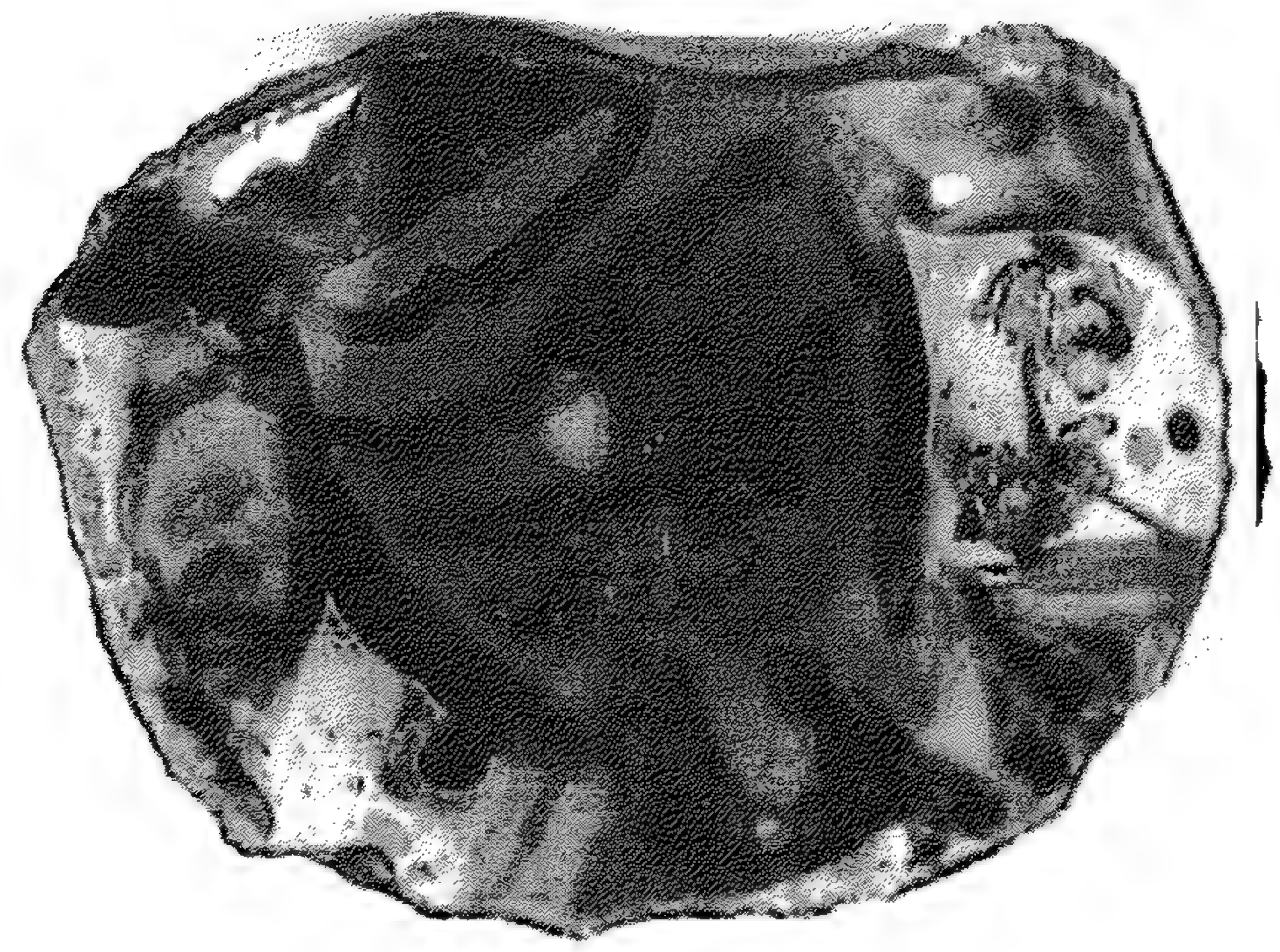
(لوحة ١٣) جزء من قاع إناء من الزجاج المذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة .
سجل رقم ١٦٤٣٢ .



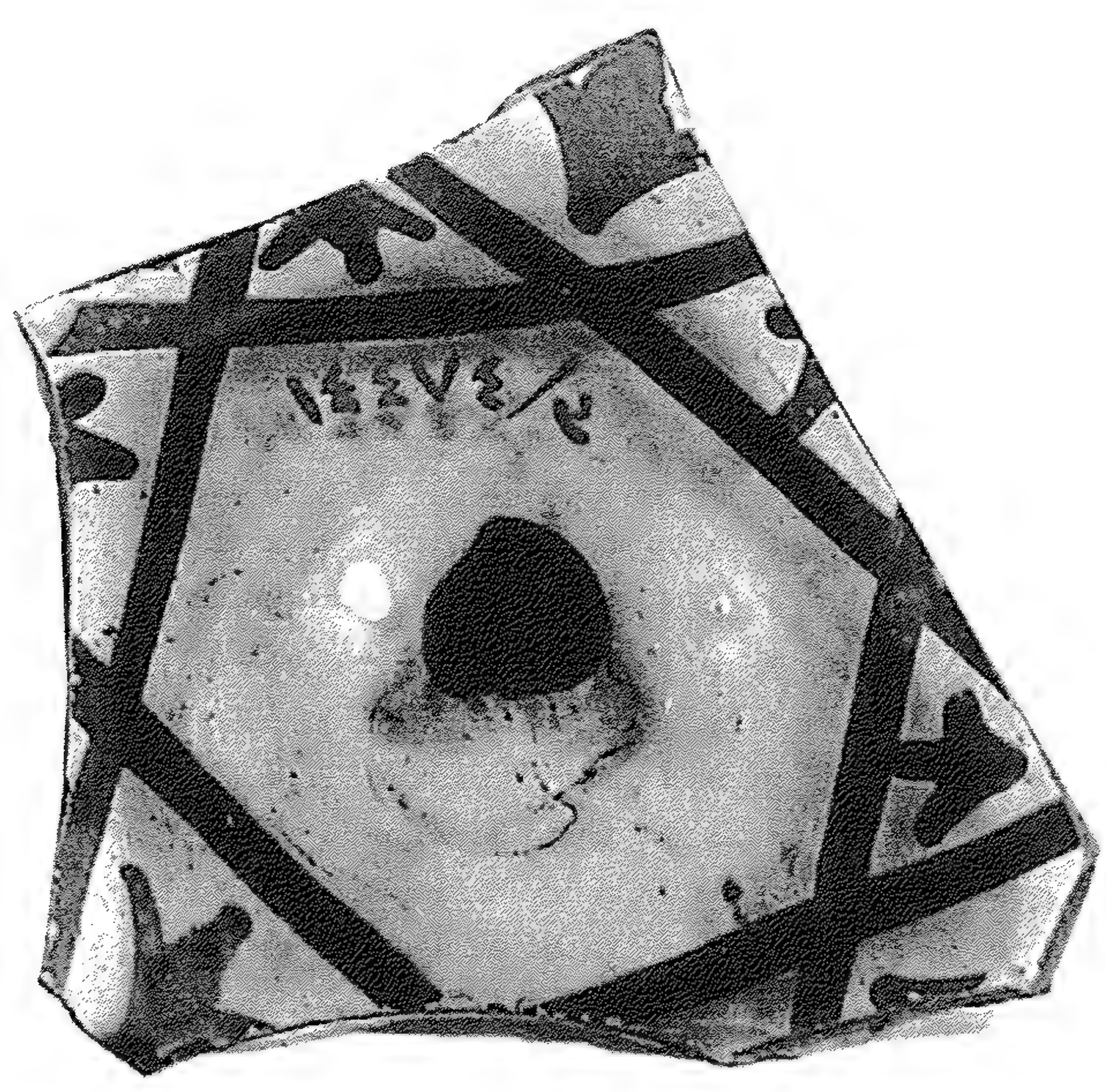
(لوحة ١٤) جزء من إناء زجاجي مذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٤٤٦٠/٢ . (ينشر لأول مرة)



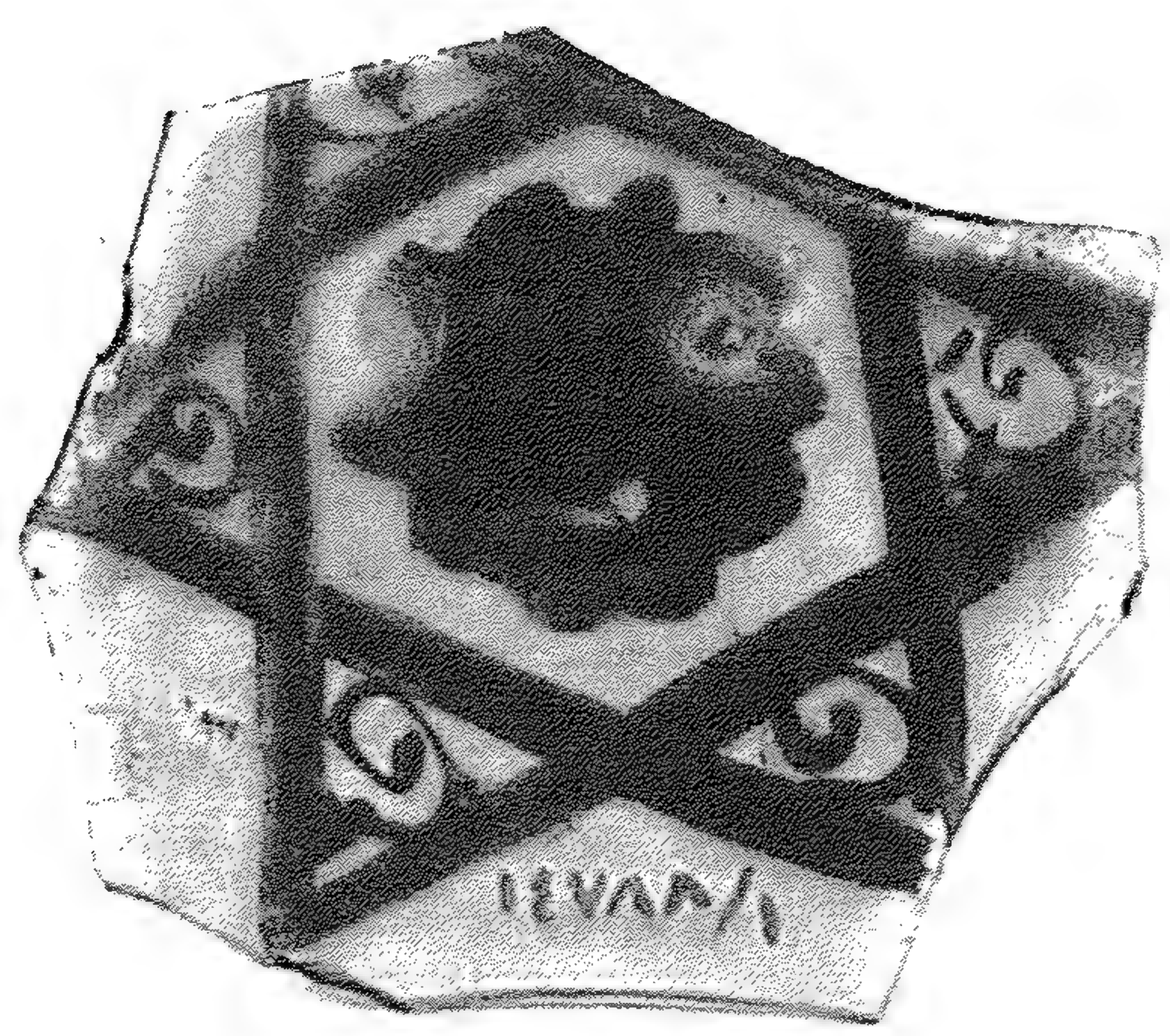
(لوحة ١٥) جزء من بدن إناء من الزجاج المذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٤٥٤٥ . (ينشر لأول مرة).



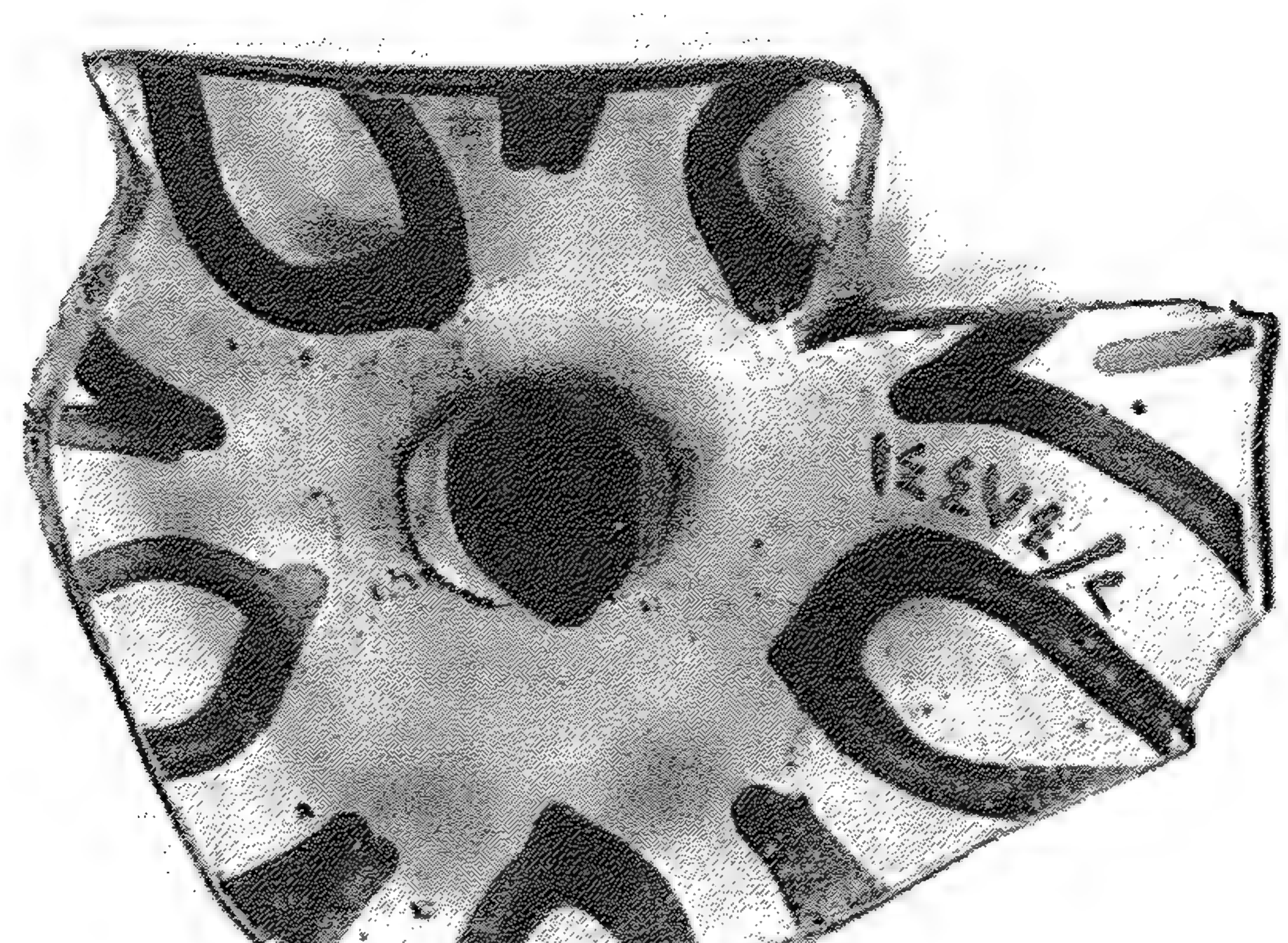
(لوحة ١٦) جزء من قاع إناء زجاجي مذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٤٥١٨ . (ينشر لأول مرة)



(لوحة ١٧) جزء من قاع إناء من الزجاج المذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة .
سجل رقم ١٤٤٧٤/٣ . (ينشر لأول مرة).



(لوحة ١٨) جزء من قاع إناء من الزجاج المذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٤٧٨٨/١ . (ينشر لأول مرة)



(لوحة ١٩) جزء من سطح إناء زجاجي مذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٤٤٧٤/٢ . (ينشر لأول مرة).

العصور، المجلد الثاني عشر، الجزء الثاني، ٨١ – ٩٦ (٢٠٠٢م).

نقش تأسيسي عثماني من حي القلعة بالقطيف مؤرخ في عام ١٠٣٩هـ

د. مشلح بن كميخ المريخي

ملخص البحث :

يتناول هذا البحث دراسة نقش تاسيسي عثماني من حي القلعة بالقطيف، مؤرخ عام ١٠٣٩هـ ممهور باسم احد اشهر الولاة العثمانيين بمنطقة الخليج العربي. وتعنى هذه الدراسة بقراءة النص وتحليل مضمونه، مبينة اهمية مدلولاته التاريخية والأثرية، فضلا عما يحمله من معطيات فنية وقيم جمالية، وتبرز الدراسة ما اشتمل عليه النقش من القاب، ونعوت، واسماء اعلام.

توطئـــــة:

تمتعت منطقة شرق الجزيرة العربية على مـر العصور بأهمية اقتصادية واستراتيجية كـبيرة، اكتسـبتها نتيجة لكونها إحدى أهم معابـر الطرق التجارية القديمة بين الشرق والغـرب، وبيـن الشمال والجنوب. ونتيجة لذلـك نشـأت على شواطئ الخليج العربي مـوانئ ومـدن مهمة، مثل: جزيرة هرمز، وصـحار، وجـلفار، والقطيف، والبحرين، والبصرة. وبسبب هذه الأهمية كانت المنطقة محطـا لأطمـاع القوى الخارجية وبخاصة الاستعمارية منها، بداية بالبرتغاليين، ومروراً بالإنجليز، ثم الهولنديين، ونهاية بالفرنسيين، ثم الإنجليز.[١]

وقـد مهد البرتغاليون لتدخلهم في منطقة الخـليج باستيلائهم على بعض موانئ جنوب الجزيـرة العربية وموانئ الساحل العماني، وتوجـوه بالاستيلاء على جزيرة هرمز عام ٩١٢هـ/١٥٠٧م.[٢] وكان هدف البرتغاليين مـن ذلـك هو تأمين تجارتهم من جوا على الساحل الهندي، مروراً بطريق رأس الرجاء الصـالح، وصـولاً إلى أوروبا عن طريق المحيـط الأطلسـي. وبالـرغم من أن هذه الطريق كانت آمنة بالنسبة إلى تجارتهم، إلا أنهـم كانوا يبحثون عن طرق أقصر وأوفر، لذلـك كـان تطلعهم للسيطرة على طريقي الخليج العربي والبحر الأحمر.[٣]

---

(١) الخطيـب، مصـطفى عقيـل، **التنافس الدولي في الخليج العربي**، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت (١٩٨١م)، ص ص ٧-١٢؛ الخصوصـي، بـدر الديـن عـباس، **دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر**، ج١، منشورات ذات السلاسل، الكويت، الطبعة الثانية (١٩٨٤م)، ص ص١٣-٤٨.

(٢) المسلم، محمد سعيد، **ساحل الذهب الأسود: دراسة تاريخية إنسانية لمنطقة الخليج العربي**، دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الثانية (د.ت)، ص ١٧٠.

(٣) الخطيـب، **التـنافس الدولـي في الخليج العربي**، ص ١٥.

لـذا أحـس الممـاليك بـأن البرتغاليين بسـيطرتهم على الطرق التجارية والاقتصاد العـالمي، وكذلك بتهديدهم الأمكنة المقدسة، أصـبحوا يهددون كيانهم؛ لذلك دخلوا معهم فـي صـراع، توجّه البرتغاليون بالانتصار على القوات المملوكية في ديو عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م.

وكـان العثمانيون يراقبون الوضع بحذر، وعـندما أحسـوا بـأن البرتغاليين أصبحوا يهددون الأمكنة المقدسة، وطرقهم التجارية، أيقـنوا أن السبب الحقيقي يكمن في ضعف دولة المماليك، لذلك قرر العثمانيون الزحف ضـد الممـاليك، فاسـتولوا على الشام عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م، ثم أنهوا حكم الأخيرين بالاستيلاء على مصر عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م.(٤)

وفـي هـذه الأثناء دارت مفاوضات بين البرتغاليين والصفويين انتهت بتوقيع معاهدة صـلح بين الطرفين عام ٩٢١هـ/١٥١٥م، وكـان من أهم بنودها قيام تحالف عسكري بين الطرفين ضد الدولة العثمانية، وعلى أن تساند البحرية البرتغالية القوات الإيرانية في الاستيلاء على البحرين والقطيف.(٥) وقد نتج عن هذا التحالف أن ضم البرتغاليون البحرين عام ٩٢٧هـ/١٥٢١م، ثم القطيف بين عامي ٩٣٢-٩٣٧هـ/١٥٢٦-١٥٣٠م. وبذلك بدأ ميـناء القطيف يظهر بشكل أكثر أهمية على مسـرح الأحداث، وأصبح سبباً للصراع بين أربـع قـوى هـي: البرتغالية، والصفوية، والعثمانية، والمحلية.

وبعـد سـقوط القطيف أصبحت المدينة خاضـعة لحكـام هرمز الخاضعين بدورهم للسـيطرة الـبرتغالية، فأيقن العثمانيون أن الـبرتغاليين أصـبحوا يهـددون ممتلكاتهم الجـنوبية، لذلك استولوا على شمال العراق، ثم أتموا سيطرتهم عليه باستيلائهم على بغداد عام ٩٤١هـ/١٥٣٤م.

كـان هناك ما يشبه الاتفاقية الاقتصادية بيـن الـبرتغاليين وبين آل مغامس،(٦) حكام البصـرة والقطيـف والحسا، والتي تقضي بـتأمين الطريق التجاري بين هرمز-البوابة الجـنوبية للخـليج- وبيـن البصرة بوابته الشمالية. ولكن بعد استيلاء البرتغاليين على القطيف ساءت العلاقة بين الطرفين، وأحس آل مغـامس أن الوجود البرتغالي في الخليج أصبح يهدد سلطتهم على هذه المناطق.

لـم يجد راشد بن مغامس بدّاً من اللجوء إلى العـثمانيين لمسـاعدته ضد البرتغاليين،

(٤) إيفانوف، نيقولاي، **الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦-١٥٧٤م**، نقلـه إلى العـربية يوسف عطا الله، راجعه وقدم لـه سعود ضاهر، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٨٨م) ص ٥٣ وما بعدها.

(٥) الخطيـب، **التـنافس الدولـي في الخليج العربي**، ص ٢٤.

(٦) يطـلق بعض المؤرخين على هذه الأسرة لقب آل شـبيب، لمزيد من التفاصيل عن تاريخ هذه الأسرة وحكمهـا للبصـرة والأحسـاء والقطيـف، انظر الحميدان، عبداللطيف الناصر، **إمارة آل شبيب في شـرق جزيـرة العـرب**، مطـابـع الحميضي، الرياض (١٩٩٧م).

حيث كانت تربطه بهم صلة دينية ومصالح اقتصادية، لذلك رحب الشيخ راشد بن مغامس زعيم البصرة بالوجود العثماني في بغداد، وبعث ابنه مانع على رأس وفد إلى بغداد، حيث قدم للسلطان العثماني مفاتيح البصرة، وخطاب الولاء للسلطان العثماني.

تتابعت في السنوات التالية وفود حكام البصرة إلى إستنبول حتى تم إعلان البصرة إيالة عثمانية عام ٩٤٥/١٥٣٨م، وتم تعيين الشيخ راشد بن مغامس حاكماً عليها برتبة أمير أمراء، وهي أعلى رتبة في الإيالات العثمانية آنذاك، وبذلك أصبحت المواجهة مباشرة بين العثمانيين والبرتغاليين. وبمساعدة العثمانيين تمكن مانع بن راشد من استعادة القطيف من البرتغاليين عام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م. وفي السنوات التالية دارت مناوشات بحرية بين العثمانيين والبرتغاليين في الخليج العربي والبحر الأحمر وبحر العرب. وكان من ضمن نتائجها سيطرة البرتغاليين على القطيف للمرة الثانية عام ٩٥٢هـ/١٥٤٥م، وإنهاؤهم لحكم آل مغامس في الحسا والقطيف.

ثم شن البرتغاليون حملة كبرى بهدف استعادة ميناء وقلعة القطيف، وبالرغم من فشلهم في تحقيق هدفهم إلا أنهم تمكنوا من تدمير ميناء المدينة وقلاعها وتحصيناتها الدفاعية،[٧] وبذلك خضعت القطيف والحسا للحكم العثماني المباشر (٩٥٤-١٠٨٢هـ/١٥٤٧-١٦٧١م).

شعر العثمانيون أن سلطة آل مغامس في البصرة أصبحت ضعيفة وغير قادرة على الدفاع عن أراضيها، لذلك ضمت البصرة للحكم العثماني المباشر عام ٩٥٣هـ/١٥٤٦م، وفي السنة التالية ضمت الحسا وأعلنتها إيالة عثمانية. وبمساعدة السكان المحليين تمكن العثمانيون من استعادة القطيف من البرتغاليين عام ٩٥٧هـ/١٥٥٠م وأعلنوها لواءً عثمانياً تابعاً لإيالة البصرة، ثم تم ضمها لإيالة الحسا في وقت لاحق.

تعاقب على حكم إيالة الحسا خلال هذه الفترة ما يزيد على ٤٩ أميراً، تراوحت مدد حكمهم ما بين شهرين وخمس سنوات وأربعة أشهر. إلا أننا نجد أن اثنين من الأمراء قد زادت مدة حكم كل منهما على ربع قرن، وهما علي باشا الذي حكم لمدة ٢٦سنة (١٠١٨-١٠٤٤هـ/١٦٠٩-١٦٣٤م) وابنه محمد باشا الذي حكم لمدة ٣٠ سنة (١٠٤٤-١٠٧٤هـ/١٦٣٥-١٦٦٣م).[٨] وعلي باشا هذا هو الذي في عهده أعيد بناء القلعة التي يوجد فيها النقش التأسيسي الذي هو محور هذه الدراسة.

مر الحكم العثماني في بلدان الخليج بمراحل قوة وضعف تبعاً لقوة الدولة،

(٧) الوهبي، عبدالكريم بن عبدالله، **الحكم العثماني في الحسا** (٩٥٤-١٠٨٢هـ/١٥٧٤-١٦٧١م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم التاريخ – كلية = الآداب – جامعة الملك سعود، الرياض (١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ص ١٤٨.

(٨) الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٦٨.

وضعفها، أو لانشغالها بالدفاع عن حدودها الشاسعة، وخصوصاً على الجبهة الأوروبية، وقد شجع هذا الوضع بعض الأمراء على محاولة التخلص من التبعية العثمانية، ونجح بعضهم في الاستقلال بحكم إيالاتهم بما يشبه الحكم الذاتي، ومن أشهر الأمراء الذين استقلوا بالحكم أسرة الأفراسياب في البصرة.(٩)

إن المتأمل لفترة حكم علي باشا وابنه محمد باشا من بعده يتساءل هل استقلا بحكم إيالة الحسا؟ وهو سؤال لدينا من المبررات ما يحملنا على الاعتقاد بتمتعهما بنوع من الاستقلال، يساند هذا الرأي عدة أمور، منها ما يلي:

١- طول فترة حكم كل من علي باشا وابنه محمد باشا من بعده، والتي زادت على نصف قرن.

٢- الصراع الذي دار بين الأفراسياب في البصرة وبين محمد باشا في الحسا، حيث كان هذا الصراع بعيداً عن أعين الدولة، مما يعني أنه صراع بين حاكمين مستقلين للسيطرة على أكبر مساحة من الأرض.

٣- إن النقش التأسيسي - موضوع هذه الدراسة - يخلو من أي ذكر للدولة العثمانية، أو السلطان العثماني، وينعت علي باشا أمير الحسا بألقاب سلطانية ودينية لا يمكن إطلاقها إلا على من يحكم باستقلالية.

وبالرغم من أن هذا ليس مدار دراستنا، فإن التساؤل الذي يظل مطروحاً هو: هل تمتعت الحسا بالحكم الذاتي بقيادة علي باشا وابنه محمد باشا؟، مع التذكير بأهمية نقشنا موضوع الدراسة على تأكيد ذلك.

أولاً: حي القلعة بالقطيف:

تقع القلعة في مدينة القطيف بالمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، إلى الشمال الغربي من مدينة الدمام، وكان حي القلعة هو مركز مدينة القطيف قديماً، إذ كانت مدينة محصنة ذات شكل بيضاوي، تنقسم إلى أربعة أحياء، ليس بينها فواصل، ولكل قسم (حي) اسم عرف به، فالجهة الجنوبية من الناحية الغربية كانت تسمى فريق الخان، وفي الناحية الشرقية كان يوجد فريق السدرة، وفي الجانب الشمالي من الناحية الغربية وجد فريق الزريب، وفي الناحية الشرقية كان يوجد فريق الوارش.(١٠) وكان يحف بالقلعة من الجهتين الغربية والجنوبية بعض الأحياء الصغيرة.

---

(٩) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأسرة، انظر: الخطيب، **التنافس الدولي في الخليج العربي**، ص ٩٩ وما بعدها؛ الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٤٣٩ وما بعدها؛ الحمداني، طارق نافع، "العلاقات بين أفراسياب والدولة العثماني إبان حكم - أفراسياب باشا وعلي باشا ١٥٥٦-١٦٥٠م"، **مجلة الخليج العربي**، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، ع١، مجلد ١٦، البصرة (١٩٨٤م).

(١٠) المسلم، **ساحل الذهب الأسود**، ص ٤٨.

لقد انتزعت ملكية القلعة في وقتنا الحاضر، وأزيل منها ثلاثة أحياء (فرق)، وهي فريق الخان، وفريق السدرة، وفريق الوارش، وأبقي على الحي الرابع، وهو فريق الزريب، حيث تسلمته وكالة الآثار والمتاحف السعودية للمحافظة عليه.(١١)

وقد كانت القلعة تستخدم مستودعاً للعطور والتوابل ومختلف البضائع، ثم تحولت في فترة لاحقة إلى مقر سكني للأهالي، وذلك لمناعتها، وأصبحت تمثل حاضرة القطيف.(١٢) وكان يحيط بالقلعة سور منيع يبلغ سمكه ٧ أقدام، وارتفاعه ٣٠ قدماً، وتبرز بين جوانبه وزواياه أبراج عالية مستديرة الشكل، وكانت توصل هذه الأبراج التي يبلغ عددها ١١ برجاً جسوراً ممتدة في أعلى السور لتمكين الحاميات من الاتصال ببعضها بعضاً أثناء المراقبة،(١٣) وكان للقلعة أربعة أبواب، أحدها في الشرق، ويسمى دروازة البحر، والثاني في الغرب، ويسمى دروازة باب الشمال، والثالث في الجنوب عند مدخل السوق، ويسمى دروازة السوق، والرابع يقع في الشمال، ويصلها بالكوت.(١٤)

إن أقدم إشارة لهذا السور في المصادر التاريخية تعود إلى القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، عندما ذكره أبو الفداء،(١٥) ووصفه وصفاً لا يختلف عن وضعه المعروف عند أهالي المنطقة قبل ما يربو على الستين عاماً مضت.(١٦) وقد جدد بناء السور في عهد السلطان سليمان القانوني في غرة المحرم من عام ٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م، كما يتضح من لوحة تأسيسية تشير إلى ذلك،(١٧)، ثم أعيد بناؤه في عام ١٠٣٩هـ أيضاً في عهد أحد الولاة العثمانيين؛ وهو الوالي علي باشا كما هو واضح من الحجر التأسيسي الذي كان مثبتاً بدروازة باب الشمال؛(١٨)، وهذا الحجر التأسيسي هو موضوع هذه الدراسة.

تجدر الإشارة إلى أن هناك عدة أمور دفعتني لدراسة هذا النقش التأسيسي، منها:

١- أنه لم يسبق نشره من قبل.

٢- إشارة المسلم له في كتابه "القطيف – سلسلة هذه بلادنا"، ص ص٢٨-٢٩، وتضمين صورة النقش دون تقديم قراءة له، فضلاً عن الخطأ الذي وقع فيه عند إشارته إلى أن النص أرّخ بحساب

(١١) المسلم، محمد بن سعيد، **القطيف: سلسلة هذه بلادنا**، الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ/١٩٨٩م)، ص ٢٨، حاشية رقم ١.

(١٢) المسلم، **القطيف**، ص ٢٨.

(١٣) المسلم، **ساحل الذهب الأسود**، ص ٤٦.

(١٤) المسلم، **القطيف**، ص ص ٢٨-٢٩.

(١٥) المسلم، **ساحل الذهب الأسود**، ص ٤٤.

(١٦) المسلم، **ساحل الذهب الأسود**، ص ٤٤.

(١٧) المسلم، **القطيف**، ص ٢٨.

(١٨) المسلم، **القطيف**، ص ٢٩.

الجمل، وأنه تضمن كلمة "محفوظة" وهي ما يعادل ١٠٣٩هـ، والتاريخ صحيح ولكنه لم يدون بحساب الجمل، بل كتب بجملة عربية صريحة متبوعة بالتاريخ رقماً.

٣- ورود هذا النص في أطروحة ماجستير بقسم التاريخ بجامعة الملك سعود، مقدمة من الأستاذ عبد الكريم بن عبدالله الوهبي، الذي أشار خطأ إلى أن النص مؤرخ في سنة ١٠٣٧هـ.[١٩]

٤- تضمينه إلى مجلد "المختار من إبداعات الخط العربي" الصادر عن الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض بمناسبة إقامة معرض الخط العربي، حيث وردت صورة النقش في المجلد ضمن نقوش أخرى قدمت قراءاتها ما عدا هذا النقش، وضاعف من الخطأ أن التاريخ الذي وضع هو سنة ٩٦٨هـ، فضلاً عن أن ما ورد من معلومات مصاحبة للصورة، لا تمت لها بصلة سواء فيما يتعلق بوصف مضمون النص أو تاريخه[٢٠].

هذه الأسباب وغيرها دفعتني للقيام بتقديم قراءة لهذا النقش وتحليل مضمونه وتقديمه بدراسة منفردة.

ثانياً: دراسة وصفية تحليلية لنقش حي القلعة التأسيسي بالقطيف:

١- وصف النقش:

نفذ هذا النقش بخط الثلث المركب، بطريقة الحفر البارز المفرغ[٢١] على لوح حجري جيري بحري. أبعاده ٩٣×٤٨سم، ويتكون النص من أربعة أسطر يحيط بها إطار مستطيل طولي، وضع كل سطر منها في إطار مستقل (خرطوش).

قراءة النص (لوحة ١، شكل١):-

١. الحمد لله الذي أقام تشييد هذه القلعة
٢. الميمونة حرسها الله تعالى من العدوان بهمة
٣. الملك الهمام في سنة تسع وثلاثين وألف ١٠٣٩

٢- التحليل العام لمضمون النقش:

يتكون النص من أربعة أسطر، نقشت للإعلان عن الانتهاء من تشييد القلعة، وهي:

السطر الأول:

افتتح النص بالحمد لله الذي يسر إقامة وتشييد القلعة.

---

(١٩) الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٥٩.

(٢٠) **مجلد المختار من إبداعات الخط العربي**، صدر بمناسبة إقامة معرض الخط العربي الذي أقامته الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض، الرياض (١٤٢٠هـ)، ص ٢١٧.

(٢١) إن تنفيذ الكتابات بأسلوب الحفر البارز تعد طريقة أصعب وأشق مقارنة بالحفر الغائر، فهي تستحوذ على جهد أكبر، وتحتاج إلى دقة وإتقان وأناة وصبر.

السطر الثاني:

تضمن نعت هذه القلعة بالميمونة، مع الدعاء والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى بأن يحميها ويحرسها من العدوان، مع الإشارة إلى أنها قامت بفضل وهمة الوالي العثماني.

السطر الثالث:

اشتمل علىألقاب من قام بتشييد هذه القلعة وهي "الملك الهمام" و "القائم بأمور الإسلام"، مع إيراد اسمه، وهو علي باشا.

السطر الرابع:

تضمن لقب الوالي العثماني، مع الدعاء له بدوام الإقبال. ثم ختم النص بتاريخ الانتهاء من تشييد القلعة، وهو سنة تسع وثلاثين وألف بعد الهجرة. علماً أن التاريخ كتب بجملة عربية صريحة متبوعة بكتابة التاريخ رقماً.

يفهم من مضمون نص النقش أن القلعة قد أنشئت في فترة ولاية الوالي العثماني علي باشا وذلك في عام ١٠٣٩هـ، والنص صريح في أنها عملية تشييد وبناء وليست ترميمات لمبنىً قائم. ولكن الثابت تاريخياً وأثرياً أن القلعة كانت قائمة قبل هذا التاريخ، ودليلنا على ذلك النقش التأسيسي المؤرخ في سنة ٩٦٨هـ والذي يشير صراحة لبناء القلعة[٢٢]، فضلاً عما ذكره أبو الفدا عن مشاهدته للقلعة، ووصفه لها.[٢٣]

إن هذا يقودنا إلى الاعتقاد بأن القلعة قد دمرت أثناء الاحتلال البرتغالي الأخير للمنطقة، إذ تذكر المصادر أنه نتيجة لثورة أهل القطيف، واحتجاجهم ضد الوجود البرتغالي، وطردهم لهم عادوا مرة أخرى، وانتقموا من أهل القطيف شر انتقام، ودمروا الحصون والقلاع وسووها بالأرض، بيد أن العثمانيين ما لبثوا أن استعادوا القطيف والأحساء، وأنهوا الوجود البرتغالي ليس في المنطقة الشرقية فحسب، بل في منطقة الخليج على وجه العموم.

وهذا يدفعنا إلى الترجيح أن النقش التأسيسي المؤرخ في سنة ٩٦٨هـ يعود إلى عمارة العثمانيين للقلعة عقب تمكنهم من طرد البرتغاليين، وأنه بعد قرابة ٧١ سنة أعيد إعمار القلعة، كما اتضح لنا من تاريخ النقش التأسيسي، موضوع هذه الدراسة. ولعل تدميرها هذه المرة كان نتيجة لقلاقل وفتن داخلية، وربما بفعل عوامل الزمن.

٣- الألقاب والنعوت الواردة في النقش:

يجدر بنا ملاحظة نعت الوالي العثماني بنعوت وألقاب اختص بها الخلفاء والسلاطين، فعادة ألقاب "الملك الهمام" و"القائم بأمور الإسلام" هي ألقاب ينعت بها رأس الدولة. كما أن النص ختم بالدعاء له

(٢٢) المسلم، **ساحل الذهب الأسود**، ص ٤٤.

(٢٣) المسلم، **القطيف**، ص ٢٨.

بدوام الإقبال، وهو ما يدعى به عادة لصاحب السلطان ورمز الدولة؛ مما يقودنا إلى الاعتقاد بأنها هنا ما هي إلا ألقاب ونعوت فخرية ولا تمثل سلطة حقيقية، خاصة وأنها أصبغت على أحد الولاة العثمانيين دون تضمين النص لاسم السلطان العثماني الذي شيدت القلعة في عهده.

* **الملك الهمام**: أي الملك العظيم الهمة، والسيد الشجاع السخي.(٢٤) والملك لقب يطلق على الرئيس الأعلى للسلطة، وهو من الألقاب المعروفة في اللغات السامية الجنوبية والشمالية القديمة، فأول إشارة لهذا اللقب وردت في نقش صرواح الذي تركه "كرب ال وتر" ملك سبأ، كما ورد اللقب نفسه في النقوش الشمالية، ويعد نقش النمارة المؤرخ في سنة ٣٢٨م، والذي يؤرخ لوفاة الملك امرئ القيس بن عمرو ملك الحيرة أول نقش عربي ترد فيه هذه الصيغة.

ولم يعرف هذا اللقب بصفة رسمية في صدر الإسلام والعصر الأموي، بيد أن بعض ولاة بني العباس أخذوا في الاستقلال عن مركز الخلافة- حتى وإن احتفظ بعضهم بالتبعية الاسمية- فتلقبوا بهذا اللقب، كما أن بعض رجال الدولة العباسية استبدوا بالسلطة السياسية في مركز الخلافة- وتلقبوا بهذا اللقب الذي يحمل في طياته معنى السيادة العليا.(٢٥)

* **القائم بأمور الإسلام**: كان لفظ "القائم" يضاف إلى كلمات أخرى لتكوين ألقاب مركبة مثل "القائم بأمر الله" و"القائم بأوامر الدين" و"القائم بدعوة الله" و"القائم بالسنة والفرائض" و"القائم بفرض الله".(٢٦) بيد أن هذا اللقب الذي ورد في النقش، موضوع دراستنا، يعتبر -حسب علمي- الأول من نوعه، حيث تخلو النقوش والكتابات الإسلامية منه، سواء النقوش التأسيسية، أو الشاهدية، أو الكتابات التذكارية، أو المسكوكات وغيرها.

* **باشا**: لقب تعظيم بمعنى: رئيس، يطلق على كبار العسكريين في الدولة العثمانية، مثل كبار القادة، وحكام الولايات، ثم أطلق على كبار الموظفين المدنيين.(٢٧) وفي نهاية العصر العثماني تدهور مستواه فأصبح

---

(٢٤) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، ص ١٥١٢.

(٢٥) الباشا، حسن، **الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار**، دار النهضة العربية، القاهرة (١٩٧٨م)، ص ص ٤٩٦-٤٩٧.

(٢٦) الباشا، حسن، **الألقاب**، ص ص ٤٢٨-٤٣٠.

(٢٧) النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد المكي، **البرق اليماني في الفتح العثماني**، تحقيق حمد الجاسر، الطبعة الأولى، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص ٧٥؛ الصفصافي، أحمد المرسي، **معجم صفصافي تركي - عربي**، كلية الآداب بجامعة عين شمس، القاهرة (١٩٧٩م)، ص ٣٩٠.

يعطى لكل من تريد الدولة استمالته وكسب تأييده.[٢٨]

٤- الأعلام الواردة في النص:

اللافت للنظر عدم تضمين النص اسم السلطان العثماني الذي أنشئت القلعة في فترة حكمه، واقتصر النص على إيراد اسم الوالي العثماني علي باشا.

علي باشا: (١٠١٨-١٠٤٤هـ/١٦٠٩-١٦٣٤م).

تولى علي باشا أمير أمراء إيالة الأحساء قرابة ٢٦عاماً، وذلك بعد وفاة أمير أمراء الإيالة بهرام باشا.[٢٩] وفيما يبدو أنه كان يشغل قبل ذلك منصب أمير لواء في الإيالة، وتوليته أمير أمراء كانت بمبادرة محلية من أمراء ألوية الإيالة وقادتها العسكريين، إضافة إلى بعض أعيان الإيالة،[٣٠] وذلك لمواجهة الفراغ الحاصل في منصب أمير الإيالة،[٣١] وفيما بعد أقر المجلس السلطاني بتاريخ ١٠جمادى الآخرة ١٠١٨هـ/ ٩سبتمبر ١٦٠٩م ذلك الإجراء، وتم تعيين علي باشا بصفة رسمية أمير أمراء على إيالة الحسا.[٣٢]

هذا وقد شرع علي باشا في مواجهة القلاقل والفتن التي اعترضت الإيالة خصوصاً من قبل القوى الموالية للصفويين، حيث كانت على مقربة من المنطقة، وشكلت مع القوى المحلية تهديداً مباشراً للإيالة، فقام علي باشا بتنظيم الأمور الإدارية، وعزز قواتها العسكرية واستحكم دفاعاتها وتحصيناتها بدعم وتأييد من المجلس السلطاني في استنبول.[٣٣]

ويعد علي باشا من نتاج أفراد الطبقة العسكرية العثمانية التي استقرت في المنطقة العربية وازدادت صلتها بها نتيجة للتزاوج وترابط المصالح، وقد لقب بالبغدادي نسبة إلى نشأته ببغداد، وارتباطه بها. عرف هو وأفراد عائلته بالتدين والغنى، ونالوا قسطاً وافراً من المعرفة والثقافة خصوصاً في العلوم الشرعية واللغة العربية وآدابها، واشتهر لذلك فضلاً عن طول المدة التي قضاها أميراً لأمراء الإيالة، وأحد أبنائه من بعده.[٣٤]

وقد استمر علي باشا في منصبه أميراً لأمراء الإيالة حتى سنة ١٠٤٤هـ/١٦٣٤م، حيث تذكر الروايات المحلية أن أحد أبنائه قد زور رسالة باسم أبيه أثناء إحدى زياراته

---

(٢٨) غبان، علي بن إبراهيم حامد، **شمال غرب المملكة العربية السعودية "الكتاب الأول": بحوث في التاريخ والآثار**، (د.م)، الطبعة الأولى (١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، ص ١٢٨.

(٢٩) الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٥٧.

(٣٠) الغرابي، أحمد بن عبدالله البغدادي، **تاريخ الغرابي**، مخطوط بالمتحف العراقي في بغداد تحت رقم ٩٣١١، ص ص ١٣٤-١٣٥؛الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٥٧.

(٣١) الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٥٧.

(٣٢) الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٥٧.

(٣٣) الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٥٧.

(٣٤) الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٥٧.

السنوية لاستنبول تضمنت طلب علي باشا إعفاءه من منصبه نظراً لكبره وعجزه، وأنه يوصي بتعيين ابنه حامل الرسالة بدلاً منه، فاستجابت استنبول لطلبه فعزلته، وعينت ابنه بدلاً منه.(٣٥)

غادر بعد عزله المنطقة متوجهاً إلى المدينة المنورة، حيث جاور الحرم النبوي، وعاش بقية حياته هناك، وعرف هو وابناه اللذان قدما معه من إيالة الحسا بالجود والعلم والصلاح.(٣٦) وتوفي بالمدينة سنة ١٠٥١ هـ/١٦٤٠-١٦٤١م.(٣٧)

ثالثاً: الدراسة التحليلية لخصائص الخط الفنية:

نفذ النقش بأسلوب ونمط كتابي يمثل تلك الكتابات المنفذة على غالبية النقوش التأسيسية العثمانية، وتحديداً تلك المنفذة بخط الثلث المركب. ومما لا شك فيه أن هذا النقش قد نفذ بطريقة فنية رائعة أبدعها خطاط ماهر محترف، وبأسلوب واضح بسيط يمكن قراءته بيسر وسهولة، ولعل هذا هو المطلوب في النقوش التأسيسية التي عادة ما توضع لتأريخ عمل ما، وإصباغ الشهرة والتخليد على اسم من قام بهذا العمل.

وقد التزم الكاتب بقواعد خط الثلث، وأتقن الشكل العام للنقش من حيث توزيع الكلمات على الأسطر، وطول الأسطر وتناسقها، ووضعها بجداول منسقة (خراطيش)، وبالرغم من ذلك فإنه من فرط حرصه على تحقيق هذا التوازن، قام بقطع بعض الأطراف الداخلية للإطار العام، ولاسيما من الجهة اليسرى، كما هو الحال في الكلمات: (القلعة) في السطر الأول، و (علي) في السطر الثالث، و (ألف) في السطر الرابع، **(لوحة رقم١، شكل رقم١).**

ويمكننا ملاحظة جملة من صور الإبداع الفني في أسلوب هذا الخطاط، (انظر جدول أشكال الحروف)، منها:

- قدرته على سحب قوائم الألفات في رشاقة متناهية.
- دقة تنفيذ عراقات الحروف النازلة عن الأسطر، ومنها: الراء، والزاي، والواو.
- تكرار حالات قطع حرف بحرف آخر أو أكثر، وإخراجها بشكل واضح ومتقن.
- إبداعه ومهارته في تدوير رأس الفاء، والقاف، والواو.
- تلويز رأس العين.
- إسباله للميم النهائية.
- تقديم حروف بعض الكلمات عن موضعها دون إخلال بالكتابة أو الشكل العام للنقش.

---

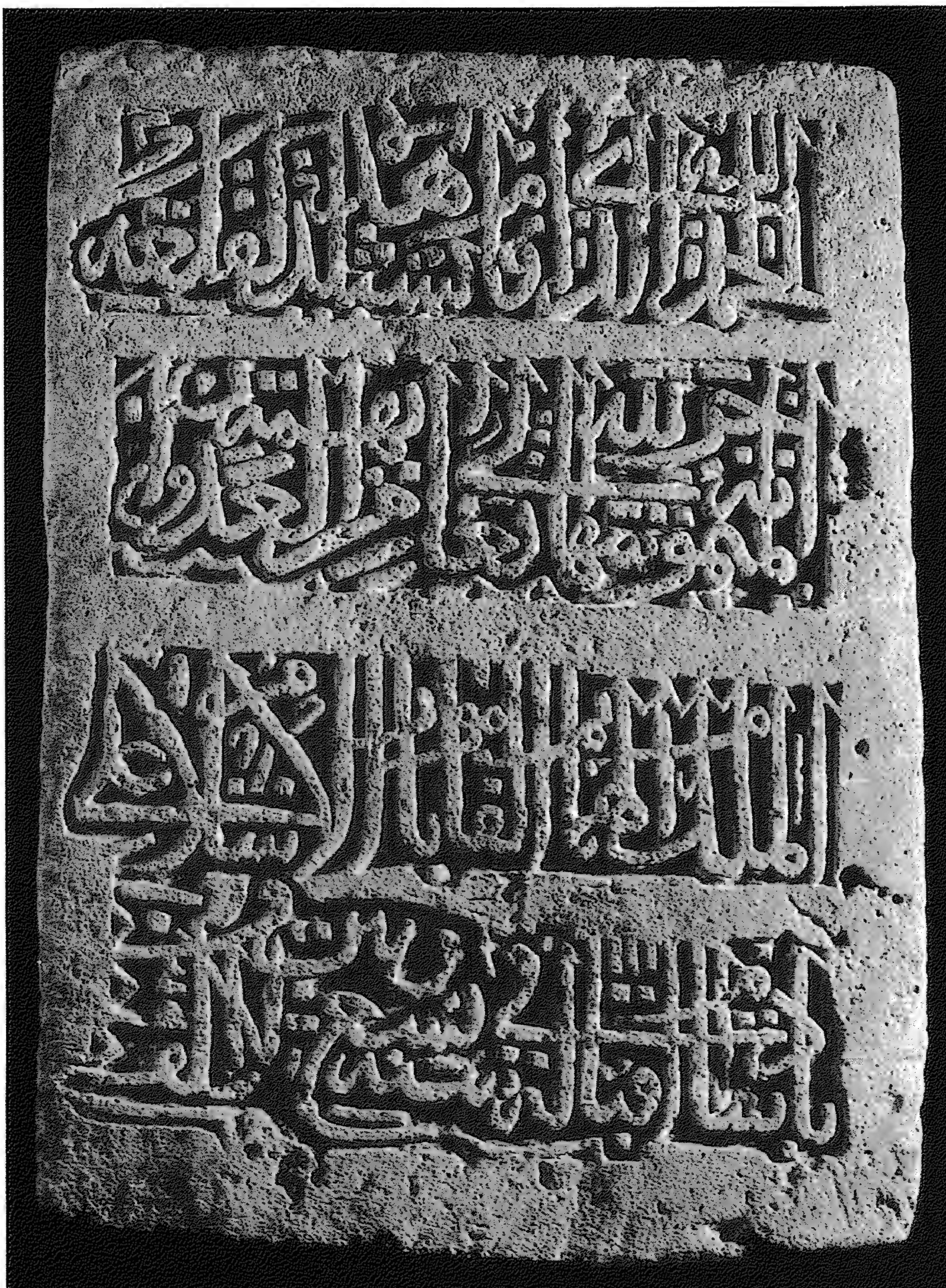
(٣٥) الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٥٧.

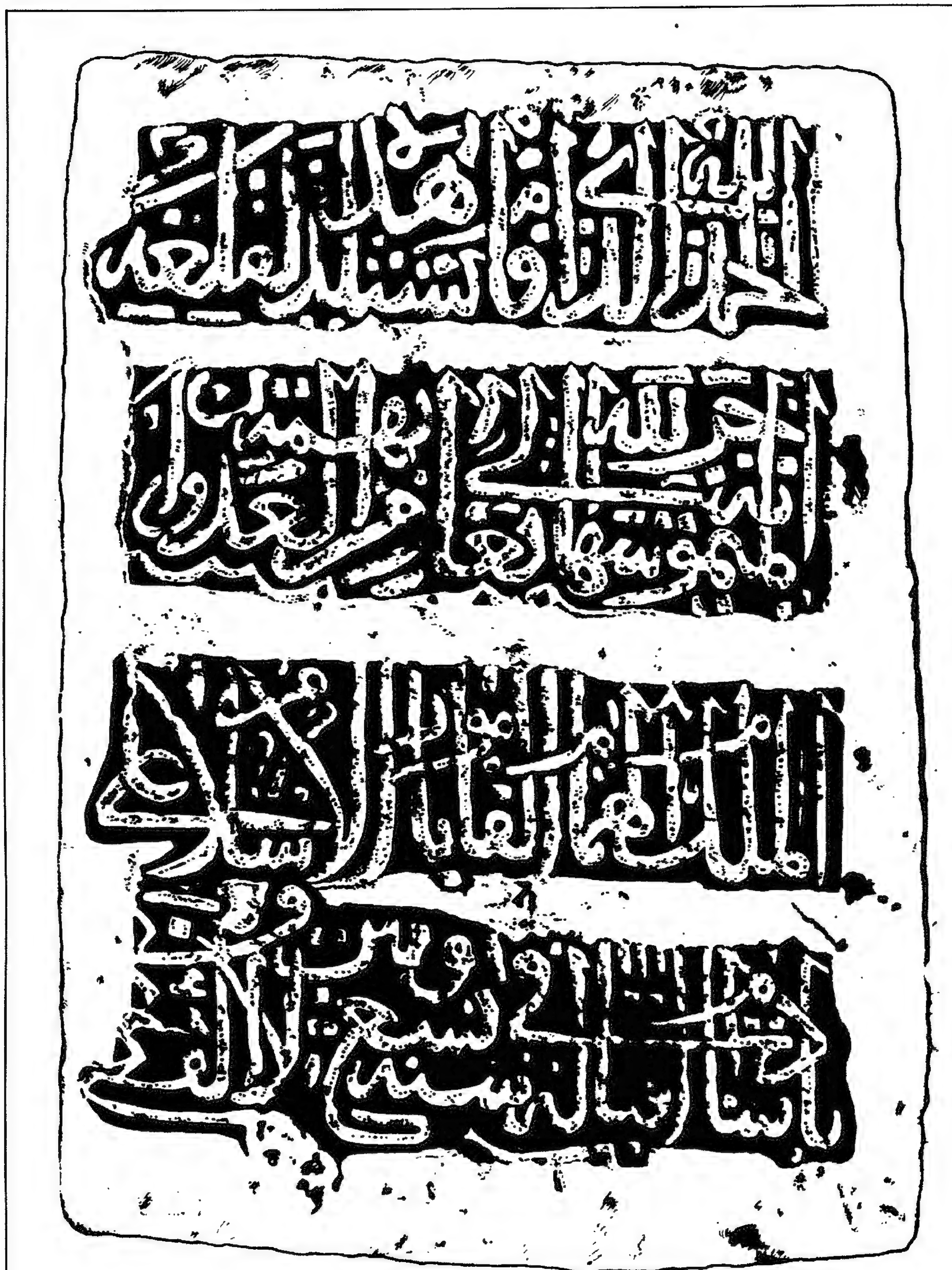
(٣٦) الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٦٠.

(٣٧) المحبي، محمد، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، ج١، دار صادر، بيروت (د.ت)، ص ص ٩٠-٩٢؛ الوهبي، **الحكم العثماني في الحسا**، ص ٢٦٠.

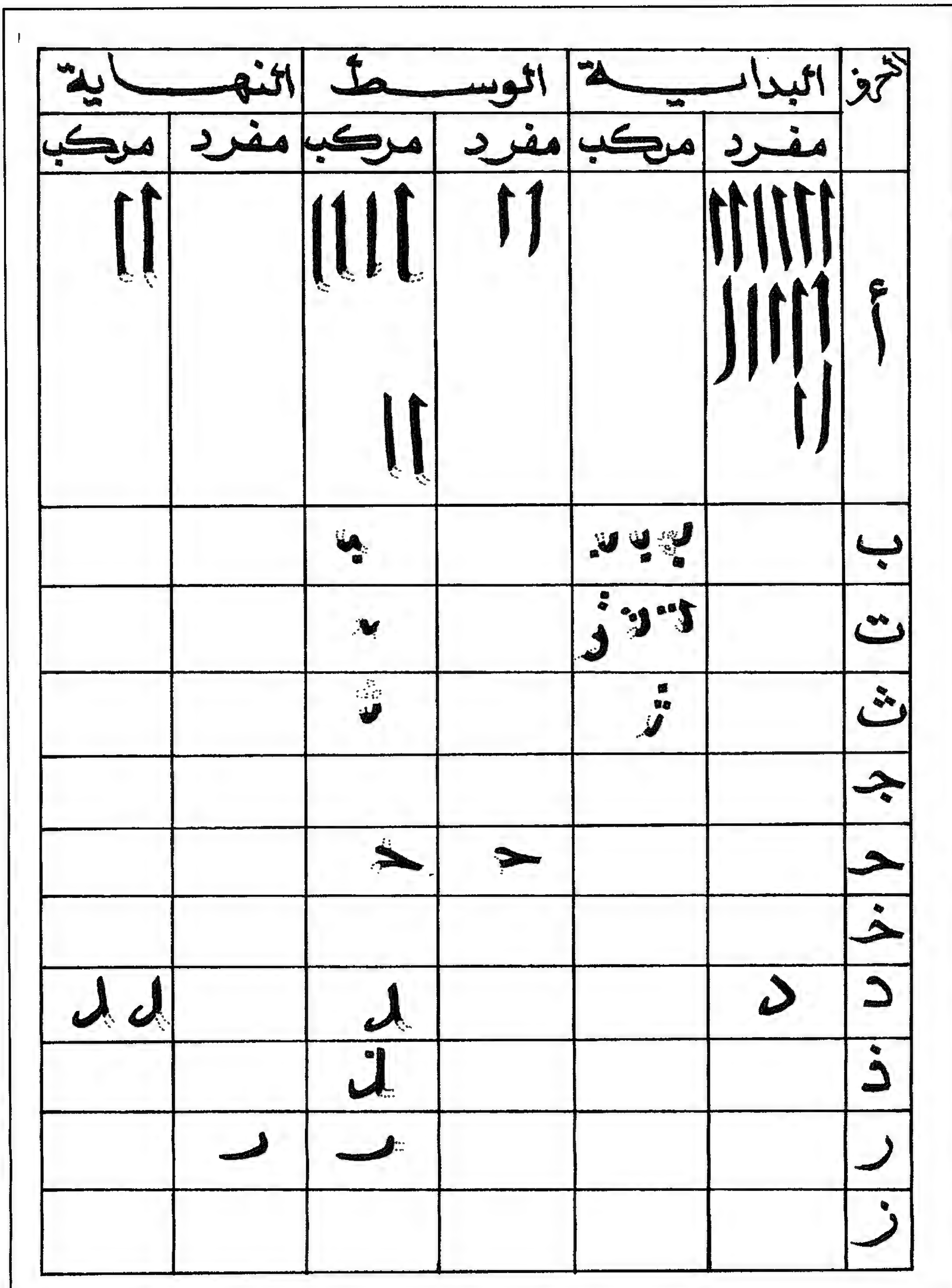
- تقاطع الياء العائدة مع ما سبقها من حروف دون التباس هيئتها مع الحروف الأخرى.
- تنفيذ الكلمات وحروفها بطريقة مركبة على دورين، وثلاثة أدوار.
- ورد لفظ الجلالة مرتين، رسم الثاني منهما بألف طويلة مسحوبة، ولامين قصيرتين، وهاء نهائية مخطوفة.
- ملء الفراغات بنقط الإعجام، ونفذت على هيئة مربعات.
- توظيف رؤوس حروف الألف واللام والكاف في السطر الثالث لتؤدي دوراً زخرفياً على هيئة شريط دال، أو ما يعرف بالزقزاق، فضلاً عن دورها جزءاً من هيئة الحرف، ولم يقف الأمر عند ذلك الحد فحسب بل نجد أن الخطاط ختم النقش بالهيئة الزخرفية نفسها، وذلك في نهاية الجدول (الخرطوش) الرابع بعد التاريخ المدون كتابة ورقما.

وبعد فإنه يتضح من خلال ما سبق عرضه، مدى أهمية هذا النقش التأسيسي، وقيمته العلمية، سواء من حيث مدلولاته التاريخية، أو الأثرية، أو مواكبته للأحداث التاريخية العائدة إلى تلك الفترة، أو من حيث ما اشتمل عليه من صيغ وتراكيب وألقاب ونعوت ذات مدلول رسمي، فضلاً عن قيمته الآثارية الخطية، وما يبرزه من معطيات فنية، وقيم جمالية.

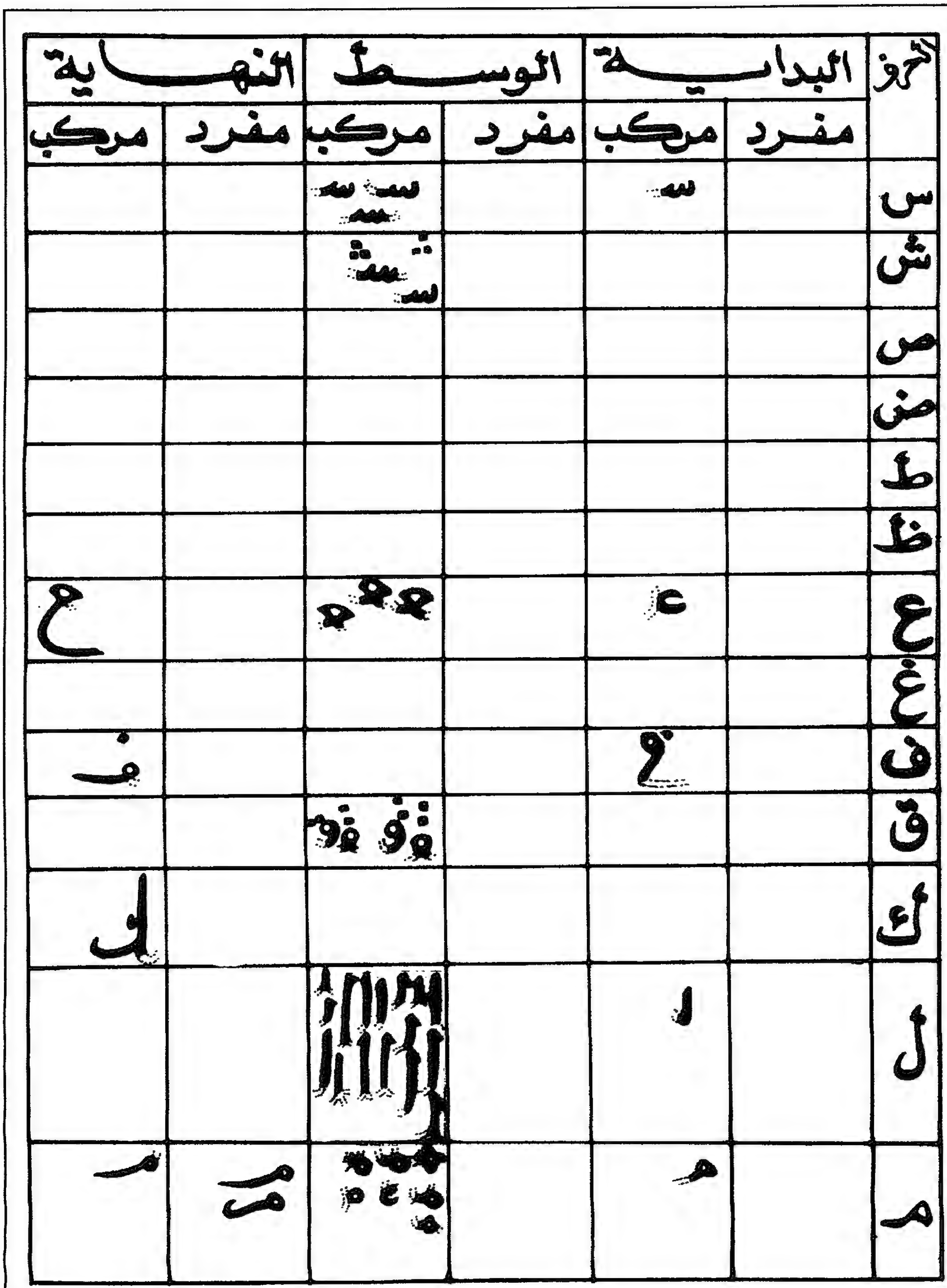




شكل رقم (١)



جدول أشكال الحروف



جدول أشكال الحروف

الحروف	البداية		الوسط		النهاية	
	مفرد	مركب	مفرد	مركب	مفرد	مركب
ن				ـنـ ـنـ	ن	ـن ـن
ه		هـ		ـهـ ـهـ		ـه ـه ـه ـه ـه ـه ـه
و	و و		و	ـو ـو		
ي				ـيـ ـيـ	ـے	ـے ـے
لا			لا	ـلا		
لفظ الجلالة	الله الله					

جدول أشكال الحروف

العصور، المجلد الثاني عشر، الجزء الثاني، ٩٧ – ١٣٤ (٢٠٠٢م).

الحياة الزراعية في الريف الفلسطيني في أواخر العهد العثماني

د. محمد الحزماوي

ملخص البحث :

يهدف هذا البحث إلى دراسة الحياة الزراعية في المجتمع الريفي الفلسطيني في أواخر العهد العثماني، من خلال تتبع الباحث للعمل الزراعي للفلاح الفلسطيني منذ بداية الحراثة وحتى الحصاد. وقد تركزت محاور هذا البحث على ثلاثة مواضيع مهمة هي المحاصيل الزراعية في الريف الفلسطيني، والأدوات والأساليب الزراعية بالإضافة إلى المشاكل التي كانت تواجه المزارعين. وخلص الباحث إلى أن الزراعة بالرغم من أساليبها البدائية والمشاكل التي كانت تواجهها بقيت تشكل العمود الفقري في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للفلاح الفلسطيني.

المقدمة :

تعد فلسطين بلداً زراعياً، ويعمل الغالبية العظمى من سكانها بالزراعة لا سيما الفلاحين الذين شكلوا أكثر من ثلثي السكان، فكانوا بذلك القاعدة الرئيسية في المجتمع الفلسطيني، كما شكلوا قاعدة النظام الزراعي وكان الفلاحون يقطنون في القرى التي تعتبر أكبر الوحدات الاجتماعية في الريف الفلسطيني، وتضم كل قرية حمائل كبيرة يتفرع عنها العشيرة التي تشكل الدعامة الرئيسية للحياة الريفية، وكان على رأس كل عشيرة شيخ يحكمها وفق العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة في المجتمع القروي وتضم العشيرة مجموعة من الأسر وتعتبر الأسر أصغر الوحدات الاجتماعية وكانت السمة الأساسية للأسرة الريفية هي العمل بالزراعة.

ونظراً لما تشكله الزراعة من مصدر أساسي في حياة الفلاحين ودعامة رئيسية في مواردهم فقد ارتبط الفلاح الفلسطيني بالأرض ارتباطاً وثيقاً، فغدت الحياة الاقتصادية في الريف الفلسطيني تستند بشكل أساسي إلى ملكية الأرض، كما كان العمل الزراعي أساساً للحياة الاقتصادية. وكان للتباين في التضاريس الطبيعية وتنوع المناخ دور مهم في تنوع المنتوجات الزراعية، ومما لا شك فيه أن التربة والمناخ والمياه تعتبر من العوامل الرئيسية التي تؤثر على الإنتاج الزراعي، فالتربة في فلسطين تتباين من منطقة لأخرى، كما أن المناخ أيضاً متباين بشكل واضح، أما

المياه فمصادرها متنوعة من أنهار ومياه جوفية وعيون وينابيع، إلا أن أهم مصادر المياه هي الأمطار، لذلك فإن الزراعة في فلسطين تعتمد بشكل رئيسي على مياه الأمطار، الأمر الذي يعني أن السمة الغالبة على الزراعة في فلسطين هي الزراعة البعلية.

ترتب على إصدار الدولة العثمانية لخط همايون عام ١٨٥٦م، صدور قانون الأراضي العثماني لعام ١٨٥٨م الذي يضمن ١٣٢ مادة وخاتمة، وقد صنفت الأراضي بموجبه إلى الأصناف التالية[١]:

١. **الأراضي المملوكة** : وهي الأراضي المملوكة ملكية خاصة ولا يحق لأحد أن يتصرف بها دون إذن صاحبها[٢]، وقسمت هذه الأراضي إلى أربعة أقسام :

القسم الأول - العرصات : وهي الأراضي الواقعة داخل المدن والقرى أو التي تمتد حولها لمسافة نصف دونم. والقسم الثاني - الأراضي الأميرية : التي تحولت إلى ملك خاص بعد فرزها. والقسم الثالث - الأراضي العشرية : وهي الأراضي التي تم توزيعها على الفاتحين خلال الفتح الإسلامي أو التي بقيت بأيدي أصحابها الأصليين المسلمين. والقسم الرابع - الأراضي الخراجية : وهي الأراضي التي تقرر بقاؤها بأيدي أصحابها من غير المسلمين شريطة دفع الخراج عنها[٣].

٢. **الأراضي الأميرية** : وهي الأراضي التي تعود ملكيتها لبيت المال كالمحاطب والمشاتي والمراعي والغابات، وكان التصرف بها يتم بتفويض من قبل الدولة. وفي حال إهمالها من قبل المتصرف بها لمدة ثلاث سنوات متتالية يبطل حقه في التصرف بها وتصبح أرضاً محلولة[٤].

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول قانون الأراضي العثماني: انظر: **الدستور** (جزآن). ترجمة نوفل نعمة الله نوفل، بيروت: المطبعة الأدبية، ١٨٨٣. ج١، ص١٤-٤٣.
نقولا أفندي نقاش، أصل وترجمة قانون ونظامنامة الأراضي مع بعض مواد مهمة نظامية متعلقة بهذا الخصوص وبخصوصات أخر تشبهها تلزم إلى عامة الناس كما يتبين ذلك بالفهرست، بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٨٧٣، ص١-٥٩.
المر، دعيبس، **أحكام الأراضي المتبعة في البلاد العربية المنفصلة عن السلطنة العثمانية**، جزآن، القدس، ١٩٢٣. ج١، ص٧-٣٢.

(٢) ويذكر المر أن الأراضي المملوكة هي "الأراضي التي يتصرف بها صاحبها كيف شاء كما يتصرف بالمنقولات فله رقبتها وكافة حقوقها ويجوز له بيعها أو رهنها أو الإيصاء بها، كما أنه يورثها لورثته الشرعيين، فلا تعود إلى بيت المال بعد وفاته إلا إذا = لم يوجد أحد من ورثته ولو بعيداً، المر، أحكام الأراضي ج٢، ص٨.

(٣) وكان هذا الخراج على نوعين هما خراج المقاسمة ويؤخذ من المحصول على أساس الغلة الفعلية وتتراوح قيمته بين العشر والنصف وذلك حسب جودة الأرض. والخراج الموظف وهو عبارة عن ضريبة مقطوعة تفرض على الأرض سواء زرعت أو لم تزرع. انظر، **الدستور** ج١، ص١١.

(٤) لا بد من الإشارة إلى أن الحكومة لم تطبق هذا الإجراء في جميع المناطق بالتساوي، ففي فلسطين كانت ثلاث سنوات وفي سوريا ولبنان خمس سنوات، وفي العراق كانت تتراوح ما بين ٣-٤ سنوات وذلك حسب نوع وطبيعة الأرض الميري.
انظر: محمد الحزماوي، **ملكية الأراضي في فلسطين ١٩١٨-١٩٤٨**، عكا: دار الأسوار، ١٩٩٨، ص٣٧.

٣. **أراضي الوقف** : وقسمت من حيث نوع ملكية الأراضي إلى نوعين، أراضي الوقف الصحيح : وهي الأراضي التي أوقفها أصحابها طبقاً للشرع الشريف وتكون رقبتها وجميع حقوق التصرف فيها عائدة إلى جانب الوقف، ولا تجري عليها المعاملات القانونية والأحكام النظامية بل تعامل بموجب شروط الواقف. والنوع الثاني أراضي الوقف غير الصحيح : وهي الأراضي المفروزة من الأراضي الأميرية التي أوقفها السلاطين أو غيرهم على جهة من الجهات الخيرية بالإذن السلطاني(٥).

٤. **الأراضي المتروكة** : وهي الأراضي التي ترك حق الانتفاع بها لعامة الناس أو لأهالي قرية أو مجموعة قرى كالطرق والأسواق العامة والمراعي والبيادر والساحات والمحتطبات والمشاتي.

٥. **الأراضي الموات** : وهي الأراضي الخالية والبعيدة عن العمران مسافة لا تقل عن ميل ونصف الميل أو نصف ساعة سيرا على الأقدام، وسمح القانون للأهالي بأحيائها شريطة موافقة الحكومة على أن يكون بإحيائها في مدة لا تزيد على ثلاث سنوات.

٦. **الأراضي المشاع** : وهي الأراضي التي تعود ملكيتها للجماعة، وغالباً ما تكون لأهل قرية واحدة، حيث يكون التصرف في هذه الأراضي للجماعة، ويشترك الجميع في حقوق الرعي والاحتطاب وموارد المياه وغير ذلك من المصالح العامة المتوفرة في الأرض. وقد قدرت مساحة الأراضي المشاع في فلسطين حتى عام ١٩١٨م نحو ٧٠% من مجموع مساحة الأراضي الفلسطينية. وكان يتم توزيع الحصص في هذه الأراضي، إما حسب نظام الذكور وإما حسب نظام الفدان، وتوزع الحصص على حسب نظام الذكور إما على الأفراد وإما الجماعات، بينما توزع الأراضي حسب نظام الفدان على البالغين أو الذين يمتلكون محاريث وحيوانات، وبالتالي يستند هذا النظام إلى إعطاء حصص لوحدات الإنتاج أي الأشخاص القادرين على زراعة الأرض(٦).

---

(٥) وقسمت أراضي الأوقاف من حيث الجهة التي حبست عليها والأهداف التي شكلت من أجلها إلى قسمين هما أراضي الأوقاف الخيرية وأراضي الأوقاف الذرية أو الأهلية. أما من حيث الإدارة فقد قسمت إلى ثلاثة أصناف هي الأوقاف المضبوطة، والأوقاف الملحقة والأوقاف المستثناة. قسمت من حيث الانتفاع إلى قسمين هما المسقفات والمستغلات، ومن حيث الإجارة كانت على شكلين ذات الإجارة الواحدة وذات الإجارتين. انظر المر، المصدر السابق، ج٢، (قانون تقسيم الأموال المشتركة الغير =

= منقولة) ص٩٧-١٠١. ولمزيد من التفاصيل حول أراضي الأوقاف في فلسطين انظر: مايكل دمبر، سياسة إسرائيل تجاه الأوقاف الإسلامية في فلسطين ١٩٤٨ - ١٩٨٨ بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٢.

(٦) الحزماوي، مرجع سابق، ص٤٤-٥٠ ولمزيد من التفاصيل حول الأراضي المشاع انظر:

Bergheim, Samuel. " Land Tenure in palestine. "Palestine exploration Fund, 1894, PP192-195. =

وبعد صدور قانون الأراضي العثماني، أصدرت الدولة عدة أنظمة وقوانين لاحقة اعتبرت مكملة لهذا القانون وذلك بهدف ضبط الأراضي وتسجيلها بشكل دقيق، ففي عام ١٨٥٩م صدرت لائحة تعليمات بحق سندات الطابو، ثم صدر قانون الطابو عام ١٨٦١م وملحقاته عام ١٨٦٧م(٧).

ونظراً للخصائص الطبوغرافية والمناخية في فلسطين، فقد تعددت المحاصيل الزراعية في مختلف أنحاء البلاد. ومن الممكن التمييز بين نوعين من الزراعة :

أ) **الزراعة البعلية** : وتعتمد بشكل رئيسي على مياه الأمطار الساقطة خلال فصل الشتاء وتشتمل على الكثير من الأشجار المثمرة والحبوب.

ب) **الزراعة المروية** : وتعتمد على سقي المزروعات طوال الدورة الزراعية سواء عن طريق الآبار أو القنوات أو الخزانات.

وبشكل عام فإن الإنتاج الزراعي يتأثر بكميات الأمطار التي تسقط خلال فصل الشتاء، وهذا بدوره يؤدي إلى عدم انتظام الإنتاج الزراعي خلال السنوات المتعاقبة، فضلاً عن التأثير الناجم عن طول فصل الصيف وجفافه في بعض المناطق على المحاصيل الزراعية(٨).

وينعكس تنوع المناخ بما في ذلك كمية الأمطار والندى ودرجة الحرارة ونوع التربة على تنوع المحاصيل الزراعية في مختلف أنحاء فلسطين وذلك كما يلي :

أ. **السهل الساحلي** : ويمتد من حدود فلسطين الجنوبية قرب رفح إلى الحدود الشمالية قرب الناقورة، وتعتبر أراضيه خصبة جداً، كما أن تربته في أغلبها رملية أو رملية ممزوجة بالصلصال أو الطين. وأهم المحاصيل التي تزرع في هذه المنطقة الأشجار الحمضية والخضار، كما تزرع به الحبوب كالحنطة والشعير والقطاني والذرة الصفراء والسمسم بالإضافة إلى الأشجار المثمرة.

ب. **السهول الداخلية** : وتشتمل على مرج ابن عامر وسهل الحولة وسهل البطوف وسهل صانور، وتربتها خصبة جداً وهي بالأكثر من الصلصال الثقيل تتخللها مناطق تربتها خفيفة، وتزرع فيها الحبوب والأشجار المثمرة والخضراوات.

= Fire stone, Yaakov. The Land-equalizing musha village, In Gad G. Gilbar 3 (ed), Ottoman Palestine 1800-1911: studies in economic and social history , Haifa, gustav Heineman institute of Middle eastern studies, 1990, PP.85-101

(٧) ولمزيد من التفاصيل حول هذه الأنظمة والقوانين. انظر: **الدستور**، ج١، ص٤٤-٥٥ المر، **أحكام الأراضي**، ج٢، ص٦٥-٨٥.

(٨) العامري، عنان، **التطور الزراعي والصناعي الفلسطيني ١٩٠٠-١٩٧٠**، بيروت، د.ن، ١٩٧٤، ص٢٩.

ج. سلسلة الجبال : وتربتها على الأغلب من الطين الصلصالي، وأهم منتجاتها الأشجار المثمرة والزيتون.

د. غور الأردن : وتربته من الطين الراسبي الصلصالي، وأهم ما يزرع فيه الموز وبعض الأشجار الحمضية.

هـ. هضبة بئر السبع : وتربتها من الطين الرملي، ونظراً لقلة سقوط الأمطار فيها فإن مزروعاتها قليلة، ومن أهم المحاصيل الزراعية فيها الشعير(٩).

المحاصيل الزراعية :

تعتبر زراعة الحبوب من أكثر المحاصيل التي يزرعها الفلاحون، إذ يتبعون طريقة تناوب المزروعات وتتراوح مدتها ما بين سنتين إلى ثلاث سنوات، ويكون تناوب السنتين بين الحنطة أو الشعير من جهة والمزروعات القطانية الشتوية أو المزروعات الصيفية كالذرة والسمسم من جهة ثانية، أما تناوب السنوات الثلاث فتتم عادة بزرع القطاني بين الحبوب الصيفية والشتوية المزروعة(١٠).

وتعتبر الذرة البيضاء والسمسم والقطن من أهم المحاصيل الصيفية، وكانت الذرة تزرع خلال موسم الصيف بعد حصاد القمح والشعير، وبلغت المساحة المزروعة بالذرة عام ١٩٠٩م/١٩١٠م نحو ١٩١٢٥٠ دونماً أنتجت ١٨٥٠٠ طن، علماً أن المعدل العادي لإنتاج الذرة السنوي كان ٢٧ ألف طن وكان يصدر من ميناء حيفا إلى جزيرة مالطا والجزائر ليصنع منه كحول الإيثيلين(١١).

وتحتاج زراعة السمسم إلى عناية بالغة سواء فيما يتعلق بضرورة إزالة الأعشاب الضارة من الأرض المزروع بها أو العناية الخاصة في طريقة اجتثاثه، إذ إن سنوفه (قرونه) لا تنضج في وقت واحد، ولذلك يضطر الفلاح إلى التجول يومياً في حقول السمسم وجمع الناضج وسنوفه باليد لأنه إذا ترك الناضج منها على نبتته مدة بعد نضوجه تتشقق السنوف ويسقط الحب على الأرض. أما الذرة البيضاء فمع أنها تستعمل كعلف للحيوانات وفي بعض الأحيان كغذاء إضافي للإنسان في المواسم الرديئة، وهي أيضاً تنبت في مناطق يكون المطر فيها منخفضاً نسبياً، إلا أن قيمتها عند الفلاحين كموسم صيفي أقل من السمسم، وذلك لأنها تستنزف القوة الغذائية في الأرض(١٢). وقد انتشرت زراعة السمسم

---

(٩) براون، مونتاكيو، الزراعة، ضمن كتاب سعيد حماده (محرر)، **النظام الاقتصادي في فلسطين**، بيروت، الجامعة الأمريكية، ١٩٣٩، ص١٣٩-١٤١.

(١٠) برون، المرجع السابق، ص٥٥٦. روجر أوين، **تاريخ فلسطين الاقتصادي في القرن التاسع عشر**، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الخاص، المجلد الأول، بيروت، ١٩٩٠، ص٥٥٣.

(١١) أبو رجيلي، خليل، **"الزراعة العربية في فلسطين قبل قيام دولة إسرائيل"**. مجلة شؤون فلسطينية، العدد ١١، ١٩٧٢، ص١٣٢.

(١٢) برون، مرجع سابق، ص١٦٨. أوين، مرجع سابق، ص٥٥٣.

في مختلف المناطق لا سيما منطقة جبل نابلس، وكان يستفاد منه في صناعة الحلويات وبعض المأكولات الشعبية، كما يستخرج منه الزيت الذي يعرف بالسيرج(١٣). وقدرت المساحة المزروعة بالسمسم عام ١٩٠٩م/ ١٩١٠م نحو ١٢٤٠٠٠ دونم أنتجت ٥٩٠٢ طن، أما المعدل العادي لإنتاج السمسم السنوي فقد كان ضعف هذا الإنتاج. وكان يصدر منه سنوياً من مرفأ حيفا إلى فرنسا وإيطاليا ٩٠٠٠ طن بسعر ٤٠٠ فرنك للطن الواحد(١٤).

غير أن أهم المحاصيل الزراعية التي كان يزرعها الفلاحون، وتأتي من حيث الأهمية عند الفلاح الفلسطيني كشجرة الزيتون إن لم تكن تزيد عن ذلك، هي القمح إذ إنه مادة أساسية في غذاء الفلاحين، وقد انتشرت زراعته في مختلف أنحاء فلسطين لاسيما في مناطق السهول والمرتفعات نظراً لخصوبة تربتها، وتركزت بشكل رئيسي في مرج ابن عامر(١٥). وكان القمح على أنواع عدة منها :

- القمح الحوراني : نسبة إلى حوران ويمتاز بأن ساقه متوسطة الطول، وسنابله غليظة وكثيفة ذات سفا لونها يميل إلى السمرة، كما أن حبه سمين وقاس يميل إلى الحمرة.
- القمح الهيتي : وتمتاز سنابله بأنها ذات سفا يميل لونه إلى الأصفر وحبه حنطي يميل إلى الحمرة. ومن أنواع القمح الهيتي، الهيتية القطمة الحمراء ذات اللون الفاتح وتصلح للخبز والبرغل، والصفراء التي تتعرض للصدأ وتصلح للخبز والبرغل(١٦).
- القمح النرسي (النورسي) : ويكون على شكل أربع صفوف من الحب، سنابله غليظة تبنه جيد وطحينه جيد.
- القطراوي : أربع صفوف من الحب، سنابله ضعيفة.
- أبو حربه : صفان من الحب وذات سفا يميل لونها إلى الرمادي.
- الطوباسي : نسبة إلى طوباس، حبوبه بيضاء وشفافة.
- البلدي : تميل حبوبه إلى اللون البني.
- قمح أم طوبار : تميل حبوبه إلى اللون الأسود.
- القمح الغوراني، سنابله غليظة ويميل إلى اللون الأبيض.
- القمح الغزاوي : نسبة إلى غزة، ويميل إلى اللون الأسود، وغير محبذ عند الفلاحين نتيجة لاحتواحه على زوان كثير.

---

(١٣) حسين، عبد الله محمود، **الحياة الاجتماعية والاقتصادية في نابلس ١٨٥٠-١٨٧٥**، رسالة دكتوراه غير منشورة، دمشق: جامعة دمشق، ١٩٨٩، ص٤٢٩.

(١٤) أبو رجيلي، مرجع سابق، ص١٣٢.

(١٥) المرجع نفسه، ص ١٣١.

(١٦) Baldensperger, Philip. J. The Immovable east, Palestine exploration Fund quarterly statement, January, 1907, P16.

طريف، جورج، **السلط وجوارها ١٨٦٤-١٩٢١**، عمان، منشورات بنك الأعمال، ١٩٩٤، ص٥١١.

- القمح النابلسي : نسبة إلى نابلس.
- القمح العجلوني : نسبة إلى عجلون.
- القمح الدبواني : من مؤاب وسنابله طويلة[١٧].

ووفقاً لبعض الإحصائيات التي تعود إلى عام ١٩٠٩/١٩١٠ قدرت المساحة المزروعة بالقمح في فلسطين خلال هذا العام نحو ٤٦١٠٠ دونم أنتجت ٣٣٩٥٠ طناً. وكان المعدل السنوي العادي لإنتاج القمح في متصرفية القدس نحو ٥٠ ألف طن، وقد انخفضت سنة ١٩٠٩/١٩١٠ إلى ثلثي معدل الإنتاج السنوي العادي وذلك لرداءة الموسم في تلك السنة[١٨].

غير أنه لا بد من الإشارة إلى أن كمية القمح المبذور قد تصل عند الحصاد إلى عشرة أو عشرين أو ثلاثين ضعفاً، وذلك حسب نوعية التربة ومساحة الأرض المزروعة، بالإضافة إلى موقع الأرض[١٩].

أما الشعير فقد كان يزرع في المناطق التي تسقط عليها الأمطار بشكل قليل خصوصاً في هضبة بئر السبع وسهل غزة لاسيما أن هذا المحصول يمتاز بقدرته على تحمل العطش. وكان الشعير على عدة أنواع ولكل نوع صفات، من أهمها الفركدي التي تكون سنابله طويلة، والغزاوي وبذوره طويلة والقمح السبعيني الذي يحصد بعد ٧٠ يوماً من بذره[٢٠]. وقد بلغت مساحة الأراضي المزروعة بالشعير عام ١٩٠٩/١٩١٠ نحو ٣٣٨٤٠٠ دونم أنتجت ٢٠٧٧٢ طناً في حين كان المعدل السنوي لإنتاج الشعير في متصرفية القدس ٣١ ألف طن وكان يصدر منه سنوياً إلى بريطانيا ٨ آلاف طن لاستعماله في صناعة الخمور[٢١].

ويلي الحبوب من حيث الأهمية الزيتون، إذ تعتبر شجرة الزيتون عند الفلسطينيين بشكل عام جزءاً من التراث الوطني الفلسطيني، كما أن قيمة الثروة المادية للعائلة الفلاحية في معظم القرى الفلسطينية لاسيما شمال فلسطين كانت ولا تزال حتى الوقت الحاضر تقاس بعدد جرار الزيت الذي تنتجه أشجارها سنوياً[٢٢]. ونظراً لأهمية هذه الشجرة فقد غدت :

"أيقونة وطنية عند الفلسطينيين، فانتشارها الكثيف في التلال المكففة والأودية، ومثله عمرها العنيد في تماديه، يرمزان إلى الرسوخ والتجذر والانتماء والبقاء على الرغم من الصعوبات كافة. وهي إذ تمتدح في الشعر، وتنقش صورتها في القلائد الفضية، تستحضر

(١٧) Baladensperger, The Immovable east, January 1907, PP.15-16.

(١٨) أبو رجيلي، مرجع سابق، ص١٣١.

(١٩) The Immovable east, January 1907, P16.

(٢٠) Ibid, P16

(٢١) أبو رجيلي، مرجع سابق، ص ١٣٢.

(٢٢) دوماني، بشارة، **إعادة اكتشاف فلسطين: أهالي جبل نابلس ١٧٠٠-١٩٠٠**، ترجمة حسني زينة، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٨، ص ١٦٢.

ماضيا رفع إلى مصاف المثاليات، يوم لم يكن الفلسطينيون لاجئين، ولا أقلية مهضومة الحقوق تنوء تحت حكم استعماري، وإنما فلاحون أحرار يعيشون من ثمار الأرض وغلالها"[٢٣].

ولذلك فلا تكاد قرية فلسطينية تخلو من شجر الزيتون، وكانت قرى شمال فلسطين ولاسيما جبل نابلس تعتمد اعتماداً كلياً على زراعة الزيتون سواء في حياتها اليومية أو للتجارة في الأسواق المحلية من خلال زيت الزيتون[٢٤]. وقد قدر معدل الإنتاج السنوي لزيت الزيتون في فلسطين في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى بنحو ٧٠٠٠ طن سنوياً[٢٥]. ومن خصائص شجرة الزيتون أنها تخصب سنة وتمحل سنة أخرى بغض النظر عن عدم انتظام سقوط الأمطار، كما أن طبيعة أشجار الزيتون ملائمة لاحتمال الأحوال الصعبة في المناطق الصخرية[٢٦].

وكان يتم عصر الزيتون بطريقة بدائية ومتعبة تعمل يدويا تعرف باسم "البد" إذ يتم عصر الزيتون المقطوف في الخريف قبل هطول الأمطار الشتوية، ويحول إلى عجينة داخل أحواض صخرية ودائرية بعد هرسه بواسطة أحجار كبيرة، ثم توضع هذه العجينة في صوان من القش توضع فوق بعضها البعض بين مكبسين، وبعد ذلك يتم الضغط على الصواني بواسطة برغي يتحرك على عمود فتنضغط العجينة وتعصر فيخرج منها الزيت، ثم ترفع العجينة من الصواني وتوضع في حوض معدني من النحاس ويجري رشها بالماء الساخن ثم تعصر مرة أخرى، بعد ذلك يتم جمع الزيت في أحواض كبيرة ثم يعبأ في جرار من الفخار ويحفظ في خزانات كبيرة داخل المنازل أو الآبار[٢٧].

وأشارت بعض الدراسات عن منطقة نابلس خلال الفترة ١٨٥٠-١٨٧٥ التي استقت معلوماتها من سجلات محكمة نابلس الشرعية، إلى أن بعض القرى كان فيها بد واحد والبعض الآخر كان فيها أكثر من بد وذلك حسب الجدول التالي[٢٨]:

---

(٢٣) دوماني، المرجع نفسه، ص٢١٦.
(٢٤) المرجع نفسه، ص١٨٥.
(٢٥) الجندي، إبراهيم رضوان، **الصناعة في فلسطين أبان الانتداب البريطاني**، عمان: دار الكرمل، ١٩٨٦، ص١٩.
(٢٦) برون، مرجع سابق، ص١٨٥.
(٢٧) حسين، عبد الله، مرجع سابق، ص٤٣٤.
(٢٨) المرجع نفسه، ص٤٥٣.

القرية	أعداد الأبداد	القرية	أعداد الأبداد	القرية	أعداد الأبداد
طلوزة	٢	كفر لبد	١	بورين	١
سبسطية	٢	عقربا	٤	فلاميه	١
روجيب	١	تلفيت	١	جبع	٢
جماعين	٤	كفر دان	١	حجه	١
قباطية	٢	تل	٢	بيت وزن	٢
زيتا	١	بيت ليد	١	عصيرة الشمالية	٢
قبلان	٢	عزون	١	بديا	١
مسلية	٢	دير غصون	٢	صانور	١
سلفيت	١	بلعا	٤	ذنابة	١
برقة	٢	بروقين	١	سيريس	١
رفيديه	٥	نصف جبيل	١		
عورتا	٢	بيت فوريك	٢		

ويتضح من هذا الجدول أن بعض القرى كان فيها ٥ أبداد كقرية رفيدية وقرى أخرى كان فيها ٤ أبداد وأخرى بدان وأخرى بد واحد، وهذا يدل إما على كثرة أشجار الزيتون في بعض القرى التي وجد فيها ٥ أبداد مثلاً، ولذلك فالحاجة تقتضي وجود هذا العدد، غير أنه إذا ما علمنا أن قرية رفيديا هي قرية صغيرة كما أنها قريبة جداً من مدينة نابلس وهي اليوم ضاحية من ضواحي نابلس فيكون التفسير لوجود ٥ أبداد فيها تفسيراً آخر فربما كان وجود البد لعصر الزيتون بمثابة تجارة مربحة لصاحب البد هذا من جانب، ومن جانب آخر فلم يكن بمقدور فلاحي بعض القرى لإقامة بد في قريتهم، فيضطرون إلى الذهاب إلى قرى أخرى لدرس زيتونهم، وبالإضافة إلى ذلك فوجود بد واحد في بعض القرى ربما كان ذلك لقلة عدد أشجار الزيتون في تلك القرى فالبد الواحد يكفي لدرس زيتون أهالي القرية.

واهتم الفلاحون أيضاً بزراعة القطن، فمنذ القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر خلال عهدي ظاهر العمر وأحمد باشا الجزار ازدهرت زراعة القطن في فلسطين لاسيما في منطقة عكا، ومما ساعد في ذلك ازدياد الطلب الأوروبي وبخاصة فرنسا على هذا المحصول. غير أن منطقة جبل نابلس سرعان ما أن بدأت بالتفوق على عكا في زراعة هذا المحصول، حتى غدت خلال فترة الثلاثينيات

من القرن التاسع عشر بمثابة المنتج الرئيسي للقطن ليست في فلسطين فقط بل في سوريا الكبرى، وكان القطن المستنبت في جبل نابلس قد وطد شهرته باعتباره الأفضل في الهلال الخصيب(٢٩).

إلا أن إنتاج القطن وزراعته في فلسطين أخذت بالتراجع خلال الخمسينيات من القرن التاسع عشر، وجاء ذلك نتيجة لأسباب عدة مرتبطة بالمنافسة الإقليمية لاسيما مصر، ثم طبيعة الطلب الأوروبي المتقلبة، بالإضافة إلى ركود صناعة النسيج. فقد أخذ القطن المصري يلقى رواجاً كبيراً في الأسواق الأوروبية مقارنة بالقطن الفلسطيني وذلك نظراً للنوعية الجيدة التي كان يمتاز بها القطن المصري ذو التيلة الطويلة، كما أن الأراضي المصرية لاسيما وادي النيل كانت تنتج كميات كبيرة تسد حاجات الأسواق الأوروبية(٣٠).

أما العامل الآخر الذي ساهم في تراجع زراعة القطن في فلسطين، فقد جاء نتيجة لازدياد الطلب الأوروبي لاسيما البريطاني على الحبوب (القمح والشعير)، الأمر الذي أدى إلى تحول الفلاحين الفلسطينيين من زراعة القطن إلى زراعة الحبوب، وقد رحبوا بهذا التحول لأنهم كانوا يفضلون زراعة الحبوب أكثر من زراعة القطن، نظراً لقدرتها على التحمل وسهولة زراعتها، كما أنها تحتاج إلى مياه وعمل وجهد أقل مما يحتاجه القطن، بالإضافة إلى أن الحبوب لا تستنزف التربة كما هو الحال في القطن، وأخيراً فإن زراعة الحبوب كانت عملية تجارية أقل مجازفة مقارنة مع القطن، إذ كان هناك أسواق محلية أو إقليمية دائمة للقمح، في حين كان سوق القطن معرضاً للمخاطر نظراً لتقلب الأسعار العالمية وتقلب صناعة النسيج الإقليمية(٣١).

غير أن القطن سرعان ما أن استرد مكانته القديمة كمادة مهمة في الزراعة والتصدير في أواخر الخمسينيات ومطلع الستينيات، فقد أدت الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦٠م-١٨٦٤م) إلى ارتفاع أسعار القطن واتساع كبير في زراعته(٣٢). ففي عام ١٨٦٣ قدرت مساحة الأراضي المزروعة بالقطن في منطقة يافا أربعة أضعاف عما كانت عليه عام ١٨٦٢، وفي عام ١٨٦٤ زرع ستة أضعاف ما زرع عام ١٨٦٣ وقامت بعض القرى بتخصيص ثلث أراضيها لزراعة القطن بدلاً من السمسم، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع قيمة صادرات هذا المحصول عام ١٨٦٣ بنحو عشرة أضعاف الكمية التي صدرت عام ١٨٦٢، ثم أخذ

---

(٢٩) دوماني، مرجع سابق، ص١٢٨-١٢٩.
(٣٠) المرجع نفسه، ص١٣٠.
(٣١) شولش، الكسندر، **تحولات جذرية في فلسطين ١٨٥٦-١٨٨٢**، ترجمة كامل العسلي، عمان: منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٩٨، ص٩٩. دوماني، مرجع سابق، ص١٣٠-١٣١.
(٣٢) عيساوي، شارل، **التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب ١٨٠٠-١٩١٤**، ترجمة رؤوف عباس حامد، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠، ص٤١٦.

الطلب الأوروبي في الازدياد مما دفع التجار لاستيراد محالج القطن نظراً لعدم قدرة الأدوات المحلية البسيطة على تلبية الكميات المطلوبة[٣٣].

وقامت الدولة العثمانية بتشجيع الأهالي على زراعة القطن، فأصدرت عام ١٨٦١ "تعليمات تشجيع زراعة القطن" حاولت من خلالها تشجيع زراعة القطن في مختلف ولاياتها عن طريق فتح معرض سنوي في مدن وقصبات الولاية، كما أمرت بصرف مكافآت للمزارعين النشيطين في مجال إنتاج القطن، وأعفت آلات القطن المستوردة من الخارج من الرسوم الجمركية[٣٤].

غير أنه سرعان ما أن بدأ التراجع في زراعة وإنتاج هذا المحصول - فمنذ خريف عام ١٨٦٤ - انخفض سعر القطن بنسبة ٥٠٪، ثم جاءت نهاية الحرب الأهلية الأمريكية لتدفع باتجاه التراجع الحاد في زراعة هذا المحصول وتصديره[٣٥].

أما الحمضيات فقد تركزت زراعتها في السهل الساحلي بين حيفا وغزة بالإضافة إلى غور الأردن. وشهد أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين اهتماماً واضحاً وزيادة ملموسة في زراعة الأشجار الحمضية، فقد ارتفعت مساحة الأراضي الزراعية المزروعة بالحمضيات من ٦،٦٠٠ دونم عام ١٨٩٥ إلى ٣٠٠٠٠ دونم عام ١٩١٥[٣٦].

ويعتبر البرتقال اليافاوي من أهم الأصناف التي تنتج في فلسطين نظراً لثخانة قشرته ورائحته العطرة فضلاً عن خلوه النسبي من الحموضة[٣٧]. ففي عام ١٨٧٠ وجد في يافا ٣٨٤ بستاناً من البرتقال أنتجت ٣٨،٤٠٠،٠٠٠ برتقالة بيعت في يافا بما يعادل ٤٠،٠٠٠ ليرة إنجليزية، وارتفع عدد البساتين عام ١٨٨٤ إلى ٥٠٠ بستان تضم حوالي ٨٠٠،٠٠٠ شجرة، وفي عام ١٨٨٦ قدرت مساحة الأراضي المزروعة بالبرتقال حول يافا بما يعادل ألف فدان وارتفع إلى ٣٠٠٠ فدان عام ١٨٨٩، وتتم زراعة أشجار البرتقال على بعد ٤،٥م الواحدة عن الأخرى، وتحمل الشجرة الثمر في السنة الثالثة أو الرابعة وتستمر في الثمر إلى فترة تتراوح ما بين ٢٠-٣٠ سنة[٣٨].

---

(٣٣) شولش، مرجع سابق، ص١٩٣.

(٣٤) عوض، عبد العزيز محمد، **الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩.

(٣٥) عيساوي، مرجع سابق، ص٤١٦. شولش، مرجع سابق، ص١٠٦.

(٣٦) .Reilly, James. The peasantry of Late Ottoman Palestine, Palestine studies, Vol. X. No4, 1981, P85. =

= بسيسو، فؤاد حمدي، **الاقتصاد العربي في فلسطين في عهد الانتداب البريطاني ١٩٢٠-١٩٤٨م**، الموسوعة الفلسطينية، القسم الخاص، بيروت، ١٩٩٠م، المجلد الأول، ص٦٥٨.

(٣٧) بسيسو، المرجع السابق، ص٦٥٨.

(٣٨) رافق، عبد الكريم، **فلسطين في عهد العثمانيين من مطلع القرن الثامن الهجري / التاسع عشر الميلادي إلى العام ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م**، الموسوعة الفلسطينية، القسم الخاص، م٢، بيروت، ١٩٩٠، ص٩٥٢.

كما اهتم الفلاحون أيضاً بزراعة أشجار التين والكرمة (العنب) لاسيما في المناطق الجبلية، وما زالت معظم القرى في منطقة الخليل تهتم بزراعة أشجار العنب حتى اليوم وهم يجيدون تصنيعه للزبيب والدبس.

وتعد نوعية التربة من أهم العوامل التي يتوقف عليها تطوير زراعة الأرض، ويصنف الفلاحون الأرض إلى صنفين حسب درجة صعوبة فلاحتها، الصنف الأول التربة الثقيلة وهي طينية تحتوي على مواد عضوية كثيرة، ويعرف هذا النوع عند الفلاحين باسم تربة دسمة. أما الصنف الثاني فهو التربة الخفيفة وتكون رملية وتحتوي على كميات أقل من المواد العضوية، كما أن حراثتها بالمحراث تكون أسهل من التربة الثقيلة[٣٩].

غير أن الفلاح الفلسطيني كان يدرك تماماً أهمية الحفاظ على دورة زراعية تحفظ للتربة خصوبتها بل وتعمل على زيادتها، نتيجة لاختلاف المزروعات واختلاف استهلاكها للمواد الكيماوية[٤٠]. ولذلك فقد عرف الفلاح الفلسطيني دورتين زراعيتين، ففي الشتاء تزرع الحبوب (القمح والشعير والعدس والكرسنة) ويكون موعد زراعتها خلال النصف الثاني من شهر تشرين الثاني والنصف الأول من كانون الأول أي بعيد بواكير الأمطار الخريفية، وتتضج هذه المحاصيل بين نيسان ونهاية أيار وذلك حسب المنطقة وكمية الأمطار الساقطة. أما المزروعات الصيفية كالقطن والذرة البيضاء أو الصفراء والسمسم والحمص والمقاثي بمختلف أنواعها (الكوسا والخيار والفقوس والقرع والبطيخ) فكانت تزرع ابتداء من أواخر آذار وحتى أوائل أيار وتحصد في آب وأيلول. ومن خلال المزروعات الدورية التي تزيد من كمية الأوزوت في التربة كالفول والتي تطلق جذوراً عميقة كالسمسم والذرة من ناحية، والمزروعات التي تزيل الأوزوت والتي تطلق جذوراً قصيرة كالقمح والشعير من ناحية أخرى، يحاول الفلاح المحافظة على توازن العناصر التي تغذي التربة وعلى توازن تركيبها[٤١].

كما أن الزراعة في معظم المناطق الفلسطينية لم تكن أحادية المحصول، بل كان الفلاحون يزرعون محاصيل مختلفة في وقت واحد، وقد ساهم هذا النمط من الزراعة في تجنب الخسائر المادية التي قد يتعرض لها الفلاح الفلسطيني إذ إن الانخفاض في إنتاج أحد المحاصيل قد يعوضه الارتفاع في إنتاج

(٣٩) نسكايا، ايرينا سميليا، **البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث**، ترجمة يوسف عطا الله، بيروت: دار الفارابي، ١٩٨٩، ص٤٩.

(٤٠) بدران، نبيل، الريف الفلسطيني قبل الحرب العالمية الأولى، مجلة شؤون فلسطينية، العدد ٧، ١٩٧٢، ص١٢١.

(٤١) نسكايا، مرجع سابق، ص٧٣.

محصول آخر[٤٢]. فقد كانت بعض القرى لاسيما تلك التي يوجد فيها ينابيع مياه كسلوان والولجة ولفته وبتير وارطاس وسلوان تنتج محصولين من الخضراوات خلال العام يتم بيعها في أسواق مدينة القدس. وتعتبر قريتا جوره وحمامة بالقرب من غزة من أفضل المناطق في فلسطين حيث تنتج الخضراوات المبكرة كالبندورة والفاصولياء في أوائل شباط في الوقت الذي لم يكن يوجد فيه هذان المحصولان في أي مكان آخر في فلسطين. وفي قضاء القدس اشتهرت قرية سلوان بالقرنبيط والسلق والبقدونس، واشتهرت قرية بتير بالباذنجان، أما قرية ارطاس فقد اشتهرت بالبندورة والأجاص والدراق. وتنتج بساتين عين جدي الخضراوات المبكرة كالفقوس والخيار، كما اشتهرت أراضي فطير بالقرب من قرية بيت جمال غرب القدس بالبصل[٤٣].

وفضلاً عن ذلك فقد امتازت الزراعة الفلسطينية بالقدرة على التأقلم مع الظروف الطارئة والعرض والطلب في الأسواق الخارجية والمحلية، إذ إن انخفاض الطلب على محصول معين قد لا يلحق الضرر بالفلاح، بل يعني التحول إلى زراعة محصول آخر. فعندما قل الطلب الأوروبي على القطن المحلي تحول السكان إلى زراعة السمسم الذي ازداد عليه الطلب[٤٤].

كما اهتم الفلاحون أيضاً بتسميد أراضيهم، وكان من أكثر أساليب التسميد الشائعة هي روث الحيوانات خلال موسم الفلاحة والحصاد، وقد كانت تعقد اتفاقيات بين أصحاب المواشي أو الرعاة من جهة والمزارعين من جهة أخرى بشأن رعي الماشية واحتجازها في أراض محدودة. وقد عرفت أشكال مختلفة من أساليب دفع قيمة الخدمات المتبادلة عينياً ثم مالياً في نهاية القرن التاسع عشر بين من كان يقدم العلف للماشية ومن يحتفظ بها لتسميد الأرض[٤٥].

ومهما يكن من أمر، فقد حاولت الدولة العثمانية الاهتمام بأمور الزراعة، فقد نص قانون الولايات الصادر عام ١٨٦٤ على ضرورة تعيين مدير للزراعة في مركز كل ولاية من الولايات للنظر في أمور الزراعة وإجراء التنظيمات المتعلقة بذلك فناً وعملاً بحسب ما يقتضيه الموقع الجغرافي لكل محل داخل الولاية وقابليته الطبيعية فضلاً عن القيام بالإجراءات التي من شأنها أن تعمل على ترقية الزراعة وتطهيرها، وتشجيع الأهالي على زراعة مختلف أنواع المحاصيل والبحث على الوسائل التي من شأنها أن تعمل على

(٤٢) غنايم، زهير عبد اللطيف، **لواء عكا في عهد التنظيمات العثمانية ١٨٦٤-١٩١٨**، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٩، ص٣٨٤.

(٤٣) Baldensperger, The Immovable east, October, 1907, P272

(٤٤) غنايم، مرجع سابق، ص٣٨٦.

(٤٥) نسكايا، مرجع سابق، ص٧٤.

توفير أصول الزراعة والحراثة على الوجه المطلوب، وطالبت الدولة مدراء الزراعة بأن يقوموا بتعيين ممثل أو وكيل في كل قضاء وناحية وقرية لمتابعة أمور الزراعة وكان على المدراء أو الوكلاء حضور مجالس الدعاوى التي تعقد للفصل في قضايا المزارعين والفلاحين التي تخص أمور زراعتهم. كما أصدرت تعليمات تخص وظائف مديري الزراعة في الولايات نصت على أن "الزراعة والحراثة هما أساس عمار المملكة فالسعي على استحصال وسائل تكثيرهما وتوفيرهما من واجبات ذمة الحكومة، وكذلك ترغيب أهل الزراعة وإفادة الحكومة المحلية وتبليغها ما يحتاجون إليه هما مترتبان على عهدة حمية مأموري الزراعة"(٤٦).

كان الفلاح يقوم بحراثة الأرض مرتين في السنة، المرة الأولى وتدعى " كراب " أو "كسارة" وتتم في شهري تشرين الأول وتشرين الثاني؛ وذلك بهدف تحضير الأرض للزراعة حتى تستقبل مياه الأمطار وتزداد فيها نسبة الرطوبة، أما الحراثة في المرة الثانية فتعرف بالثناية وتتم أوائل الربيع(٤٧)، وفيها يقوم الفلاح ببذر الحبوب في الأرض قبل البدء بالحراثة، حيث يضع كمية من البذار في حجر ديمايته ويبدأ بنشر الحبوب على الأرض مراعياً في ذلك أن لا تكون متلاصقة كثيراً أو متباعدة كثيراً، غير أن عملية البذار لا تخلو من بعض المخاطر ففي حالة البذار البدري يخشى على الحب من الموت بسبب الصقيع أو الجفاف، وفي حالة البذار الوخري فمن الممكن أن تتعرض الحبوب للجفاف في حال انحباس المطر(٤٨). كما تشكل الطيور عاملا مزعجاً للفلاح، وبخاصة الزرزور الذي يأتي إلى فلسطين خلال شهري تشرين الأول وتشرين الثاني، إذ تجبر الفلاح أحياناً على إعادة بذار الأرض مرة أخرى بسبب أكلها للحبوب المبذورة، ومع ذلك فالفلاح الفلسطيني يتفاعل بمجيء هذه الطيور وهناك مثل شعبي شائع عند الفلسطينيين يقول "سنة الزرزور احرث في البور" وفي ذلك دلالة على أن تلك السنة ستكون سنة خصبة(٤٩).

الأدوات الزراعية :

يعتبر المحراث البلدي (الخشبي) من أهم الأدوات التي يستخدمها الفلاحون في الزراعة. ويتكون هذا المحراث من الأجزاء التالية :

١. السكة : وهي الجزء الرئيسي في المحراث، مصنوعة من الحديد ويتراوح

(٤٦) النجار، جميل موسى، **الإدارة العثمانية في ولاية بغداد ١٨٦٩-١٩١٧**، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩١، ص٤٠٤-٤٠٥.

(٤٧) aldensperger, The Immovable east, January 1907, P11.

(٤٨) سرحان، نمر، **موسوعة الفولكلور الفلسطيني**، عمان، ١٩٨٩، ص٣٩٠.

(٤٩) Baldensperger, The Immovable east, January, 1907, P.11.

طولها ما بين ٤٠-٦٠سم، وتكون مدببة وحادة من الرأس حتى تخترق الأرض بسهولة ثم تأخذ بالعرض، كما أن طرفيها حادان ولكن أقل حدة من الرأس.

٢. الكابوسة (اليد) : وهي قطعة خشبية صغيرة يبلغ طولها نحو ٣٠سم، يمسك بها الحراث ويستطيع من خلالها أن يتحكم في السكة من حيث التعمق في الأرض من خلال الضغط أو عدم الضغط، ومحاولة رفع السكة في حال وجود مناطق صخرية أثناء الحراثة.

٣. الذكر : وهو قطعة خشبية يبلغ طولها نحو ١،٥م تصل ما بين الكابوسة والسكة.

٤. البرج : وهو قطعة خشبية يتراوح طولها ما بين ١-١،٥م ويصل ما بين الذكر والوصلة.

٥. الوصلة : وهي أيضاً قطعة خشبية تصل ما بين البرج والنير من خلال الشرعة التي تصنع من جلود الحيوانات.

٦. الناطح : وهو قطعة خشبية يوصل الذكر بالبرج من خلال ثقب موجود في البرج.

٧. النير : وهو أيضاً مصنوع من الخشب يوضع على رقبتي الحيوانين اللذين يجران المحراث، ويحافظ على توازن المحراث.

٨. الحلقة : وهي قطعة معدنية من الحديد تربط بالأعلى بالنير من خلال الشرعة ومن الأسفل تكون مربوطة بالوصلة.

٩. السبلانات : وهي أربع قطع خشبية، تكون كل قطعتين على طرفي النير وتوضعان على رقبتي الحيوانين(٥٠).

ويستخدم الحراث أثناء عملية الحرث يديه الاثنتين، يد تمسك الكابوسة والأخرى يمسك بها المنساس أو الناخوزة وهي قطعة خشبية يربط بأحد طرفيها قطعة معدنية تكون حادة لوخز الحيوان وحثه على الحرث، أما الطرف الآخر ففيه أيضاً قطعة معدنية لإزالة ما يعلق بالسكة من طين.

أما القوة التي تجر المحراث فهي زوج من ثيران البقر تعرف باسم فدان، وقد استخدمت أيضاً البغال والحمير(٥١). غير أنه في الأغلب كان الفلاح يستخدم الثيران نظراً لقدرتها على الحراثة مقارنة مع البغال والحمير، ولذلك فقد كان الفلاح يقتني أكثر من زوج من الثيران ويقوم بتربيتها وتدريبها على الحراثة والجر في السنة الثانية من عمرها. وتتطلب عملية التدريب جهداً كبيراً من الفلاح، وغالباً ما كان يبدأ بذلك في بداية فصل الخريف وفي

---

(٥٠) Post, George E., Essays on the sects and nationalities of Syria and Palestine, Palestine exploration Fund, April, 1891, PP112-113. =

= كذلك قارن: محمد سالم الطراونة، **تاريخ منطقة البلقاء ومعان والكرك ١٨٦٤-١٩١٨**، عمان: وزارة الثقافة، ١٩٩٢، ص١٤٦.
طريف، مرجع سابق، ص٥٠٧.

(٥١) Post , op.cit , P115.

منطقة سهلية غير مزروعة. وتكون عملية التدريب من خلال وضع النير على رقبتي الثورين، وبدلاً من المحراث يربط النير بحبل جذع من شجر الصبر الأخضر بعد إزالة الأشواك منه فيصبح شبيها بعجل المطاط وذلك حتى لا يؤذي أرجل الثورين كلما ضرب بهما(٥٢).

وفي بعض الأحيان يستخدم الفلاح حيواناً واحداً للحراثة وغالباً ما يكون ذلك في المناطق الوعرة والضيقة والمشجرة حيث من الصعب أن تحرث بالفدان. وفي هذه الحالة يتكون المحراث من الكابوسة والسكة والمربط الذي تربط به القلادة والرياحات التي تربط في القلادة التي توضع حول رقبة الحيوان ويتم توجيهه بواسطتها، والفرق بين الفرد والفدان هو أن الوصل يكون في سكة الفدان أطول منه في سكة الفرد ويكون مربوطاً في النير(٥٣). وبالرغم من سهولة استخدام هذا المحراث، إلا أنه لا يتعمق كثيراً في التربة لاسيما إذا كانت صلبة، الأمر الذي يقلل من نسبة وصول الرطوبة داخل الأرض، مما يتطلب ضرورة حراثة الأرض أكثر من مرة من أجل شق التربة بشكل جيد.

وفي أواخر العهد العثماني ظهر محراث جديد عرف بالمحراث الأوروبي، ويتكون من الأجزاء التالية :

- النصاب : وهو أداة صلبة تحمل سائر الأدوات.
- السكين : وهي أداة تشق الأرض بشكل عمودي.
- المقطع : وهي أداة تفصل الكتل الترابية بشكل أفقي.
- المقلب : وهي أداة تفصل الكتل الترابية المفصولة.
- المزحف : وهي أداة يرتكز عليها المحراث فتزحف به ويكون لها عقب يعرف باسم عقب المزحف.
- الميزان : وهي أداة يعين بها عمق الحرث وعرضه.
- أداة يقبض بها الحراث لتسيير محراثه(٥٤).

أما عملية الحصاد فمما لا شك فيه أن مواعيد حصاد المحاصيل تختلف من محصول إلى آخر بالرغم من تقاربها، فالعدس والكرسنة يحصد في الفترة ما بين ١٥ أيار إلى أوائل حزيران، أما الشعير فيحصد في أواخر أيار إلى أواسط حزيران، بينما يحصد القمح بعد ١٥ حزيران. ولذلك فإن هذا الفارق في المواعيد أعطى الفلاح مجالاً للاهتمام بكل صنف من مزروعاته الشتوية، وفضلاً عن ذلك فإن فترة الزرع والحصاد بشكل عام

---

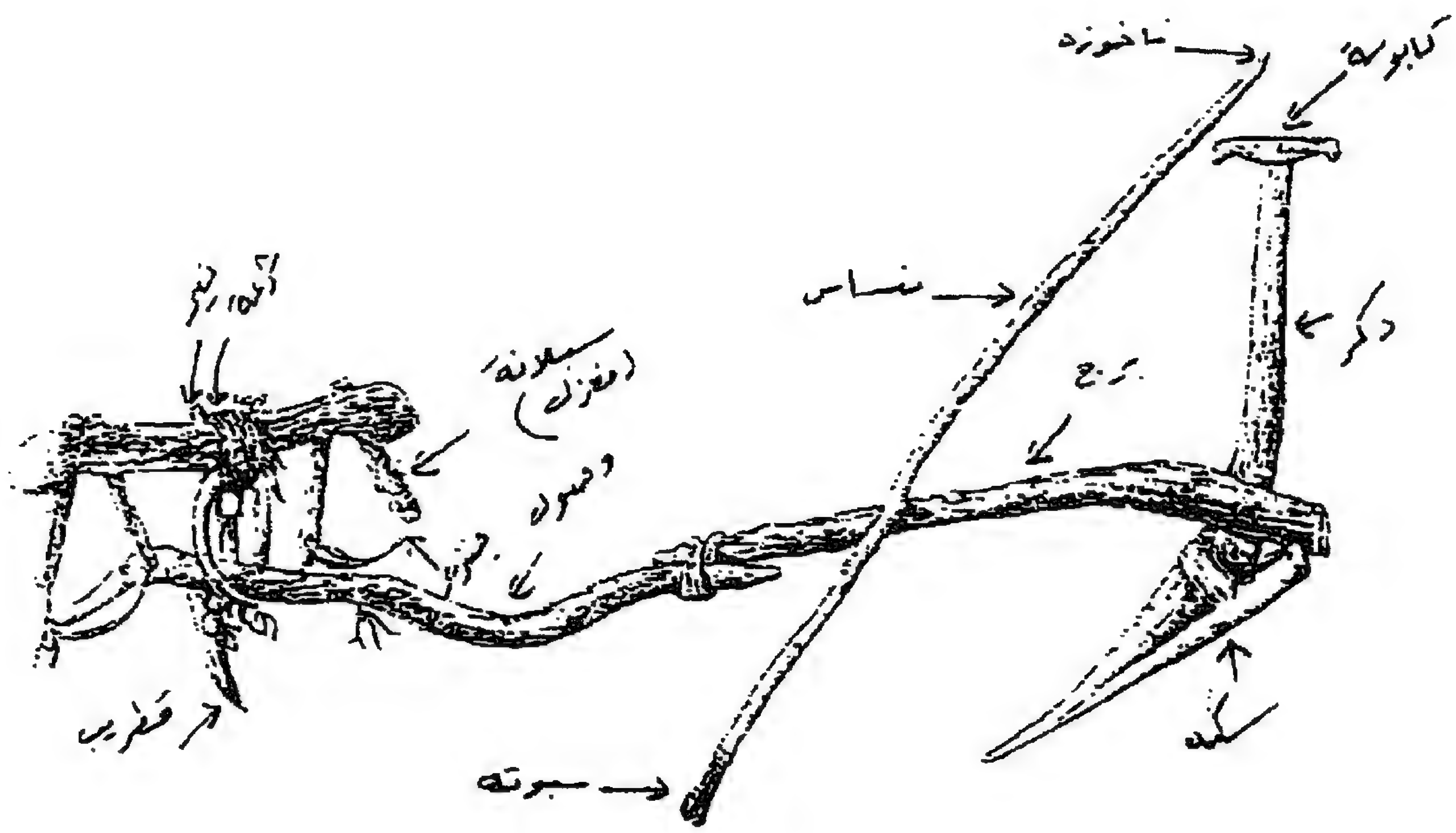
(٥٢) أبو بكر، أمين، ملكية الأراضي في متصرفية القدس ١٨٥٨ـ ١٩١٨، عمان: مؤسسة عبد الحميد شومان، ١٩٩٦، ص٥١٨ هامش رقم ١.

(٥٣) Baldensperger, The Immovable east, January, 1907, P.14. =

= كذلك انظر: عبد العزيز أبو هدبا، قرية دير أبان، البيرة: جمعية إنعاش الأسرة، ١٩٩٠، ص١٩٩.

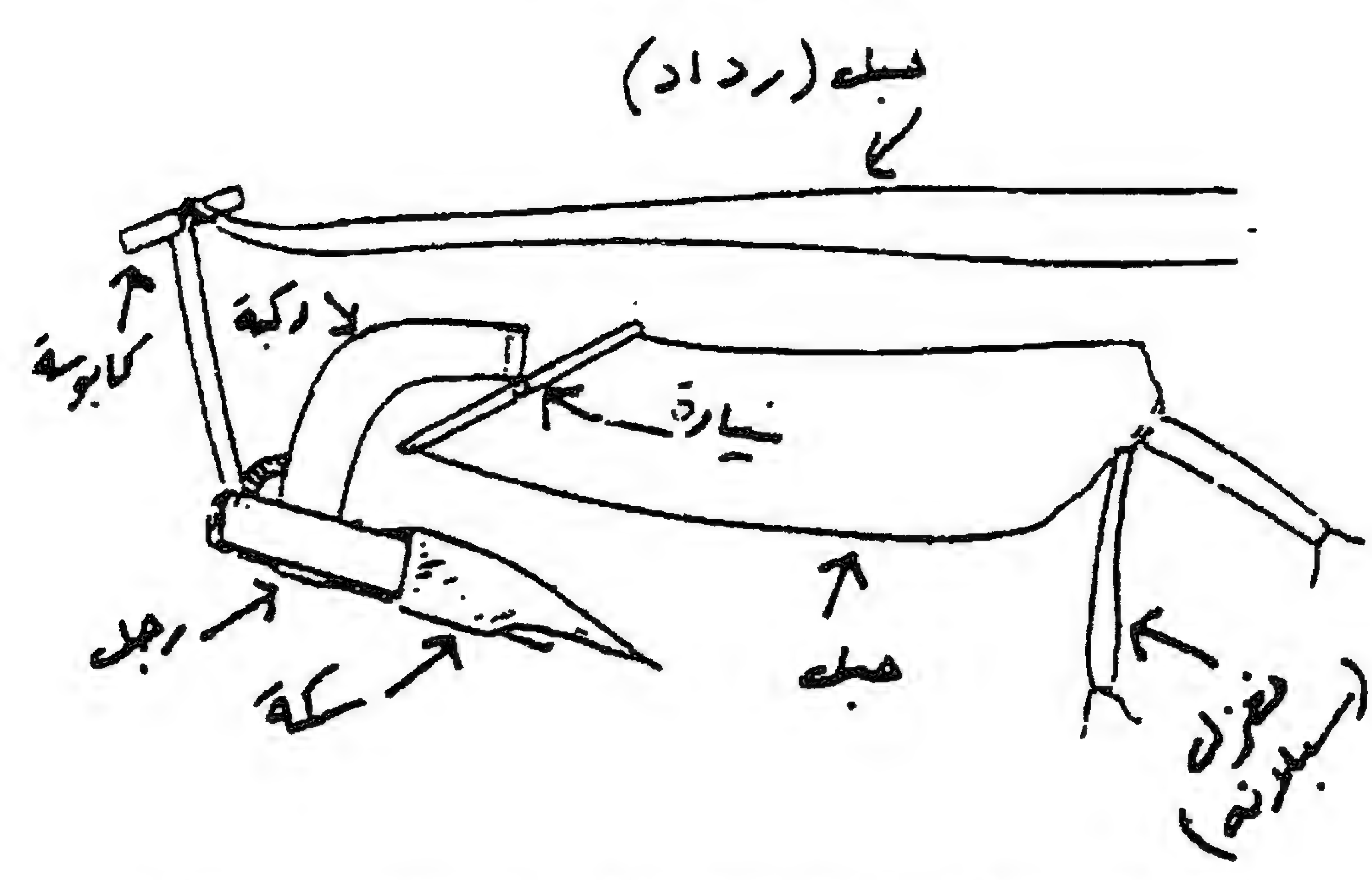
(٥٤) طريف، مرجع سابق، ص ٥٠٧ ـ ٥٠٨.

محراث يجره زوج من الثيران



Post, E. George. Essays on the sects and nationalities of Syria and Palestine, P. E. F., April, 1891, P.113.

محراث يجره حيوان واحد



Baldensperger, Philip. The Immovable East, Jan, 1907, P14.

تختلف بين المناطق الجبلية والسهلية، إذ إن الفارق يكون أسبوعين، مما مكن أصحاب الأراضي من القيام بأعمالهم في هذين المجالين دون المساس بنجاعة أحدهما(٥٥).

وإذا أراد صاحب الأرض أن يحصد كثيراً ويريد أن ينجز عمله في أقل وقت ممكن، فإنه يدعو جميع أصدقائه وأقربائه لمساعدته في الحصاد وتسمى هذه العملية بـ "العونة"، وإذا كانت الأراضي الزراعية بعيدة عن القرية فإن جميع السكان يذهبون إلى أراضيهم ويقيمون فيها طوال فترة الحصاد التي تستمر عدة شهور بأكواخ يقومون ببنائها تعرف باسم "العرائش". وتكون القرية شبه خالية ومهجورة من السكان ما عدا عدد قليل من الحراس لحراسة الأثاث والأغراض التي يتركها الأهالي والتي لم تكن على الأغلب ذات قيمة كبيرة(٥٦).

وكان بعض ملاك الأراضي يشغلون عمالاً يعرفون باسم "القطاريز" وهم شبان صغار تتراوح أعمارهم ما بين ١٠-١٨ سنة، وكانت مهامهم تتعلق بتقديم الخدمات التي يحتاجها صاحب الأرض، كإسقاء الدواب وعلفها، ونقل الماء من العيون إلى المنازل وأماكن العمل، ومنع الحمير من الدوس على المحاصيل المزروعة، وتزويد المزارعين بالطعام والشراب(٥٧).

ومن أهم الأدوات التي يستخدمها الفلاح في حصاد المحاصيل هي الحشاشة والكالوش والمنجل. وخلال عملية الحصاد كان الحصادون يربطون كل كمية صغيرة من القمح والشعير بساق واحدة أو اثنتين تعرف باسم "شمال" وتوضع على شكل أكوام تسمى "غمور" ثم يتم جمع هذه الغمور بكومة أكبر تعرف باسم "حلة". وبعد الانتهاء من حصاد المحصول، تبدأ عملية النقل إلى البيادر "الجرون" لدرس المحصول. وتتم عملية النقل على الدواب *(الحمير والبغال)*. ويستخدم في ذلك أداة تعرف باسم "القادم" وتتكون من أربع قطع خشبية يتراوح ارتفاعها من ١-١،٥م اثنتان منهما خشبها ثقيل، ويتصل بهما من الأسفل حبلان متوازيان تسمى "الرواجل" أو "الرمايات"، وتنتهي بقطعة خشبية نصف دائرية تسمى "الطراحة" ويتصل بالقادم من الأعلى حبلان يتوسط كل منهما قطعة من الخشب المثني على شكل قوس تسمى "خرص" حيث يوضع القش بطريقة منظمة بعد نصب القادم على الحبل، ويدعى كل جزء من جزئي القادم "الشاطرة" وتكون وظيفة الخرص والحبل المتصل به إحكام الربط على

---

(٥٥) عراف، شكري، **الأرض، الإنسان والجهد** – دراسة لحضارتنا المادية على أرضنا، عكا: مطبعة أبو رحمون، ١٩٨٢، ص١٩.

(٥٦) The Immovable east, January 1907, PP.18-19.

(٥٧) مرعي، إبراهيم جميل، **قرية زرعين**، بيرزيت: جامعة بيرزيت – مركز دراسة وتوثيق المجتمع الفلسطيني، ١٩٩٤، ص٨٣.

القش بتوصيل الحبل من الخرص إلى الطراحة في أسفل القادم[٥٨].

ويتم تجميع المحاصيل في البيادر من أجل درسها، وغالباً ما تكون البيادر أراضي مشاع لجميع أهل القرية، وكل فلاح يعرف حصته فيها، وقد روعي في اختيارها أن تكون بعيدة عن القرية وغالباً ما تكون في الجهة الشرقية للقرية وذلك حتى لا تحمل الرياح الغربية التبن الناعم إلى البيوت[٥٩]. كما روعي في اختيار مكان البيدر وجود طبقة صخرية صلبة قدر الإمكان لا سيما في المناطق الجبلية، وذلك حتى لا يختلط التراب بالحبوب والتبن خلال عمليتي الدرس والتذرية، كما تكون البيادر أيضاً في أماكن مرتفعة ومفتوحة على التيارات الهوائية التي تساعد في عملية التذرية[٦٠] وعلى الأغلب ما يكون في القرية بيدر واحد، غير أنه في بعض الأحيان يكون أكثر من بيدر إما بسبب اتساع مساحة الأرض المزروعة، وإما بسبب سوء العلاقات الاجتماعية بين حمائل وعائلات القرية[٦١].

وبعد نقل المحاصيل إلى البيادر، تبدأ عملية الدرس بواسطة البغال والحمير والأبقار والخيل، ويتميز الحصان بقدرة أكبر في الدرس، فهي بالنسبة إلى البقر كنسبة ١٣:٩، كما أن الحصان لا يُكم أثناء عملية الدرس لعدم مقدرته على تحمل الجوع، بينما كانت الحيوانات الأخرى تُكمم بكمامات إما من أغصان شجرية مجدولة وإما من معدن، حتى لا تبالغ في الأكل من الحبوب. وكان الدرّاس يضع اللقاية على حافة النورج لجمع براز الحيوان وإلقائه على طرف البيدر، أما البول فلا يجمع[٦٢].

ويكون النورج الذي يستخدمه الفلاح في الدرس عبارة عن لوح خشبي أو لوحين موصولين من أعلى إذا جره ثوران وأحياناً يكون ثلاثة ألواح إذا جره حصان، ويوجد في أسفله ثقوب يتراوح عددها ما بين ٢٥٠-٣٠٠ ثقب توضع بها حجارة صلبة من البازلت أو الصوان، أو قطع حديدية حادة، ويتراوح عمق كل ثقب ما بين ٢-٣سم أما قطره فيصل إلى ٢،٥سم[٦٣]. ويقف على ظهر اللوح غلام أو رجل لحث الحيوانات على الدوران على المحصول بشكل دائري فيتكسر القش الجاف، وينتشر حب السنابل، وتستمر العملية حتى يصبح القش المدروس شبه هرم في وسط البيدر[٦٤]. ولا بد من الإشارة إلى أن الفلاح لا

(٥٨) الطراونة، مرجع سابق، ص١٤٧. طريف، مرجع سابق، ص٥٠٩.

(٥٩) The Immovable east, Jan. 1907, P.21. عراف، الأرض، ص٢٩.

(٦٠) The Immovable east, Jan 1907, P.21. أبو بكر، مرجع سابق، ص٤٢٩.

(٦١) عراف، الأرض، ص٢٩.

(٦٢) المرجع نفسه، ص٣٥.

(٦٣) المرجع نفسه، ص٣١.

(٦٤) نيوتن، فرنسيس املي، **خمسون عاماً في فلسطين**، ترجمة وديع البستاني، عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٤٧، ص٦١-٦٢.

يستطيع درس محصوله إلا بعد أن يحصل على إذن من الحكومة وذلك من خلال لجنة خاصة تضم ٤-٥ أشخاص تعرف باسم لجنة التخمين تقوم بتخمين وتقدير قيمة المحصول(٦٥).

وبعد الانتهاء من درس المحصول، تبدأ عملية التذرية التي تتم على الأغلب إما في الصباح الباكر وإما وقت العصر حيث تكون هناك بعض الرياح أو النسيم. ويستخدم الفلاح بذلك أداة تعرف باسم "المذراه" وهي عبارة عن عصا خشبية يبلغ طولها حوالي ١،٥م وتشتمل في أسفلها على ٤-٥ أصابع من الخشب تربط بالعصا من خلال قطعة جلدية. ويقف الفلاح بجانب المحصول المدروس. وتكون التذرية من خلال غرس المذراه في المحصول ورفعها إلى أعلى باتجاه الشرق، فينفصل بذلك القش عن حبات القمح أو الشعير. ويطلق على كومة القمح المفصول "الصليبية". ويكون القش المفصول ثلاثة أنواع، قش خشن ويسمى "القصل" والأنعم قليلا ويسمى "التبن" والناعم ويسمى "الموص"، ويأتي ترتيبها من الغرب إلى الشرق القصل ثم التبن ثم الموص وذلك حسب اتجاه الرياح(٦٦).

وبعد الانتهاء من التذرية تجري عملية تنقية الحبوب من الشوائب العالقة كالحجارة والكدر وبذور النباتات الأخرى بواسطة "الكربال" وهو عبارة عن وعاء دائري من الخشب وباطنة مجموعة من الخيوط الجلدية المتشابكة، وتختلف ثقوبه حسب المحصول المراد تنقيته فتكون أوسع في حال تنقية بعض المحاصيل كالحمص والشعير وتضيق في حال تنقية محاصيل أخرى كالقمح والعدس. وهناك وعاء آخر على غرار الكربال ولكن ثقوبه صغيرة يعرف باسم "الغربال" ويستخدم لتنقية المحاصيل من الأتربة والشوائب الصغيرة(٦٧).

ويتم نقل التبن إلى المنازل من خلال تعبئته بأكياس كبيرة تسمى "شوال" ويخزن في أماكن خاصة يطلق عليها "المتبن"(٦٨) وقد ضمت الدار الواحدة أكثر من متبن، وبخاصة دور الفلاحين الذين يزرعون مساحات واسعة من الأراضي ويخزنون كميات كبيرة من التبن(٦٩).

أما الحبوب ولاسيما القمح فتعبأ بأكياس من الخيش أو شعر الماعز تعرف باسم "الفردة" وعند البدء بعملية التعبئة يسود الصمت الكامل لدى الموجودين وذلك كما يعتقد الفلاحون

---

(٦٥) The Immovable east, Jan 1907, P.20.

(٦٦) Post, op.cit, P115. The Immovable east, Jan. 1907, P20. The Immovable east, October 1907, P269.

(٦٧) Post, op.cit, P115. The Immovable east, October, 1907, P.269.
الطراونة، مرجع سابق، ص١٤٨.

(٦٨) The Immovable east, Jan 1907, P.21.

(٦٩) غنايم، مرجع سابق، ص٢٠٦.

حتى يبارك الله في كمية المحصول، ويجلس الفلاح على ركبتيه ويبدأ بالتسمية (بسم الله) قبل أن يبدأ بعد الصاعات[٧٠].

وكان الفلاحون يقومون بخزن الغلال الجافة (الحبوب بمختلف أنواعها) أو السائلة كالزيت في أبار يتم حفرها داخل ساحات المنازل[٧١] واحتوت بعض البيوت على أماكن تعرف باسم "الخابية" وهي خزانة من الطين داخل جدار المنزل وتستعمل لحفظ الحبوب وتصب فيها الحبوب من أعلى لتستقبل من أسفل بواسطة فتحة صغيرة تغلق بقطعة قماش[٧٢].

ومن الأدوات الأخرى التي استخدمها الفلاحون في أعمالهم الزراعية، المجرفة لتسهيل الأرض وجر المياه إلى القنوات، واستخدمت الفأس لنقش الأرض الضيقة التي لا تتسع للحيوان لحراثتها، كما استخدم الفلاحون أيضاً أدوات أخرى منها الرفش والفراعة والمعول[٧٣].

الخرب والنزلات:

بالنظر إلى أن بعض الفلاحين كانوا يمتلكون مساحات واسعة من الأراضي البعيدة عن قراهم ولا يستطيعون الوصول إليها يومياً للقيام بالأعمال الزراعية المختلفة، فقد كانوا يلجأون إلى الإقامة المؤقتة في أماكن قريبة من أراضيهم تعرف باسم "خربة"، حيث يقيمون في الكهوف والمغر ويبقون فيها حتى نهاية الموسم الزراعي[٧٤]. ومع استمرار عمليات الإعمار الموسمية، قام الفلاحون بإعمار الكهوف والصير لإيواء الحيوانات وخزن الأعلاف اللازمة لحيواناتهم خلال فصل الشتاء، فتحولت هذه الخرب إلي قرى ناشئة ودائمة فيما بعد[٧٥]. وقد تطورت بعض الخرب ونمت نتيجة لانخراط الفلاحين في أمور أخرى غير الزراعة لاسيما تربية المواشي، إذ إن بعض الفلاحين ممن لا يمتلكون أراضي في قراهم يضطرون إلى النزوح عن قراهم والإقامة في مناطق محاذية لها معتمدين في حياتهم على الرعي والتحطيب[٧٦]. ويبدو أن الأراضي التي يقيمون عليها في مثل هذه الحالة غالباً ما تكون أراضي دولة.

ويلعب المناخ دوراً مؤثراً في إعمار الخرب، فارتفاع درجات الحرارة وقلة الأمطار في برية القدس والخليل حالت دون

---

(٧٠) The Immovable east, October, 1907, P.269.

(٧١) حسين، عبد الله، مرجع سابق، ص٤٣٧.

(٧٢) سرحان، مرجع سابق، ص١٦١.

(٧٣) Post, op.cit, P.111. The Immovable east, October 1907, P.271.

(٧٤) Post, Op.cit, P.172. The peasantry, P.89.

(٧٥) أبو بكر مرجع سابق، ص٣٧٧.

(٧٦) Granott, A. The land system in Palestine, history and structure, Eyre and pattis wood, London, 1952, P.172.

إحياء وإعمار الخرب في تلك المناطق بالرغم من توغل الفلاحين فيها من القرى المجاورة خلال فصل الربيع لرعي مواشيهم، وذلك خلافاً للسفوح الشرقية لمرتفعات طوباس التي تهطل عليها أمطار وفيرة، ودرجات الحرارة تكون فيها أقل حدة، فقد عمرت فيها أربع خرب وهي خربة يرزة وعطوف وبيت كعون وتل مسكه[٧٧].

وعلى غرار الخربة، أقام الفلاحون أيضاً في مناطق عرفت باسم "النزلة"، وتخدم نفس غرض الخربة إلا أنها غير متطورة[٧٨]. فالفلاحون الذين يقطنون في القرى الجبلية ويمتلكون أراضي زراعية في السهول تبعد عن أماكن إقامتهم، يتركون بيوتهم ويقيمون في أراضيهم في السهول لفترة معينة لاسيما أن المحصول الزراعي في السهول ينضج قبل المحاصيل المزروعة في المناطق الجبلية بفترة تتراوح ما بين ٤-٦ أسابيع، وفي هذه الحالة يكون لدى الفلاحين متسع من الوقت لإنهاء أعمالهم الزراعية قبل موعد الحصاد في المناطق الجبلية[٧٩]. وتسمى هذه العملية بالنزلة أي النزول من الجبال إلى السهول.

وبالإضافة إلى الخربة والنزلة، فقد أقام الفلاحون أيضاً في أماكن عرفت باسم "العزبة" وقد شاعت هذه التسمية في بعض المناطق الفلسطينية، إذ كان الفلاحون يعزبون في المناطق الزراعية إذا كانت بعيدة عن القرية، ويقيمون في خيام أو في أماكن أثرية قريبة من حقولهم. وتتم عملية الحصاد الدرس في العزبة حيث تستمر ما بين ٢-٣ أشهر، ثم يعودون إلى قريتهم[٨٠].

غير أن العزبة لم تكن مقتصرة فقط على الأعمال الزراعية أو الفلاحين الذين يزرعون أراضيهم، بل كان أصحاب المواشي ينتقلون بمواشيهم موسمياً إلى مراع تكفل الكلأ والماء لمواشيهم، وتتم هذه العملية بشكل خاص خلال فصل الشتاء حيث يشتد البرد في الجبال ولا ينمو العشب بالسرعة التي ينمو فيها في الساحل الدافئ نسبياً، وهذه الفروقات في درجات الحرارة دفعت الرعاة وأصحاب المواشي أو الأجيرين إلى ترك القرى والنزول في السهول والمروج أو ما بين مناطق الصحراء كجبال النقب والغور الدافئ، ويقيمون في المغاور والحظائر، وهناك بعض القرى التي اشتقت اسمها من المغاور التي كان الرعاة يقيمون فيها أيام العزبة، كقرية عراق الشباب في وادي عارة المقامة بجوار مغارة كان رعاة أم الفحم يقيمون فيها[٨١].

---

(٧٧) أبو بكر، مرجع سابق، ص ٣٧٨.

(٧٨) Post,The peasantry, P.89.

(٧٩) Granott, op.cit, P.173.

(٨٠) Granott, op.cit, P.174. Gilmour, David. Dispossed: The ordeal of the Palestinians 1917-1980, London, sidgwick and Jackson, 1980, P.26.
أبو هدبا، مرجع سابق، ص٢٠٢.

(٨١) عراف، الأرض، ص٢٠٢.

ومهما يكن من أمر، فقد تحولت بعض الخرب والعزبات والنزلات إلى قرى دائمة وثابتة انفصلت عن القرية الأم على مدار الزمن وهناك عدد من القرى الفلسطينية كانت بالأصل إما خربة وإما عزبة نذكر منها خربة أبو فلاح قضاء رام الله وعزبة سلمان قضاء قلقيلية وقرى النزلات الثلاث نزلة عيسى والنزلة الشرقية والنزلة الغربية قضاء طولكرم.

المكاييل والأوزان والمقاييس :

شاع في بلاد الشام بما في ذلك فلسطين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر العديد من المكاييل والأوزان والمقاييس(٨٢)، وقد كانت المكاييل الشائعة في الأسواق المحلية مختلفة الأحجام ومتعددة الأنواع، فبينما كانت بعض القرى تستخدم مكيالاً معيناً كانت قرى أخرى لا تعرفه، بل وصل الأمر في أن بعض القرى كانت تستخدم مكيالاً واحداً لم تتفق على سعته أو حجمه. فقد كانت الحبوب تكال بالصاع ويساوي ستة أرطال، أو بالمسحة وتساوي خمسة أرطال(٨٣) ويذكر فيليب. ج. بالدنسبرجر (Philip. J. Baldensperger) أن الصاع يساوي ٣ أرطال من القمح و٤ أرطال من الشعير(٨٤)، كما أن صاع نابلس كان يتسع إلى ٢،٥ رطل حنطة(٨٥). وهذا يعني أن سعة الصاع وحجمه كانا يختلفان من منطقة إلى أخرى بل ومن قرية إلى أخرى في نفس القضاء، كما أن سعته أو حجمه يختلفان حسب المحصول.

ومن المكاييل الأخرى التي شاعت في كيل الحبوب كان المد، وكان يساوي في فجر الإسلام ¼ صاع أو ما يعادل ١,٠٥ لتر، وكان يساوي في سوريا في أواخر العصور الوسطى ٢,٨٤ كغم من القمح أو ٣,٦٧٣ لتر، أما في القدس فكان يساوي ١٠٠ لتر(٨٦).

ومن المكاييل الأخرى التي شاعت في كيل الحبوب الغرارة، وتعني حرفياً "العدل من صوف أو شعر" وتتألف من ١٢ كيلاً أو ٧٢ مداً دمشقياً، وبالتالي يكون وزن الغرارة

---

(٨٢) إن أفضل ما كتب حتى الآن عن المكاييل والأوزان والمقاييس في العالم الإسلامي على مر العصور هو كتاب المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري للمؤلف فالتر هنتس. وبالرغم من أن هذا الكتاب لا يزيد على مائة صفحة إلا أنه كتاب قيم ولا يستطيع الباحث في التاريخ الاقتصادي للعالم العربي أو الإسلامي أن يستغني عنه. وقد ترجم هذا الكتاب عن اللغة الألمانية عام ١٩٧٠ من قبل العلامة المقدسي الدكتور كامل العسلي رحمه الله ويكون بذلك قد قدم خدمة كبيرة في تاريخ العرب والمسلمين.

(٨٣) عوض، عبد العزيز، **مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث ١٨٣١-١٩١٤**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٣، ص١٠٢.

(٨٤) The Immovable east, January, 1906, P.15.

(٨٥) حسين، عبد الله، مرجع سابق، ص٥٨.

(٨٦) هنتس، فالتر، **المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري**، ترجمة كامل العسلي، عمان: منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٧٠م، ص ص ٧٤-٧٥.

حوالي ٢٠٤,٥ كغم قمح ٢٦٥ لتراً بوصفها مكيالاً، وفي غزة كانت الغرارة تساوي ١،٥ غرارة من غرائر دمشق أي حوالي ٦١٣,٥ كغم قمح أو حوالي ٢٩٥ لترا[٨٧] كما استخدم الفلاحون الكيل أو الكيلة في كيل الحبوب، وكان الكيل في دمشق يساوي نصف غرارة أو ١٧ كغم قمح أو ما يعادل ٢٢,٠٨ لتر، وفي حلب كان يساوي ٦,٥٦ لتر[٨٨].

أما الكيلة فكانت كيلة القمح في استنبول تساوي ٢٥،٦٥٦ كغم، وكيلة الشعير تساوي ٢٢،٢٥ كغم وكيلة الأرز تساوي ١٢،٨٢٨ كغم، ومنذ عام ١٨٤١ أصبح للكيلة في الدولة العثمانية قيمة ثابتة وموحدة إذ حددت بـ ٣٥,٢٧ لتر[٨٩].

واستخدمت الجرة لكيل المواد السائلة كالزيت، وما زال هذا الكيل قائماً حتى الوقت الحاضر، وكانت تساوي ١٥ حقة والحقة تساوي ٤٠٠ درهم والدرهم يعادل ٣,١٢ غرام فيكون وزن الحقة الواحدة :

٤٠٠ × ٣,١٢ = ١٢٤٨ غرام أو ١,٢٤٨ كغم.

أما وزن الجرة فيساوي ١٥×١٢٤٨ = ١٨٧٢٠ غرام أو ١٨,٧٢٠ كغم[٩٠]

ومن المكاييل الأخرى التي كان يستخدمها الفلاحون هو الحمل، وهو ما يحمل على ظهر دابة النقل، وكان يعادل ٤٨ صاعاً[٩١]. ويذكر هنكس أن حمل الجمل كان يساوي ٢٥٠ كغم[٩٢]. بينما يذكر رافق أن حمل الحنطة في غزة كان يتكون من ٣٢ ربعاً فإذا كان الربع ٣,٢٧٣ كغم فيكون وزن حمل الحنطة ١٠٤،٧٣٦ كغم، ولذلك فإن هذا الفارق بين حمل الجمل وحمل الحنطة جاء نظراً لأن حمل الحنطة حمل على حيوان أضعف من الجمل كالبغل أو الحمار[٩٣].

واستخدمت الطبة كمكيال للحبوب، وجاءت هذه التسمية نظراً لأن الكيل الذي كيلت به كان يفرغ على الأرض أي يطب على وجهه لتفريغ محتوياته، وتعرف الكمية المفرغة بـ "الطبة". وتصف الطبة إلى جانب أختها ثم تتم عملية تعدادها[٩٤]. وكانت تعادل ١٣,٥ رطل من القمح وعشرة أرطال من الشعير[٩٥].

أما فيما يتعلق بالأوزان فقد كانت على غرار المكاييل تختلف من منطقة إلى أخرى، فكان منها الرطل، وقد انفرد بعض أنواع البضائع برطل خاص به، فكان رطل التبغ يساوي ١٦ أوقية ورطل العسل ١٨ أوقية ورطل اللحم ١٦ أوقية أو ١٨ وربما ٢١

(٨٧) هنتس، المرجع نفسه، ص٦٤.
(٨٨) المرجع نفسه ص٧٠-٧١.
(٨٩) المرجع نفسه، ص٧٢-٧٣.
(٩٠) حسين، عبد الله، مرجع سابق، ص٥١٢.
(٩١) الطراونه، مرجع سابق، ص٢٢٣.
(٩٢) هنتس، مرجع سابق، ص٢٧.
(٩٣) رافق، عبد الكريم، **بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث** دمشق، ١٩٨٥، ص٨٤.
(٩٤) المرجع السابق، ص ٨٤.
(٩٥) حسين، عبد الله، ص٥١٠.

أوقيــة، ولذلــك فهــو يــتفاوت مــن مــنطقة إلى أخرى، وكـان الـرطل أنواعـاً فالـرطل الشـامي يسـاوي ١٠ أواق، أمـا الـرطل البـلدي فكـان يساوي ١٢ أوقية(٩٦).

وقد اسـتخدم الفلاحـون القنطار ومـا زالـوا يستخدمونه حتى الوقت الحاضر لا سيما في كيل التبن، وكان القنطار على نوعين، القنطار الشـامي ويسـاوي ١٠٠ رطل شـامي والقنطار النابلسي ويعادل ١٠٠ رطل نابلسي(٩٧).

وفيمـا يتعـلق بالمقـاييس، فقـد كـان الفـدان أكثر المقـاييس شيوعاً، وفـي واقـع الأمـر فـإن مساحة الفدان غير ثابتة ومحددة، وتعتمد على طــبيعة الأرض وبشــكل خــاص خصــائص الــتربة، فيذكــر غــرانوت (Granott) أن المســاحة الشــائعة لــلفدان عــام ١٨٧٨ فــي المــناطق الجبــلية تــتراوح بيــن ١٠٠-١٦٠ دونــم(٩٨)، وقــدر كونــدر (Conder) مســاحة الفدان عـام ١٨٧٨ فـي المناطق الجبلية ما بين ١٤٤-١٦٠ دونـم، أمـا فـي مـناطق السـهول فتــتراوح مــا بيــن ١١٢-١٤٤ دونــم، أمــا شــوماخر (Schumacher) فقــد ذكــر عــام ١٨٨٩ أن الفــدان هــو مســاحة الأرض الــتي يحـرثها زوج مـن الـثيران فـي موسـم الحـراثة والتي تبلغ نحو شهر، وقدرها بـ ٢٠٠ دونم(٩٩).

وذكـر هنـتس أن مساحة الفدان في العصور الوسـطى كـانت تسـاوي ٦٣٦٨م٢ وأصـبحت بعد عام ١٨٣٠ تبلغ ٤٢٠٠,٨٣٣م٢(١٠٠).

ووفقـاً لما ذكره جـورج بوسـت (George Post) أن الفــدان هــو مســاحة الأرض الــتي يحـرثها زوج من الثيران في يوم واحد، ويذكر أنــه وفقـاً لمـا سـمعه مـن بعـض الفلاحيـن فـي دمشـق فـي أواخـر العهد العثماني، أن مساحة الفدان تساوي ٢٦٠ قصبة مربعة، كما ذكر له الـبعض بأنهـا تسـاوي ½ ٣٣٣ قصـبة مـربعة بينما ذكر بعض آخر أنها تساوي ٤٠٠ قصبة مـربعة(١٠١). فـإذا كـانت القصـبة تسـاوي كمـا حددتهـا الدولــة العــثمانية ٣,٥٥م(١٠٢) فــإن مسـاحة الفدان تكون كمـا عبر عنها الطـرف الأول مــن الفلاحيــن هــي ٣،٥٥م × ٢٦٠ = ٩٢٣

وتسـاوي كمـا عبر عن ذلك الطرف الثاني ٣،٥٥ × ½ ٣٣٣ = ١١٨٣،٩٢٥

بينما تسـاوي كمـا عبر عن ذلك الطـرف الثالث ٣,٥٥ × ٤٠٠ = ١٤٢٠

وبيــن أبــو بكــر اســتناداً إلى تقريــر مســح وتسجيل أراضي ناحية بني حارثة عام ١٨٧٠ الذي اشتمل على ٤٦ موقعاً وقرية، أن متوسط مساحة الفدان فـي هذه المنطقة يتراوح ما بين

---

(٩٦) عوض، مقدمة، ص١٠٣.

(٩٧) طريف، مرجع سابق، ص٥٨٣.

(٩٨) Granott, op.cit, P.184.

(٩٩) هنتس، مرجع سابق، ص٩٨.

(١٠٠) Ibid, P.184.

(١٠١) Post, op.cit P.110.

(١٠٢) هنتس، مرجع سابق، ص٩٥.

٢٠٠-٢٧٥ دونماً، ويعتمد ذلك على مظاهر سطح الأرض ودرجة وعورتها وسهولتها وعمق تربتها وصلاحيتها للشق والحراثة[١٠٣]. كما ذكر أن مساحة الفدان تختلف من موقع لآخر، إذ إن متوسط مساحة الفدان في جبل القدس ونابلس وبئر السبع، أكثر من متوسط مساحة الفدان في مناطق السهول، وذلك نظراً لطبيعة الأرض التضاريسية وعدم خصوبة تربتها وانخفاض معدل سقوط الأمطار في بعض المواسم، مما يعوق زراعتها باستمرار إذ يضطر الفلاح في هذه الحالة إلى اتباع دورة زراعية وفقاً لتلك المعطيات، وذلك من خلال تقسيم الأرض إلى عدة أقسام يزرع قسم ويبور آخر لاستراحة الأرض وتقويتها مما يرفع نصيب المحراث في مناطق الجبال[١٠٤] وهكذا فيستنتج بالاستناد إلى دفاتر اليوقلمة[١٠٥] أن مساحة الفدان تتراوح ما بين ٢٠٠-٤٠٧ دونمات، وذلك حسب طبيعة الأرض وخصائص التربة ومظاهرها التضاريسية[١٠٦].

أما القيراط فقد استخدم لتقسيم الكل إلى أجزاء تبلغ ٢٤ قيراطا، وجزيء القيراط إلى نصف وثلث وربع وثمن وسدس وخمس. أما السهم فقد استخدم عادة للدلالة على حصة في أرث أهلي واعتبر السهم جزءاً من مائة سهم[١٠٧].

كما استخدم الذراع لقياس الأراضي والأبنية، ويذكر هنتس أن معدل طول الذراع وفقاً لدراسات الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام في أواخر القرن الثامن عشر، والتحقيق الذي قام به ك. أ. س. كرزويل (K. A. C. Creswell) عام ١٩٢٧ يساوي ٥٤،٠٤ سم[١٠٨].

وكان الذراع على عدة أنواع، منها الذراع الاستانبولية وبلغ طوله في القرن التاسع عشر ٦٨،٥٧٩سم^{2}[١٠٩]. والذراع المعمارية أو الذراع البناء التي كان يستخدم لقياس الأراضي داخل المدينة ومساحات الدور والأحواش، ويبلغ طوله ٧٥سم[١١٠]. وذراع العمل وطوله ٦٦,٥سم[١١١] وجزيء هذا الذراع إلى وحدات أصغر، منها نصف ذراع العمل وثلث ذراع العمل وسدس ذراع العمل[١١٢]، وذراع الملك وطوله

(١٠٣) أبو بكر، مرجع سابق، ص٤١١.
(١٠٤) المرجع نفسه، ص٤١٢.
(١٠٥) دفاتر اليوقلمة وهي الدفاتر التي سجلت مادتها ميدانياً خلال عمليات مسح الأراضي المشمولة بالعمران داخل المدن والقرى وديار العربان وما يقوم عليها من مبان، وكذلك الأراضي الأميرية والموقوفة المتصرف بها من قبل الأهالي في المواقع المأهولة، وأراضي المواقع الآيلة للخراب المعطلة أو المحلولة. انظر أبو بكر، مرجع سابق ص٣٠.
(١٠٦) أبو بكر، مرجع سابق، ص٥٠٢.
(١٠٧) رافق، بحوث، ص٨٠.
(١٠٨) هنتس، مرجع سابق، ص٩٠.
(١٠٩) هنتس، المرجع نفسه، ص٨٤.
(١١٠) هنتس، المرجع نفسه، ص٩٠. رافق، بحوث، ص٧٨.
(١١١) هنتس، المرجع نفسه، ص٨٩.
(١١٢) حسين، عبد الله، مرجع سابق، ص٥١٦.

٦٦,٢١سم[١١٣]، وذراع المساحة وطوله ٦٦,٥سم[١١٤].

أما وحدة القياس الأكثر شيوعاً فهي الدونم، وكان نوعين : دونم عتيق وحددت مساحته بـ ٤٠ خطوة طولاً و ٤٠ خطوة عرضاً بالخطوات المتوسطة أي ١٦٠٠ خطوة مربعة أو ما يعادل ١٦٠٠ ذراع مربع. أما الدونم الجديد فيساوي ١٠٠٠م^2. واعتبرت المقاييس في الأراضي المفروغة دونمات وأذرع. وفي حال كون الأرض المفروغة على أساس تعيين الحدود فإن الدونم والذراع في هذه الحالة يعتبران مقياساً سواء كانا مذكورين أم غير مذكورين بل تعتبر الحدود فقط، فإذا أفرغ أحد الأشخاص أرضه لآخر موضحاً له حدودها ومتفقاً معه على مساحتها بالدونم ثم ظهرت بالقياس أكثر من ذلك فلا يجوز للمفترغ المداخلة فيها مع المفروغ له أو المطالبة بدفع فرق المساحة، كما لا يحق لورثة المفترغ المطالبة أو المداخلة في ذلك[١١٥].

وهكذا فمن الواضح أن المكاييل والأوزان والمقاييس لم تكن موحدة وثابتة سواءً في المنطقة أو في القضاء أو في القرية نفسها، ويعود ذلك إلى تقصير واضح وعدم اهتمام من قبل الدولة العثمانية، إذ كان من المفروض أن تحدد بشكل دقيق وثابت قيمة أو مقدار كل من هذه الوحدات. وبالإضافة إلى ذلك فإن الفارق بين قيمة أو سعة أو مساحة هذه الوحدات قد يؤدي أحياناً إلى وقوع الخلافات والمنازعات بين الفلاحين في حال شراء المحاصيل أو الأراضي نظراً لسهولة التلاعب فيها.

العوامل المؤثرة في الزراعة :

كان من أهم المشاكل والعقبات التي واجهتها الزراعة انتشار الجراد ومهاجمته للمحاصيل الزراعية، وغالباً ما كان ينتشر ويهاجم المزروعات خلال موسم الجفاف وارتفاع درجات الحرارة، حيث يتعرض الغطاء النباتي بشكل عام للهلاك بما في ذلك أشجار الغابات والنباتات البرية في المراعي[١١٦]. ومن بين السنوات التي انتشر فيها الجراد بشكل واسع كانت سنوات ١٧٤٥، ١٧٩٧، ١٨١١، حيث كان يقضي على المحاصيل الصيفية والشتوية[١١٧].

ومن أعنف غزوات الجراد في فلسطين في القرن التاسع عشر كانت تلك التي حصلت عام ١٨٦٥، وقد وصف القس أسعد منصور ذلك بقوله : "كانت سنة ١٨٦٥ سنة بلايا ومحن شديدة، فيها تأخر المطر فجاء الموسم الشتوي رديئاً جداً، ولكنه نجا من أنياب الجراد الذي جاء في أواخر الربيع وأوائل الصيف، وجرد

(١١٣) هنتس، مرجع سابق، ص٩٠.
(١١٤) هنتس، المرجع نفسه، ص٨٩.
(١١٥) طريف، مرجع سابق، ص٥٨٥.
(١١٦) أبو بكر، مرجع سابق، ص ٥٢٢.
(١١٧) غنايم، مرجع سابق، ص٤٠٢.

الأرض من كل خضرة وأفنى الموسم الصيفي، غير أن الذرة عادت فأفرخت وأخصبت وقد دخل الزحاف بيوت الناصرة ودكاكينها حتى اضطر أصحابها إلى قفلها. وفي الصيف جاء أبو هدلان فأفنى أكثر البقر، وفي الخريف جاءت الكوليرا وفتكت فتكا ذريعا"(١١٨).

وقد أكد ذلك أحد المطارنة المسيحيين في تقرير له بتاريخ ١٣ تشرين الثاني عام ١٨٦٥ إذ قال : "تأخر المطر هذه السنة كثيراً فكان الخوف من القحط شديداً. ثم جاء الجراد في أيار وحزيران وتموز غطى الأرض من غزة إلى لبنان، ولحسن الحظ وجد الحنطة والشعير قد قست على أنيابه ولكنه التهم كل نبت أخضر الخضرة والموسم الصيفي وأوراق الأشجار وأغصانها. والجهات التي نجت منه قليلة جداً ولكن الرب في وسط الغضب ذكر الرحمة. فبعد أن أكل الجراد الذرة أكثر من مرة عادت فأفرخت بعد انصرافه شرقا في تموز وأنتجت نتاجاً جيداً"(١١٩).

غير أن أهم غزوات الجراد هي تلك التي شهدتها البلاد عام ١٩١٥ حتى وصل الأمر في أن سطوح المنازل والأشجار والأحجار والطرق كانت مكسوة به طبقات فوق بعضها، وقد وصف ذلك أسعد منصور ما حصل في الناصرة بقوله "فكان الناس يسيرون في الطرق يكسوهم الجراد مما يتساقط عليهم عن الحيطان ومما يصعد عن الأرض تحت أقدامهم التي كانت تغور فيه ما فوق الكاحل. ودخل البيوت والمخازن والدكاكين من الأبواب والثقوب وأتلف كثيراً مما فيها وأقفلت بعض الكنائس أحدين متواليين ... والكنائس التي جرت فيها العبادة وضعت شباكاً معدنياً على شبابيكها ووضع الفعلة على أبوابها لمنع دخوله. واشتد الحر في أوائل حزيران فضاق الأمر بالناس فلا هم قادرون على أن يفتحوا منافذ البيوت ولا هم قادرون على أن يقفلوها. وأضف إلى ذلك نتن الجراد الحي والميت فكنت ترى الناس وفي أيديهم مناديل معطرة"(١٢٠). ووصل الأمر إلى درجة انزلاق حوافر الخيل على الجراد أثناء السير عليه، وقد ألحقت تلك الهجمات أضراراً بالغة بالزراعة لم يسلم منها إلا المحاصيل الحقلية وبيارات الحمضيات في المناطق الساحلية نتيجة لجهود الأهالي في مقاومته فضلاً عن الرياح الآتية من البحر التي كانت تجبر الجراد إلى التراجع باتجاه الشرق(١٢١).

ونظراً لعدم توفر العلاجات والمواد الكيماوية اللازمة للقضاء على هذه الآفة فقد اعتمدت الحكومة العثمانية في مقاومة الجراد على الطاقة البشرية حيث كلفت الأهالي من سن ١٥-٦٠ سنة بجمع الجراد، إذ يجمع كل

(١١٨) منصور، أسعد، تاريخ الناصرة، القاهرة: دار الهلال، ١٩٢٣، ص٩٥.

(١١٩) المصدر نفسه، ص٩٦.

(١٢٠) المصدر نفسه، ص١١٤.

(١٢١) أبو بكر، مرجع سابق، ص٥٢٢ .

مكلف ٢٠ كيلو من الجراد أو يدفع البدل المقرر البالغ ٢٠ ليرة عثمانية(١٢٢). وحتى يعوض الأهالي عما لحق بهم من خسارة مادية نتيجة لتلك الهجمات، فقد قام الأهالي بزراعة بعض المحاصيل الصيفية كالشمام والبطيخ، غير أن الآثار السلبية لتلك الهجمات استمرت بعد زواله أو موته، فقد ماتت أغلب المواشي التي رعت على أثر الجراد كما صار لون بيض الدجاج الذي أكل الجراد أحمر(١٢٣).

أما فيما يتعلق بالأمطار فبالرغم من أهميتها بالنسبة للزراعة، إلا أنها تترك في بعض الأحيان آثاراً سلبية على الزراعة، لاسيما أنها متذبذبة ومتباينة في السقوط من منطقة إلى أخرى. فالمناطق الساحلية تسقط عليها أمطار أقل من الأمطار التي تسقط على الجبال والمرتفعات في وسط البلاد، إلا أنها أكثر من الأمطار الساقطة على المناطق الغورية في الشرق. ونظراً لتأثير عامل الارتفاع ومحاور التضاريس فإن السفوح الغربية للمرتفعات الفلسطينية الواقعة في مواجهة الرياح القادمة من البحر تتلقى أعلى كميات من الأمطار خصوصاً خلال فصل الشتاء. ويعود ذلك إلى عامل الارتفاع فوق مستوى سطح البحر، والى تعامد أو قرب تعامد محور المرتفعات والجبال الفلسطينية مع رياح المحصلة الغربية، فضلاً عن عامل العرض الجغرافي للمناطق والمحطات المناخية. ونظراً لاندراج التضاريس الفلسطينية للانخفاض من الشمال إلى الجنوب بنفس الاتجاه، فإن كميات الأمطار تقل كلما ازداد التوجه نحو الجنوب، ووفقاً لخرائط التوزيع المكاني للمعدل السنوي لسقوط الأمطار فإن نصف مساحة فلسطين تتلقى أمطاراً تتراوح ما بين ٢٥٠-٣٠٠ملم وهذا هو الحد الحرج لقيام نشاط زراعي بعلي يعتمد فقط على مطر السماء(١٢٤).

أما المناطق الغورية فنظراً لبعدها عن البحر وانخفاضها عن مستوى سطح البحر فضلاً عن وقوعها في ظل الأمطار خلف جبال فلسطين وهضابها التي تستأثر بأكبر كمية من الرطوبة والأمطار فإن الأمطار الساقطة عليها تكون قليلة(١٢٥).

غير أن سقوط الأمطار بغزارة وزيادة عن الحد المألوف من شأنه أن يلحق أضراراً بليغة بالنشاط الزراعي، ففي حال استمرار سقوط الأمطار بغزارة وتجمع المياه في الأراضي السهلية الراكدة وتأخر جفافها يؤدي إلى بوار الأراضي(١٢٦). وفضلاً عن ذلك فإن ارتفاع معدل سقوط الأمطار السنوي والشهري لا يبشر بموسم زراعي جيد يزيد من فعالية

(١٢٢) صبري، بهجت، **فلسطين خلال الحرب العالمية الأولى وما بعدها ١٩١٤-١٩٢٠**، القدس: جمعية الدراسات العربية، ١٩٨٢، ص١٣٣.

(١٢٣) منصور، مصدر سابق، ص١١٣-١١٤.

(١٢٤) عبد السلام، عادل، **المياه في فلسطين، الموسوعة الفلسطينية**، القسم الخاص، م١، ص١٩٦.

(١٢٥) المرجع نفسه، ص١٩٦.

(١٢٦) أبو بكر، مرجع سابق، ص٨٥.

الأرض كوسيلة إنتاج رابحة، خصوصاً إذا لم يكن الهطول موزعاً بانتظام بشكل يسمح للأرض بأن تشرب وتخزن أكبر كمية من المياه اللازمة لنمو المحاصيل الحقلية والشجرية والغابات والأعشاب البرية، فضلاً عن تعزيز المياه الجوفية، ومن ثم حماية العيون والينابيع من الجفاف، بالإضافة إلى وفرة الأرض للحراثة حتى يتمكن الفلاح من القيام بالأعمال الزراعية المختلفة(١٢٧).

كما أن سقوط الأمطار بغزارة يؤدي إلى خسارة كبيرة للفلاحين لاسيما القاطنين في المناطق الجبلية، حيث تجرف كميات كبيرة من التربة، مما يدفع السكان في تلك المناطق إلى تدعيم التربة بجدران استنادية من الحجارة(١٢٨).

وتؤثر الرياح إما سلباً وإما إيجاباً على المزروعات، وذلك حسب اتجاهها وسرعتها، وقد عبر الفلاح الفلسطيني عن ذلك بالعديد من الأمثال الشعبية، والمثل التالي يبين بشكل واضح تأثير الرياح بمختلف اتجاهاتها على المزروعات :

إن هبت غربي يا سعد قلبي
إن هبت شرقي يا ظيعة ابني
إن هبت شمالي يا ظيعة أعيالي
ريح الشمالي بطرد المطر
كل شيء من الشمال مليح ما عدا الرجال والريح

ويوضح هذا المثل موقف الفلاح الفلسطيني من الرياح، فإذا كانت الرياح غربية قادمة من البحر، يتفاعل الفلاح نظراً لأنها تكون مشبعة بالرطوبة وتبشر بسقوط الأمطار. أما الرياح الشرقية والشمالية فهي نذير شؤم للفلاح، فالرياح الشرقية تأتي من الصحراء وبالتالي تكون جافة وخالية من الرطوبة وتؤدي إلى جفاف الأرض والمزروعات، كما تلحق الرياح الشمالية التي تكون باردة وغير ماطرة أيضاً أضراراً بالغة بالمزروعات(١٢٩).

غير أن أخطر الرياح هي الرياح الجنوبية والجنوبية الشرقية لاسيما رياح الخماسين الجافة والحارة والتي تحمل عادة غباراً رملياً، ومن شأن هذه الرياح أن تعمل على رفع درجة الحرارة خلال ساعات قليلة أكثر من عشر درجات. وتهب الرياح الخماسينية في أيلول وتشرين الأول وفي الربيع لمدة تتراوح ما بين ٣ ـ ٨ أيام وقد تستمر أحياناً إلى أسبوعين، كما تؤدي خصوصاً إذا هبت خلال الربيع إلى جفاف الأرض وذبول المحاصيل بل تخفض كمية المحاصيل إلى درجة كبيرة إذا لم تهلكها(١٣٠).

ويؤثر التهطال بكافة أشكاله سواء الندى أو الثلج أو البرد سلباً على المزروعات. فالندى وهو عبارة عن أحد أشكال التكاثف السطحي لبخار الماء الموجود في الطبقة الملامسة

---

(١٢٧) المرجع نفسه، ص٨٧.
(١٢٨) نسكايا، مرجع سابق، ص٤٣.
(١٢٩) سرحان، مرجع سابق، ص١٧٨.
(١٣٠) نسكايا، مرجع سابق، ص٤٥.

لسطح الأرض من الغلاف الغازي، ويرتبط تشكله بدرجة التبرد الليلي الناتج عن برودة سطح الأرض بالإشعاع الليلي، ونتيجة لركود الهواء وصفاء السماء وتكون انعكاساً حرارياً مع توفر رطوبة جوفية كافية في الهواء، ومع انخفاض درجة الحرارة يصل الهواء إلى نقطة الندى ويتكاثف بخار الماء على شكل قطرات ماء على أوراق النباتات في المناطق الجافة وشبه الجافة، وتزداد أهميته أيضاً خلال فصل الصيف خصوصاً بالنسبة للمزروعات غير المروية، غير أنه من جهة أخرى يؤثر ويعوق عملية التبخر والنتح وخفض معدلهما، نتيجة لخفض الندى لدرجات حرارة أوراق النباتات والأديم العلوي للتربة الندية[١٣١].

أما بالنسبة للثلج فبالرغم من قلته وندرته في معظم أنحاء فلسطين، إلا أن الفلاح الفلسطيني ينظر له نظرة خاصة، ويعبر عن ذلك المثل الشعبي "الثلج ملح الأرض"، نظراً لما يحمله من فائدة ولو قليلة ومحدودة الأثر للأرض الزراعية[١٣٢]. أما البرد فيؤدي إلى إلحاق الأذى والضرر بالمحاصيل الزراعية لاسيما الحمضيات في السهل الساحلي. إلا أن سقوطه في أيام قليلة يساعد على عدم ازدياد الأضرار بالمزروعات، إذ تتراوح أيام سقوطه في السهول الساحلية ما بين ٦-٨ أيام، وفي المناطق الجبلية ما بين ١٠-١١ يوماً وينحصر سقوطه خلال فصل الشتاء، كما يسقط في بعض الأحيان خلال فصل الربيع مما يؤثر على الأشجار المثمرة الربيعية كاللوز والمشمش[١٣٣].

وعلى غرار الأمطار من حيث تذبذب سقوطها واختلافها من منطقة إلى أخرى في فلسطين، فإن درجات الحرارة أيضاً متذبذبة ومختلفة نظراً للعديد من العوامل، منها الموقع الجغرافي والارتفاع فوق مستوى سطح البحر والقرب والبعد عن البحر. وبشكل عام فإن ارتفاع درجات الحرارة نسبياً في فصل الصيف، وفي المستوى السنوي العام لفلسطين بالرغم من أن لها جوانب إيجابية في فترات نمو النبات ونضج المحاصيل، إلا أنها تحمل في طياتها آثاراً سلبية نظراً لانعكاسها على كميات المياه، ومن الممكن أن تشكل أزمات خطيرة في السنوات القليلة الأمطار وفترات الجفاف التي تتعرض لها البلاد، وبخاصة المناطق التي تعتمد في زراعتها على الأمطار كمصدر رئيسي، نظراً لعدم وجود الينابيع والعيون الطبيعية والأنهار الجارية وبحيرات المياه العذبة[١٣٤].

ومن المشاكل التي واجهت الزراعة أيضاً نقص رؤوس الأموال المتاحة. وقلة خدمات الإرشاد الزراعي والبحث العلمي والتعليم

---

(١٣١) عبد السلام، مرجع سابق، ص١٩٩.

(١٣٢) عبد السلام، المرجع نفسه، ص١٩٩.

(١٣٣) عبد السلام، المرجع نفسه، ص ص١٩٩-٢٠٠.

(١٣٤) عبد السلام، المرجع نفسه، ص ١٨٤.

والتدريب الزراعي[١٣٥]. كما عانى الفلاحون أيضاً من عدم الحصول على السعر المناسب لمحاصيلهم في أسواق المدينة[١٣٦]. كما أن الحكومة العثمانية ساهمت خلال الحرب العالمية الأولى بإيقاع أضرار كبيرة بالمحاصيل الزراعية الرئيسية لاسيما أشجار الزيتون، حيث كانت تقوم بقطعها واستخدامها كوقود للقاطرات لقلة الفحم، وقد بلغت نسبة المقطوع من أشجار الزيتون في مناطق القدس ونابلس ٤٠%، وفي غزة عمدت الحكومة إلى قطع أشجار النخيل لاستخدامها في الاستحكامات العسكرية[١٣٧].

وبالإضافة إلى ذلك فقد شكلت الضرائب لاسيما ضريبة العشر التي فرضت على المحاصيل الزراعية بنسبة ١٠٪ عيناً أو نقداً عبئاً ثقيلاً على كاهل الفلاح، خصوصاً أن هذه النسبة لم تكن ثابتة. ففي عام ١٨٨٣ أضيف إلى العشر ضريبة إضافية بنسبة ١٪ لتمويل البنك الزراعي، وأخرى بنسبة نصف بالمائة للتعليم، ثم أضيف إليها عام ١٨٩٧ نصف بالمائة ربما كان لها صلة بحرب اليونان وضريبة أخرى بنسبة ٠،٦٣ للتسليح عام ١٩٠٠ فأصبحت قيمة ضريبة العشر ١٢،٦٣٪ تم تخفيضها إلى ١٢,٥٪ عام ١٩٠٦ لتسهيل أمور الجباية وقد طبق هذا المعدل على الناتج الإجمالي للمحصول دون حسم قيمة البذور والنفقات الأخرى، مما يؤدي إلى وجود مفارقات بين محصول وآخر إذ يدفع فلاح يزرع القمح ذو الأرض الجيدة وكلفة إنتاج منخفضة ١٦,٨٪ من صافي دخله، في حين يدفع فلاح آخر يزرع أرضاً رديئة وكلفتها عالية ٣١,٨٪[١٣٨]. ولم تكن الحكومة تتوانى في معاقبة من يتخلف عن دفع هذه الضريبة بالحجز على أثاث بيته أو حيواناته وبيعها بالمزاد العلني[١٣٩].

ويلخص القس ميخائيل قعوار أحد القساوسة في مدينة الناصرة الوضع الاقتصادي للفلاحين عام ١٨٧٠ مبيناً المشاكل والعراقيل التي تواجه الزراعة والفلاحين بقوله : "ابتدأ الجوع والضيق من تشرين ثاني سنة ١٨٧٠ في القرى الكبيرة والمراكز، وامتنع التجار عن تسليم الفلاحين بسبب حرب أواسط أوروبا، ومما زاد البلاء سماع الدولة بدخول عربان البادية إلى هذه البلاد فرعت مواشيهم فضلة الجراد واشتروا أهم غلال البلاد فضلاً عن التشليح والخطف وقطع الطرق، ثم طردتهم الحكومة ولكن بعد فوات الوقت ونفاد القوت، فارتفعت أسعاره ارتفاعاً فاحشاً لم يعهد له مثيل، كيل الحنطة من ٥٠ قرشاً إلى ١٢٠ نقداً و ١٨٩ إلى ٢٠٠ ديناً، والذرة من ٣٠ إلى ٣٣ والسكر من ١٤ إلى ٢٤"[١٤٠].

---

(١٣٥) بسيسو، مرجع سابق، ص ٦٥٨.

(١٣٦) رافق، **تاريخ فلسطين**، ص ٩٥٠.

(١٣٧) صبري، مرجع سابق، ص ١٣٣.

(١٣٨) عوض، **الإدارة العثمانية**، ص١٦٨. عيساوي، مرجع سابق، ص ٦١.

(١٣٩) طريف، مرجع سابق، ص ٥٩٨.

(١٤٠) منصور، مصدر سابق، ص ٩٨.

ومهما يكن من أمر، فقد أدت هذه العوامل مجتمعة إلى تردي الأوضاع الاقتصادية للمزارع الفلسطيني، الأمر الذي أدى إلى اضطرار الكثير منهم إلى الاستدانة من المرابين والتجار وشيوخ القرى ومخاتيرها بفوائد باهظة قلما كانوا يستطيعون تسديدها، بالإضافة إلى القروض التي كانوا يحصلون عليها من البنك الزراعي العثماني ويعجزون عن تسديدها، فعندئذ يضطر المزارع إلى التنازل عن أرضه مكرهاً.

ويلخص مؤلفا كتاب ولاية بيروت هذه الحالة في منطقة جبل نابلس بقولهما "إن الأغنياء من أعيان نابلس يقرضون الفلاح أموالاً بفائض خمسة عشر في المئة لستة أشهر. وأما الجاهل المحتاج للدراهم فإنه لا يفتكر بثقل الشروط أو ضعفها بل غاية ما يتصوره الوصول إلى الدرهم بأي طريقة كانت. وبعد أن يقرض الغني من المال للفلاح يصبح سيداً له وحاكماً عليه لأن القروي الفقير الذي لا يملك سوى النذر القليل من الدخل السنوي لا يتمكن حين حلول الوعد من أداء الدين فيتهدده الغني الدائن بما له من النفوذ لدى رجال الحكومة فيضطر القروي أخيراً إلى تجديد معاملة الدين بشروط أثقل من الأولى. ومن المحقق أن أكثر أغنياء نابلس تقريبا يقرضون أموالهم سنوياً بفائض يتراوح ما بين ٦٠-٧٠٪ (١٤١).

غير أن نسبة الفائدة لم تكن ثابتة ومحددة، بل تعتمد على الدائن، فكانت تصل في بعض الأحيان إلى ١٠٪ (١٤٢). وفي أحيان أخرى كان المرابون يقدمون للفلاحين مقابل رهن محصوله القادم بفائدة تتراوح ما بين ٣-٥٪ في الشهر، أو بشراء المحصول جميعه سلفاً مقابل ثلثي أو نصف ثمنه. وفي بعض الأحيان أيضاً كان المرابي يعطي الفلاح كمية من الحبوب للبذار ويسترجعها بشكل مضاعف بعد الحصاد في العام التالي (١٤٣).

وقد روت اليزابيث فن (E. Finn) زوجة القنصل البريطاني في القدس في منتصف القرن التاسع عشر، قصة امرأة من قرية بيت جالا بالقرب من بيت لحم بينت فيها كيف كان التجار يتعاملون مع الفلاحين دون رحمة أو شفقة، وتتلخص القصة أن حما هذه المرأة أي والد زوجها رهن أرضه المزروعة بالزيتون لأحد التجار مقابل ٥٠٠ قرش وتعهد بدفع ١٥ جرة زيت لهذا التاجر، وفي حال نقص الكمية فعلى صاحب الأرض أن يدفع جرتين في العام التالي عن كل جرة، وذكرت المرأة أن ذلك العام كان رديئاً ولم تنتج أرض عائلتها سوى ثلاث جرار من الزيت مما حدا بالتاجر أن يكتب على حماها صكاً بأربع وعشرين جرة زيت للموسم التالي، وإذا نقص شيء منها فعليه أن يدفع اثنتين عن كل جرة، ثم تتابع

(١٤١) التميمي، محمد رفيق وبهجت، محمد ، ولاية بيروت، بيروت: مطبعة الإقبال، ١٣٣٣هـ/١٩١٤، ص١٠٥.

(١٤٢) الحزماوي، مرجع سابق، ص ٥٧.

(١٤٣) Post, op.cit, P.105.

القصة مبينة كيفية عدم القدرة على التسديد حتى وصل عدد جرار الزيت المدين بها حماها إلى ٨٠ جرة[١٤٤].

وبغض النظر عما إذا كانت هذه القصة حقيقية أم لا لاسيما أن وصول عدد الجرار المدين بها أصبح كثيرة، إذ من الممكن أن المرأة قد بالغت في ذلك وأرادت أن تستعطف زوجة القنصل البريطاني، إلا أن ذلك يبين مدى الإجحاف والظلم الذي كان يمارسه التجار بحق الفلاحين.

ومن الوسائل الأخرى التي كان يتعامل بها التجار والمرابون مع الفلاحين هي عقود السلم أو الشراء مسبقاً وهو شكل من أشكال التسليف، ويتم ذلك من خلال إبرام عقد بين فريقين يدفع الفريق الأول وهو غالباً ما يكون تاجراً من المدينة، وفي بعض الأحيان يكون من الطبقة المتنفذة من أبناء القرى، إلى الفريق الثاني وهو فلاح مبلغاً من المال سلفاً يكون الثمن الكلي للسلعة المرتهنة، وهي غالباً ما تكون زيت الزيتون أو الحبوب مقابل تسليم الكمية المتفق عليها بغض النظر عن سعرها في السوق خلال موسم القطاف أو الحصاد، وكان المبلغ المسلف ينطوي على نسبة من الفائدة المستترة أو غير القانونية تكفل للمسلف ربحاً ملموساً حتى لو انخفضت أسعار السوق إلى أقل من السعر المتوقع[١٤٥]. وفي حال تخلف المستلف عن تنفيذ عقد السلم يرفع المسلف القضية إلى المحكمة الشرعية، حيث لم يتوان القاضي في إصدار القرار بنقل ملكية المدعى عليه إلى المدعي[١٤٦]. ولا بد من الإشارة إلى أن صدور مثل هذا الحكم كان متوقعاً عند الفلاحين، لاسيما أن القاضي وموظفي المحكمة هم من سكان المدينة وربما يكون القاضي أو أحد الموظفين من أقارب المدعي، ولا يقصد بهذا الكلام الطعن في نزاهة المحكمة، غير أن الفساد الإداري كان مستشرياً في الأجهزة الإدارية بشكل عام ليست في فلسطين فحسب بل في كافة أرجاء الدولة العثمانية. ومن جهة أخرى فإن التمييز الاجتماعي ما بين سكان المدينة وسكان القرى كان ولا يزال ظاهرة ملموسة في المجتمع الفلسطيني. ولذلك فلم تكن المحكمة تعطي الفلاح وقتاً كافياً لتسديد ديونه بقدر ما أن كان القرار بنقل ملكية الأرض يصدر مباشرة.

ولعب البدو دوراً تخريبياً في الزراعة، فقد أدت الهجمات والغارات التي كانت تقوم بها بعض القبائل البدوية على مناطق الأرياف إلى اضطرار الفلاحين الذين يقطنون في القرى المتاخمة للبادية لترك قراهم وأراضيهم والعمل بالنشاط الرعوي، الأمر الذي أدى إلى تقليص الأراضي الزراعية لصالح الرعي وبالتالي إلحاق الضرر بالزراعة[١٤٧] وحتى يتجنب سكان القرى الاعتداءات البدوية في

(١٤٤) دوماني، مرجع سابق، ص ١٧٤-١٧٥.

(١٤٥) المرجع نفسه، ص ١٦٦.

(١٤٦) المرجع نفسه، ص ١٩٥.

(١٤٧) كوثراني، وجيه، **السلطة والمجتمع والعمل السياسي: من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨، ص ١١٧.

ظل غياب سلطة الدولة، فقد كانوا يدفعون ضريبة "الخاوة" لبعض القبائل البدوية مقابل حمايتهم وعدم الاعتداء على قراهم وأراضيهم، وقد تكون هذه الضريبة إما مبلغاً من المال وإما كمية من الإنتاج تدفع للقبيلة(١٤٨).

كما كان للتجنيد الإجباري أيضاً تأثير سيئ على الزراعة، فكان شديد التأثير على السكان بشكل عام في فلسطين وخصوصاً الفلاحين، فقابلوا الخدمة العسكرية بفتور وعدم ارتياح، لاسيما أن المدة الزمنية للخدمة العسكرية كانت طويلة بلغت عام ١٩٠٩م ٢٥ سنة، ولما كانت العناصر التي فرضت عليها الخدمة هي العناصر الشابة، فقد أدى ذلك إلى افتقاد الأرض لهذه العناصر القادرة على العمل بالزراعة والإنتاج(١٤٩).

وبالإضافة إلى ذلك فقد ساهم البنك الزراعي العثماني في إفقار الفلاحين وغرقهم بالديون وبالتالي إفقادهم لأرضهم، ففي عام ١٨٨٨ أنشأت الدولة العثمانية البنك الزراعي العثماني بهدف تقديم القروض للفلاحين، وقد أنشأ له أكثر من ٤٠٠ فرع في مختلف أنحاء الدولة، وكان هدفه تقديم قروض قصيرة الأجل ومتوسطة تصل إلى عشر سنوات بفائدة منخفضة هي ٦٪ يضاف إليها ١٪ بمثابة رسم خدمة(١٥٠)، وعندما يعجز الفلاح عن تسديد القروض كان البنك يلجأ إلى الحجز على أرضه ويطرحها بالمزاد العلني وترسو على من يدفع السعر الأعلى، وغالباً ما كانت تؤول في النهاية إلى التجار وكبار الملاك(١٥١).

ومما زاد في فقدان الفلاحين وخسارتهم لأراضيهم هي تلك القروض التي كانوا يحصلون عليها من التجار والمرابين والصيارفة مقابل رهن الأرض لهم، وكان هؤلاء يجدون طرقا للتخلص من بعض القيود القانونية على الاقتراض كقانون الرهونات العثماني الذي كان ينص على أن لا تزيد قيمة الفائدة على الرهن عن قيمة المبلغ المقترض أصلاً، إلا أن الفوائد المفروضة كانت مرتفعة(١٥٢). ولما كان المزارع يعجز عن تسديد القروض يضطر إلى التنازل عن أرضه للدائن.

ووصف أحد الرحالة الذين زاروا فلسطين في أواخر العهد العثماني حالة الفلاح الفلسطيني بقوله : "فمن كميات القمح والشعير التي بقيت بعد الدرس كانوا (أي الفلاحين) يدفعون أولاً الضرائب إلى الحكومة والوقف، وجزء من الناتج الذي كان قد رهن مسبقاً لأحد تجار المدينة يذهب إلى هذا التاجر سداداً

(١٤٨) محافظة، علي، **تاريخ الأردن المعاصر ١٩٢١-١٩٤٦**، عمان: مركز الكتب الأردني، ١٩٨٩، ص٧.

(١٤٩) النجار، مرجع سابق، ص ٣٠٣. عوض، **مقدمة**، ص ١١٠.

(١٥٠) Granott,Op.cit, P61 ؛ أوين، مرجع سابق، ص ٥٨٤.

(١٥١) Granott, Op.cit, P.61.

(١٥٢) أوين، مرجع سابق، ص ٥٨٤.

للأموال التي استدانها منه، وإذا كان الفلاح قد شغل عنده عاملاً أي حراثاً فإنه يأخذ حصة من البيدر، وبعد ذلك يأتي شيخ القرية الذي يعمل حلاقاً فيأخذ نصيبه ... ثم يأتي الدراويش والفقراء في القرية إلى البيدر ونادراً ما يرجعون خاليي الأيدي، فكان نصيب العديد من الفلاحين بعد أن يوفوا بكافة التزاماتهم أن لا يبقى لهم سوى الحد الأدنى الذي يتطلبه إطعام عائلاتهم وحيواناتهم حتى الموسم التالي.."(١٥٣).

وهكذا فنتيجة للأوضاع السابقة، ترسخت طبقة كبار ملاك الأراضي التي حازت مساحات واسعة من الأراضي في مختلف أنحاء فلسطين، وقد تراوحت مساحة ممتلكات بعضهم ما بين ٤٠٠٠-١٠٠،٠٠٠ دونم كآل جرار وآل رشيد وآل الجيوسي وآل الحسيني وآل النشاشيبي وآل العزة وآل عمرو وآل الغصين وآل السعيد وآل البيطار وآل العلمي وآل الصوراني وآل الخيال وآل الريس وآل رمضان وآل المسعود وآل البسطامي. في حين زادت ممتلكات البعض الآخر على ١٠٠،٠٠٠ دونم كآل عبد الهادي إذ قدرت مساحة أراضي هذه العائلة بـ ٢٠٠,٠٠٠ دونم في مناطق نابلس وجنين وجنوب عكا، وآل أبو خضرة حيث بلغت مساحة أراضيهم نحو ٢٣٠،٠٠٠ دونم في قضائي غزة ويافا، وآل الشوا التي بلغت مساحة ممتلكاتهم نحو ١٠٠,٠٠٠ دونم في غزة والسهل الساحلي(١٥٤).

وبقي الفلاحون الذين كانوا أصحاب الأرض السابقين، يعملون في تلك الأراضي كمزارعين مستأجرين مقابل نسبة معلومة يتم الاتفاق عليها مع المالك الجديد وكانت هذه النسبة تعتمد على طبيعة تقديم الخدمات الزراعية، وكان يتم استثمار الأراضي الزراعية بعدة طرق منها :

١- **الاستثمار المباشر** : وفي هذه الحالة يقوم صاحب الأرض باستثمار أرضه بنفسه بالاستعانة ببعض العمال خلال مواسم الحراثة والحصاد والدرس، وقد ساد هذا النوع في الملكيات الصغيرة، وكان أكثر فائدة وإنتاجا(١٥٥).

٢- **الاستثمار غير المباشر** : وبموجبه يقوم كبار الملاك بتأجير جزء من أراضيهم للفلاحين مقابل جزء معين من الناتج والأرض معاً أو أجرة نقدية.

---

(١٥٣) Granott , Op.cit, P.62.

(١٥٤) لمزيد من التفاصيل حول طبقة كبار ملاك الأراضي في فلسطين انظر: أبو بكر، مرجع سابق، ص٥٢٦-٥٣٦. الحزماوي، مرجع سابق، ص٥٨-٦٩. Granott, Op.cit, PP30-90 ؛ =

= غنايم، مرجع سابق، ص ٣٣٥-٣٥٤.

(١٥٥) عوض، عبد العزيز، **نظام ملكية الأرض في بلاد الشام وآثاره الاقتصادية والاجتماعية ١٨٣٩-١٩١٤**. مجلة دراسات تاريخية، السنة ١١، العددان ٣٥، ٣٦، ١٩٩٠، ص ٥٦.

وكان هذا الأسلوب من التعامل يتم بعدة أشكال أهمها المزارعة(١٥٦)، وقد اتخذت أشكالاً متعددة أهمها :

- المرابعة : وفي هذه الحالة يحصل الفلاح (المرابع) على ربع الناتج من المحصول مقابل جهده.
- المثالثة : ويحصل الفلاح على ثلث المحصول حيث يقدم العمل والأدوات الزراعية أما المالك فيقدم الأرض والبذار.
- المناصفة : وهنا يقدم صاحب الأرض الأرض ويشترك الاثنان في جميع النفقات، ويقسم المحصول بينهما مناصفة.
- المخامسة : وفي هذه الحالة يحصل صاحب الأرض على خمس الغلة مقابل تقديمه لأرضه فقط(١٥٧).
- الضمان : وهو اتفاق بين صاحب البستان والمستأجر يدفع بموجبه المستأجر مبلغاً من المال مقابل ثمر البستان، وينتهي الاتفاق بانتهاء موعد قطف الثمار(١٥٨).
- التأجير : وبموجبه يؤجر صاحب الأرض أرضه للفلاح لمدة معلومة مقابل مبلغ معين من المال أو من الغلة(١٥٩).

كما عرفت طرق أخرى في استثمار الأراضي منها المساقاة وهي عبارة عن اتفاق على استثمار الشجر يكون فيها الشجر من جانب والعمل من جانب آخر يعرف بالمساقي يتعهد بالقيام بكافة المستلزمات التي يحتاج إليها الشجر مقابل حصة معينة من الشجر(١٦٠). كما شاعت طريقة أخرى عرفت بالمغارسة وبموجبها يقوم الفلاح بغرس

---

(١٥٦) اللبناني، سليم رستم باز، **شرح المجلة**، جزآن، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت، ج٢، ص٧٥٩. وقد عرفها القانون المدني العراقي بأنها "عقد على الزرع بين صاحب الأرض والمزارع فيقسم الحاصل بينهما بالحصص التي يتفقان عليها وقت العقد" انظر: مناع مرار خليفة، المزارعة والمساقاة في الشريعة الإسلامية، بغداد: دار الرسالة، ١٩٧٥، ص٨٤ أما عن أهمية المزارعة فقد ذكر ذلك ابن قدامة بقوله "إن الحاجة داعية إلى المزارعة لأن أصحاب الأرض قد لا يقدرون على زراعتها والعمل عليها والأكرة يحتاجون إلى الزرع ولا أرض لهم فاقتضت حكمة الشرع جواز المزارعة". انظر محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، **المغني**، ١٢ج، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٣، ج٥، ص٥٨٧. وللمزارعة ركنان هما الإيجاب والقبول وقد وضح ذلك الكاساني بقوله "وأما ركن المزارعة فهو الإيجاب والقبول وهو أن يقول صاحب الأرض للعامل دفعت إليك هذه الأرض مزارعة بكذا، ويقول = العامل قبلت أو رضيت أو ما يدل على قبوله ورضاه، فإذا وجد أتم العقد بينهما". انظر: علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي، **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، ٧ أجزاء، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٦، ج ٦، ص ١٧٦.

(١٥٧) عاشور، عصام، **نظام المرابعة**، ترجمة أنيس فريحه، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، السنة الأولى، الجزء الثالث، ١٩٤٨، ص ٤٠.
الطراونة، مرجع سابق، ص ١٤٢. عوض، **نظام ملكية الأرض**، ص ٥٦.

(١٥٨) الطراونة، مرجع سابق، ص ١٤٤.

(١٥٩) المرجع نفسه، ص ١٤٣.

(١٦٠) لمزيد من التفاصيل انظر: أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، **لسان العرب**، ١٤ج، بيروت: دار صادر، ١٩٥٦، ج٤، ص ٣٩٤. مالك بن أنس، **الموطأ**، ٢ج، تحقيق فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥١، ج٢، ص٧٠٥. اللبناني، **شرح المجلة**، ص٧٦٥.

الأشجار المثمرة في قطعة أرض يقدمها صاحبها، ويتكفل الفلاح بالعناية بالأرض وبالأشجار مقابل حصوله على جزء من الشجر أو جزء من الشجر والأرض معاً[١٦١].

الخاتمة :

وفي خاتمة البحث يتضح لنا أن الحياة الاجتماعية في الريف الفلسطيني كانت تعتمد بالدرجة الرئيسة على الزراعة التي تعتبر الحرفة الأساسية ومصدر الرزق للفلاحين، واتضح أيضاً أن العمل الزراعي في العائلة الريفية كان عملاً جماعياً يشترك فيه الجميع سواء بالحراثة أو الحصاد أو الدرس والتخزين، كما تبين أيضاً أن الأوضاع الاقتصادية للفلاحين الفلسطينيين بشكل عام كانت متردية وبائسة، فقد عانى الفلاح من اضطهاد ملتزمي الضرائب ومن الكوارث الطبيعية التي كانت تشكل عقبة رئيسية في وجه الزراعة، بالإضافة إلى الدور السلبي الذي لعبه المرابون والتجار وكبار الملاك في أثقال كاهل الفلاح بالديون والفوائد المستحقة عليها، مقابل ذلك فالدولة العثمانية أيضاً تتحمل جزءاً كبيراً من سوء الأوضاع الاقتصادية للفلاحين وعدم تطوير الزراعة إذ لم تضع حداً لتعسف الملتزمين أو تخفيف قيمة ضريبة العشر لاسيما في المواسم الزراعية الرديئة، كما أنها أيضاً لم تحاول وضع حد لقيمة الفوائد المستحقة على القروض أو الديون التي كان يحصل عليها الفلاح من المرابين والتجار ولذلك فقد ساهمت الدولة بإفقار الفلاح الفلسطيني وإفقاده لأرضه.

(١٦١) عاشور، مرجع سابق، ص ٤٢-٤٣.

العصور، المجلد الثاني عشر، الجزء الثاني، ١٣٥ – ١٥٩ (٢٠٠٢م)

اللغة كمتغير مصاحب لبعض المناشط الاجتماعية
دراسة سسيوأنثروبولوجية لدور اللغة في عمليات التشييد والبناء في قبيلة بنى عمرو

د. سليمان بن عبدالله العقيل

ملخص البحث :

هذه الدراسة ليست دراسة مورفولوجية لمجتمع قبيلة بني عمرو، ولكنها دراسة تحليلية لمجموعة من المفردات والمقاطع والجمل والرموز والأهازيج التي يستخدمها مجتمع البنائين في القبيلة، والتي تعينهم على استمرارية العمل وإنجازه، ومحاولة استكشاف التأثير الذي يقع على العاملين في هذا المجال، جراء سماعهم لتلك الكلمات أو النغمات الصادرة من المسؤول عن عملية البناء (المعلم) باشكالها المختلفة، سواء كانت حثاً أو استعمالاً أو ندباً أو تقريعاً لبعضهم حتى تتكامل الصورة لديهم ويكون الجميع على مستوى واحد من الإحساس بالمسؤولية وبالعمل وسرعة إنجازه.

هذه المجموعة اللغوية قد تكون مثلاً، أو حكمة، أو بيتاً من الشعر أو غيرها، معروفة في المجتمع المحلي وتستعار لتعني شيئاً آخر في ثقافة هذه المجموعة (البناؤون) أو يكون كلاماً عاماً يعني شيئاً معيناً في المجتمع، ويخرج به عن مدلوله ليحمل مدلولاً آخر مختلفاً عند هذه الجماعة. لذا فقد اخترت مجموعة من الأهازيج وبعض المقاطع اللغوية والرموز، التي يستعملها البناؤون ويرددونها أثناء القيام بعملهم لتكون وحدة التحليل، في محاولة من الباحث للكشف عن مضمونها الاجتماعي، واستجابة العاملين وتفاعلهم مع هذه العبارات والأهازيج. يضاف إلى ذلك دورها الضبطي، وتنظيم التفاهم بين الأفراد داخل الجماعة.

مشكلة الدراسة وأهدافها :

يمر المجتمع السعودي بمرحلة من التحول الكبير في معظم مظاهر الحياة الاجتماعية مما يترتب على ذلك تجاوز الكثير من صور وممارسات مجتمع الجيل السابق. ولأن هذه الظاهرة ذات علاقة وطيدة بتراث وثقافة المجتمع والتي يمكن أن تكون في طور الاندثار لإحلالها بمظاهر الحياة الجديدة، فإن من المفيد محاولة البحث في تراث المجتمع لتأكيد العلاقة بين فعل المجتمع وقيمه.

ومن المعلوم أن كل جماعة معينة، ذات ثقافة خاصة تملك لغة خاصة بها، لا يعلمها

سوى أفراد تلك الجماعة، لما تحمله من معانٍ محددة ولا تفهم إلا في إطارها الاجتماعي، لذا فمن الصعوبة ملاحظتها بشكل مباشر. ذلك ما قرره (Reed) من خلال الدراسة التي أجراها على بعض المغامرين (Sky Divers) وهم يقفزون من الطائرات، وقد لاحظ أن لدى هؤلاء المغامرين لغة خاصة بهم ذات رموز وإشارات. وخلصت الدراسة إلى أهمية المشاركة في تلك الأنشطة لمعرفة أبعاد تأثير تلك اللغة على هذه الفئة من الناس، إذ إنها تحمل معاني اجتماعية ونفسية قوية لدفعهم، وتفعيل نشاطهم[1].

في هذا الإطار تركز هذه الدراسة على البعد الاجتماعي للغة التي يستعملها البناؤون في (بلاد بني عمرو). فعندما يتفق الجميع على بناء منزل لأحد أفراد القبيلة، ويبدأ العمل فإن العاملين في هذه المهنة لهم لغة خاصة ذات تأثير اجتماعي ونفسي على الأفراد العاملين مما يشحذ هممهم ويدفع بهم ليكونوا في حالةٍ نفسية تؤهلهم للقيام بالعمل المكلفين به على أكمل وجه، حيث تشتمل هذه اللغة على مجموعة من الأهازيج والرموز ونبرات أصوات معينه قد ترتفع أو تنخفض بناء على ما يراه "المعلم" وهو رئيس المجموعة، وفي الحالة التي يحتاجها الأفراد، كأن يضاعف الجهد أو ينبه الكسول، أو التنبيه للوقت وخلاف ذلك مما تحتاجه تلك اللحظة. وتحاول الدراسة الإجابة عن السؤال التالي:

هل للغة دور في إنجاز بعض المناشط في الحياة الاجتماعية ؟

كما أن الدراسة تهدف إلي : (١) معرفة دور اللغة المهنية - للبنائين - في تنشيط وتحفيز العاملين. (٢) معرفة مدى التفاعل بين العاملين (البناؤون) من خلال لغتهم الخاصة بهم. (٣) إبراز دور اللغة في عملية الضبط داخل الجماعة المهنية (البناؤون). (٤) رصد وحفظ التراث الثقافي للمجتمع في هذا الجانب من جوانب حياة المجتمع.

منهج الدراسة:

نظراً لأن موضوع الدراسة يتعامل مع فئة محدودة من فئات المجتمع والتي تقوم بمهمة محددة للمجتمع، وقد طرأ على هذه المهنة الكثير من التحديث واندثرت بعض أجزائها ولم يعد المجتمع في حاجة ماسة إلى هذا النوع من العمل إلا في أضيق الحدود، فقد أصبحت مهمة هذه الفئة محصورة جداً، وبقي أصحاب هذه المهنة من كبار السن. لذا فإن أنسب مناهج العلوم الاجتماعية للدراسة هو المنهج التاريخي، وهذا المنهج يعتمد على الظواهر التاريخية ليستفيد منها في الحاضر وذلك عن طريق جمع المعلومات من الشخصيات حول موضوع معين ثم تصنيف تلك الموضوعات وتحليلها، ويقصد باستخدام هذا المنهج تحليل الحقائق المتعلقة بالمشكلات الإنسانية والقوى

---

(١) Reed Richard: **Thrills and Skills: ethnography of sky diving** (New York,1973)

الاجتماعية[٢]. وقد اعتمد الباحث أيضاً المنهج الأنثروبولوجي، وذلك ليتمكن من الحصول على المعلومات الأثنوجرافية الكافية عن مجتمع الدراسة، وقد استخدم في ذلك وسيلة المقابلة المتعمقة والملاحظة وتاريخ الحياة[٣].

أدوات جمع البيانات وتحليلها:

استخدم الباحث في هذه الدراسة مجموعة من الأدوات لجمع المادة العلمية من الميدان، وهذه الأدوات جاءت حسب مقتضى الحاجة لها نظراً لأن مجتمع الدراسة يعتبر شبه منقرض ولم يعد سوى مجموعة بسيطة من كبار السن الذين يمارسون هذا العمل في أوقات متباعدة ـ يساعدهم في ذلك بعض العمالة الوافدة في بعض الأعمال التي لا تحتاج إلي مهارة. لذلك فقد استخدم الباحث وسائل منها المقابلة ذات الأسئلة المفتوحة النهايات وغير المنمّطة، لأنها تعطي حرية واسعة للباحث من ناحية صياغة الأسئلة البحثية بما يتناسب مع الموقف ومراعاة الحالة النفسية والوضعية الاجتماعية التي يكون فيها المبحوثون[٤].

ومن الوسائل الأخرى التي استخدمها الباحث، الملاحظة دون المشاركة في محاولة لتوفير أكبر قدر من المعلومات بشكل أكثر دقة لتكون وصفاً دقيقاً من ملاحظٍ خارجي لعملية التفاعل بين أفراد الجماعة الواحدة[٥].بالإضافة إلى القرب من المبحوثين ومعايشتهم بل والتفاعل معهم ومحاولة فهم بعض الأفعال الصادرة من البنائين من خلال الدلالات المرتبطة بها سواء كانت إشارات أو رموزاً أو مقاطع أو أهازيج وتحليلها وربطها بثقافة المجتمع. ومن الوسائل أيضاً، تاريخ الحياة، إذ إن هذا النوع من الوسائل يعطي بعداً مهماً لجمع المعلومات من هذه الفئة، حيث يطلب من بعض أفراد المجتمع (الإخباريون) أن يقصّ كل منهم تاريخ حياته بشكل عام وما تعرّض إلي موضوع البحث بشكل متعمّق وذلك بمساعدة الباحث، وفي نهاية المقابلات يتكون لدى الباحث قاعدة معرفية واسعة عن موضوع الدراسة[٦].

ولقد عمد الباحث إلى استخدام وسيلة تحليل المضمون، ويُهدفُ من استخدام هذا الأسلوب في التحليل وصف لمجتمع البحث وتحليل بعض الروابط الاجتماعية التي لها دور في عملية الدفع والتحفيز أو التنبيه إلى التقصير

(٢) حسن، عبد الباسط، **أصول البحث الاجتماعي** (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٧٧م)، ص ٢٠٦.

(٣) الجوهري، محمد والخريجي، عبدالله، **طرق البحث الاجتماعي**، القاهرة: دار الثقافة للنشر، ١٩٨٣م، ص ٣٥١.

(٤) الاعرجي، عاصم محمد، **الوجيز في مناهج البحث العلمي: منظور إداري**، عمّان: دار الفكر للطباعة، ١٩٩٥م)، ص ٧٣.

(٥) Philips, Susan Urmston, **The Invisble Culture**: Rrsearch on Teaching Monograph Series, New York, 1983, P. 14.

(٦) إسماعيل، محمد زكي، **الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي**، جدة: شركة عكاظ للنشر، ١٩٨٢م، ص ١١٤.

والحث على مضاعفة الجهد ومحاولة الربط بين محتوى الاتصال - اللغة - وأهدافه وتحديد المعايير التي تسير عليها تلك الجماعة من الناس. ويعتبر تحليل مضمون المادة الثقافية في هذا المجتمع المدروس تعبّر بصدق عن الواقع الاجتماعي لهذا المجتمع ومحتوى المادة الثقافية[٧].

قرر بعض دارسي علم الاجتماع أن وحدة التحليل في هذه الوسيلة قد تكون الكلمة وقد تكون المفردة أو الموضوع[٨]، وقد تكون مجموعة من الكلمات أو المقاطع الكلامية أو الأهازيج لتكون وحدة التحليل[٩]. لذلك فإن هذه الدراسة عبارة عن تحليل مضمون مجموعة من الأهازيج أو المقاطع أو الرموز التي يستعملها البناؤون أثناء أداء عملهم في تشييد منازل أهل القرية. هذه المقاطع بالإضافة إلى كونها نوعاً من التسلية وإعطاء الحافز والدافع للعمل فهي مقاطع تخصهم، إذ لها فهم خاص لديهم وهي ذات معنى معين لهم، لذا فهي لغة خاصة بالبنائين على الرغم من أن هذه الكلمات لا تخرج عن نطاق ثقافة المجتمع إلا أن لها معنى يخصهم.

وتنقسم الدراسة إلى تحليل المقاطع التي تكون عند (١) البدء في العمل (٢) الحث على العمل والإسراع فيه (٣) تنبيه الغافل من العمال العاملين (٤) تنبيه شخص معين، أو صاحب مهمة محددة لحثه أو طلب شيء معين منه (٥) الشد على يد العاملين في الإسراع وإنجاز العمل (٦) بعض الرموز المستعملة في عملية البناء كالتصفيق أو الطرق على الجدار لإنجاز مهمة معينة. وتشتمل شرح معاني بعض المفردات في الهامش وكذلك تحليل محتوى تلك المقاطع والرموز اجتماعياً.

الصعوبات التي واجهت الباحث:

يعتبر هذا النوع من الدراسات غريب الشكل والمضمون لدى الكثير من أبناء المجتمع، وقد قابل البعض منهم الباحث بنوع من الاستهجان أو عدم المبالاة، إذ يعتبر البعض أن هذه المهنة شبه منقرضة والسؤال عنها أو البحث فيها خصوصا لأفراد ليسوا من أبناء المنطقة نوعاً من الاحتقار أو ندب الحظ.

وعلى هذا كان من المتعذر إجراء دراسة ميدانية حول لغة البنائين - مهنة البناء بالحجر في قبيلة بني عمرو - لولا أن الباحث وبمساعدة بعض أبناء المنطقة استطاع التعرّف على الكثير من الأفراد في المجتمع، وعقد صداقات، بالإضافة إلى الاستعانة بالذين يعرفهم الباحث والتعرف على مجموعة من الإخباريين، وقد اشترط الباحث أن يكونوا

(٧) Barker, Theresel, **Doing Social Research** New York, McGraw-Hill, 1988, pp. 255 – 256.

(٨) حسن، عبد الباسط، **أصول البحث الاجتماعي** (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٧٧م)، ص ٤٠٨.

(٩) السالم، فيصل وتوفيق فرح، **مقدمة في طرق البحث في العلوم الاجتماعية**، الكويت: مجموعة أبحاث الشرق الأوسط، ١٩٧٩م، ص ٧٤.

أصلاً من البنائين أو ممن عمل معهم. يضاف إلى ذلك البعد المكاني بين مجتمع البحث ومقر إقامة الباحث. ومن الصعوبات التي واجهت الباحث اختلاف اللهجة وصعوبة مواصلة الحديث مع المبحوثين لكبر سنهم وضعف التفاعل مع الباحث. يضاف إلى ذلك أن المقابلة لم تكن أمراً محبباً لدى بعض مجموعة من المبحوثين. ومن الصعوبات التي واجهت الباحث أيضاً عدم وجود دراسات أنثروبولوجية سابقة أجريت عن هذا اللون من التراث الثقافي للمنطقة ـ على حد علم الباحث ـ إذ إن هناك العديد من الدراسات حول المنطقة، ولكنها لم تتناول محور الدراسة الحالية.

المدخل النظري:

تعتبر اللغة جزءاً من ثقافة المجتمع، بما تحمله من دلالات متعددة ووظائف متنوعة يكون لها تأثير في حركة وتفاعل الأفراد، فقد تكون دافعاً نحو العمل والجد، وقد تكون محدّرة ومؤنبة في مكان آخر. والتلازم بين اللغة والثقافة يؤدي إلى تكامل الأجزاء في كل واحدة، والاعتماد المتبادل بين العناصر المختلفة فيهما[١٠]. ولأن ثقافة المجتمع الرسمية تشمل مجموعة من الثقافات الفرعية منها ما قد يكون ثقافة مهنية ذات خصائص معينة تميّزها عن بقية الثقافات المهنية المختلفة، فإن الاتصال المباشر بين تلك الثقافات المهنية المتقاربة مجاليا دون أي تأثيرات خارجية، تكون وظائف هذه العناصر مكونة من الواحدة للأخرى ومعتمدة بعضها على بعض في أداء وظائفها بحيث تكوّن تكاملاً وظيفياً يعكس الوظيفة العامة للثقافة. فالتكامل الوظيفي يحصل بين عناصر الثقافة المتصلة بصورة مباشرة[١١]. ورغم هذا التكامل بين اللغة والثقافة في المجتمع إلا أن هناك لغات خاصة لكل فئة اجتماعية أو مهنية، وهناك اختلاف بين طبقات المجتمع أو الجماعة داخل المجتمع الواحد من حيث استعمالات اللغة وما تحمله في طياتها من معان. ويمكن أو ينظر إلى هذه الاختلافات من خلال الحواجز والمسافات الاجتماعية بين فئات وجماعات وأفراد المجتمع الواحد[١٢]. وأينما تكن هذه المفارقات بين استعمالات اللغة بين فئات المجتمع المختلفة، فإن الأدوار والوظائف التي تؤديها هذه الجماعات أو الفئات ونشاطاتها المختلفة وبناءاتها البسيطة تعمل في النهاية على صيانة المجتمع الكلية وتوازن العناصر المؤلفة منها[١٣]، إذ إن المجتمع يعتبر جسماً متكاملاً يؤدي كل عضو فيه وظيفة خاصة ليستمر بقاء هذه الجماعة أو

(١٠) أحمد، سمير نعيم، **النظرية في علم الاجتماع: دراسة نقدية**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩م، ص ١٩٧.

(١١) عمر، معن خليل، **نقد الفكر الاجتماعي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية**، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٢م، ص: ١٤٣

(١٢) Trudgill, Peter, Sociolinguistics, **An Introduction to Language and Society**, New York, 1983, Penguin Books Ltd.

(١٣) الخوري، فؤاد اسحق، **مذهب الأنثروبولوجيا وعبقرية ابن خلدون**، بيروت: دار الساقي،١٩٩٢م، ص ٦٩.

الأفراد، والحفاظ على الهوية والأمن النفسي والاجتماعي.

إن البناء الاجتماعي - كما حدده راد كليف براون امتداداً لأعمال دوركايم - يعني شبكة العلاقات الاجتماعية بين وحدات مكونة، هي الجماعات الاجتماعية والطبقات المختلفة والأدوار الاجتماعية(١٤). ويشاطر براون آخرون في عملية تفسير الواقع الاجتماعي والثقافي للمجتمع، فنجد أن نظرية الأنماط الثقافية تؤكد مفهوم نمط الثقافة ليكون محوراً ومنطلقاً لتحليلاتها(١٥)، وكلتا النظريتين تسعى لتفسير الواقع الاجتماعي والثقافي للمجتمع، ولكن كل يعطي أولوية لمجموعة من العوامل. ويعبر عن هذا الالتقاء (فيرث firth) بقوله "إذا أخذنا المجتمع بوصفه تنظيماً لمجموعات من الأفراد لهم أسلوب حياتهم الخاصة، فإن الثقافة هي هذا الأسلوب في الحياة. وإذا أخذنا المجتمع بوصفه تجمّعاً للعلاقات الاجتماعية تصبح الثقافة هي محتوى هذه العلاقات. والمجتمع هو تأكيد للعنصر البشري، وتجمّع الأفراد والعلاقات المتبادلة بينهم. والثقافة تؤكد عنصر تراكم الموارد المالية واللامادية، والتي يرثها الناس ويستخدمونها في حياتهم، ويتناقلونها، ويضيفون إليها"(١٦).

إن ثقافة المجتمع أو الجماعة هي التي تحدد معايير استعمال اللغة، فالفرد يتعلم اللغة وأسرارها واستعمالاتها ورموزها وإشاراتها، ويتعلم أيضاً التخاطب والكلام عن طريق المشاركة في التخاطب(١٧)، ويتعلم الفرد أيضاً ما يطلق عليه لغة السلوك الاجتماعي الذي يتعارف عليه المجتمع ليحقق مصلحة اجتماعية يحثّ عليه العرف السائد، كأن تكون حركات أو تصرفات معينة ذات دلالة. فمثلاً رجل قام من مقعده ليجلس عليه رجل مسنّ أو ابتعد عنه لتشغله امرأة أو ضيف قادم، هذا التصرّف دلالة احترام وشعور بالمسؤولية ونوع من الأخلاق تجاه بعض الفئات الاجتماعية الأخرى(١٨). وكما يؤدي الكلام وظيفة عديدة في مختلف المواقف والمناسبات، ومن الأمثلة على ذلك ما نسمعه من عمال نقل الأثاث أثناء عملهم "خذ عليك... ودلوقتي ارفع... شويه لفوق... الخ"حيث يقوم الكلام بالتحكم في الأنشطة الجسدية والجهد البشري المبذول(١٩). هذه لغة تستعمل في المجتمع ويؤديها سلوكنا، وقد تكون على العكس من ذلك في المجتمعات الأخرى، لذلك فان التصرّف الاجتماعي يكون مبنياً على بعض القواعد في ثقافة هذا المجتمع أو ذاك. ويدخل في ذلك ما يطلق عليه "الإتكيت" وهو

---

(١٤) محمد، علي محمد، الوعي الثقافي والتنمية من الداخل: دراسة في مفهومات وقضايا الثقافة مع التطبيق على مكانة المرأة في مصر الإسكندرية: مكتبة جامعة الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص ١٤٩.

(١٥) محمد، مرجع سابق، ص ١٥٢.

(١٦) نفسه، ص ١٥٣.

(١٧) نهر، هادي، **علم اللغة الاجتماعي عند العرب**، (بغداد: الجامعة المستنصرية، ١٩٨٨م)، ص ١١٨.

(١٨) نهر، مرجع سابق، ص ١٨٨.

(١٩) نفسه، ص ٢٠٨.

أحد نظم التواصل والتعبير في المجتمعات أو ما يطلق عليه اللغة السلوكية عند علماء الدلالة[٢٠] التي تتكون من مجموعة من الكلمات أو الإشارات أو التصرّف الذي يعمل في مواقف معينة. ويؤكد ذلك قول مالينوفسكي B.Malinowski من أن اللغة في استخداماتها تقوم بدور حلقة في سلسلة الأنشطة الإنسانية باعتبارها جزءاً من السلوك الإنساني، وهي وسيلة من وسائل الفعل[٢١].

ومن هنا يمكن القول أن اللغة تحدث في سياق اجتماعي، هذا السياق يشمل عدداً كبيراً من العوامل من بينها الجماعة أو الجماعات الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد والعلاقات الاجتماعية بين المتحدّث والمتلقي وكذلك نوعية التعامل الاجتماعي، تجاري، ودي، حلّ معضلة، شجار...إلخ، وكذلك المعارف المشتركة بين المشتركين في الحديث. وبذلك يكون الشفهي وغير الشفهي والمحسوس والمرئي والمسموع والاتصال الجسدي ووضع المظهر الخارجي وتعبيرات الوجه وحركة الرأس واليدين واتجاه النظر وتوقيت الكلام أو النبرة العاطفية وغير العاطفية أو الأخطاء ونوعية العبارات المنطوقة والبنى اللغوية، كل هذه التصنيفات تقوم بدور متميز في التعامل الاجتماعي[٢٢].

ملامح مجتمع قبيلة بني عمرو:

تعددت التعريفات لمعنى ووظيفة القبيلة، وأجد أن أنسب التعريفات التي تناولت القبيلة والتي يمكن أن تكون تمهيداً لدراسة قبيلة بني عمرو هو تعريف (بيج) فقد عرّف القبيلة على أنها عدد من الناس ينتمون إلى أصل مشترك كما يشتركون في ملكية منطقته من الأرض، وتقوم بينهم صِلات القرابة ويتكلمون لغة أو لهجة واحدة[٢٣]. ولأن الدراسة تتعلق بقبيلة بني عمرو فإن من المناسب الحديث عن بعض ملامح ومكونات البناء الاجتماعي مجتمع القبيلة، مثل الظروف البيئية التي تركت بصماتها على المجتمع ونوعية الأرض والمنتجات الزراعية والمناخ وعلاقة ذلك بالفرد، وردود الأفعال المجتمعية تجاه تلك الظروف وانعكاساتها لتشكل أنماط السلوك والوحدات الاجتماعية القائمة، على الرغم من أن الدراسة لا تتعامل مع البناء الاجتماعي للقبيلة ولكن نوع من التمهيد والتعريف.

قبيلة بني عمرو إحدى قبائل رجال الحجر التي تنتسب إلى الحجر بن الهنود الأزد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان. هذه القبائل هي قبيلة بلحمر وبلسمر وبني شهر

(٢٠) نهر، مرجع سابق، ص ٢٠٧.

(٢١) هدسن، **علم اللغة الاجتماعي** : ترجمة محمود عبد الغني عيّاد، بغداد: وزارة الإعلام، ١٩٨٧م، ص ١٨٦.

(٢٢) هدسن، مرجع سابق، ص: ١٨٦.

(٢٣) الفوّال، صلاح، **البناء الاجتماعي للمجتمعات البدوية**، بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٨٣م، ص ٨٩.

وقبيلة بني عمرو[٢٤]. وقيل أن هذه القبيلة يعود أصلها إلى بني عبد من بني عامر[٢٥]. ويقع بلاد بني عمرو في الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية، وتأخذ الجزء الشمالي من سراة الحجر وتغطي مساحة واسعة من الإقليم، حيث تبلغ ٢١٠٠ كلم مربع، وتمتد مع قبيلة بني شهر بين ٥٠ ـ ١٠٠كلم من الجنوب إلى الشمال و٨٠ ـ ١٢٠ كلم مربعا تقريبا من الغرب إلى الشرق[٢٦]. على منطقة جبلية مرتفعه، وعرة المسالك، معتدلة المناخ، ذات مناظر خلابة، وترتفع عن سطح البحر (٩٠٠٠) قدم تقريباً[٢٧]. ويبلغ تعداد القبيلة حوالي ثلاثين ألف نسمة، ويعمل معظمهم بالزراعة والتجارة وتربية الماشية إلا أن مهنة الزراعة تكاد تكون الغالبة على المجتمع. وتعتبر القبيلة كإحدى القبائل العربية من حيث قوة سلطان الأعراف والعادات والتقاليد، ويتميز أفراد القبيلة بقوة تماسكهم وبقوة الروابط الاجتماعية فيما بينهم.

وتعتبر الثقافة المحلية لمجتمع (بني عمرو) ثقافة فرعية من ثقافة المجتمع السعودي، ولأن لبلاد (بني عمرو) حدوداً جغرافية متعارفاً عليها عند أفراد المجتمع المحلي وكذلك المجتمعات المجاورة لهم، فإن هذا المجتمع يتميز بعادات وتقاليد بل وبثقافة خاصة بهم تميزهم عن غيرهم. فالبيئة الجغرافية والاجتماعية تفرض نوعاً من التكامل في الإنتاج، وتوزيع المهمات. لذا فإن كل فرد يقوم بمهنة معينه تتناسب مع ميوله ورغباته وطاقاته، وكذا مع احتياجات أفراد المجتمع. وبذلك تعطي الثقافة المحلية لمجتمع (بني عمرو) أفرادها مساحة من الحركة داخل المجتمع في شتى أنواع النشاط الإنساني، وفي نفس الوقت تفرض عليهم قيوداً وضوابط محدودة متعارفاً عليها تفرضها العادات والتقاليد والأعراف التي اتفق عليها أبناء المجتمع. وتحتوي الثقافة أيضاً على مجموعة من المعاني الجميلة كالصدق والمحبة والأخوة والإخلاص في العمل وبذل الجهود في كل عمل يخدم مصالح الفرد والجماعة. ويرجع تمسك أفراد المجتمع بما تمليه عليهم ثقافتهم، إلى ذلك الدور الذي تلعبه الأسرة في المراحل الأولى من عمر الفرد حيث يكون تعليم الانضباط والتقيد بما هو قائم في المجتمع من المهمات الرئيسية للأسرة، ذلك أن التنشئة الاجتماعية تعمل على غرس الثقافة في نفوس الأجيال وتعلمهم ماذا يجب عليهم أن يفعلوه، وبما يضمن استحسان وتقدير الجماعة. وذلك يدفع الفرد للامتثال

---

(٢٤) شكري، علياء، بعض ملامح التغير الاجتماعي في الوطن العربي: دراسة ميدانية لثقافة بعض المجتمعات المحلية في المملكة العربية السعودية (القاهرة: دار الثقافة، ١٩٨٣م)، ص ٣٥٩.

(٢٥) العمري، عوض ظافر، **أدب وتاريخ بني عمرو** ١٣٩٨هـ، ص ١٢.

(٢٦) جريس، غيثان علي، **صفحات من تاريخ عسير** جدّة: دار البلاد للطباعة، ١٩٩٤م، ج١، ص ١٦.

(٢٧) الغامدي، سعيد فالح، **البناء الطبقي والتحضر في المملكة العربية السعودية**، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ١٩٩٠م، ط ٥، ص ٧٨.

للمعايير المجتمعية من أجل أن يحقق هذا الهدف(٢٨).

ويعمل الأفراد في مجتمع (بلاد بني عمرو) على احترام قرارات القبيلة والتي هي في غالب الأمر تكون شفوية، وتشمل الاتفاقيات مثل الزواج، وحلّ الخلافات التي تحدث بين المتخاصمين من أبناء القبيلة دون اللجوء إلى الجهات الرسمية في الدولة، ومعاقبة الخارجين على تلك الاتفاقيات، وتحديد الأشخاص الذين يقومون بحّل ما قد يتعرض له المجتمع من مشاكل. ويعتبرون هذه الاتفاقيات أو القرارات تعبيراً عن إرادة جماعية وتهم المجموع، لأن الخروج على إرادة الجماعة، وعدم المحافظة على القيم السائدة في القبيلة هو خروج على العادات والتقاليد التي تقضي بوجوب احترام رأي القبيلة وتنفيذ قراراتها. وإذا لم يتحقق ذلك، فإن ثقافة المجتمع لديها من الضوابط المادية والمعنوية ما تجعل الأفراد يلتزمون بها.

اللغة والثقافة المحلية:

يعزو ابن رشد التفاهم بين أفراد المجتمع إلى التعاقد الضمني، ويعبر عنه بمبدأ تطابق الكلام عند المرسل والمستقبل في الوقت نفسه(٢٩). لذا تعتبر اللغة عقداً اجتماعياً بين أفراد المجتمع المحلي الواحد أو المجتمع العام، يكون له من القوة والتأثير بحيث يوجه أفراد المجتمع نحو القضايا المشتركة بينهم(٣٠). ولتلاقي الثقافة باللغة وتساندهما فإن هناك مجموعة من المعاني العامة لكلمات معينه تستخدم لمعان خاصة وذلك بتأثير الثقافة ولأسباب اجتماعية معينة(٣١). وكذلك تتمثل أحد الأسباب التي تؤدي إلى نشوء بعض الكلمات التي لم تكن موجودة في اللغة من قبل، في مقتضيات الحياة الاجتماعية وضروراتها، لأن اللغة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمظاهر الثقافة المختلفة في المجتمع. لذا فإن اللغة تتطور حسبما تقتضيه حاجة المجتمع وإلحاح ثقافته. وفي هذا الإطار تخرج الكلمات أحياناً عن مدلولاتها الأولى، وذلك عائد للثقافات والمجتمعات والمناطق الجغرافية والمهن وكذلك الجماعات الواحدة. والثقافة لها دور بارز في هذه العملية، فهي الشكل الذي تكون عليه حياة الناس الذين يعيشون كأفراد في مجتمع معين ويشعر كل منهم بالمسؤولية

(٢٨) بيومي، محمد أحمد، **الأنثروبولوجيا الثقافية**، الدار الجامعية للطباعة والنشر، ١٩٨٣م، ص ١٨٦.

(٢٩) المصري، عبد الفتاح، **التفكير اللساني في الحضارة العربية**، دمشق، مجلة الموقف الأدبي العددان ١٥٣- ١٣٦، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٢م، ص٢٤٢.

(٣٠) إسماعيل، فاروق، **اثنوجرافيا كارلنجا**، الإسكندريه: دار المعرفة الجامعية،١٩٨٣م، ص ١٠. =

= إن الحصول على المادة العلمية بيسر وسهوله، لايتم إلا عن طريق توافر بعض الإخباريين (Informants) أو بعض الباحثين ذوي الاتصال المباشر بهذا المجتمع.

(٣١) Williams, T., **Filed Methods in the study of culture**, New York, 1967 Holtr & Winston.

تجاه الآخرين، وتتخذ هذه الجماعة اسماً معيناً يعرف أعضاؤه به[٣٢].

وفيما يتعلق بالعلاقة الوثيقة بين الثقافة المحلية واللغة، فإن اللغة تعمل كوسيلة ضبطية في المجتمع. لذا فإن (هياكاوا) يرى أن اللغة التوجيهية تحمل دائماً معنى ضمنياً عن المستقبل، أي أننا نستخدمها لننقل للآخرين نوعاً من التوقع والأمل والخوف لنحثهم على عمل يقومون به في الحاضر، وبذلك تستطيع اللغة أن تجعل الفرد منضبطاً اجتماعياً، لو اتبع ما تمليه عليه ضوابط المجتمع[٣٣].

وذلك يعني أن النظام اللغوي يعمل على تنظيم الناحية المتصلة بالتفاهم بين أفراد المجتمع، ويستطيع الفرد من خلالها إيصال ما يريد من التعبير عنه للغير. وهي الوسيلة التي ينقل بها الأفراد قبولهم أو رفضهم للأشياء. ولأنها أهم الوسائل الضبطية الاجتماعية فهي مرتبطة بالقيم والمعايير التي يؤمن بها المجتمع وبواسطتها يعبّر عن تلك القيم والمعايير بما يكون متوافقاً معها بتعابير سلوكية لفظية أو غير ذلك من أجل أن يكون متوافقاً مع ثقافة المجتمع. ورغم التحديث والتغير الاجتماعي الذي أصاب المجتمع السعودي بأسره ونال مجتمع (بلاد بنى عمرو) نصيباً لا بأس به، فإن الالتزام بثقافة المجتمع المحلية لا يزال قائماً وكذلك فإن لها تأثيرها على أفرادها الذين لا يزالون في نفس المنطقة.

إن هناك نوعاً من التلازم بين اللغة والثقافة، وإذا قسّمت الثقافة تبعاً لمناشط الحياة الاجتماعية، فإن الثقافة المهنية تكون واحدة من ذلك. وبذلك تتأثر اللغة بمظاهر النشاط المجتمعي بأنواعه فتطبع مفرداتها، ومعانيها، وأساليبها، وتراكيبها بطابع خاص وتختلف تبعاً لعدة عناصر منها الاختلاف في نوع الإنتاج ونظم الاقتصاد وشؤون الحياة المادية، كما تختلف بالنسبة للمهن السائدة من زراعة وصناعة وتجارة ورعي وبناء مساكن وغيرها[٣٤]. لذلك قد يؤدي هذا التأثير المتبادل إلى تشكيل أعضاء نطقهم في صورة خاصة تتأثر بها مخارج الحروف والألفاظ وطرق الأداء، وكذلك اللغة غير المكتوبة مثل الرموز والإشارات أو الإيماءات أو ما يتعلق بوسائل الاتصال بين الأفراد في تفاعلهم مع بعضهم[٣٥]. وهذا التفاعل الذي يحدث بين

(٣٢) Harris, Marvin , **The Rise of Anthropological Theory**, New York, 1968.

(٣٣) جلال، سعد، **علم النفس الاجتماعي**، الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٨٤م، ص ٢٨٦.

(٣٤) الحاج حسن حسين، **علم الاجتماع الأدبي** (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٩٠م)، ص١٨٠.

(٣٥) Hymes, D., **Two types of linguistic relativity**, (Inw Bright (ed) Socioliguistics, 1968), The Hayue: Mouton (114 - 165).
ضرب مثلا مستعملا لجماعة
Warm Springs From that Anglos People's use of English differed.
عرفت الثقافة مئات التعريفات بطرق مختلفة، من هذه التعاريف تعريف مارفن هاريس بقوله إن الثقافة أنماط سلوكية ترافق مجموعة معينة من =

الأفراد من خلال اللغة أو الإيماءات أو الإشارات أو الرموز، عبارة عن أوعيه تجمع المعاني التي يضفيها الفاعلون على أفعالهم لتسهيل عملية التفاعل[٣٦]. ويفرق ميد (MEAD) بين نوعين من التفاعل، فالأول التفاعل غير الرمزي وهو مجرد استجابة لأفعال الآخرين دون إضفاء أي معنى عليها، والثاني التفاعل الرمزي وهو فهم طرفي التفاعل للمعاني الكامنة خلف ظروف الفعل والسلوك[٣٧].

وقد لا تتم الاتصالات بين الأفراد في المهنة الواحدة أو في المجتمع المحلي الواحد عن طريق اللغة، بل إن هناك الإشارات والتعبيرات الخارجية للوجه وحركات الجسم، حيث تعتبر كلها رسائل بدون كلمات. وتختلف الإشارات في معانيها حيث إن الإنسان الذي يخلع عليها هذه المعاني عن طريق التحكم في الرموز، فمثلاً الابتسامة، تدل على الفرحة، ولكن هناك ما يسمى بالابتسامة الصفراء التي قد تدل على الحسد وهي ذات مشاعر سلبية. وكذلك الدموع التي تدل على الحزن، إضافة إلى أن هناك حسب القول الشائع، دموع التماسيح مثلاً. فاللغة إذن تعتبر الوسيلة التي من خلالها يفهم الفرد العالم المحيط به ويضفي عليها معاني عديدة[٣٨].

ويتطلب بقاء المجتمع واستمراره وإشباع احتياجاته من أفراده، العمل من أجل المحافظة على كيانه وحفظ أمنه واستقراره[٣٩]. من هنا فإن ظروف المجتمع وبيئته تملي على الأفراد الذين يعيشون ثقافة واحدة أن يعملوا داخل تلك الثقافة في مهن مختلفة، بحيث يكون هناك توزيع متناسق يفي بحاجة المجتمع ويلبي ميول ورغبات واحتياجات أفراد المجتمع نفسه ولا تخرج هذه المهن عن الإطار العام لثقافة المجتمع، لأن بقاء واستمرار المجتمعات يتطلب من أفرادها أن يبرز كل منهم في مهنة معينه وهذا يحدث بشكل ملحوظ في المجتمعات المتقدمة؛ لأن المجتمع يصبح عضوياً يعتمد كل واحد في نشاطه على عمل الآخر، وفق ثقافة خاصة تمليها عليهم طبيعة العمل والتخصص الذي سلكوه، مثل مهن الطب والهندسة والزراعة والصناعة والتجارة وغيرها. كل هذه التخصصات (مهن) تفرض على المنتمين إليها ثقافة مهنية معينه ذات علاقة بنوع التخصص وتميزهم بالتالي عن غيرهم من أصحاب المهن الأخرى، وتنظم أسلوب حياتهم العلمية والعملية من تعلم المهنة وتعاملهم معها ومع المستفيد، وكيفية التعامل

= الناس وتظهر في شكل عادات أو في طريقة حياة الناس.

(٣٦) زايد، أحمد، **علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١م، ص ٤٢٥.

(٣٧) حسين، مرجع سابق، ص١٨٥.

(٣٨) زايد، أحمد، مرجع سابق، ص ٤٢٥.

(٣٩) مدبولي، جلال، **دراسات في الثقافة والمجتمع** القاهرة: المكتب الجامعي الحديث، ١٩٨٣م، ص ٥٩.

مع زملاء المهنة في العمل وخارجه، وفي حياتهم الخاصة والعامة(٤٠).

ولا تتطلب المهن الحرفية في القرى بالمناطق الريفية من المنتمين إليها أن يحصلوا على تلك المهن بالتعليم في المدارس، بل يتعلمها الفرد عن طريق المشاهدة والممارسة من والده أو أقربائه ويتعلم أيضا أدواتها التي تستعملها وأخلاقياتها وضوابطها والرموز والإشارات واللغة الخاصة بتلك الحرفة. وهذه الحرف مثل نجارة الأخشاب ودباغة الجلود وبناء المساكن بالحجر والطين. كل من هذه المهن لها ثقافتها الخاصة بها سواء كانت ذات تعليم عالٍ يتطلب مدارس ومعاهد وممارسة أو تلك التي لا تتطلب سوى المشاهدة والممارسة. تلك الثقافة تحتوي على مجموعة كثيرة من الضوابط التي تحكم سيرها. سواء كانت من الثقافة المادية التي تتطلب المعرفة بالأداة واستعمالاتها وكيفية إصلاحها أو حتى صنعها، أو في جانب الثقافة المعنوية والتي تتمثل في النظم واللغة والعوامل الدافعة أو العوامل المثبطة لذلك.

اللغة عند عمّال البناء:

تعد مهنة البناء بالحجر والطين إحدى المهن الرئيسية التي يقوم بها مجموعة من الأفراد وتعتمد عليهم القبيلة في إنشاء البيوت السكنية أو كل ما يتعلق بالعمارة بشكل خاص، ويستوحى فن العمارة أو طريقة البناء من ثقافة المجتمع ومن وحي البيئة الجغرافية لهذه القبيلة. كما أن أدوات البناء تكون كذلك مستوحاة من البيئة. ويعمل في عملية بناء المسكن مجموعة من الأشخاص يبلغ عددهم في الغالب خمسة أفراد بناء مسكن، وقد يزيد العدد تبعاً للظروف التي تحيط بالعمل. ولأنهم يعملون في هذه المهنة لفترات قد تكون طويلة، فمن المؤكد أن يحدث بينهم نوع من التفاعل والتكامل من النواحي النفسية والاجتماعية الذي يُنتج بالضرورة لغة خاصة ورموزاً متعارفاً عليها فيما بينهم. وعندما يحتاج أحد البنائين التخاطب مع أحد زملاء المهنة في شيء يتعلق بعملهم في مجال بناء البيوت، مثل طلب الحجر أو الطين، فإنهم يتخاطبون فيما بينهم بكلمات ورموز ومقاطع شعرية أو أمثال شعبيه متعارف عليها بين المجموعة بماذا تعني أو المطلوب من السامع عمله. هذه الأهازيج والأغاني مستمدة في الأصل من ثقافة المجتمع، ولا تخرج عن إطارها، ولا تقال إلا حينما يكون العاملون أثناء قيامهم ببناء أحد البيوت.

وفي العادة يكون للغة المتمثلة في الأهازيج والرموز، تأثير اجتماعي على أفراد تلك المجموعة. حيث إنها تكسبهم نشاطاً وقوّة وجدّية في العمل وسرعة الإنجاز. وتعمل أيضا على ضبط سلوكهم وتوجيههم. وفي العادة تقال هذه الرموز والأهازيج بصوت مرتفع إذا أحس"المعلم"، وهو رئيس هذه المجموعة، بأن أحد العاملين معه ينتابه نوع من الخمول أو الكسل، وذلك لأن المعلم له

(٤٠) الغامدي، المرجع السابق، ص ١٣٣.

شخصيته ذات القدرة على التأثير فيمن حوله من العاملين معه. وهذه اللغة تعدّ الوسيط الأساسي للتفاعل بين أفراد هذه المجموعة وتؤدي إلى تقوية الانتماء إلى هذه المجموعة، وتعد أيضاً الوسيلة التي يستطيع المعلم التأثير بها على بقية العاملين معه في هذه المهنة. وذلك من خلال ترديد الأغاني والأهازيج والرموز وغيرها من العناصر التي تتكون منها لغة البنائين في مواقف ومراحل معينة من سير العمل. وتتضح وظيفة هذه اللغة من خلال عملية التفاعل والتعاون بين المجموعة، لأنها في نظرهم من أهم أدوات التكامل وضبط سلوك القائمين على العمل في هذه المهنة.

ويتطلب العمل في مجال البناء من العاملين في هذه المهنة، أن يكونوا في حالة صحية جيده وبنية جسمية قوية تمكنهم من القيام بالمهمة التي توكل إليهم، لأن لكل فرد مهمة محدده يقوم بها ويقوم أيضاً بمساعدة زملائه في العمل إذا أحتاج أحد منهم ذلك. ومن الواضح أن هذه المهنة شاقة ومتعبة نظراً لوجود الحجارة الكبيرة التي يتطلب نقلها إلى أماكن محدده في جدران البيت. وكذلك حمل الطين والرمل والماء والخشب، كل ذلك يتطلب من العاملين أن يكونوا مؤهلين للقيام بعملهم بالشكل الصحيح وحتى لا يتعرضوا لنقد صاحب العمل، أو من أهل القرية. لأنهم يعلمون مسبقاً بأنهم لو تعرضوا للنقد فلن يكسبوا ثقة القبيلة وبالتالي لن يتمكنوا من بناء بيوت أخرى في بلاد بني عمرو. لذلك فإنهم يعملون على شحذ هممهم بلغة خاصة بهم، تتمثل في أهازيج ورموز وأغان يعملون من خلالها لأن عليهم بذل طاقة أكثر في سبيل القيام بالعمل على الوجه الذي يرضى عنه الجميع في القرية وتعدّ هذه اللغة من أهم وسائل الاتصال ونقل المعلومات والملاحظات على أفراد المجموعة.

ولأن لهذه اللغة وظائف متعددة تخدم سير العمل والتأثير على المجموعة وشحذ الهمم وضبط سلوكهم. فإنه يتم اختيار المستوى اللغوي، واختيار المفردات والتراكيب التي تخدم مصالح هذه الفئة أثناء عملهم في مجال البناء. وفي الغالب فإن مواقف العمل هي التي تفرض على "المعلم" أو المجموعة اختيار الأغاني أو الأهازيج والرموز المتداولة بينهم في مجال عملهم في هذه المهنة. هذه اللغة تميز البنائين عن غيرهم من أصحاب المهن الأخرى في بلاد بني عمرو.

من خلال الملاحظة والمعايشة والإبحار في ذاكرة المجتمع لإبراز ما كان في الماضي، وما بقي في الحاضر، نناقش تلك اللغة الخاصة بهذه المجموعة والتي تحتوي على مجموعة الجُمل والأمثال وبعض الرموز والإشارات التي تحمل تلك الدلالات الاجتماعية والنفسية التي تميّز هذا المجتمع عن غيره من المجتمعات.

النتائج والتحليل:

١ - في البداية. إذا أراد أحد أفراد القرية إقامة بيت فإنه يذهب إلى أحد معلمي البناء من أبناء المجتمع المحلي، ويخبره بأنه يرغب في بناء بيت يأويه وأفرد أسرته، وأنه قد وقع عليه الاختيار ليقوم ببناء البيت، نظراً لما يتمتع به من ثقة، ولما عرف عنه من الإخلاص في العمل، ويكون هذا بمثابة اتفاق مبدئي بينهما. ومن ثم يذهب المعلم بعد الاتفاق ويحضر مجموعته من أفراد القبيلة، الذين يمتهنون هذه المهنة ويثق بهم في إنجاز العمل. ويذهبون إلى الرجل الذي يريد أن يبني له البيت، ويطلعون على الموقع والشروط التي يمليها صاحب الملك. وبعد المداولات يتم الاتفاق على الشروط المعقودة بينهم ثم يتفرق الجميع. وفي صبيحة اليوم التالي يأتي البناؤون إلى موقع العمل ثم يصيح "المعلم" بهذا المقطع "<u>أول القول بسم الله، نسمي ونبدأ في عملنا، الله دركم يا رجال</u>" إيذاناً ببدء العمل. والافتتاح يتم عادةً بالتسمية فهي جزء من تراث المجتمع الديني وفيها طلب العون والبركة من الله على إتمام هذا العمل، وفيها أيضا إعلان عن التعريف به وبمجموعته. ويحمل هذا المقطع الكثير من المعاني والتي تدور في محور اهتمام العاملين، حيث إن المعلم هنا يوضح أهدافه للمجموعة، وبدورهم يعملون بشكل جماعي وبتعاون تام ومحاولة تكييف أنفسهم مع هذا الموقف. لأنهم فهموا ما يرمي إليه المعلم. فهو بذلك يدعوهم لترك كل تفكير قد يشغل بالهم خارج العمل، وأن يصبّوا كل تفكيرهم وطاقتهم لإنجاز ما أوكل إليهم من مهمة. وفي نفس الوقت يحرص على أن يضبطوا سلوكهم حتى لا يتعرضوا للانتقاد. ثم إن فيها دعوة للجد والاجتهاد، وتنطوي على ما يبديه من مديح لهم وذلك في قوله الله درّكم يا رجال فهذا نوع من التحفيز لهم ولشحذ هممهم. ويدعون الله أن يرزقهم القوّة حتى يتمكنوا من أداء العمل المناط بهم.

٢ - وبعد التسمية، والتي هي جزء من تراث وثقافة المجتمع، حيث لابد من البدء بذكر اسم الله في أول كل عمل مهما كان صغيراً أو كبيراً، يبدأ العمل بطلب العون والقوّه من الله حتى ولو كانت الجملة الأولى تتضمّن ذلك فلابد من قولها صراحة، إذ يقول "<u>يا لله يا الله يا معين عاونّا، وننجّز شغلنا</u>". فالمعلم يطلب العون من الله حتى يتمكّن مع جماعته من إتمام العمل في بناء هذا المنزل. هذه العبارة دائماً يرددها المعلم ويرددها خلفه العاملون معه. وتعد وسيلة للتفاعل والتعبير عن الأهداف التي يرجونها من إنهاء العمل المناط بهم في الوقت المناسب وبدون أية عوائق. وأن يكون عملهم متقناً يرضي صاحب البيت وغيره من أفراد مجتمع القرية، أو الذين يمرّون بهم لمشاهدة عملهم وإتقانهم لمهنتهم. ثم يبدأ العمل بهمّة ونشاط لأن كل ما

سبق نوع من الإحماء لنفسه وللعاملين معه حتى يضع المعلم الجميع في الجو المطلوب للعمل.

٣ ـ وأثناء العمل إذا استدعي أحد العاملين، من قِبل المعلّم، لغرض أن يحمل حجراً أو طيناً أو ماءً أو رملاً، حيث تقال هذه العبارة "يا شيّال شدّ جالك، وريّح بالك". أي، يا أيها العامل الذي تقوم بحمل الأشياء امسك مكانك أو العمل الذي تقوم به. تقال له من أجل حثه على أن يبذل الجهد وأن يستعد لهذه المهمة لأن الاختيار وقع عليه. فما عليه إلا أن يكون أهلاً لهذه المهمة، وأن يريح باله من أي تفكير في غيرها من أجل أن يقوم بما أوكل إليه بجد ونشاط. وبذلك يعمل على التكيّف وضبط سلوكه بما يتناسب مع هذه المهمة.

غير أنه أثناء العمل، عندما يحمل أحد العاملين حملاً ثقيلاً، ويمشي به لغرض إيصاله إلى المكان المخصص له، ويحسّ زملاؤه الذين وضعوا الحمل عليه بثقل ذلك الحمل وأنه قد لا يستطيع مواصلة المسير، فإنهم يحاولون الشدّ من أزره وبعث الهمّة في نفسه وذلك بترديد هذا المقطع، "يا جمل ياشيّال الأحمالي، قم بحملك وعتّلي". ويعلم العامل من خلال ذلك أنهم قد أحسّوا منه قصورا في أداء تلك المهمة. ومن ثم فإنه يعيد تقييم سلوكه ويحاول إعادة التوازن بين سلوكه وبين الموقف الذي يحتم عليه ذلك التقييم، مما يجعله يتفاعل مع الموقف ويبذل جهداً أكبر حتى يثبت لهم أنه أهل لهذه المهمة وأنه قادر على التكيف في كل المواقف.

٤ ـ وإذا كلّف المعلّم أحد معاونيه بعملٍ ما، وتأخر في إحضار المطلوب بسرعة، فإن المعلّم يقول، " لاخير فيك يامن تأخر بطلبنا . . . عسى حيلك ماهوب باير". حيث ينطق بهذا البيت من الشعر ليلفت انتباه هذا العامل إلى أنه قد تأخر في إحضار ماكلف به أكثر مما يجب، وأن الواجب عليه أن يكون أكثر سرعة وجدّيه في أداء العمل المناط به. فقوله عسى حيلك ما هوب باير أي أنني لاحظت التعب عليك وأرجو أن لا تكون متعباً أو مريضاً. فيفهم هذا الشخص أنه المقصود بذلك فيستعجل في إحضار المطلوب ويحس أنه قصّر في أداء عمله مما يجعله يبذل جهداً أكبر يرضي المعلّم عنه. وفيها أيضاً نوع من التوجيه لجميع العاملين من آن التقصير في أداء الواجب ليس له مكان في هذه الجماعة، وكذا فيها نوع من ممارسة الضبط والعقاب لمن يقع في مثل هذا النوع من التقصير، وهذا العقاب نفسي واجتماعي قبل أن يكون أي شيء آخر.

٥ ـ هناك أحد العمال يقوم بخلط التراب والماء من أجل توفير كمية الطين اللازمة للعمل. وعندما ينتهي من تجهيز الطين ويطلب المعلّم إحضار شيء منه، يقوم العامل بأخذ كمية من الطين ودحرجتها على التراب حتى تتماسك معه ثم يحملها بيديه ويسير إلى المعلّم، وعند اقترابه من جدار المبنى يرفع

العامل صوته بالنداء للمعلم لإخباره بحضوره ثم دعوته للاستعداد لتلقي ما سوف يلقيه إليه. ثم يرمي لـه تلك الكمية من الطين التي أحضرها. ففي بعض الأحيان يكون استقبال المعلم لكمية الطين التي أرسلت إليه، غير صحيح مما يجعل قسماً منها يتساقط على الأرض. وفي حالة تكرار ذلك من المعلم يعمد العامل إلى ترديد هذه المقولة "شأنك شأنك، يا معلمنا ترينا حلفنا ما فيك سره" وهذا يعني أن الأسلوب الذي تعامل معه المعلم في استقبال الطين لم يكن معهوداً منه. ويعني أيضاً أن المعلم إذا استمر على هذه الحال من عدم الانتباه، فسيعلم الجميع أنه "ما فيك خير"، وهذا يدعو المعلم إلى التركيز أكثر في عمله حتى لا يكون عرضة للنقد المخل مرةً أخرى. ويلاحظ أيضاً أن العمل الجماعي يكون الضبط فيه عملية متبادلة، بمعنى أن التأنيب يكون من العاملين للمعلم أيضاً، ويظهر ذلك في المقولة شأنك شأنك يا معلمنا.

٦ - وفي التنظيم الوظيفي داخل مجموعة البنائين، هناك أحد العاملين يكلفه المعلم بأن يكون مسؤولاً عن إحضار الدمك والطين، فعندما يحتاج المعلم إلى الدمك والطين يصيح بصوت مرتفع قائلاً "يادمكان عجّل بدمكك وطينك حيث القود فاضي" والمعلم هنا يشرح موقفه من أنه يحتاج إلى دمك وطين وأن العمل عنده متوقف وينتظر أن يأتي ذلك المطلوب، وفي ذلك أيضاً نوع من الحث على سرعة الإنجاز وعدم التراخي في أداء الواجب. وهو تنبيه لذلك العامل ولفت نظره لتقصيره، حيث الواجب الانتباه إلى أنه من المفروض مراعاة توفر الدمك والطين قبل نفاد الكميه. ويقصد بالقود مكان العمل كالجدار أو الأساس أو السطح أو أي جزء من المنزل.

ولأن المعلم هو الشخص المسؤول عن هذه المجموعة من حيث تفعيل طاقاتهم واستثمارها وملاحظة مواطن القوة والضعف في مسيرة العمل والعاملين بشكل عام، فإنه إذا رأى مثلاً أن المكلف بعمل الدمك والطين وإحضاره لا يكفي للقيام بهذه المهمة وحده نظراً لحاجته إلى كمية أكبر من تلك المواد، وذلك لسرعة العمل في التشييد والبناء وأن هذا العامل يحتاج إلى مساعدة من زملائه، فإن المعلم يصيح بصوته ويردد تلك العبارة، "وينك يادماك وينك يادماك، وينك ياطيان وينك ياطيان" وبشكل مستمر وعلى نغمة معينة تلفت نظر العاملين، ومن خلال ذلك القول يعرف العاملون الآخرون أن على من يرى منهم أنه مكلف بعمل غير مهم سرعة التوجّه نحو مكان عمل الدمك والطين لمساعدة زميله في ذلك العمل. وتتم هذه العملية بسرعة وبشكل طبيعي وبدون أن يلحظ أحد من الخارج هذا التغيير، لأن هذه لغة خاصة بهم. غير أنه إذا حدث تأخير في إحضار المطلوب، يرتفع صوت المعلم بقوله، "القود خالي، وش بلاك يادمّاك باير". هذه العبارة، عبارةٌ عن نقد مباشر للدمّاك، وتأنيب له، يقولها المعلم إذا تأخر الدمّاك في إحضار الدمك في الوقت المحدد لطلبه، فيعرف العامل

أن هناك ملاحظة عليه من معلمه، عند ذلك ينطلق بسرعةٍ مذهلة وكأنه لا يحمل شيئاً على ظهره لكي يثبت للمعلم بأنه يستطيع أن يحمل أكثر من ذلك الحمل، وهو دفاع عن النفس وإثبات لوجوده للمعلم وكذلك أهليته لهذا العمل. هاتان المقولتان تقال في إطار سريع من العمل وفي جو يدعو للتحفيز حتى يكون الجميع على مستوى واحد من الانتباه والسرعة.

٧- ومن الأعمال التي يتطلبها تقسيم العمل في هذه المهنة، أن يكلف المعلم أحد العاملين بحمل المسحاة والعمل بها، من أجل حفر بعض الأماكن التي تحتاج إلى تسوية، من أجل استقامة الجدار وعدم حدوث اعوجاج فيه، ومن ثم يسحب بقية الأتربة إلى خارج ساحة البناء، وهذا العمل يتطلب جهداً كبيراً من هذا العامل حتى ينجزه في الوقت المطلوب. فإذا لاحظ زملاء حامل المسحاة أو المعلم أن الكسل بدأ يدب فيه ويظهر عليه التعب، يقوم من لاحظ ذلك بترديد هذه العبارة "ياراعي المسحاة عجل ترى السيسان بانت مالك اليوم باير" يفهم العامل أن الجميع قد لاحظ علية التقصير في عمله، من خلال حركة يديه عندما يحمل المسحاة ـ انظر الملحق رقم (١) ـ ويضرب بها في الأرض، أو من خلال حركة رجليه وبطنهما عند حمله للتراب وإخراجه خارج ساحة البناء، فيقوم العامل بترديد هذه العبارة كذلك مع الجميع، ومن خلال ترديده لهذه العبارة مع إحساسه بملاحظة زملائه له، يدبّ الحماس فيه ثم يكون لزاماً عليه أن يثبت أنه يخيل لهم بأنه مقصر، فيعمد إلى حركات بهلوانية في نظره، مثل حمله المسحاة بسرعة ورفعها عالياً ومن ثم الضرب بها على المكان الذي يريد حفره ومن خلال قوة أو عمق الأثر الذي يحدثه الضرب بها على المكان يكون في نظره قد أثبت لهم أنه لم يكن مقصراً في أدائه لعمله الموكل إليه، وأنه يبذل جهداً مضاعفاً في سبيل إنهاء عمله بالسرعة المطلوبة منه.

٨ ـ ومن جزيئات هذه المهنة أنه إذا كانت هناك بعض الحجارة الكبيرة في الحجم والتي يتطلب الأمر الاستفادة منها في مجال البناء، يكلف المعلم أحد العاملين بأن يحضر حطباً من أجل شب النار على الحجر الذي يرى المعلم أن يكسر، فيذهب هذا العامل لإحضار الحطب من الجبل أو المكان القريب من موقع البيت الذي يبنونه ثم يوقد النار عليه، والمعلم في هذه الأثناء يلاحظ من مكانه يشرف على المبنى، فإذا كان جمع الحطب وبالكمية المطلوبة، وأوقدت النار بالشكل المطلوب الذي يرضي المعلم باعتباره أعرف المجموعة بذلك، وإلاّ عمد إلى إطلاق هذه العبارة "شب ياشببا وخل النار تواره". وبهذه العبارة يعطي المعلم إنذاراً وأمراً لهذا الرجل بأن عليه أن يحضر الحطب المطلوب والكافي لشبّ نار تكون شعلتها أكبر من الشعلة السابقة، فيهب الرجل مسرعاً بنشاط تلقائي ليحضر الحطب، بكل جدّ ونشاط منقطع النظير، حتى لا يلاحظ عليه المعلم أو أحد من زملائه أي تقصير في

أداء عملـه وليـبرهن لـلجميع شـدّة حرصـه وحضوره ونشـاطه.

غير أنه إذا استغرق من هو مكلف بإيقاد النار على الحجر المراد تكسيره للاستفادة منه في عملية البناء وذلك عن طريق تجزئته إلى أجزاء وقتاً طويلاً، واستغرقت عملية التكسير مدّة أطول مما يجب، فإن المعلم يردد "احطب ياحطاب وشب ياشباب نارك وكسر". وهذه العبارة يقصد بها أن الرجل الذي كلف بهذه المهمة، ربما لم ينتبه للمدة التي قضاها في عملية شبّ النار على الحجر المراد تكسيره، وأن هذا الحجر لم يعد يحتاج إلى إيقاد نار زيادة وأن مهمته الآن أن يقوم بتكسير الحجر، لأن المعلم في حاجة إلى إحضار حجارة من النوع المكسّر بالنار. ونتيجة لذلك يكون في نظر المعلم غير أهل لهذه المهمة فيعمد إلى تكليف غيره من زملائه بهذه المهمة. وبعملية تبديل المراكز هذه، يعطى العامل البديل دفعة قوية في سبيل أن يثبت جدارته وأهليته بهذه المهمة الجديدة، وأنه يستطيع أن يقوم بها على أكمل وجه. وكذلك يحس العامل الأول أن عليه أن يبذل جهداً مضاعفاً في المهمة الأخرى التي كلف بها بعد أن أبدى قصوره في مهمته الأولى. وبذلك يعطى كل منهما الفرصة لإثبات وجوده في عمله وضمان استمراريته في هذه المجموعة العاملة وذلك عن طريق تبديل المراكز. ويلاحظ أيضاً قوة الضبط وتماسك الجماعة والتفاعل القوي بينهم عن طريق تلك اللغة الخاصة التي لا يفهمها إلا هم.

٩ - في هذا الإطار لابد أن يوجد نوع من التناغم بين العامل والمعلم، وذلك من خلال الخبرة والمدّة الزمنية التي يقضيانها معا في ذلك النوع من المهن. حيث يلاحظ ذلك من خلال التفاهم القائم بينهم وسرعة استجابة العامل للمعلم. في هذا المقطع إذا أحضر العامل المكلف بإحضار الحجر للمعلم وهو على الجدار أو في أساس البناء، فإن المعلم ينظر إلى الحجر، فإن كان هو المطلوب أخذه ووضعه في مكانه على جدار المبنى، وإذا لم يكن هو الحجر المطلوب فإنه يخاطب العامل بهذه العبارة"يا علي خذ حصاتك وطوّعها بالفانوس"، أي أن هذا الحجر الذي أحضرته ليس هو المطلوب وعليك أن تعود به وتعمل على تعديله بالفانوس - كتلة من الحديد لتكسير الحجارة - وأن ينتبه لذلك في المرّات القادمة، وبهذه العبارة ينتبه كذلك إلى الاهتمام بما كلف به من عمل وأن لا يحضر له الحجارة كيفما اتفق، بل عليه أن يختار ما هو مناسب.

تحتاج أركان البيت للربط بينها إلى نوع من الحجر، المستطيل الشكل والكبير الحجم - الحدة -. غير أن نقله إلى المكان الذي يجب أن يوضع فيه - في أحد أركان البيت حسبما يرى المعلم - يحتاج إلى رجل يتمتع بقوة جسميه وعضلية وعزيمة تفوق قدرات زملائه في العمل. وعندما يأتي دور نقل هذا النوع من الحجارة يطلق الجميع هذه العبارة "راعي الحده ما فيه مده حليلة ماعجلبها"، وبدوره يعرف هذا الرجل أنه المقصود بتلك المقولة،

ويأتي مهرولاً إلى مكان الحجر وهو يردد هذه العبارة ويرددها زملاؤه معه ويحمل الحجر ويوضع على ظهره ثم يسير به نحو المكان المخصص لوضعه. فإذا كان مكان الحجر في أعلى الجدار، فإن هناك سُلماً يصعد عليه، وعندما يُلاحظ عليه زملاؤه بطئاً في الحركة، يرفعون أصواتهم عالياً بهذه العبارة وبشكل جماعي مما يزيد من حماسه ويبذل جهداً مضاعفًا في سبيل إيصال الحده إلى مكانها ويثبت لهم انه رجل لا يقهر ولديه من القوة والطاقة ما يؤهله للقيام بهذه المهمة الصعبة، وأنه فرد منهم ولا يمكن أن يشذ ويكون اقل من ذلك.

وعندما يرتفع البنيان وتظهر الحاجة للوصول إلى أعلى الجدار بالمواد اللازمة للبناء من حجر وطين وخلافه يكون وضع العمل قد تغير عمّا كان عليه في البداية. وبذلك يحتاجون إلى سلالم من الخشب لكي يستطيع العمال من خلالها إيصال ما يحتاج إليه المعلّم من مواد البناء وغيرها، وهذا يتطلب منهم بذل جهد مضاعف عن ذي قبل. فإذا أحس المعلّم بنوع من التراخي أو بالتقصير من قبل العمال، فإنه بخبرته وبتأثيره القوي عليهم، يصيح وبصوت مرتفع "أمس غير اليوم واليوم غير أمس وينكم يا رجال"، ففيها نوع من رفع لمعنوياتهم وحفزهم أكثر فأكثر. ويرى فيها جانب آخر، وكأن المعلّم يندب حظه على وجود هذه المجموعه معه وكأنها لا تبيض الوجه، وهذا نقد مباشر ولكنه مبطّن يدفع بهم نحو البذل أكثر وزيادة الهمّة والنشاط.

(أ) فإذا اقترب المساء يتغنى المعلّم "روحو روحو، جاكم الليل جاكم"، حيث تقال هذه العبارة للتحفيز ولبذل جهد أكبر. فالمعلّم يطلق هذه العبارة حتى يستمر العمل بحماس وإنجاز على وتيرة واحدة، فيردد العاملون مع المعلم هذه العبارة. ويلاحظ على الجميع سرعة الحركة والإنجاز وذلك لتفاعل الجميع مع هذه العبارة لما لها من تأثير في حفز الهمة والشعور بالمسؤولية.

في الساعات الأخيرة من يوم العمل الطويل، يكون العاملون قد استنفدوا طاقاتهم، حيث يُلاحظُ ذلك في حركاتهم وتعابير وجوههم ويبدو عليهم التعب، حينئذ يرتفع صوت المعلّم بقوله "سرى الليل وحنا تونا ماسرينا". وهذا نوع من التنبيه من قبل المعلّم من أن وقت الرحيل لم يحن بعد. ويبدو عليكم التعب والإعياء، فالوقت يمضي بسرعة وعليكم استعادة نشاطكم لتصبحوا كما كنتم في أول النهار، هنا يعلم الجميع بملاحظة المعلّم فيتغير إيقاع العمل.

(ب) بالإضافة إلى ذلك، هناك أوقات للراحة أثناء العمل، يحددها المعلّم بناء على خبرته أو حاجة العمال لذلك. فإذا حان وقت الغداء أو شرب الشاي، يعمد البعض إلى تنبيه المعلّم من أن وقت الغداء أو شرب الشاي أو الراحة لبعض الوقت من العمل قد حان. فإذا

رأى المعلم غير ذلك فإنه يرد عليهم بقوله " حلفت لكم ما تطعمونه لو كنتم على السدة من أمس" ويعني بذلك أن الوقت لم يحن بعد، وأن عليكم أن تستمروا في العمل حتى أعطيكم الأمر. ويعني أيضاً حتى لو كنتم جالسين على الأكل وشرب الشاي، فإنني سوف أمنعكم من ذلك باعتباري صاحب الكلمة في هذا الموقف فيتقبّل العاملون هذا الكلام من المعلّم ويستمرون في أداء عملهم بجد ونشاط دون ما اعتراض وتململ.

(ج) وإذا اكتمل بناء جميع جدران البيت، فإن العاملين في حاجة إلى إحضار الخشب والجلاغ "لحاء خشب العرعر" من أجل عمل سقف البيت، فإن المعلم أو أحد العاملين يقول "أجدد جردك شيل جلاغك يا عفنان" فيذهب العاملون في الدمك والطين وعامل تكسير الحجارة لمساعدة ذلك العامل الذي كلف بتجهيز الخشب والجرد "نوع من الخشب صغير الحجم" والجلاغ وإحضاره إلى المكان المخصص له. بهذه العبارة يفهم هؤلاء العمال أنهم هم المعنيون، فيتوجهون مسرعين للعمل في ذلك المجال بجد ونشاط لأن هذه العبارة تعني في نفس الوقت أنهم على وشك الانتهاء من بناء البيت ويحتاج ذلك إلى مضاعفة الجهد حتى ينتهي العمل بالسرعة المطلوبة.

١٠ - ولأن هذه الجماعة فيها نوع من التماسك فإن عملية الضبط لا تقف عند حد المسؤول فقط، بل إن للعمال دوراً في ممارسة الضبط والتوجيه وحفز الهمة للمعلم كذلك. وبذلك يصبح التكامل داخل هذه المجموعة واضحاً وجلياً، الأمر الذي قد يجعل العمّال بما فيهم المعلم، يتغنون بالمقطع الشعري التالي:

" طولت بالك يا عفنان وحنا
عجالا مجالنا شد وحط"
" إن كنت تعبان فسرتريحا
عمنا تراه في شد وحط"

ومعنى هذا المقطع الشعري ليس موجهاً لشخص بعينه ولكنه لأي من العاملين، و"عفنان" اسم نكرة ويقصد بذلك أنك متباطئ ونحن مستعجلون وعملنا يقتضي السرعة، فإذا كنت تعباناً فاذهب واسترح فصاحب المنزل في قلق شديد يريد أن ينجز في أسرع وقت ممكن.

يقول هذا المقطع أحد العمّال القريبين من معلم البناء، في حالة مشاهدته لبطء حركة المعلم في أداء عمله. فهذه الأبيات تطلق حتى تدفع بالمعلم نحو الجد والإسراع في إنجاز المطلوب. ولأن المعلم يعتبر حجر الزاوية وهو الدافع الأساسي والمحرك الرئيسي لهذا العمل، فإن المجموعة تعتمد السرعة في أداء عملها على ما يطلقه المعلم من أهازيج ورموز يفهمها العاملون كل فيما يخصه. لذا لزم تنبيه المعلم عن حالته التي هو فيها، فيتغنى العامل القريب منه بهذه الأبيات فيسارع الجميع إلى ترديدها وراءه. وعند ذلك يردد المعلم معهم تلك الأبيات ويعلم أن الجميع قد لاحظوا

تقصيره في أداء عمله ويعتبرها نقصاً في حقه لكونه المسؤول الأول عن سير العمل، فيعمد إلى بذل جهد مضاعف في سبيل أن يثبت لهم عدم صحة ما لاحظه عليه ذلك العامل الذي يتغنى بتلك الأبيات.

وإذا لم يبق إلا القليل على اكتمال تجهيز البيت وتسليمه لصاحبه، وكان آخر اليوم ويريد المعلم أن يكون البيت جاهزاً بنهاية ذلك اليوم فإنه يرفع صوته بقوله "هانت يارجاجيل هانت"، وهذا تنبيه وتحذير قوي يؤكد أن على الجميع الانتهاء من العمل في البيت وتسليمه لصاحبه في نهاية هذا اليوم دون ما تأخير. ويقوم الجميع بترديد هذه العبارة وراء المعلّم، فتعطيهم دافعاً قوياً لبذل قصارى جهدهم لكي ينفذوا توجيهات المعلّم، وبالفعل يستلم صاحب البيت بيته في نهاية ذلك اليوم.

١١ - فإذا انتهى العمل في المنزل يتغنى الجميع قائلين "وين عدتم يا جماعه، عدنا من وراء الحده". حيث تقال هذه العبارة من قِبل الجميع من أجل أن يعلم (عمهم) صاحب البيت بأنهم انتهوا من العمل، وأن عليه أن يستعد لإكرامهم ودفع الأجر المتفق عليه لهم. فيهب صاحب البيت إذا كان في مكان بعيد عنهم مسرعاً فرحاً بانتهاء العمل في البيت - انظر ملحق رقم (٢) - ويشكرهم على ذلك، ويقدم لهم وجبة عشاءٍ دسمة، ويسلمهم أجرهم وبعض الهدايا الرمزية التي تنم عن رضاه عن الجميع.

بالإضافة إلى ذلك، هنالك اللغة الرمزية حيث توجد بعض الرموز في هذه المهنة والتي تساعد على سرعة أداء العمل، وهي جزء حيوي في لغة البنائين. تلك الرموز لا يفهمها إلا أصحاب المهنة أنفسهم، من تلك الرموز "الضرب مّرتين بالمطرقة على الجدار"، فإذا رأى المعلم أن العامل الذي يقوم بإحضار الحجارة له قد تأخر ويريد حثه على الاستعجال، فيضرب المعلم بالمطرقة التي يحملها معه مرتين على الجدار فيعرف هذا العامل أنه المقصود بذلك، لأنه لاحظ عليه البطء في إحضار المطلوب لمعلمه.

وكذلك "التصفيق باليدين"، إذا احتاج المعلم إلى الطين فإنه يعمد إلى التصفيق بيديه مرتين أو ثلاثاً فيدرك العامل المكلف بعمل الطين أن المعلم يريد منه إحضار الطين إليه بسرعة.

الخاتمة:

من خلال استعراض اللغة وعلاقتها بالتفاعل الاجتماعي في مجتمع البنائين في بلاد بني عمرو، وهي اللغة المتمثلة في مجموعة من الأغاني والأهازيج والرموز وبعض الأقوال والحِكم، يظهر لنا أنها جزء من ثقافة المجتمع المحلي. وهي تعمل على تنظيم حياتهم العملية وضبط سلوكهم، وتعتبر وسيلة من وسائل الاتصال بين أفراد المجموعة. وتدعو أيضاً إلى المزيد من التفاعل والتكامل فيما بينهم. لأنها عبارة عن

حصيلة خبرات سابقه توارثوها عن آبائهم أو عن طريق التعلم لهذه المهنة من خلال المشاهدة ومحاكاة العاملين، وهو الأمر الذي يشير إلى كونها عنصراً ثقافياً واضحاً في بناء المجتمع.

من خلال هذه الدراسة اتضح لنا كيف أن لهذه اللغة فاعلية في إدارة العمل بشكل كامل وفي التفاعل بين العاملين من حيث ضبطهم أو كونها تشكل قوتهم الدافعة نحو الجد والنشاط وسرعة الإنجاز، عن طريق ما يطلقه المعلم أو المجموعة من الإشارات والرموز المعبرة عن السرعة أو الطلب أو الحث أو خلاف ذلك من الجوانب والأبعاد ذات التأثير النفسي والبدني بالنسبة للعمال، وتلك التي يحتاج إليها سير العمل.

يضاف إلى ما سبق شخصية المعلم ومدى قدرته في التأثير على معاونيه في هذه المهنة، لأنه بحكم خبرته يعرف نقاط الضعف والقوة، والأوقات التي يستطيع فيها التأثير على أعضاء الفريق من خلال ترديدهم كمجموعة لتلك الأغاني والأهازيج. يحدث بينهم تفاعل أكثر ويعمل بعضهم على مساعدة البعض الآخر إذا كان في حاجة إلى مساعدة. وبفضل هذا التفاعل والتكامل الاجتماعي بين أعضاء ورئيس فريق البنائين، فإنهم يستطيعون تخطي الصعاب التي قد تواجههم في سبيل إنهاء ما يكلفون به من عمل والمحافظة على مكانتهم واللغة الخاصة بهم.

بذلك نستطيع القول بأن اللغة عند البنائين تؤدي عدة وظائف، حيث تتمثل الوظيفة الأولى في الدعم السيكولوجي الذي تقدمه اللغة للأفراد أثناء العمل. بينما تتمثل الوظيفة الثانية في عملية تنظيم البناء من خلال النظر إلى اللغة باعتبارها آلية من آليات الضبط الاجتماعي. بينما تكمن الوظيفة الثالثة والأخيرة في كون اللغة وسيلة من وسائل الترويح لتجديد النشاط الإنساني من خلال مقاطع الأهازيج التي يرددها الجميع.

ملحق شارح لمفردات لغة البنائين في مجتمع بني عمرو

ملحق رقم (١)

أسماء الأدوات المستخدمة في البناء واستعمالاتها

اسماء الأدوات	استعمالاتها
مسحاة	وهي أداة مصنوعة من الحديد مستطيلة الشكل حادة يوجد في أعلاها حلقه توضع فيها قطعه من الخشب طولها حوالي متر لكي يمسك بها العامل،وتستعمل للحفر وجمع وخلط الطين.
مطرقة	كتلة من الحديد صغيرة الحجم تستعمل لتشذيب الحجارة وتسويتها.
قدوم	أداة تصنع من الحديد مستطيلة الشكل تستعمل لتشذيب الخشب.
فأس	أداة تصنع من الحديد مستطيلة الشكل لها رأس عريض وحاد تستعمل لقطع الخشب.
فانوس	وهي كتله من الحديد تستعمل لتكسير الحجارة.
عتلة	أداة من الحديد طولها متر ونصف تقريبا تستعمل في عتل الحجارة الكبيرة ودحرجتها.
فاروع	وهي أداة تصنع من الحديد لها رأسان أحدهما مدبب والآخر عريض تستعمل في حفر الأماكن الصلبة.
رحلة	وهي تصنع من الجلد أو سعف النخل صغيرة الحجم توضع كل خرج على ظهر الحمار، وتستعمل لتحميل التراب.
حصيرة	وهي حصيره كبيرة الحجم تصنع من سعف النخل وتغطى بالخيش أو الجلد وتستعمل لحمل التراب من الأماكن البعيدة على ظهر الجمل إلى المكان الذي سيقام فيه البيت.
شداد	حبل يصنع من جلود البقر يستعمل في ربط الأشياء.
البطن	وهو خشب العرعر يوضع على سطح البيت وهو بمثابة الحديد الآن.
الجرد	نوع من الخشب يقطع وهو صغير الحجم يوضع فوق البطن.
الجلاغ	هو لحاء العرعر ويستعمل في تغطية سطح المنزل بعد وضع البطن والجرد ليمنع نزول الطين إلى أرضية البيت.
الرقة	وهو ما يبقى من سيقان القمح والشعير بعد دياسته ويخلط مع الطين من أجل تقويته وتماسكه.
الكبس	وهو التراب ويستعمل بعد خلطه بالماء في تثبيت الحجارة في الجدار وتغطية السطح وهو بمثابة الأسمنت اليوم.

تابع : ملحق رقم (١)

اسماء الأدوات المستخدمة في البناء واستعمالاتها

اسماء الأدوات	استعمالاتها
الدمك	وهي الحجارة الصغيرة الحجم توضع في وسط الدماك وتغطى بالطين.
الدعمة	نوع كبير الحجم من خشب العرعر توضع في وسط الغرفة الواسعة المساحة في البيت، وتمثل الأعمدة في البيوت.
الجباهة	حجر مستطيل الشكل يبلغ طوله حوالي متر يوضع فوق الباب والنافذة حتى يتحمل ما يوضع عليه من الحجارة.
العتبة	خشبة توضع في مدخل الباب.
الحدة	حجر يكون مستطيل الشكل تربط به أركان البيت من أسفل إلى أعلى ويسمى الجزء العلوي من البيت باسمه.
الصلبة	وهي أجزاء تتناثر من الحجارة الكبيرة عند التكسير بالنار وتستعمل في الأماكن الفارغة بين الحجارة في الجدار.
القترة	فتحة تعمل في الجدار لغرض دخول القطط منها إلى داخل البيت.
المعلاق	قطعة من الخشب تغرس في جدار الغرفة لتعليق بعض الأشياء بها.
العنك	قطعة من الخشب توضع بالجدار من جهة الباب تكون متحركة وتسحب لتأمين البيت.
الظبة	قطعة من الخشب توضع في ظهر الباب من داخل الغرفة لضمان عدم فتح الباب من الغير (المزلاج).
الميزان	قطعة من الخشب تحفر من الوسط وتستعمل لغرض مرور المياه التي تتجمع على سطح البيت نتيجة الأمطار إلى خارجه(الميزاب أو المرزاب).

ملحق رقم (٢)

المفردات المتعلقة بمسميات أجزاء البيت

أجزاء البيت	الموقع في البيت
السفلي	غرفة في الدور الأرضي من البيت توضع فيها الماشية في أوقات المساء.
العلو	غرفة تقع في الدور العلوي وهي مجلس للضيوف.
الدكة	وهي مكان مرتفع نوعاً ما تقام أمام مدخل البيت يجلس فيه أفراد العائلة في أوقات راحتهم نهاراً.
الجرين	وهي الساحة الواقعة أمام البيت (الحوش).
السفلة	غرفة تقع في آخر ركن من البيت.
السرحة	غرفة تقع في الدور الأرضي تستعمل في فصل الشتاء.
الخارجة	وهي غرفة لها ثلاثة جدران في الدور العلوي ويبقى الجدار الرابع مفتوحا وتطل على الوادي وتكون مجلساً للضيوف في فصل الصيف.
القور	ويشمل جميع جدران البيت وهو عبارة عن حجرين متقابلين يوضع بينهما الدمك والطين.
المدماك	يطلق هذا المسمى على الجدار في العادة.
الداخلة	وهي غرفة تفتح على غرفة أخرى في البيت وتعتبر هي المستودع.
السك	طريق تربط بين إحدى الغرف العلوية والسفلية.
البداية	هي نافذة درفتين من الخشب يحيط بها أربعة أعمدة من الخشب كذلك.
الجون	وهو جدار دائري يحيط بسطح البيت بارتفاع متر تقريباً.
الشرفة	وهو نهاية الجرين من جهة الوادي (الحوش).
الكانون	مكان في وسط الغرفة الرئيسية للعائلة على شكل مربع يقام من الطين وتوقد فيه النار لطهي الطعام ولغرض التدفئة أيضاً.
حوض الرحى	وهو عبارة عن حوض دائري الشكل يبنى من الطين وتوضع الرحى في وسطه لكي يستقر فيه الطحين ويكون في إحدى الغرف.
الأذافي	وهي عبارة عن حجرين مستطيلي الشكل، وفي حجم واحد يستعملان لوضع قدر الطبخ عليه عند إعداد الطعام.
العشة	وهي أربع من الخشب تنصب في مكان قريب من البيت وتربط فيه البقر خلال النهار.
المذود	وهي خشبه كبيرة توضع في مقدمة العشة تربط بها البقر ويوضع فيها الطعام الخاص بها.

Consultants

Ages

P.O. Box 10720 Riyadh 11443 , Tel 4647531 – 4658523 , Fax 4657939 .
Email : marspub1@zajil.net

Web Site : http://alosour.netfirms.com
E-mail : al_Osour@hotmail.com

ANNUAL SUBSCRIPTION RATE :

- Saudi Arabia	S.R. 100
- All Arab Countries	U.S. $ 35
- All European Countries	U.S. $ 40
- U.S.A. & Canada	U.S. $ 45
- Australia & South Asia	U.S. $ 50

All MSS should be addressed to :
- Mars Publishing House,
P.O. Box : 10720, Riyadh 11443,
Saudi Arabia.
The Arabic Publishing & Distribution House Lts.
49 Goldhawk Road
London W12 8 QP
England

Ages

A Semal - annual Journal of Historical, Archaeological and Civilizational Studies

VOLUME	12
PART	2
JULY	2002
RABI' II	1423

Published by : Mars Publishing House London